لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي تبارك وعم

تأليف

أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة
أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر
GAFEQ for studies and publishing

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي تبارك وعم

العنوان: لطائف البيان في تفسير القرآن.

تفسير: جزئي تبارك وعم.

تأليف: أ.د. حسن بن محمد شبالة.

الصفحات: (٦٦١).

الطَّبعة: الأولى، ١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م.

النَّاشِر: غافق للدراسات والنشر.

رقم الإيداع: الهيئة العامة للكتاب بصنعاء برقم (١٢٦) ٢٠٢٤م.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.

النَّاشِر

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

اليمن - صنعاء

gafeq.s.p@gmail.com

+967 71 71 72 770

GAFEQ.S.P

782 16 12 14

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي تبارك وعمّ

تأليف

أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة
أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر
GAFEQ for studies and publishing


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فإن شرف العلم بشرف المعلوم، وإن الاشتغال بتدبر القرآن الكريم وتفسيره من أقرب القربات إلى رب الأرض والسموات، خاصة إذا صلح القصد، وخلصت النيات، **وقد يسّر الله لنا** إقامة مجموعة من الدروس في تفسير عدد من أجزاء القرآن الكريم خلال السنوات الماضية في مسجد الأنصار – جوار جامعة القلم، بمحافظة إب، اليمن.

وكانت تلك الدروس عبارة عن درس أسبوعي طوال العام بين مغرب وعشاء، ودرس يومي بعد العصر في شهر رمضان، ويتم تسجيل هذه الدروس، وتُنشر في وسائل التواصل، وقد نفع الله بها كثيراً.

وقد حرصت أثناء إلقاء هذه الدروس على تقريب المعنى للسامعين ممن يحضرون الدروس من طلبة العلم وعموم الناس، واقتصرت على ذكر الراجح من تفسير معاني الآيات، وحرصت على ربطها بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم غالبـًا، مع أخذ الدروس والعِبر منها بقدر الإمكان.

وقد اقترح عليّ بعض الأفاضل أن يتم تفريغها نصيـًا من قبل بعض الطلاب، وأن أقوم بمراجعتها وحذف ما لا يناسب النشر من كلمات وعبارات، وتوثيق بعض النصوص، وتخريج الأحاديث، ومن ثم نشرها مطبوعة في سلسلة كتب

ليسهل الاطلاع عليها لمن أراد الاستفادة منها، وسميته: **«لطائفُ البيان في تفسير القرآن»**.

وقد تم ولله الحمد إنجاز الكتاب الأول من السلسلة، والذي يحتوي على تفسير جزئي: (تبارك، وعمّ).

ويسرّني هنا أن أشكر الإخوة الذين ساهموا في تفريغ هذه الدروس وتوثيق نصوصها وراجعوها، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يكتب لهم الأجر والثواب.

كما أنبّه القرّاء الكرام إلى أننا نفتح صدورنا لملاحظاتهم على هذه الطبعة التجريبية، فهي لن تسلم من الأخطاء، رغم حرصنا على تجاوزها، لكن العمل البشري معرّض للخطأ.

وبإمكانهم التواصل معنا عبر الواتس: (00967733700559)، **أو الإيميل:** (Shabalh220@gmail.com).

نسأل الله تعالى أن ينفع بها الجميع، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا جميعاً، والله الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

إب الخضراء – اليمن

١ رمضان ١٤٤٥هـ

تفسير جزء تبارَك

تفسير سورة الملك

تفسير المقطع الأول من سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ
مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ
حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ
السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا
وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ
قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ
نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة الملك: سورة مكية، وآياتها ثلاثون آية[١]، **وقد ورد في فضلها عدة أحاديث، منها: "هي المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر"**[٢]**، وحديث:**

(١) وتسمى الواقية والمنجية، ينظر: تفسير القرطبي: (١٨/ ٢٠٥).

(٢) سنن الترمذي - ط دار إحياء التراث (٥/ ١٦٤)، برقم: (٢٨٩٠)، وإثبات عذاب القبر للبيهقي (ص: ٩٩)، برقم: (١٥٠)، وهو ضعيف يشهد له ما بعده.

"سورة تبارك؛ هي المانعة من عذاب القبر"(١)، **وحديث**: "إن سورة من القرآن ثلاثون آية، شفعت لرجلٍ حتى غُفر له، وهي سورة تبارك الذي بيده الملك"(٢)، **ومن أعظم مقاصد هذه السورة**؛ الحديث عن كمال مُلك الله، وكمال قدرته حتى يخشاه الناس، ويعبدوه ويحذروا من عقابه وبطشه.

وقد ابتدأت السورة بتعظيم الله تعالى وتقديسه، في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾، **أي**: تعاظم وتعالى وتقدس وتمجد، فقدّس نفسه، ومجد نفسه، وعظم نفسه، وتبارك من البركة، والبركة كثرة الخير ولزومُه، **والمعنى**: تعاظم الله مالك المُلك، وكثُر خيرُه ونزلت بركتُه إلى الخلق، ومعنى الملك هنا السيطرة والسلطة والهيمنة، فلا شيءٌ يخرجُ عن سيطرة الله وهيمنته وملكه، وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٖ قَدِيرٌ ۝١﴾، الضمير يعود على الله، فالله على كل شيءٍ قدير، ولا يُعجزُه شيء ولا يقف أمام قدرته شيء في الأرض ولا في السماء.

ثم وصف نفسه بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾، بدأ بذكر الموت لأثره على النفوس، فإن النفوس تتأثر بالموت، أو بدأ بالموت لأنه الأصل فإن الإنسان يكون عدمًا ثم يُحيى، والأشياء تكون معدومة ثُم توجد، **وقيل**(٣): إن الموت ليس هو العدم المطلق وإنما هو انفكاك وانتقال الروح عن الجسد؛ فحينما يموت الحي تذهب روحُه في مكان ويذهب جسدُه في مكان، فإذا انتقل

(١) مستدرك الحاكم (٢/ ٤٩٨)، وصححه الألباني، في صحيح الجامع، برقم: (٣٦٤٣).

(٢) سنن أبي داود، برقم: (١٤٠٠)، الترمذي، ت بشار: (٥/ ١٤)، برقم: (٢٨٩١)، **وقال**: هذا حديث حسن.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي: (١٨/ ٢٠٦).

إلى البرزخ رجعت الروح إلى الجسد، وصارت الحياة البرزخية الأولى، ثم إذا جاء البعث كانت الحياة بالروح والجسد معًا في الآخرة، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾، **اللام** هنا لام التعليل والحكمة من خلْق الموت والحياة، وهي الابتلاء، وهو الاختبار، حيث يختبر المكلفين، وهم الإنس والجن، فانتقل الخطاب من إيجاد الحياة المطلقة في الخلق كله إلى مخاطبة المكلف منهم، والإنس والجن تبع لهم.

وقوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، لننظر من يكون منكم أتقن عملاً في هذه الحياة، **ولم يقل:** أكثر عملًا؛ لأن الكثرة بدون إتقان لا فائدة منها، والعمل الحسن المتقن **لا بدَّ أن يجتمع فيه شرطان، وهما:** الإخلاص لله تعالى في العمل، ومتابعة النبي ﷺ في ذلك العمل، أي يعبد الله على وفق ما شرعه الله على لسان رسوله ﷺ.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾، هذان اسمان من أسماء الله يذكرُهما الله تعالى في خواتم بعض الآيات من أجل أن يُعرّف خلقه على بعض أسمائه وصفاته من جهة، ومن جهة أخرى هناك علاقة بين مدلول الاسم وما تتضمنه الآية من مفهوم، وإذا جمع بين اسمين؛ فلحكمة ثالثة في ذلك الجمع، وهي هنا: أن الخلق والإيجاد يحتاج إلى عزة وقوة ومنَعة وعظمة، فيناسب معها اسم العزيز، وصفات العباد الناقصة التي فيها الخطأ والذنب والتقصير، يُناسب معها اسم الغفور الذي يغفر لعباده ما وقعوا فيه من ذنبٍ وتقصير.

ثم وصف نفسه أيضًا بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾، أخبر عن نفسه أنه الخالق لسبع سموات، كل سماء فوق سماء، وبين كل سماء وسماء فراغ،

ورد تقديره في بعض الآثار بمسيرة خمسمائة سنة(١)، فالسماء الأولى طبقة، والسماء الثانية طبقة، والسماء الثالثة طبقة، وهكذا، **وقوله**: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾، الخطاب موجه لكل راءٍ، وخلق الرحمن المقصود به الخلق المطلق، ولكن السياق هنا عن السماء، **فالمعنى**: إذا نظرت إلى السماء فهل تجد فيها اضطرابًا أو اختلافًا أو خللاً؟! والجواب: لا تجد فيها ذلك، بل تجدها منتظمة سليمة، وقوله: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾، **أي**: كرر النظر إلى السماء؛ لأنه من نظرة واحدة قد لا تكتشف الخلل، وفي هذا إشارة إلى أن من يريد أن يُدقق في شيء أن يُعيد النظر فيه مرة واثنتين وثلاثًا؛ حتى يكتشف الخلل، والفطور، هو: الخروق أو الشقوق، فهل تجد خرقًا أو شقًا في السماء؟!!، بل تجدها سليمة لا عيب فيها ولا خلل.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾، أي: كرر النظر ودققه في السماء مرتين، وليس المقصود هذا العدد بعينه، وإنما المقصود هنا به مرات كثيرة، **والمعنى**: أكثر من النظر في السماء والتأمل فيها فإنك لن تجد فيها خللًا ولا نقصًا ولا اضطرابًا ولا شقوقًا، بل سيرجع بصرُك بعد النظر في السماء مرارًا وتكرارًا كليلًا، أي: لم يجد شيئًا ناقصًا، حال كونه ذليلًا، وهو كليل، لأن خلق الله متقَن لا عيب فيه ولا خلل، ففي الآيات الأولى أظهر كمال خلق السماء، وإتقان الله لها.

---

(١) سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٤٠٤)، برقم: (٣٢٩٨)، والرد على الجهمية، للدارمي (ص: ٥٥)، برقم: ٨١.

وفي الآيات الآتية حدثنا عن جمال السماء، لأنه خلق الله؛ جمع بين الإتقان والجمال، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾، السماء الدنيا هي الطبقة الأولى من جهة الأرض، ولذلك سماها الدنيا أي: القريبة من الخلق الذين يسكنون على الأرض، وقد زينها الله بمصابيح، وهي الكواكب، وسمى الكواكب مصابيح؛ لأنها تُضيء من الشمس، فضوؤها ليس منها، بل تعكس ضوء الشمس وتُضيء في الليل بعد غروب الشمس، ولذلك لو نظرت في السماء نهاراً؛ فلن تجد ضوءً للكواكب؛ لأن الشمس موجودة وضوؤها أشد وأقوى؛ فيطمس نور هذه المصابيح، وهل هذه الكواكب داخل السماء، أم خارج السماء؟ **على قولين لأهل العلم**[1]، **فأصحاب الفلك يقولون**: هي خارج السماء أو فوق السماء ولأن وصف السماء شفاف فالمصباح يظهر كأنه داخل السماء ولو كان فوقها، **والقول الآخر**: أنها داخل السماء، ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ الضمير يعود إلى أقرب مذكور، قاعدة في اللغة، أقرب مذكور وهي المصابيح، وهل تُرجم الشياطين بالكواكب الموجودة في أفلاكها الذي تسير فيه، فالفلَك في اللغة هو الشيء الدائري[2]، فالفلَك هنا الذي تسير فيه الكواكب وتعود إلى مكانها ولا تخرج عن إطارها، كما قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس:٤٠]، فهي إذن باقية في أماكنها،؟!! **الجواب**: ليس معنى رجم الشياطين هو أنهم يرمون بأجرام الكواكب، بل يجوز أن ينفصل من الكواكب شعل ترمى

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٠/ ٥٨٤).

(٢) ينظر: المعجم الوسيط (٢/ ٧٠١).

الشياطين بها، وتلك الشعل هي الشهب، وما ذاك إلا قبس يؤخذ من نار والنار باقية(١)، **والمعنى**: جعلنا شهُبًا من هذه النجوم تُتابع الشياطين، إذا استرقوا السمع، فتُحرقُهم، وهذا ما تشاهدونه أحيانًا في السماء.

ثم قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾، الضمير عائد على الشياطين وقد جمع لهم بين عذابين: عذاب الدنيا الاحتراق بالشهب إذا حاولوا يسترقون السمع من السماء، **كما في قوله**: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[الجن:٩]، وفي الآخرة توعدهم بعذاب السعير، وهو عذاب جهنم، وسمى عذاب جهنم سعيرًا؛ لأنه لا ينطفئ، بل يستمر مشتعلاً.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾، الواو حرف عطف، واللام للمشاركة، أي: أن عذاب السعير ليس خاصًا بالشياطين، بل سيشترك فيه الذين كفروا بربهم، أولئك الشياطين بسبب كفرهم وشطنهم عن الحق واتباع الصراط المستقيم يُحرقون في نار الدنيا بالشهب وفي الآخرة في السعير، ويُشاركهم في عذاب جهنم وعذاب السعير الذين كفروا بربهم، وعبّر بالرب ليُشعرهم بقبح ذنبهم، فكيف تكفر بالله تعالى الذي خلقك ورباك؟!، والأصل أن تكون عابدًا له مطيعًا لأمره، وعذاب جهنم هو عذاب السعير، ولكنه نوّع في اسم جهنم من أجل تهويلها، فالعرب إذا أرادوا أن يُهولوا ويُعظموا شيئًا ذكروا له عدة أسماء، كالسيف، والأسد، ونحوها، وكذلك تنوعت أسماء يوم القيامة، وأسماء جهنم من أجل تعظيمها وتهويلها في نفوس الناس لعلهم يخافون منها فيستعدون لها.

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٠/ ٥٨٣).

وقوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٦﴾، **أي:** بئس المرجِع والمكان والمأوى الذي سيرجع الكفار إليه، وهو جهنم.

ثم بيّن حال هؤلاء الكفار في جهنم، فقال: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾، إذا هنا ظرفية شرطية، معنى ظرفية **أي:** أنها تكون ظرف زمان أو ظرف مكان، وشرطية، **أي:** لا بد لها من جواب الشرط، وهي هنا ظرف زمان، أي: حين الإلقاء، أو وقت الإلقاء، والإلقاء هو: الرمي للشيء بدون احترام، مما يدل على احتقارهم وأُلقوا: فعل مبني للمجهول، حُذف فاعلُه للتعظيم، وإن كان الذين يُلقون بالكفار في جهنم هم ملائكة العذاب، **كما قال:** ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾[الرحمن:٤١]، حيث تأخذهم الملائكة الشداد الغلاظ وترميهم في جهنم؛ لأن الشخص حينما يرى جهنم وسعيرها يهرب منها، ولا يدخلها بنفسه، فيُدفع إليها دفعًا، بخلاف الجنة، فإنه يفرح، ويجري إليها جريًا!!، **والشهيق في اللغة**(١): ضد الزفير، فالشهيق رد النفس، والزفير إخراجه، **وقيل**(٢): الشَّهيق لجهنم عند إلقاء الكُفار فيها كشهيق البغلةِ للشعير، وهو ما تسمعه من الحيوان حينما يُقدم له الطعام من صوت قبل أن يأكل، كأنه صوت فرح بما أعطيته، فجهنم يحصل لها ما يحصل لهذا الحيوان الذي يفرح بطعامه، فهذا الشهيق هو الصوت المتلهف لأجساد أهل النار التي تُحرقها، نسأل الله السلامة والعافية.

وقوله: ﴿وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾، **أي:** تغلي، كالقدر الذي يغلي بالماء الذي فيه إذا اشتدت الحرارة.

---

(١) ينظر: العين: (٣/ ٣٦١).

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: (١٩/ ٢٣٧).

ثم قال: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، يكاد ينفصل بعضُها عن بعض من شدة غضبها وحنقها على الكفار، وهو كناية عن شدة الغضب، ثم **قال:** ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨﴾، كلما دفعت الملائكة منهم مجموعة إلى النار، الفوج: الجماعة من الناس، يُبكّتُهم خزنة جهنم من الملائكة بالسؤال، فيقولون لهم: ما جاءكم رسول؟ ما بلّغكم الله تعالى أن هناك جنة وأن هناك ناراً، وأن الله أعد النار للمكذبين؟! وهذا من إظهار عدل الله على خلقه، فالملائكة خزنة جهنم تريد أن تسمع الجواب من الكافر المُلقى في جهنم، **فأجابوا:** ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾، قالوا: نعم، ولكن لم نؤمن ولم نُصدِّق به، وهذا من عدل الله تعالى، **كما قال:** ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ١٥﴾[الإسراء:١٥]، فما دام النذير قد جاء البشير وبُلِّغ الناس فكفروا؛ فإنهم يستحقون العُقوبة.

وقوله: ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ٩﴾، واعترفوا أنهم أقلوا أدبهم على الرسل، وقالوا لهم: أنتم كذابون، فالله ما أرسل رسلًا، وما أنزل كتبًا، بل أنتم تفترون على الله، وأنتم بعيدون عن الحق الصواب.

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾، وبعد أن دخلوا جهنم رجعوا إلى أنفسهم يقولون لها، **أو يقول بعضُهم لبعض:** لو كنا في الدنيا نسمع سماعًا ينفعنا نفهم ونتدبر ما أنزل الله إلينا، فهم يعترفون أن عقولهم لم تكن عقولًا سليمة، ولم يكونوا يستخدمون سمعهم بطريقة صحيحة، ولا تظنوا أنهم مجانين أو أنهم صُم، لا، فلو كانوا مجانين لكانوا غير مكلفين، بل المقصود أنهم ما استخدموا عقولهم في طاعة الله، ولا البحث عن هداية الله، ولا استخدموا

أسماعهم في الوصول إلى الحق مثلهم مثل الحمير والبغال والحيوانات التي تسمع لكن لا تفهم، فلو قرأت قرآنًا على حمار فإنه لا يفهم ما فيه من أحكام، فهل معناه أن الحمار لا يسمع؟ لا، هو يسمع، ولكن سمعُه خاص بأكله وشربه وحياته، وليس سمع تكليف، فالكفار شابهوا الحيوانات في هذا النوع من السمع، كما قال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[الأعراف:١٧٩]، فهل ينفعهم هذا الاعتراف؟، الجواب: لا، وإنما هذا يُفيد في بيان عدل الله، وأن الله لم يُعذب أحدًا بدون حق.

وقوله: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾، هذا التعقيب من الله، والكلام الأول من كلامهم، والتعقيب يبين أن الاعتراف في غير وقته لا ينفع، والندم في غير وقته لا ينفع، قبل أن تبلغ الروح الحلقوم، وقبل أن تطلع الشمس من مغربها، أما أن تعترف بعد أن تموت، فالآخرة دار جزاء، لا دار عمل، وسحقا، أي: بُعدًا لهم عن رحمة الله، وبُعدًا لهم عن الجنة، وبُعدًا لهم عن النجاة، وأطلق عليهم أصحاب السعير؛ لأنهم سيُلازمونها ولن يخرجوا منها، ولا يُسمى الصاحب صاحبًا إلا إذا كان مُلازمًا لصاحبه.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من البعيدين عن النار، القريبين من الجنة الذين وفقهم الله للأعمال الصالحة فتاب عليهم وغفر لهم وأدخلهم في جناته جنات النعيم إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، والحمد لله رب العالمين.

تفسير المقطع الثاني من سورة الملك

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ
عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن
يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ
فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ
فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

بعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة مصير الكفار وأنهم أصحاب السعير، ذكر بالمقابل مصير المؤمنين وأنهم في الجنات، وهذا من أسلوب القرآن المتكرر أنه إذا حدثنا عن النار وأهلها لا بد أن يُردف الحديث عن الجنة وأهلها؛ حتى يتبين الفريقان ويتضح الطريقان.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾، هذا إخبارٌ عن وصف من يستحقون الجنة، وهم الذين يخشون الله، **أي:** يخافونه مع تعظيمٍ له، فإن الخشية خوف مع تعظيم(١)، والخشية أبلغ من الخوف، فإذا كنت تُعظم من

---

(١) ينظر: تاج العروس (٣٧/ ٥٥٠).

تخافُه فهذه خشية، ولذا غالبًا تُطلق على الله لأن الله مُعظم في النفوس، ويمكن أن تخاف شخصًا وتُعظمُه، **فيصح أن يُقال**: أنك تخشاه، **مثلًا أن تقول**: أخشى من غضب أبي مثلًا، لأنك تُعظم والدك، وفي نفس الوقت تخاف منه، **ولكن لا يصلح أن تقول**: أخشى من الكلب!، لعدم توفر التعظيم له، **وإنما قل**: أخاف من الكلب، وذكر هنا لفظ الرب من أجل استشعار الرعاية والعناية، فإن الرب معناه المربي الذي يُربي خلقه ويرعاهم، ولفظ الغيب هنا له معنيان: الأول: يخشون ربهم في خلواتهم وإذا غابوا عن أعين الناس، وهذا أَلْيَق بالمعنى هنا، وهذا أَدْعى للإخلاص؛ لأن الذي يخشى ربه أمام الناس احتمال يكون مرائيًا، من أجل أن يقول الناس عنه إنه رجلٌ صالح، أما إذا كان وحده وخشي ربه تعالى، فهذا دليل على كمال إيمانه، **وقد ذكر النبي ﷺ** في الحديث السبعة الذين يُضلهم يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، **ومنهم**: **"ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه"**[(١)] أي: بكى من خشية الله تعالى، وهذا هو الوصف التام لمن يستحق الجنة، **والمعنى الثاني**: أنهم يخشون ربهم مع أنهم لا يرونه، أي: ارتقوا بحالهم إلى مرتبة الإحسان، وهي أعلى مراتب الدين، وهي: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، كما في الحديث[(٢)]، **أي**: عبدوا الله بمرتبة المشاهدة، أو مرتبة المراقبة، ولا تعارض بين المعنين.

وقوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾، المغفرةُ هي أن يُغطي الله سيئاتِهم،

---

(١) صحيح البخاري (١/ ١٣٣)، برقم: (٦٦٠)، صحيح مسلم (٢/ ٧١٥)، برقم:(١٠٣١).

(٢) صحيح البخاري: (١/ ١٩)، برقم: (٥٠)، وصحيح مسلم: (١/ ٣٩)، برقم: (٩).

بمعنى لا يُظهرها، مأخوذة من الغَفْر، وهو التغطية، **ومنه:** المِغفر وهو الخوذة التي تُوضع فوق الرأس فتُغطي الجمجمة حتى تُحافظ عليها[1]، والأجر الكبير، هو الجنة، فغفر ذنوبهم حتى لا يُعيَّروا بها، ومنحهم أجرًا عظيمًا، وهو دخول الجنة، نسأل الله من فضله.

ثم قال الله تعالى موجهًا الخطاب لعموم الناس: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾، **أي:** إن أسررتم أو أعلنتم فهذا كله عند الله سواء، فالسر عنده علانية سبحانه، فهو يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، وذات الصدور هي الخواطر والوساوس التي تدور في نفسك دون أن تتحدث بها ولا يعلمها من بجوارك، وسُميت الخواطر بذات الصدور لأنها تلزم الصدر ولا تخرج منه، فإن خرجت لم تعُد وساوس ولا خواطر، وهذه الوساوس والخواطر معفو عنها من الله، كما في الحديث: "**إن الله تجاوز عن أُمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل**"[2]، **وهذا التعقيب** هو تعليل للعبارة الأولى، أي: اجهروا أو أسروا فالنتيجة عند الله واحدة، فالله مُطّلع عليكم، وفيه إرشاد للناس أن لا تُسروا شيئًا يُغضب الله، ولا تجهروا بشيءٍ يُغضب الله، بل أسروا شيئًا طيبًا، واجهروا بشيءٍ طيب.

وقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٤﴾، الاستفهام إنكاري، **أي:** إن الذي خلق هو الذي يعلم بأحوال خلقه، ويعلم بتفاصيل إسرار وجهر الخلق،

(١) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٧٧٠).

(٢) صحيح البخاري: (٣/ ١٤٥)، برقم:(٢٥٢٨)، وصحيح مسلم (١/ ١١٦)، برقم:(١٢٧).

ولا تخفَى عليه خافية، وهو الله، اللطيف الخبير، وأصل اللطف دقة النظر في الأشياء[١]، أي: الذي يعلم دقائق الأشياء، ولذا يُقال للشيء الدقيق الخفيف: لطيفٌ، **والخبير**: العالم بكنه الشيء، المطلع على حقيقته[٢]، ما الحكمة من ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين؟! لمّا أخبرنا أنه يعلم حال الخلق، بيّن لنا بهذين الاسمين أن علمُه ليس إجمالياً وإنما علمُه تفصيلي بدقائق الأمور وخفاياها، وكنه الأشياء، لطيف عالم بدقائق الأمور، وخبير أي: لا يفوتُه شيء من ذلك، فهو يعلمُ خلايا النفوس، ويعلم وظائفها وأوزانها، وإذا كان يعلم هذه الدقائق ألا يعلم ما نطق به الخلق وما أسروا به؟!!، لا شك ولا ريب، إنه عليم بذات الصدور، وهو اللطيف الخبير.

ثم جاءت الآيات التي تليها لتحدثنا عن نعم الله العظيمة التي أوجدها من أجلنا، **فقال تعالى**: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، هذا إخبار بنعم الله على خلقه على سبيل الامتنان، أي: صيّر لكم الأرض مذلّلة، فجعل العيش عليها سهلًا، وجعل الحركة فيها سهلة، وجعلها مستقرة، وجعل فيها الهواء والأكسجين والماء وسائر ما يُؤدي إلى أن تكون صالحة للحياة، بخلاف غيرها من الكواكب، فاليوم العلماء الذين يصعدون في المركبات الفضائية إلى القمر أو المريخ أو المشتري لا يجدون فيها معنى التذليل، فليست صالحة للحياة عليها، أما هذه الأرض فقد ذللها الله، فالناس يعيشون عليها ملايين السنين.

---

(١) ينظر: تفسير البغوي – طيبة (٣/ ١٧٤).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٦٣).

وقولـه: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي: فاسعوا في أرجائها وجوانبها وساهموا في عمارتها وإحيائها، والبحث عن خباياها واستخراج كنوزها، وخذوا بالأسباب الموصلة إلى تحصيل أرزاقكم.

وقوله: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾، فالرزق من الله وليس من الأرض، **كما قال:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾[الذاريات:٥٨]، ولكنه يمنحه لمن أخذ بالأسباب، فطلب منا أمرين: التوكل على الله، وطلب الرزق من الله، والأخذ بالأسباب، فإن السماء لا تُمطر ذهبًا ولا فضة، فلا تجلس في المسجد وتقول: يا رب أريد كذا وكذا، فالدعاء مطلوب، لكن مع الأخذ بالسبب، فإن ترك الأخذ بالسبب خدش في شريعة الله تعالى، فالشريعة تجمع بينهما، وانظروا إلى الناس البطالين الكُسالى العاطلين الفقراء الذين يشكون من الفقر المدقع، فجزء كبير من أسباب فقرهم هو كسلهم وعدم أخذهم بالأسباب، **وفي الحديث:** **"لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خِماصًا وتروح بِطانًا"**[(١)]، فماذا تعمل الطير حتى يأتيها رزقها؟، تبكر في الصباح تبحث عن رزقها وبطونها ملتصقة من الجوع، ثم تعود في المساء وقد انتفخت بطونها من الأكل!، فهلا تحركت مثلما تتحرك الطير وغدوت مبكرًا مثلها، وتوكلت على الله، والله تعالى سيرزقك، فإن الله خلق الخلق وتكفل برزقهم، ولكن بعض الناس ينتظر رزقه دون سبب، أو أسلوب محتقَر من الشحاتة والسؤال!!

---

(١) مسند أحمد: (١/ ٣٣٢)، برقم: (٢٠٥)، وسنن الترمذي: (٤/ ١٥١)، برقم: (٢٣٤٤)، وصحيح ابن حبان: (٢/ ٥٠٩)، برقم: (٧٣٠)، وإسناده صحيح.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾، نبههم إلى أن هذه الأرض ليست مُستقرًا لكم، وإنما مرجعُكم إلى الله، إذًا فلا تشغلوا أنفسكم بطلب الرزق عن الآخرة، ولا تجعلوا الدنيا أكبر همكم، فالدنيا مزرعة للآخرة، بل استعدوا للقاء الله فإنكم إليه راجعون ومحشورون!!.

ثم قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾، الهمزة للاستفهام، هل أمنتم، ومن في السماء هو الله تعالى، فإنه على العرش استوى، وليس معنى مَن في السماء أن الله داخل السماء، فالله بائن عن خلقه ومستوٍ على عرشه، فالسموات السبع طباقًا كما سبق، وفوقها عرش الرحمن، ثم الله فوق العرش، فهو في جهة العلو سبحانه، وهذا الذي تدل عليه الفِطرة؛ فإذا أردت أن تدعو الله فجأة ترفع يديك، لأن فطرتك تدلك أن الله جهة العلو، ويخسِف بمعنى يهز ويزلزل الأرض ويشقها من تحتكم، فإذا هي تتحرك وتضطرب، كما سمعتم قبل أيام الزلزال الذي حصل في تركيا، مدته تقريبًا ثلاثٌ وخمسون ثانية ولم يكمل الدقيقة، وكانت قوته حوالي ثماني درجات، بالمقاس الخاص بالزلازل، أي هزة بسيطة أسقطت مئات المباني ومات الآلاف من الخلق، فكيف لو حصل اضطراب وزلزلة للأرض؟! فإذا اضطربت الأرض لم تعد ذلولًا، ولم تعد محلًا للاستقرار والعيش عليها، وإنما تتدافنون فيها وتحت أنقاضها!!، فهذا التهديد الأول: أما تخافون بسبب بعدكم عن الله وكفركم به وإعراضكم عن دينه أن يُعاقبكم بالخسف.

ثم ذكر التهديد الثاني، فقال: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾،

وهل أمنتم الله الذي في السماء أن يرسل عليكم حاصبًا، وهو حجارة من السماء يرجمكم بها، كما حصل لقوم لوط، أو أن يُرسل عليكم ريحًا شديدة عاصفة تحمل الحصباء معها، فتهلككم، كما حصل لقوم عاد، وهو نوع من التهديد لمن يستمع إلى هذه الآيات فينتبه لنفسه.

وقوله: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾، **أي:** عند نزول العذاب بكم؛ يصير العلم بإنذاري لكم حقيقة ماثلة أمامكم، وليس مجرد معلومة، بل هو إنذار وبعده يقع عذاب.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨﴾، ولقد حصل التكذيب من الأمم السابقة لهم، فكيف كان عاقبة نكيري عليهم؟!، لقد عاقبهم وأهلكهم الله!!.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَ﴾، **أي:** هلاّ نظر هؤلاء الكفار وتأملوا في كيفية طيران الطيور في السماء، وهي فاردة أجنحتها، وهي تطير، وعبّر بالاسم (صافات)؛ لأنه دليل على الدوام وهو الأصل، فكل طائر لا بد يفرد جناحيه، أما القبض فهو مُؤقت، ولذلك عبر بالفعل (ويقبضن)، أي: أحيانًا، وهذا من الإعجاز العلمي في باب علم الطيور، فإن الطير يتعب من الطيران فيرتاح بإعادة جناحه إلى جسمه لحظات ثم يفرده، وفرد الجناح وقبضه يمنح الطائر مزيداً من القوة على الطيران، **ثم عقب على ذلك بقوله:** ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وهذا هو بيتُ القصيد من التأمل في طيران الطيور في السماء، فالذي أمسك الطير تطير في السماء ولم تسقط، هو الله تعالى، وهذا دليل على

قدرته جل وعلا، وعبّر بالرحمن؛ ليشعرنا أن هذا الإمساك أثر من آثار رحمته سبحانه على الطير، فكيف يرحم الطير ولا يرحمنا؟!.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾، **أي:** عليم بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، فقد علم حال الطير وهي غير مكلفة، وهي تطير وتفرد جناحها وحين تضمه، وأمسكها فلم تسقط، فكيف لا يعلم أحوال المكلفين ويرصد أعمالهم؟!.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، والحمد لله رب العالمين.

تفسير المقطع الثالث من سورة الملك

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى
يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى
سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا
تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ
رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، الخطاب هنا موجه لكفار قريش الذين كانوا يُكذبون بالله تعالى وبرسوله ﷺ، وهو خطاب يشمل الخلق كلهم، سائلاً لهم سؤالاً استنكاريًا، من هم الجنود الذين ينصرونهم من دون الله؟!، **والجواب**: لا يستطيع أحدٌ أن يقف أمام قوة الله، ولا يوجد جندٌ في الأرض يغلبون جند الله تعالى، مهما عظُم وصفه!!، وأتى هنا باسم الرحمن؛ ليشعرهم بأن تأخير العذاب عن الكفار وتأجيل العقوبة عنهم،

أثر من آثار رحمته سبحانه بهم، ولو عجّل الله للناس العذاب بسبب ذنوبهم؛ ما ترك على ظهرها من دابة، ولكنه يُمهلهم لعلهم يتوبون منها.

وقوله: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ إنْ هنا بمعنى ما النافية، **أي**: إن الكافرين مخدوعون مغرورون بتزيين الشيطان لهم هذا التكذيب، ولن يفيقوا من غرورهم وتكذيبهم وانخداعهم إلا حينما يأتيهم العذاب.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾، من هو الذي يرزقكم غير الله، لو منع الله رزقه عن الخلق؟! وهو سؤال استنكاري، والجواب: لا أحد يرزق غير الله، ولما استطاع أحدٌ أن يرزق الخلق، فالله هو الرزاق، والرزق بيد الله، **وقد ذكر بعضُ المفسرين**(١) أن المقصود بالرزق هنا المطر، لكن اللفظ عام يشمل كل أنواع الرزق من المال والصحة والأمن والذرية، ونحوها، ومنه المطر، وهو صورة من صور الرزق، فإن الله ينزل الأمطار فتُزرع الأرض، وينبت الزرع، ويخرج أقواتهم، فلو منع الله تعالى رزقه عن الخلق فمن يقوم برزق الخلق؟ لا أحد، فهو الذي بيده خزائن كل شيء، ثم عقّب على هذا، **بقوله:** ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾، **أي**: أنهم تمادوا في التكبر والعناد، واستمروا في الكفر والاستكبار، وابتعدوا وامتنعوا عن قَبول الحق، **كما قال تعالى عنهم:** ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾[المدثر: ٥٠-٥١]، ينفرون عن التوحيد والإيمان بالرسل وقَبول الحق، كما تنفر الحمير إذا رأت الأسد.!!

---

(١) ينظر: تفسير الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: (٤/ ٣٢١).

ثـم قــال تعــالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ٢٢﴾، وهو مثالٌ ضربه الله لبيان حال الكافر وحال المؤمن، **وملخص هذا المثال: قارن بين شخصين، أحدهما:** يمشي على وجهه أي: واقعًا عليه، فإن الانكباب هو السقوط على الأرض(١)، **والآخر:** يمشي واقفًا مستقيمًا، **أو قارن بين شخصين، أحدهما:** مُبصر يرى الطريق، فيمشي فيها بسهولة ويضع قدمه حيثُ يشاء، ويعرف مكان الخلل والأمان من الطريق، **والآخر:** أعمى(٢)، لا يعرف الطريق ويتخبط فيها، وهل هذا المثال حقيقي أم مجازي؟ وفي الدنيا يكون مجازيًا، أي: أنه مثلٌ الله يشبه حال المؤمن والكافر في قبول الحق ورده، وفي الآخرة يكون المثال حقيقيًا، أي: أن الله يوم القيامة يجعل الكافر يمشي على وجهه إلى النار، **وفي حديث معاذ: "وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يُكب الناس على مناخرهم أو قال: على وجوههم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم"**(٣)، **وقد سُئل رسول الله ﷺ** كيف يمشون على وجوههم؟ فقال: **"إن الذي أمشاهم على أرجلهم قادرٌ على أن يُمشيهم على وجوههم"**(٤)، وفي الآية إشارة إلى أهمية التخطيط للأعمال والبرامج والمشاريع، فخطِّط أيها المؤمن

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٣١٤).

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٠/ ٥٩٤).

(٣) مسند أحمد: (٣٦/ ٣٤٤)، برقم: ٢٢٠١٦، وسنن ابن ماجه: (٢/ ١٣١٤)، برقم: ٣٩٧٣، وسنن الترمذي: (٥/ ١١)، برقم: ٢٦١٦، وقال حسن صحيح.

(٤) مسند أحمد: (١٤/ ٢٨٨)، برقم: ٨٦٤٧، وسنن الترمذي: (٥/ ٣٠٥)، برقم: ٣١٤٢، والسنن الكبرى للنسائي: (١٠/ ٢٠٤)، برقم: ١١٣٠٣، وإسناده صحيح.

واعرف ماذا ستفعل قبل أن تفعل، فالذي يعمل ويشتغل بدون تخطيط؛ كالذي يمشي على وجهه، بينما الذي يُخطط للأمر ويدرسه من جميع جوانبه، ويضع له خطة، فهو يعمل على علم ومعرفة، وهي دعوة إلى ترك الفوضى والارتجال في كل أعمالنا الدينية والدنيوية، ففي ذلك النجاح، بإذن الله، والتخطيط: هو الإجابة على سؤال: أين أنا الآن، وأين سأكون في المستقبل؟، أو هو خط مستقيم بين نقطة الحال ونقطة المستقبل، أو نقطة الانطلاق ونقطة الوصول، والخط مستقيم هو الوسائل والأساليب الصحيحة التي من خلالها أنفذ عملي ومشروعي بطريقة صحيحة، وهذا الأمر مهم ينبغي أن يأخذ به طلبة العلم والدعاة وعموم المسلمين؛ لأن الإسلام دين النظام وليس دين الفوضى والارتجال، والذي يعمل مرتجلًا يُخطئ كثيرًا.!!

ثم قال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾، قل يا محمد، للكفار المكذبين بك: إن الله سبحانه وتعالى هو أوجدكم بعد أن لم تكونوا شيئًا، فالله خلق آدم من التراب، ثم بعد ذلك صار الخلق يتناسلون ويخرجون إلى هذه الحياة من النطفة، وذكر لنا على سبيل الامتنان بعض النعم التي أوجدها فينا، ولم يُوجدها في الحيوانات، وليس بها آلة السمع التي هي الأذن، أو آلة البصر التي هي العين، أو آلة ضخ الدماء التي هي القلوب، بل المقصود بها الكيفية والطريقة التي تستخدم بها هذه الآلات لمعرفة الحق، فنسمع ونستوعب ونفهم، ونُبصر الحق من الباطل، و نفكر ونتأمل بالعقول والأفئدة الحق، وإلا آلة السمع والبصر عند الحيوانات أقوى من آلة السمع والبصر عندنا،

وقلوبها أكبر من قلوبنا، ولكن ليس فيها خاصية الفهم والاستيعاب التي يقوم به قلب وعين وسمع المُكلّف فيعرف بها الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمنحها الله للمكلفين لمعرفة الحق من الباطل.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾، أي: قليلٌ منكم الشاكرون، كما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[سبأ:١٣]، وغير الشاكرين كثير، أو قليلٌ شكركم لله إن فعلتم.

ثم قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾، وقل لهم يا محمد أيضاً: إن الله هو الذي بثكم في الأرض، **كما قال:** ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف:٤٥]، **أي:** تبُثّه وتفرقه، فأنتم موجودون في سهولها وجبالها، وأطرافها ووسطها، وما من بقعة من بُقع الأرض إلا وفيه خلق من البشر، والأرض ليست مكانًا للاستقرار، وإنما يعيش الخلق فيها فترة مُعينة، ثم يموتون، وإلى الله يجمعون ويرجعون إليه، وبين لفظي: ذرأكم وتحشرون تقابل، فهو الذي بثكم وفرقكم في الأرض في الدنيا، وهو القادر على جمعكم وحشركم إليه في الآخرة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾، عبّر هنا بالفعل المضارع الذي يدل على الاستمرار، فعادت المشركين المكذبين -سواءً كفار قريش أو غيرهم من المكذبين للرسل السابقين- كثرة السؤال عن البعث، وعن الساعة، والسؤال منهم ليس سؤال استفهام، بل سؤال استهزاء، وتعجيز، واستنكار، فهم لا يُؤمنون بالبعث والنشور، وربطوا صدق الرسل بإخبارهم بموعد الساعة، وهذا ربطٌ باطل، لا علاقة بموعد البعث والنشور أو مجيء الساعة بصدق الرسول من كذبه، لأن الرسول لا يعلم الغيب، فقولهم: إن

أخبرتنا متى الساعة فأنت صادق وإن لم تُخبرنا فأنت كاذب؛ تحكُّم في السؤال، ونوعٌ من التعجيز.

فقال الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾، أي: قل لهم يا محمد، إن علم مجيء الساعة ليس بيدي، فلا أعلمُ الغيب، فهذا مما اختص الله تعالى بعلمه، كما قال: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام:٥٩]، ومنها علم الساعة، فلا تسألوني عن شيء لا أعلمه، فقد أرسلني الله لأجل أن أنذركم البعث، والنشور، والجنة والنار، وأدعوكم إلى الإيمان، وأبيّن لكم ذلك، فهي مهمتي إليكم، كما قال: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[النور:٥٤].

ثم بعد هذا الحوار نقلهم الله تعالى من الدنيا إلى الآخرة، فقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾، أي: فإذا جاءت الساعة، وبُعث الناس، ورأى هؤلاء الكفار العذاب الذي كان يعدُهم به الرسل بأعينهم، وقد اقترب منهم؛ ظهر السوء على وجوههم، حيث تُصاب وجوههم بالقترة والسواد، من شدة الرعب والخوف، ويُصبح منظرها سيّئًا، ويقول لهم قائلٌ، قد يكون القائل هو: الله[1]، وقد يكون خزنة جهنم من الملائكة[2]، وحُذف تهويلاً وتعظيمًا له، أي: هذا البعث والنشور، وهذا العذاب، الذي كنتم به تدعون في الدنيا، و﴿تَدَّعُونَ﴾، فيها قراءتان[3]:

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٥١٨).

(٢) ينظر: التفسير البسيط: (٢٢/ ٦٢).

(٣) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٥١٩).

بالتشديد من الادعاء، أي: كنتم تدّعون أن محمدًا كاذب في قوله، **والتخفيف** من الدعاء، أي: كنتم تدعون به على أنفسكم على سبيل الاستبعاد، كما قال: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾[المعارج:١]، وعلى كلا المعنيين، هو نوع من التقرير والتبكيت، أي: فقد رأيتم العذاب بأعينكم، سواءً كذّبتم به، أو دعوتم به في الدنيا على سبيل الاستبعاد.!!

ثم قال سبحانه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا﴾، قل يا محمد، لهؤلاء المكذبين من الكفار الذين كانوا ينتظرون هلاكك، قل لهم: لو أهلكني الله والمؤمنين، أو رحمنا ولم يُهلكنا، فلا علاقة بذهابنا وبقائنا بعذابكم، فعذابُكم سيبقى عليكم، ولا يُجيركم منه أحد وسواء متنا قبلكم أو متنا بعدكم فلا تربطوا عذابكم وما أعده الله لكم بحالنا!، وهذا القول يقال للمجادل على سبيل التنزل والافتراض فقط، وإلا فالله لا يُهلك رسوله والمؤمنين بعذاب، لأنه رحيم بهم، ولا يستحقون ذلك، ولذا جاء جواب الافتراض، في قوله: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٨﴾، **أي:** لا يتغير الحكم في حق تعذيب الكافرين، ولا يُجيرُهم ذلك من عذابٍ مؤلم شديد، بسبب كفرهم وتكذيبهم.

ثم قال لرسوله ﷺ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾، قل لهم يا محمد، وقد تكرر معنا لفظ: (قل)، عدة مرات، وهذا يدل على أن محمدًا ﷺ مُبلِّغ عن ربه، وأن الوحي ينزل عليه من الله، **والمعنى:** أن الله لن يُهلكنا، فهو رحمنٌ رحيمٌ بنا، ونحن قد آمنا به، وتوكلنا عليه، ومن آمن بالله وتوكل عليه، فإن الله لا يُعذبُه، بل يرحمُه، وخص التوكل بالذكر مع أن الإيمان يشمل التوكل؛ من باب

ذكر الخاص بعد العام لمزيد من الاعتناء به.

وقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾، فستعلمون حينما نقف جميعًا بين يدي الله، من هو الضال ضلالاً واضحًا نحن أم أنتم.

ثم خُتمت السورة بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾، أرأيتم أيها الناس المكذبون الذين تتنعمون بنعم الله وتكفرون به، ومن نعم الله تعالى عليكم نعمة إخراج الماء العذب الذي تشربون منه، فلو أن الله تعالى جعل هذا الماء غائرًا في الأرض، فلا تستطيعون الوصول إليه، ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾، فمن غير الله يأتيكم بماءٍ يجري أمامكم، وتشربون منه، ولا شك أن الذي يفعل ذلك هو الله، أما الخلق فلا يستطيعون فعل شيءٍ من هذه النعم العظيمة، وإنما ضرب لهم نعمة الماء فقط حتى يُذكرهم بباقي النعم حتى يشكروا الله عليها بالإيمان به سبحانه وترك الكفر والتكذيب.

فوائد وهدايات من السورة:

١ - بيان الحكمة من خلق الموت والحياة.

٢ - بيان وصف جهنم وأنها تحنق وتكاد تتمزق من شدة غيظها، وأنها تشهق إلى فريستها فرحًا بمقدمها.

٤ - أن الجن سبقوا إلى ارتياد الفضاء قبل أن يصنع الإنس المركبات الفضائية.

٤- بيان أن الله تعالى عليمٌ بذات الصدور، ومطلع على خفايا النفوس.

٥- بيان أن الكفر ظلام وعمى، والإيمان نورٌ وهداية.

نسأل الله أن يُوفقنا وإياكم لما يُحب ويرضى، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة القلم

تفسير المقطع الأول من سورة القلم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ
۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ۝٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ
فَيُدۡهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ
۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ
أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ۝١٦﴾.

شخصية السورة:

سورة القلم، سورةٌ مكية[١]، وهي من أوائل السور التي نزلت في مكة، **قيل**[٢]: نزلت بعد العلق، والصحيح أن المدثر والمزمل نزلتا قبلها، **وهي أول سورة افتتحت بالحروف المقطعة**، ومقصدها العام بيان منزلة النبي ﷺ وخُلقه، ورد تطاول المشركين عليه.

---

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٥٨٤)، زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٣١٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن جزي: (٢/ ٣٩٨).

افتتحها الله تعالى بقوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾، **ونون:** حرفٌ من حروف الهجاء، وهو الراجح في معناه، خلافًا لما قيل في معناه من أقوال ليس عليها دليل، بل هو حرف من حروف الهجاء مثله مثل: يس، وق، وحم، الم، وغيرها، مما فُتح به عدد من سور القرآن، وفائدة ذكر هذه الحروف بداية السور هي الإشارة إلى الإعجاز القرآني، وكأنه يقول للعرب: هذا القرآن مكوّن من الأحرف الهجائية التي تتكوّن منها لغتكم، وبها تتكلمون، فأتوا بسورةٍ مثله.

والقلم: الواو واو القسم، والقلم مُقسَمٌ به، **والقلمُ له معنيان**(١): **القلم المعهود** الذي يُكتب به الكتاب، أو المقصود به **قلم القدرة** الذي كُتبت به مقاديرُ الخلق يوم خلق الله السموات والأرض، **والراجح** أن المقصود به القلم المعروف؛ للسياق، ولأن الله يُخاطب العرب بما يعرفون، وقريش لم تكن تعرف قلمَ القدرة، ولذلك يُخاطِبهم بالقلم المعروف، وفيه إشارة إلى أهمية القلم، وهو أداة الكتابة والعلم خاصة أننا قلنا إن هذه السورة من أوائل ما نزل، وقد سبق أن أشاد الله بالقلم في أول آيات أُنزلت على محمد ﷺ، **وفيها:** ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾[العلق:٤]، وما يسطرون، أي: والذي يكتبونه، فأقسم الله تعالى بالقلم، وأقسم بالكتابة ما يكتبه الكاتبون، فيشمل جميع الأقلام، ويشمل ما يكتبه الكاتبون بجميع اللغات في كل زمان ومكان، **وجواب القسَم في قوله:** ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾، **أي:** لست يا محمد -بفضل الله عليك ونعمته- بمجنون، بل أنت من أكمل الناس عقلًا، وفي هذا ردٌّ على افتراء الكفار واتهامهم له بالجنون، كما سيأتي في آخر

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣١٩).

السورة، وليس هذا الاتهام مخصوص بمحمد ﷺ من قومه، بل هو عادة الكفار السابقين مع أنبيائهم ورسلهم، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢﴾ [الذاريات:٥٢].

وقوله: ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾، جملة اعتراضية، جاءت لإشعار رسول الله ﷺ، بنعمة الله وفضله وكرمه عليه.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣﴾، وإن لك عندنا لثوابًا على ما تحملت من أثقال النبوة، وما قاسيته من أنواع الشدائد، غير مقطوع، وليس فيه منّ ولا أذى عليك، وهو الجنة، فالجنة أجرُها غير مقطوع، بل دائم، فهي موصوفة بالخلود المطلق، وليس فيها أذية لمن دخلها، أما أمر الدنيا وعطاء الدنيا فمهما كان عظمته فهو إلى انقطاع، ولا يسلم من الأذى أو يموت صاحبه ويتركه.!!

ثم ترقى مع رسوله ﷺ، في تلطيف الجو وتسليته، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾، بل أنت على خلق عظيم، وهو أدب القرآن الذي أدّبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه، **والخُلق في اللغة**[1]: العادة، والواو عاطفة، وأُكدت بـ"إن"، ولام التوكيد، ووُصف بالعظيم، فدل على كمال خُلقه وعظمته، وعبّر بـ (على)؛ ليدل على التمكن، فالخلُق العظيم مُتمكن منك، وليس اصطناعًا، فبعض الناس قد يقع منه الكرم أحيانًا، أو يُحاول أن يكون حليمًا في بعض الأوقات، ولكن سرعان ما ينفصل عنه هذا الخُلُق لظرف ما، **أما محمد ﷺ**، فالأخلاق الحسنة كلها متمكنة من شخصيته لا تُفارقه مطلقًا، وكان كفار مكة يعرفون ذلك منه قبل

(١) ينظر: مفردات الراغب، ص: ١٥٧.

أن يُبعث فيهم، وكان يُعرف بالصادق الأمين، ولا أحد أفضل منه خُلقـًا في شباب قريش كلها، وإنما وصفوه بالجنون بعد أن بُعث فيهم، مما يدل على افترائهم وكذبهم عليه، **وقد جاء عنه ﷺ قوله: "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق"**(١)، فمهمته تتميم مكارم وصالح الأخلاق برسالته، وبالقدوة به ﷺ، ولا يمكن لشخص ناقص الأخلاق أن يتممها، مما يدل على كمال خلُقه، **وقد سُئلت عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عن خُلقه؟ فقالت للسائل: **"أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: كان خُلُقُه القرآن"**(٢)، أي: كان يمتثل القرآن اعتقاداً وسلوكـًا.

ثم قال الله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾، الفاء، فاء التفريع، وهي التي تأتي بعد كلام إجمالي، ثم يبدأ بتفريعه، فقد أخبرنا أن محمدًا ﷺ ليس بمجنون، وإنه لعلى خلق عظيم، ثم بدأ يُفرع ثمار هذا الخبر فقال لهم: ستنظر بعينك وترى، يا محمد! وينظرون، أو يكون البصر هنا بمعنى العلم، فستعلم ويعلمون، وقد يكون ذلك يوم القيامة(٣)، وقد يكون في الدنيا من خلال التصرفات اليومية لك ولهم، وسيظهر للجميع من هو المجنون ومن هو العاقل، وكأنه رد الحكم إليهم، والمعنى: نفترض أن دعواكم صحيحة، فتعالوا ننظر تصرفات من يُوصف بالجنون أنتم أو محمد ﷺ، **ثم قال:** ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾، **أي:**

(١) مسند أحمد: (١٤/ ٥١٢)، برقم: (٨٩٥٢)، والبخاري في الأدب المفرد: (٢٧٣)، والبيهقي في الشعب: برقم (٧٩٧٨)، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه أحمد: (٤١/ ١٤٨)، برقم: (٢٤٦٠١)، وأبو يعلى، برقم: (٤٨٦٢)، والبيهقي في الشعب، برقم: (١٤٢٦).

(٣) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٣١٩).

المجنون[١]، **وقيل**: الضال[٢]، وهو المضطرب في أفعاله وأقواله وتصرفاته، والمعنى متقارب، فالمضطرب، أفعاله أحيانًا تُشابه فعل المجنون، وحال المجنون كلها اضطراب، فمحمد ﷺ، جاء ليدلكم على الخير، ويدعوكم إلى التوحيد، وينهاكم عن عبادة الأصنام التي تصنعونها من التمر فإذا جعتم أكلتموها، فهذا الفعل منكم يشبه أفعال المجنون المضطرب في عقله، فتفكروا بحالكم!!.

ثم قال الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾، فأخبر الله تعالى أنه هو أعلم بمن انحرف عن الحق والهدى، وهو أعلم بمن وفق للحق والصواب، وهذا التعقيب أبطل فيه ما قد يحكمون به لأنفسهم تبعًا لأهوائهم، وفيه إشارة وتلميح إلى أن محمدًا هو المهتدي، وهؤلاء الذين اتهموه بالجنون هم الذين ضلوا الطريق ولم يهتدوا إليها.

ثم أمر الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ وهي فاء التفريع الثانية، فنهاه عن طاعة الكفار المكذبين به، **ثم بيّن وجهها فقال**: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾، **أي**: لا تُطعهم في طلباتهم فيما يتعلق بقضايا الإيمان والتوحيد، فقد عرضوا عليه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، وطلبوا منه أن يسكت عن آلهتهم ويسكتوا عنه، ونحوها، فهم يتمنون ويُحبون لو أنك تلين معهم في هذه القضايا، وهو مأخوذ من الإدْهان[٣]، **وهو**: المقاربة في الكلام

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٥٣٢).

(٢) ينظر: المسير في علم التفسير (٤/ ٣٢٠).

(٣) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٦٩٣).

والتليين في القول، والمعنى: ودوا يا محمد أنك تتلطف معهم لما تُكلمهم عن آلهتهم، فلو فعلت ذلك ولو قليلًا؛ لتجاوبوا معك كثيرًا، ولكن طبيعة هذا الدين، لا يوجد فيه أنصاف حلول في موضوع الإيمان والتوحيد، كطبيعة المذاهب الباطلة، لأنهم يشعرون أنهم على باطل وضلال، ويريدون أن تقبل منهم شيئًا من باطلهم لكي تجعل ذلك الباطل مقبولاً، وهذا أمر ممنوع ومنهي عنه محمد ﷺ ومن أتى بعده من أمته.

ثم أمره بأمر آخر، فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾، **فذكر له عدة صفات سيئة،** وليس المطلوب أن تجمع الشرور في شخص، بل واحدة منها تكفي لترك طاعته.

فالصفة الأولى: حلّاف، صيغة مبالغة، **أي:** كثير الحلف، فالذي يُكثر من اليمين دليل على أنه غير واثق بنفسه، وأنه صاحب مكر وخداع، وهذه من صفات المنافقين، **كما قال:** ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾[المنافقون:٢].

والصفة الثانية: مهين، **أي:** حقير، وحقارته أتت من أفعاله الباطلة، وأفكاره السيئة، ولكثرة أفعاله الحقيرة التصقت به وصار هو الموصوف بالحقارة.

والصفة الثالثة: همار، أي كثير الهمز، وهو الإيذاء للآخرين بالفعل، ثم أُطلق على الكلام القبيح عن الآخرين في غيبتهم.

والصفة الرابعة: أنه يمشي بين الناس بالنميمة، لم يقل: نمَّام مثل ما قال في التي قبلها، بل قال: مشّاء، لأجل يُصور لك حركته وهو يتنقل من واحد إلى

واحد، من منطقة إلى منطقة، من حي إلى حي، وأن شغله الشاغل هو الحركة بين الأشخاص، ونقل الخبر منهم وإليهم على سبيل الإفساد بينهم، **والنميمة هي**: نقل الكلام لغرض الإفساد بين الأحباب، ولو نقلت كلامًا لغرض الصلح فلا يُسمى نميمة.

ثم ذكر الصفة الخامسة، وهي: أنه مناع للخير، وهي صيغة مبالغة من المنع، **أي**: كثير المنع للخير، والخير هنا المقصود به هنا المال، **أي**: بخيل، لا ينفق في الخير ولا يتصدق، وهذا الوصف لازم لكثير من الأغنياء اليوم، ينفقون ملايين الريالات في الحفلات الصاخبة، وفي هدايا الفنانين واللاعبين، وفي الأماكن التي فيها رياء وسمعة.

ثم ذكر الصفة السادسة، وهي أنه معتدٍ، من الاعتداء وهو تجاوز الحد في الشر، فيأخذ حقوق الناس، ويؤذيهم.

والصفة السابعة، وهي: أنه أثيم، **أي**: كثير الإثم، حيث يفعل الآثام وهي الذنوب والمعاصي، ويقع في الفجور.

ثم ذكر الصفة الثامنة، وهي: عُتُلٍ، وهو الغليظ في خَلْقه وأخلاقه، وتعاملاته، وقيل[1]: هو الأكول المنوع.

وقوله: ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾، **أي**: وهو مع ذلك، وأتى بها للترتيب، **أي**: وهو مع ما سبق من صفات موصوف بصفة ذاتية مُلتصقة به، **وهي الصفة التاسعة**: أنه زنيم،

(١) ينظر: التفسير البسيط: (٢٢/ ٨٤).

أي: غير معروف النسب، وهو: الدعي، الملصق بالقوم[١]، وليس منهم، ومنه الزنمة، وهي: شيء يقطع من أذن البعير فيترك معلّقًا[٢]، ووُصف هنا بزنيم؛ لأنه ليس ابن أبيه، بل هو مُلتحق به، **والمقصود بصاحب هذه الصفات هو**: الوليد بن المغيرة، ألحقه المغيرة به وعمره ثمانية عشر سنة[٣]، **وقيل**: المقصود به الأخنس بن شريق[٤]، وكان من ثقيف، والتحق بقريش على أنه حليفٌ لهم، **ثم قال**: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾، **فيها قراءتان**[٥]، **الأولى**: بهمزتين للاستفهام، **أي**: أَئِن كان ذا مال وبنين؛ تطيعه، على وجه التوبيخ لمن أطاعه، **والثانية**: بدون استفهام، على وجه الخبر، **أي**: منعه ماله وبنوه وغطرسته من الإيمان، وهذا الوصف يرجح أنه الوليد بن المغيرة، كما جاء وصفه في سورة المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾[المدثر:١١-١٣]، ولكن لفظ: ﴿كُلَّ﴾، الوارد في بداية النهي يدل على العموم، والمطلوب من كل مسلم يسمع القرآن اليوم أن ينتبه من الاقتراب والطاعة لمن هذه صفاتهم، وفي ذلك إِشارة إلى ضرورة العناية باختيار الأصحاب والأصدقاء، فإن الصاحب ساحب.

وقوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾، وحين سمع آيات القرآن وصفها بأنها أساطير الأولين، **أي**: ليست وحيًا، وإنما هي قصص

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: (٣/ ١٧٣).

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة: (٥/ ١٩٤٥).

(٣) ينظر: تفسير البغوي: (٨/ ١٩٣).

(٤) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٥٣٥).

(٥) ينظر: المصدر السابق: (٢٣/ ٥٤٠).

قديمة تكلم بها السابقون، وأخذها محمد منهم، فتوعّده الله بقوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ١٦﴾، **والوسمُ**، هو الكي بالميسم، **وهي**: الحديدة التي يُكوى بها[1]، واختار الوسم بأنفه لأن الأنف مكان الكِبر والغطرسة، ووصف أنفه بالخرطوم؛ **وأصل الخرطوم**: أنف الفيل ثم استعير للإنسان استخفافًا به وتقبيحًا له[2]، فأراد أن يُذله وأن يحتقره، وهل هذا الوسم في الدنيا أم في الآخرة؟ **قولان**[3]، **قيل**: في الدنيا، وقد حصل له أن ضُرب أنفُه بالسيف في بدر، **وقيل**: في الآخرة، **أي**: سنسمه يوم القيامة على أنفه سمة يُعرف بها، ولا مانع أن يكون القولان مرادين معًا، فقد أذله الله في الدنيا وسيُعطيه جزاءه الموعود له في الآخرة، وانتهت قصة الكبرياء والأنفة بعبارة بسيطة وهي الوسم على الأنف، فأسقطت كل أنفة وكل كبرياء.

---

(١) ينظر: تاج العروس: (٣٤/ ٤٥).

(٢) ينظر: تفسير ابن جزي: (٢/ ٤٠٠).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢٣٧)، وتفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ١٩٥).

تفسير المقطع الثاني من سورة القلم

﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قــول الله تعــالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾، الخطاب موجه لمشركي قريش، الذين كفروا بمحمدٍ ﷺ، وكذبوا برسالته، إنا اختبرناهم كما اختبرنا أصحاب الجنة، وقد اختبر قريشًا بالجوع ونقص الثمرات والقحط، حيث دعا عليهم رسول الله ﷺ لما كذبوه ثم جاؤوا إليه وطلبوا منه أن يدعو الله تعالى أن يرفع ما نزل بهم، وقالوا له: نناشدك الله والرحم، فدعا لعلهم أن يُؤمنوا، ولكنهم استمروا على تكذيبهم، فذكّرهم هنا بأن هذا الابتلاء يحصل من الله تعالى للمكذب العاصي المخالف؛ لعله أن يتوب ويرجع، وقد ابتُلي أصحابُ الجنة بمعصيته، فإن الصحيح أن أصحاب

الجنة لم يكونوا كفارًا بل كانوا مسلمين[١]، بدليل أدعيتهم التي وردت في النص القرآني، وما حصل منهم، هو أنهم قدموا حقوقهم الشخصية على حق المساكين، بسبب البخل، فمنعوا حق المسكين الذي كان يُعطيه لهم والدُهم، والمقصود بأصحاب الجنة: مالكو بُستانٍ من البساتين، ويُسمى جنة لما فيه من أشجار كثيفة تُغطي ما بداخله، وهم قومٌ من أهل اليمن، **قيل**[٢]: إن القرية التي كانت فيها هذه الجنة هي ضروان على بعد فرسخين أو ميلين من صنعاء، وكان والدهم رجلًا صالحًا، يُعطي المساكين من ثمار ذلك البستان، قيل: كان من العنب، فلما مات اجتمع أولادُه وقالوا: كثُر العيال ووالدُنا كان لا يعرف كيف يتصرف في المال، واتفقوا على منع المساكين من حقهم الذي كانوا قد اعتادوا عليه من والدهم، فاتفقوا إذا جاء وقت الحصاد، أن يذهبوا لحصاده سرًا، وأن يُبكروا إليه مصبحين قبل أن يستيقظ الناس، فعزموا على ذلك، وحلفوا على تنفيذ ما اتفقوا عليه صباحًا، قبل أن يظهر عليهم المساكين.

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾، **أي**: لما أقسموا وعزموا لم يقولوا: إن شاء الله، فلما لم يستثنوا لم يتحقق مرادُهم، والواجب على الإنسان أن يستثني في كل فعل مُستقبلي، **كما قال الله**: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الكهف:٢٣-٢٤]، لأن الأمر بيد الله تعالى.

وقوله: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾، **أي**: فأرسل الله عليها نارًا في

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٩٥).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٣٢٣).

الليل، فأحرقتها، وأصحابُها نيام، وإنما أحرقها وهم نائمون دون أن يروها تحترق، حتى يُصبحوا فيرون أثرها؛ جزاء كيدهم الخفي.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾، أي: أصبحت هذه الحديقة التي كانت خضراء مليئة بالثمار والأشجار، كالليل الأسود، من شدة ظلامه، وقيل[1]: كَالرَّمَادِ الأسود، والمعنيان قريبان ولا تعارض بينهما.

وقوله: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾، أي: استيقظوا مسرعين بهمة ونشاط، وهم يتحدثون بينهم سرًا، ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾، أن هنا المفتوحة، وهي التفسيرية التي تأتي بعد الإجمال، فتُفسر ما سبق، أي: احذروا السماح لأي مسكين بدخول الجنة؛ فيأخذ من ثمارها، وعبروا بالنكرة في لفظ مسكين ليعم جميع المساكين، وأكدوا بنون التوكيد؛ ليدل على أن الأمر جدٌّ، وليس بالهزل، ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾، وأصبحوا مبكرين لتنفيذ ما اتفقوا عليه.

وحرد لها معنيان[2]: بمعنى: غضبانين وحنقين، مما كان يفعله أبوهم، ولا يريدون أن يفعلوا مثله، وقادرين، أي: عندهم القدرة والعزيمة على منع المساكين، أو بمعنى: القصد والسرعة، أي: مسرعين ومُضيِّقين على أنفسهم بتنفيذ ما اتفقوا عليه دون تراجع، كقوله: ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[الأنبياء:٨٧]، أي: لن نُضيق عليه، وفي كلا المعنيين بيان لحال نفسيتهم السيئة، فهم غضبانون وحنقون على ذلك الفعل، ويملكون القدرة على المنع، وقاموا مسرعين

(١) ينظر: تفسير البغوي: (٥/ ١٣٨).

(٢) ينظر: تفسير البغوي: (٥/ ١٣٨)، وتفسير الرازي: (٣٠/ ٦٠٩).

للتضييق على المساكين، فلا يصل المساكين إلى الحديقة إلا وقد انتهوا من صرمها وأخذ ما فيها من ثمار.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾، فلما شاهدوا الحديقة، وقد احترقت ولم تعد على ما كانوا يرونها من قبل، فقالوا: لقد ضللنا الطريق إليها، واتهموا أنفسهم بأنهم ساروا في طريق غير الطريق التي تُوصلهم إلى حديقتهم المعروفة فأوصلتهم هذه الطريق إلى مكان آخر، فهذه ليست حديقتنا، أو يكون بمعنى: لقد اتخذنا قرارًا باطلًا، وهو اعتراف منهم بخطأ حرمانهم للمساكين، والمعنى الأولى أرجح؛ لأن الآية التي بعده تدل عليه، وهي قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾، أي: لسنا ضالين الطريق، وإنما حرمنا الله ثمار هذه الحديقة بنيتنا القبيحة، وعزمنا السيء على منع المساكين والمحتاجين الذين اعتاد والدنا أن يُعطيهم من ثمارها.

وقوله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾، قال أحد هؤلاء الأولاد، وكان أعدلهم رأيًا، وكان قد نصحهم عند قسمهم بمنع حق المساكين، أن يستثنوا، ويقولوا: إن شاء الله[1]، وعُبر عن الاستثناء بالتسبيح[2]؛ لأن (إن شاء الله)، عبارة عن تنزيه الله عن كل سوء، وإعادة المشيئة إليه، نوع من تقديسه وتنزيهه سبحانه من أن يفعل القبيح، أو أنه نصحهم أن لا يفعلوا ذلك، وأن يتوبوا إلى الله من هذا العزم القبيح، ولكن كيف نصحهم أن يتوبوا إلى الله ولا يفعلوا ذلك، ثم ذهب معهم؟، احتمال أنه كان صاحب شخصية ضعيفة، واحتمال أنه طلب منهم أن

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٥٥١).

(٢) ينظر: تفسير الرازي: (٣٠/ ٦٠٩).

يقولوا: إن شاء الله، وهذا أرجح، فلما ذكّرهم بذلك، ورأوا أن الحديقة قد احترقت، امتثلوا أمره، و﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فلماذا لم تُسبحوا في البداية؟!، وهذا يدل على أن النفس البشرية تغفل عن ذكر الله بسبب إغواء الشيطان ووسوسته لها حتى تقع في الفخ، ثم تنتبه بعد أن تُذنب، فهنا سبحوا الله ونزهوه واعترفوا بأنهم وقعوا في الظلم، وهو حرمان المساكين من حقهم، فالزكاة حقٌّ للفقير والمسكين في مال الغني، وخاصة أن زكاة الزرع والثمار تعطى عند الحصاد، **كما قال**: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[الأنعام:١٤١]، ولا يُشترط فيها أن يحول عليها الحول، ويكفي فيها وجود النصاب، وهو خمسة أوسُق، والوُسق ستون صاعًا، **أي**: حوالي ستمائة وخمسين كيلو جرام، ويُخرج منها العُشر إن كانت تُسقى بماء المطر، ونصف العشر إن كانت تُسقى بالسواقي والمضخات ونحوها، وهذه الزكاة الواجبة، أما الصدقة المطلقة فلا يشترط فيها أي شرط، بل هي أمر مُرغبٌ فيه ومُستحب، وتدخل بسببه البركة إلى المال إذا أعطي منه الفقير والمسكين.

ثم قال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾، **يقال**: الفشل لا أب له، فكل الناس يتهربون منه، ولا أحد يعترف أنه سبب للفشل، أما النجاح فكل الناس يدَّعيه، وهنا أقبل كل واحد منهم على الآخر، **ويقول له**: أنت سبب البلاء، ولا أحد منهم اعترف بمشاركته بالمشكلة، وهذا يدل على طبيعة النفس، وصعوبة اعترافها بخطئها، وتهربها من المسؤولية، إلا من رحم الله، وهكذا سيفعل أهل النار لما يدخلون النار، يتلاومون فيما بينهم ويلعن بعضهم بعضا، **كما قال**

عنهم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾[الأعراف:٣٨]، بخلاف أهل الجنة، فحالهم يختلف، **كما قال عنهم:** ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾[الطور:٢٥]، **أي:** يتذكَّرون اجتماعهم على مشاريعهم في الدنيا ونجاحهم فيها، فأهل النار يُمثلون مشروع الفشل، وأهل الجنة يُمثلون مشروع النجاح!!.

وقوله: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١﴾، **أي:** رجعوا بعد التلاوم يدعون على أنفسهم جميعًا بالويل ويعترفون أنهم وقعوا في الطغيان، وهو تجاوز الحد بالباطل، فقد منعوا المساكين حقهم.

ثم بدأوا يفيقون ويرجعون إلى الله، **فقالوا:** ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢﴾، نتوب ونرجع إلى الله ونستغفر ونندم ونعترف بذنبنا وتكون توبتُنا صادقة، إنا إليه مُفتقرون وتائبون، ونطلب منه العفو وأن يبدلنا خيرًا منها، فهل أبدلهم الله خيرًا منها؟! **الجواب:** إن عادة الله تعالى مع التائبين المنيبين الصادقين أن يُعوضهم، ولا مانع أن يكون الله عوضهم، ولكن في مكانٍ آخر وبحديقةٍ أخرى، فإن محل نزول العذاب الإلهي يبقى كما هو عليه، ولا يُستصلح، ليكون عظة وعبرة لمن بعدهم.

ثم ختم الله هذه القصة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُ﴾، المقصود بالعذاب هنا شيئان: عذاب قريش الذي سبق ذكره، وهو القحط وقلة الأمطار والجوع، والعذاب الذي أصاب الجنة وأحرقها، وهذا هو العذاب الدنيوي الذي يُصيب المكذب أو العاصي أو المذنب، وهو نوع من التخويف، والتنبيه له، كما قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[السجدة:٢١]، أي الدنيا، قبل

العذاب الأكبر الذي هو عذاب الآخرة، لعلهم يتوبون بسبب مثل هذا الفعل، وأصحاب الجنة هؤلاء قد تابوا كما مر، فكان العذاب وسيلة لتوبتهم، وهذا يعني: أن الله تعالى، أحيانًا قد يُعذب الإنسان ليُنبهه للتوبة، والابتلاءات أحيانًا قد تكون للتنبيه، لكي يرجع الإنسان ويتوب إلى ربه، ولكن من قسى قلبه وابتعد عن العظة والعبرة، وربما كان العذاب سببًا في استمرار قسوة القلوب، **كما قال:** ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنعام:٤٣]، فهؤلاء الكفار لا تنفعهم مثل هذه التنبيهات؛ لأن الله لم يُرد بهم خيرًا بالتوبة.

وقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾، **أي:** إن عذاب الآخرة للكفار الذين لم يتوبوا ولم يُؤمنوا، أعظم وأشد من عذاب الدنيا، لو كانوا يعلمون مقداره لتابوا، وليس المقصود به أصحاب الجنة لأنهم قد اكتفوا بعذاب الدنيا وتابوا إلى الله تعالى.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- الدعوة بضرب الأمثال، فقد ضرب الله لكفار قريش مثالًا سابقًا لعلهم أن يتعظوا به، ويتوبوا كما تاب أصحاب الجنة.

٢- أن منع حق الفقير سببٌ لهلاك النعمة، وأن الصدقة والزكاة والإعطاء للمحتاجين سببٌ لنمو المال وبركته وازدياده عند صاحبه.

٣- أن العقوبات الدنيوية قد تكون تنبيهًا للعودة إلى الله، وتكون أيضًا تطهيراً للمذنب فلا يُعاقب في الآخرة.

تفسير المقطع الثالث من سورة القلم

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ
﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ
﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ
كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ
فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ
نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾، جاءت هذه الآية بعد قصة أصحاب الجنة، فلما ذكر خبر جنة الدنيا، وهي بساتينها، ناسب أن يذكر جنة الآخرة، وأنها خاصة بالمتقين، **وفي قوله:** ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، بيان لشرف المكان، وشرف المكانة، وأُضيفت الجنة إلى النعيم لملازمة النعيم للجنة، فالجنة كلها نعيم، لا نقمة فيها، ولا شيء مما يُعكر مزاج أهلها!!.

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾، هذا جوابٌ لسؤال كان يتردد على ألسنة بعض كفار قريش، خلاصته: أنهم كانوا يقولون للمؤمنين: نحن لا نؤمن بالبعث والنشور، وإذا افترضنا أن هناك بعثًا ونشوراً وجنةً وناراً، فنحن أولى بالجنّة منكم؛ لأن من تنعّم في الدنيا تصحبه النعمة إلى الآخرة، فرد الله عليهم بهذه الآية، فلا يصلح في عدل الله، ولا في شرعه جل وعلا، أن يُساوي بين المجرم والمسلم، وبين المؤمن والكافر في جزائهم في الآخرة، وحصول الكافر على النعم في الدنيا؛ لأن الدنيا دار ابتلاء وليست دار جزاء، ولأن الدنيا حقيرة ولا قيمة لها عند الله، كما في الحديث: **"لو كانت الدنيا تُساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء"**[(١)].

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾، سؤال استنكاري، لأنه حكم باطل، فالإنسان العاقل صاحب الفطرة السوية يرى أن مساواة المسلم بالمجرم، والبريء بالمتهم، لو حصل من شخص، فليس من العدل، فكيف يحصل من الله سبحانه؟!

ثم ذكر هنا أربعة أسئلة متعلقة بهذا الأمر، وهي عبارة عن أدلة وقرائن تُثبت بها الدعاوى، السؤال الأول، في قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾، من أين أتيتم بفكرة أنكم ستكونون أفضل حالًا في الآخرة من هؤلاء المؤمنين الضعفاء، هل معكم كتاب مذكور فيه هذا الكلام، وأنتم تتلونه على

(١) سنن ابن ماجه: (٥/ ٢٣٠)، برقم: (٤١١٠)، وسنن الترمذي: (٤/ ١٣٨)، برقم: (٢٣٢٠)، وصححه الألباني، في صحيح الجامع، برقم: (٥٢٩٢).

الآخرين؟، وتتخيرون من هذا الكتاب ما يُعجبكم، وتأخذون ما يناسبكم منه، والجواب: لا يوجد لهم كتاب، وما يتخيّرونه من أقوال وأفكار، فليس لها مستند، وإنما هو ادّعاء وأماني.

السؤال الثاني، في قوله: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، **هل سبق أن أقسمنا لكم أيمانًا مؤكدة** لا تنحل إلى يوم القيامة أن نمنحكم ما أدعيتم به؟!، **والجواب:** ليس لكم ذلك، وقوله: ﴿إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾، وهو سؤال استنكار على ادعائهم السابق، **أي:** كيف تحكمون هذا الحكم الجائر ولا يوجد عندكم حجة ولا بينة.

والسؤال الثالث، في قوله: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ اسألهم يا محمد من منهم هو الضامن والكفيل عليهم في إثبات هذا الحق لهم؟! والجواب: لا يوجد من يضمن ذلك لهم.

والسؤال الرابع، في قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾، **هل لهم شركاء مع الله من الأصنام والأنداد،** وعدوهم بذلك؟!، فليأتوا بهم ليحققوا لهم ما أدعوه، **والجواب:** لا يوجد من شركائهم من يقدر على ذلك، فسُقط في أيديهم، لعدم وجود حجة ولا برهان لديهم، بعد أن نفى عنهم: الكتاب المسطور، والتعهَّد لهم من الله، والزعيم الكافل، والشريك القادر، فبطلت دعواهم أنهم كالمسلمين ومساوون لهم في النعيم والمكانة في الآخرة.

ثم قال: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾، **أي:** فليأتوا

بالشركاء يوم القيامة، يوم يُكشف عن ساق، وهو كناية عن شدة الأمر وهول المكان والمطلع[١]، وإذا اشتد الحرب والأمر قيل: كشف الأمر عن ساقه[٢]، والواقع أنه إذا حصل للإنسان ما يُريبُه أو يُخيفُه فإنه يرفع الثوب عن ساقه ويُشمر ينطلق!، وفي يوم القيامة من شدة الأهوال والفزع يحصل ذلك الحال لكل الناس، **وقد جاء في الحديث** إضافة الساق إلى الله، ويكون ذلك يوم القيامة حينما يأتي للفصل بين عباده، **وفيه**: "**فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة، فيذهب كيما يسجد، فيعود ظهره طبقًا واحداً**"، فهذا الحديث يُشير إلى تفسير هذه الآية، فالساق من صفات الله سبحانه وتعالى، تثبت كسائر صفاته بدون تشبيه ولا تمثيل، **بل نقول**: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾[الشورى:١١]، ولا تعارض بين التفسيرين؛ فأهوال يوم القيامة شديدة، وكشف الرب عن ساقه ورد فيه الحديث الصحيح، فيُجمع بين القولين، والذين لا يستطيعون السجود هم المنافقون كما جاء بيانهم في الحديث، وهم الذين كانوا يسجدون رياءً وسُمعة، فيتحول ظهره طبقًا واحداً، يعني: صلبًا كالعمود، لا يقدر أن يركع، أو يسجد.

وقوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ **أي**: ذليلة حقيرة من شدة الفزع والخوف، ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، **أي**: ترافقُهم وتغشاهم الذلة والندامة لأنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا، **قال**: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ **أي**: في الدنيا ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ كانوا

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٥٥٥).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٣٢٨).

يُدعون إلى عبادة الله فيُعرضون، يُدعون إلى الصلاة فلا يُصلون، فذكرهم بأنهم طالما أعرضتم عن السجود في الدنيا وهي دار العمل لم تُوفقوا للسجود بين يدي الله في دار الجزاء.

﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: قادرون وهم مُعافَون يستطيعون أن يسجدوا ويركعوا لله، ولكنهم لم يفعلوا ذلك إعراضًا وكفرًا.

ثم قال الله لرسوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ لا تشغل نفسك بهم وإنما اتركهم لي، وهذا تهديد ووعيد من الله سبحانه وتعالى، ومن يقف أمام الله؟! لا أحد يقف أمام قدرة الله سبحانه وتعالى.

﴿فَذَرْنِي﴾ أي اتركني يا محمد، ﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا﴾ القرآن، هذا الحديث المقصود به القرآن المنزّل عليك.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ سنسوقُهم إلى العذاب درجةً درجة، كيف الاستدراج؟ قالوا: الاستدراج إذا كنت تعصي الله وتكفر به ومع ذلك يُنعم الله عليك بالمال والصحة والجاه فهذا هو الاستدراج، يريدك أن تغتر أكثر، وتُعرض أكثر حتى يأخذك بغتة.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ من حيث لا يشعرون أن هذا مكرٌ من الله بهم، فإن الإنسان لما يُمنح النعمة يظن أنه مُفضل من الله، وهو نوع من الاستدراج فقط.

ثم قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أُملي بمعنى الإمهال، أُملي لهم بمعنى: أُمهلهم،

أُعطيهم زمنًا كافيًا يتمتعون بالمال ويكفرون بالله سبحانه وتعالى، وهذا الإملاء إنما هو للتمادي، من أجل أن يزدادوا في عتوهم وفي غيهم وفي نفورهم عن الله سبحانه وتعالى.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾ **الكيد هنا المقصود به** التدبير، تدبير الله للخلق، كيف يجعل هذا الكافر يأكل ويتمتع وهو يظن أنه مُقرب من الله وأن الله أنعم عليه، وهو في الحقيقة تدبير من الله له، وكيد من الله به، ومكر من الله به، وإمهال من الله به حتى إذا أخذه لم يُفلته.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾ **أي:** قوي، أُملي لهم في التكذيب، وأُعطيهم فرصة للكفر، مع ما أعطاهم الله من النعم حتى إذا أخذهم أخذهم أخذ عزيزٍ مُقتدر.

ثم قال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٦﴾ لماذا يُكذبونك؟ لماذا لم يقبلوا دعوتك؟ لماذا لم يؤمنوا بك؟ ما السبب؟ هل السبب أنك طلبتهم مالًا على الدعوة؟ هل قلتَ لهم: سأقرأ عليكم القرآن وادفعوا لي مُقابل القراءة؟ هل قلت لهم: أدعوكم إلى الله وإذا أسلمتم دفعتم ضريبة، أو دفعتم مقابل أني علّمتكم؟ هل تفعل هذا معهم؟ طبعًا لا، الرسل كلهم عليهم السلام جاءوا بالدعوة المجانية للخلق ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[الفرقان:٥٧]. دعوة مجانية، علّم الناس دين الله مجانًا، حتى لا يكون لأحد حُجة أنه أنا ما عندي مال ولذلك ما تعلّمت دين الله، أنا لو طلبت مني مالًا ولم أؤمن كانت لي حجة عند الله، أنا فقير، كيف أؤمن وأنا فقير لأن الذي يريد أن يُعلّم الإيمان يحتاج

مالًا وأنا ما عندي؟ لا، لذلك كانت دعوة الأنبياء والرسل ودعوة أتباع الأنبياء من العلماء والصالحين والدعاة إلى الله حتى يوم القيامة هؤلاء يدعون إلى الله يُعلمون الناس الخير مجانًا، إنما يُريدون الأجر من الله وحده لا شريك له، ولذا قال: هل منعكم من الدخول في الإيمان أن طُلب منكم أجر فأنتم غارمون والغرامة على رقابكم ثقيلة؟ ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ من الغرامة ثقيلة عليهم ما تطلبهم، المبالغ التي تطلبهم وهم فقراء أو غارمون، وهم غارمون يثقل عليهم ذلك، طبعًا النبي ﷺ لم يطلب منهم شيئًا.

الأمر الثاني: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ما سبب عدم إيمانهم؟ هل لأنهم اطلعوا على الغيب وعرفوا أنهم على حق وأن محمدًا على ضلال ولذلك لا يؤمنوا به؟ **الجواب:** لا، ليس لديهم غيب ولا يعلمون شيئًا من الغيب، فالغيب محفوظ لا يطلع عليه أحد، ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أم عندهم علم الغيب ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ما يحلوا لهم من الحجج التي يُحاجونك بها ولا يقبلون دعوتك، ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾؟ طبعًا لا ليس عندهم علم من الغيب ولا هم يكتبون شيئًا من تلك الحجج وإنما تُرهات ادعوها وشُبه تلقّفوها عمن قبلهم.

ثم انتقل الحديث إلى رسول الله ﷺ، فقال له ربه: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد على هؤلاء المكذبين، اصبر على تكذيبهم، اصبر صبرًا جميلًا، اصبر حتى يُؤمنوا أو اصبر على تكذيبهم حتى يُهلكهم الله، ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ حكم ربك يعني: قضاء ربك، لشرع ربك، لأمر ربك، فإن حكم الله سبحانه وتعالى هو قضاؤه وهو شرعُه، يعني: قم بالدعوة واصبر عليها فقد كلفك ربك بهذا الأمر، ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ

﴿رَبِّكَ﴾ في البلاغ والإنذار والتبشير والدعوة ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ ولا تتشبه أو تفعل مثلما فعل صاحبُ الحوت، من هو صاحب الحوت؟ يونس بن متّى عليه السلام، وقد أرسله الله إلى قرية نينوى في العراق، قرية يونس بن متّى اسمها نينوى وما زالت مدينة ومحافظة إلى الآن مشهورة في العراق، أرسله إلى أهلها، فمكث فيهم ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله ويُعلمهم، فلما لم يستجيبوا له غضب عليهم وخرج من عندهم دون أن يأذن الله له بالهجرة، الأنبياء لا أحد منهم يترك مكانه إلا بعد أن يأذن الله له، حتى محمد ﷺ أذن لأصحابه بالهجرة وكانوا يُطالبونه أن يُهاجر فيقول: **"لم يُؤذن لي بعد"**، يونس خرج بدون إذن، **قال:** ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[الأنبياء:٨٧]. **أي:** لن نُضيِّق عليه، يعني: خرج بدون أن يستأذننا من أجل أنه كان يظن أننا لن نُضيِّق عليه، يعني: لو خرج لا شيء عليه، لا حرج عليه في الخروج، فلما خرج مُغاضبًا من قومه وصل إلى الساحل وأراد أن يركب فوجد زورقًا فركب عليه مع الراكبين، فجاءت الريح فثقُل الزورق، الذي يُسمونه القارب أو السفينة الصغيرة، فقالوا: القارب قد امتلأ أو قد ثقُل وزنُ الراكبين عليه، لا بد نتخلص من بعضهم، فعملوا قرعة ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١﴾[الصافات:١٤١]. **ما معنى فساهم؟** أي دخل في القرعة، عملوا قرعة لمن يأخذونه فطلعت القرعة عليه، وكان معروفًا عند أصحاب القارب فما قبلوا بهذه القرعة، **قالوا:** هذا رجلٌ صالح كيف نلقيه في البحر؟!، فعملوا القرعة مرة ثانية فطلعت عليه، وعملوا القرعة مرة ثالثة فطلعت عليه، فكان لا بد أن يُقذَف فأخذوه فرموه في البحر فالتقمه الحوت، كان الحوت فاتحًا لفمه فوصل إلى فمه فإذا به في بَطن الحوت، التقم من؟ يونس، وسبحان

الله لعل فمه كان مفتوحًا؛ وإلا كان قضمه بأسنانه، لكن سبحان الله مباشرة زرَق إلى بطنه، فلما وصل ظلمة البحر، ظلمة الليل، ظلمة بطن الحوت نادى في الظلمات، أحسَّ بذنبه، وأحس بمخالفته **فقال:** ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾[الأنبياء:٨٧]. **قال الله هنا:** ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨﴾ **ما معنى مكظوم؟** محبوسةٌ أنفاسُه داخل الحوت، مكتوم، فلما نادى قال: لا إله إلا أنت، كما في آية أخرى فتداركته النعمة.

قال: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩﴾ **أي:** فتداركته نعمة الله تعالى بسبب توبته، فأمر الله الحوت أن يُلقيه في الساحل، فقاءه الحوت، فخرج كما هو لم يفهم، إلا أنه لما جلس في بطن الحوت وفيها (إنزيم)، وهذا الإنزيم به يُهضم الطعام، فأثَّر في جلده فخرج وهو مَسلوخ بسبب (الإنزيم)، فقُذف به في هذا العراء في هذا الساحل، **قال:** ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩﴾ طبعًا هنا ﴿لَّوۡلَآ﴾ حرف امتناع لوجود ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ﴾ لولا أن الله أنعم عليه فأنقذه ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ ولذلك نُبذ بالعراء وهو ممدوح وليس بمذموم، لأن التوبة جبّت ما قبلها فأنعم الله عليه بهذه التوبة فخرج وهو غير مذموم عند الله بل ممدوح بسبب توبته، فأنبت الله عليه شجرةً من يقطين هي القَرع وأنبت له هذه الشجرة فكان يأكل منها حتى عاد له جلدُه، واليوم من الطب الحديث يستخدمون الخيار والقرع وغيرها من أنواع هذه الأشجار في تزيين الجلود، علاج إنزيمات للجلد، وهذا سبق علمي.

ثم قال سبحانه: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اجتباه بالتوبة، وأعاد له النبوة مرةً أخرى،

واصطفاه وقال له بعد أن شُفي: ارجع إلى قومك فهم ينتظرونك، فرجع مرةً ثانية إلى قريته فدعاهم فأسلموا، ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ **أي**: من الأنبياء الذين عادت لهم النبوة.

ثم ختم الله هذه السورة بوصف حال الكفار مع محمد ﷺ، **قال**: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ من شدة حسدهم لك وغيظهم عليك إذا سمعوا القرآن منك يكادون أن يقتلوك بحسدهم، وأن يصيبوك بأعينهم، العين الحاسدة الحاقدة، وهذه الآية تدل على إثبات العين وأن الإنسان قد يمكن أن يُصاب بالعين، **وقد جاءت أحاديث كثيرة تُثبت ذلك عن النبي** ﷺ، **منها قوله** ﷺ: **"العين حق، وإذا استُغسلتم فاغتسلوا"** فإن الاغتسال علاج للمصاب بالعين، وهناك أحاديث كثيرة، **هنا قال**: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ﴾ من الزَّلَق، ما هو الزَّلَق؟ عدم استقرار الرِّجل في مكانها، تنزلق، تذهب، يكاد الذين كفروا يُبعدونك عن الحق، ويُسقطونك إن كنت واقفًا من شدة غيظهم وحسدهم لك، ويكادون أن يفتنوك عن دينك سواءً، **قلنا الزلَق** الحسي الذي هو الإصابة بالعين حتى يسقط، أو يكون الزَّلق المعنوي الذي هو محاولة إبعاده عن الحق وفتنته.

وقال: ﴿بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ إذ محل العين الحاسدة هو البصر إذا نظرت يخرج منها شرر، العين الحاسدة إذا نظرت للإنسان ربما يخرج منها شرر ويعلم بذلك العائن نفسه، ولذلك العائن يعرف أنه أصاب لأنه يشعر بشيءٍ من عينه يخرج كالشرر، ولذلك مطلوب من المسلم أن يتحصن بالمعوذتين من كل حاسد، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١﴾[الفلق:١]، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾[الناس:١]،

ويتحصن بالأذكار صباحًا ومساءً، وبالأذكار الشرعية مثل قراءة آية الكرسي والمعوذتين، **وأيضًا بالأذكار الأخرى التي ذكرها النبي ﷺ مثل قوله: "أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة"**، **يعني**: التي تصيب الإنسان، ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ **أي**: حين يسمعون القرآن يغيظون ويحقدون، ويحسدونك على ما أعطاك الله من هذه النعمة فيُصيبونك بأعينهم وبأبصارهم.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾﴾ هذا كما يقولون: حجة الذي ما استطاع أن يصل إلى هدفه، أنتم تكادون تحسدونه على ما أعطاه الله من نعمة وهي نعمة القرآن، فلما لم تستطيعوا حسده رجعتم قلتم: هذا مجنون، وهل المجنون يتلوا كلامًا مُعجِزًا يجعلكم تحسدونه عليه؟!، فلما لم يستطيعوا معارضة القرآن رجعوا يذمون صاحبه، من هو صاحبُه؟ محمد ﷺ الذي يتلوه، فرجعوا يقولون: محمد هذا مجنون، **وقد سبق معنا في بداية السورة** أنه قال: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ وهنا ختم بحديثهم عن الجنون، فنفى الجنون قبل أن يقولوه، نفى عنه ﷺ الجنون في بداية السورة قبل أن يقوله المشركون في آخر السورة.

ثم وصف القرآن بقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ القرآن هذا ليس كلام مجنون، كلام المجانين معروف، هذا ذكرٌ أنزله الله ليكون ذكرًا للعالمين، للجن والإنس، للعرب وللعجم، فهو ذكرٌ للعالمين يُذكرون به، ويُذَكّرون به، إما يُذْكرون به يعني: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[الزخرف:٤٤]، **أي** فيه عزة، فيه كرامة، أو ذكرٌ من التذكير، أنه يُذكر العالمين بالله وباليوم الآخر، ويدعوهم إلى صراطه المستقيم.

فوائد وهدايات من الآيات:

١ - أن المؤمن لا يستوي مع المجرم، هذه قاعدة لا يمكن أن تتخلف، وهذا عدل الله أن لا يُساوي بين السيء والحسن، ولا المجرم والمسلم.

٢ - أن هذه الآيات تدل على أهمية الصبر وأنه خُلق محمود حتى مع المخالفين لك والمؤذين لك، كلما صبرت كلما جاءت ثمار الصبر في صالحك.

٣- أن التوبة تجُب ما قبلها، وأن من أراد أن يجتبيه ربه ويُقربه إليه فعليه بالتوبة، فإن الله يُحب التوابين ويُحب المتطهرين.

٤ - أن الله سبحانه وتعالى يُنوع الآيات والدلائل والبراهين والحجج للمشركين وللكفار، لعل حجة من هذه الحجج تُقنعهم فيؤمنوا، ولكن من خُتم على قلبه وطُبع لا يستفيد من هذه الحجج ولا يتأثر بها، وإلا لو فتح قلبه وعقله وسمعه وبصره لتأثر بهذه الحجج والبراهين ودلّته على الله وعلى توحيده والإيمان به سبحانه وتعالى.

تفسير سورة الحاقة

تفسير المقطع الأول من سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا
ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا
عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ
(٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا
رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً
وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)﴾.

شخصية السورة:

سورة الحاقة: سورةٌ مكية بالإجماع[1]، وسُميت بهذا الاسم لذكر هذا اللفظ فيها، وهو لم يرد في غيرها من السور، والمقصدُ العام لهذه السورة، إثبات البعث والنشور والجزاء فيه للمؤمنين وللكافرين.

قال الله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ (١)﴾، **الحاقة:** اسمٌ من أسماء يوم القيامة، من حق

(١) ينظر: زاد المسير: (٤/ ٣٢٨)، وتفسير الثعالبي: (٥/ ٤٧٣).

الشيء، إذا ثبت ووجب[١].

وقوله: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾، استفهام، معناه التفخيم لشأنها[٢].

وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾، **أي:** لا علم لك بكنهها ومدى عِظمها[٣]، وهو أسلوب أبلغ من الذي قبله، يُراد منه التعظيم والتهويل، فإذا قال لك شخص: كذا، وما أدراك ما كذا، إنما يُريد أن يُشعرك بأهمية وعظمة ما يريد أن يخبرك به، وكل ما جاء في القرآن بلفظ: (ما أدراك)، فقد جاء بيانه في القرآن بعده[٤].

ثم قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾، **ما العلاقة بين هذا الأمر**، وما سبق السؤال عنه؟! **الجواب:** أن الحاقة هي القارعة، وهي من أسماء يوم القيامة، وكانت ثمود وعاد لا يُؤمنون بها، فقد كانوا مكذبين بالبعث والنشور، وذكر هنا نماذج للأقوام الذين كذّبوا بها، وقوم ثمود؛ هم الذين أرسل الله إليهم نبيّه صالح، وقوم عاد؛ هم الذين أرسل الله إليهم نبيّه هود، ويطلق عليهما: عاد الأولى، وعاد الآخرة، ويطلق عليهم العرب البائدة، والخطاب موجه لقريش، وهؤلاء من عرب الجزيرة القريبين من مناطقهم.

ثم قال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾، وهذا يُسميه علماءُ البلاغة

---

(١) ينظر: تفسير المراغي (٢٩/ ٥٠).

(٢) ينظر: زاد المسير: (٤/ ٣٢٨).

(٣) ينظر: تفسير النسفي: (٣/ ٥٢٨).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: (٢٩/ ١١٤).

بـاللف والنـشر المرتـب، فقـوم ثمـود أهلكهـم الله بالطاغيـة، وهـي الـصيحة الشديدة[١]، **أي:** طغت شـدتُها حتى تجاوزت مـا يـستحقون، ومكـانُهم يُسمى الآن بمدينة العُلا، وهي منطقة بين تبوك والمدينة المنورة، ويطلق عليهـا مـدائن صالح، وما زالت آثارُهم وبيوتهم الضخمة باقية إلى الآن.

وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾، وقوم عـاد مكـانهم في صحراء الربع الخالي، **وتسمى:** الأحقـاف بـين حـضرموت وعمـان والـسعودية، وقد أهلكهم الله بـريح شـديدة الـصوت، فمـن شـدة صـوتِها يخـرجُ منهـا صـوتٌ يُسمى: الصرصرة، وهي الباردة شديدة العتو، **قيل:** عتت عـن خزنتهـا[٢]، **وقيـل:** عتت على أهلها الذين هم قوم عاد فأهلكتهم[٣]، **وقد جاء عن ابن عباس أنه قال:** "ما ينزل قطرةٌ من المطر إلا بمكيال من ملكها، ولا ذرةٌ من الريح إلا من خازنها، إلا في يوم قوم نوح فجاء المطر بدون كيل، وطغى على خازنه، وفي قوم عاد طغت الريح وعتت عن خازنها، فلا يدري كم المقدار"[٤]، وقد كانـت شـديدة، بحيـث تقتلع الأشجار والأحجار وتأخذ الناس ثم ترميهم فسقطوا مغشيًا عليهم.

وقوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، **أي:** سلطها على قوم عاد سبع ليال، وثمانية أيام متتابعات لم تنقطع، ودائمة ليس فيهـا فتـور[٥]، وهـذا

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٥٧١)، وتفسير ابن كثير: (٨/ ٢٠٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٠٨).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢٥٩).

(٤) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٥٧٢).

(٥) ينظر: تفسير الخازن: (٤/ ٣٣٣).

يعني أنها بدأت صباحًا وانتهت بنهاية النهار، وقد قيل: إنها ابتدأت في يوم الأربعاء[١]، فتكون انتهت بغروب شمس يوم الخميس، وتعتبر أطول عاصفة مرت على الأرض، فقد استمرت الريح تعصفُ بهم مائة وثمانين ساعة متتابعة، وأنتم تسمعون هذه الأيام عن بعض العواصف العالمية التي تبقى عشر ساعات أو خمسة عشر ساعة، وتُحدث خرابًا ودمارًا كبيرًا، كما حصل قريبًا في بعض الدول الغربية.

وقوله: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾، الخطاب لمحمد ﷺ، ويصلح لكل من رأى المشهد، والمعنى: لو قُدر لك أيها السامع، أن ترى حالهم خلال هذه العاصفة؛ لرأيتهم مثل أعجاز النخل المقطوعة المتناثرة في الأرض التي لا حياة فيها.

ثم قال الله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾، **فهل ترى لهم من أثر؟، الجواب:** لا أثر لهم؛ لأن الله أخذ رجالهم ونساءهم وأطفالهم ومواشيهم وحيواناتهم فلم يبق منهم أي أثر، ولا توالد منهم أحد، بل انتهوا جميعًا، وجاءت باقية هنا مؤنثة؛ لأنها وصفٌ لاسم محذوف، **والتقدير:** فهل ترى لهم نفسًا أو روحًا باقية بعد هذا العذاب الشديد؟!!.

ثم قال: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾، وهو فرعون مصر الذي أُرسل إليه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

---

(١) ينظر: البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٤٢)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٧/ ٦٧٧).

﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ **فيها قراءتان**[١]، بالفتح والسكون، وهي قراءة الجمهور، والمقصود بهم الأقوام الذين كانوا قَبْل فرعون، مثل قوم نوح وغيرهم من الأقوام المكذبة، وبالكسر والفتح، (ومن قِبَلَه)، وهي قراءة الكسائي وغيره، **أي:** ومن في جهته، وهم من كانوا حوله من أركان ملكه، والمؤتفكات؛ وهي قُرى قوم لوط، وكانت ثلاث قرى، وسُميت بالمؤتفكات؛ من الائتفاك وهو القلْب[٢]، فإن جبريل رفعها بجناحه ثم قلب عاليها باطنها، وأرسل عليهم بعد ذلك حجارة من طين، والخاطئة؛ المقصود به الذنب العظيم الذي وقعوا فيه وهو الشرك بالله وتكذيب الرسل وما فعلوه من القبائح.

وقوله: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾، والعصيان؛ هو التكذيب والإعراض، وأفرد رسول والمقصود به الجنس، **أي:** أن كل أمة عصت رسول ربها الذي أرسله إليهم، ففرعون عصى موسى، وقوم لوط عصوا لوطًا، وهكذا، فأهلكهم بأخذة شديدة زائدة على ما يتم به إهلاكُهم، بسبب تكذيبهم، وكفرهم بالله تعالى.

ثم قال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١﴾، والمقصود بذلك قوم نوح، فإنهم لما كذبوا رسولهم نوح ﷺ، دعا الله عليهم، واستجاب الله له ذلك، كما قال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾[القمر:١٠-١٢] **وطغى الماء، أي:**

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٥٧٥).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢٦٢).

تجاوز حدوده وأغرق كل شيءٍ، فغرق أهل الأرض إلا من حمله الله بالجارية وهي السفينة، **والمعنى**: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم في السفينة التي تجري في الماء، وهم نوح ومن آمن معه، ومن كل زوجين اثنين لبقاء نسل الحيوانات وسائر المخلوقات، وسُميت بالجارية؛ لأنها تجري على سطح الماء بواسطة الرياح، وقد صنعها نوحٌ بأمر ربه تعالى.

وقوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾، وفي عودة الضمير **قولان للمفسرين**[١]: **الأول**: جعل الله سفينة نوح تذكرة وعظة لهذه الأمة حتى أدركها أوائلهم، ويمكن أن يقال: أنه يعود إلى جنس السفينة، فأول سفينة صنعها نوح، ثم تعلم الناس صناعة السفن الموجودة اليوم منها، فكانت آية تُذكرنا بسفينة نوح، لأن كل إنسان يرى السفن فتُذكره بسفينة نوح.

والقول الثاني: جعلنا قصة السفينة المذكورة في القرآن، ونجاة من كان فيها، موعظة لمن قرأها واطّلع عليها في كتاب الله، يُستدل بها على فضل الله ورحمته بمن آمن به وبرسله، وبطشه وعذابه لمن كفر به وكذب رسله، وهو الراجح، لسياق بعدها وهو **وقوله**: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾، **أي**: تعي التذكرة، والعِظة، الأذن الواعية التي تسمع وتفهم وتحفظ وتستوعب، وفي هذا إشارة إلى أن التذكرة والموعظة، لا يستفيد منها إلا من وعاها، أما من سمعها بلا وعي، فإنه لا يستفيد منها

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢٦٣).

فوائد وهدايات من الآيات:

١ - إثبات يوم القيامة، وسُمي يوم القيامة بالحاقة لأنه تقع حقًا، أو لأن فيه يتم إحقاق الحق، وإزهاق الباطل، ولأهمية يوم القيامة كثُرت أسماؤه.

٢ - أن من عصى رسولًا واحدًا أو كذّب برسولٍ واحد فقد كذّب بسائر الرسل.

٣ - أن الذي يستفيد من الموعظة هو من يحفظها ويعيها ويسمعها سماع مُتدبِّر، أما من لا يفعل ذلك فتدخل من أذن وتخرج من الأخرى.

تفسير المقطع الثاني من سورة الحاقة

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ
وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ
فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ
فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ
عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنۡ
أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ
أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ
ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ
﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾﴾، **الفاء هنا** فاء التفريع لما سبق، **أي**: إذا ثبت وقوع الحاقة وجاء يوم القيامة فسيكون في ذلك اليوم عدة أمور، ومن هذه الأمور النفخ في الصور، **والمقصود به هنا** النفخة الثانية، فإن النفخة الأولى تكون للصعق، فيموت كل من على الأرض، وأما النفخة الثانية، فهي نفخة الإحياء، والصور هو البوق وهو يُشبه القرن، وقد التقمه إسرافيل

المَلَك الموكل به، وينتظر من ربه تعالى أن يأذن له بالنفخ نفخة واحدة لا ثاني لها، لأن هذه هي النفخة الأخيرة، وفي ذلك إشارة إلى عظمة قدرة الله سبحانه، وأنه يُحيي الخلق كلهم من لدن آدم ﷺ إلى آخرهم، بنفخة واحدة، فتقوم الأجساد وتحشر وتقف بين يدي الله تعالى.

ثم قال: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾، **أي:** أن الملائكة تحمل الأرض، فتُخرجها عن مدارها، فإذا بها تجري فتصطدم بغيرها، ومعروف أن الأجرام السماوية تدور في فلك دائري، وتظل تدور فيه حتى يوم القيامة، فإذا أراد الله خراب الكون خرج كل جرمٍ عن مداره وحصل التصادم والخراب لهذه الأجرام الكونية، وكذلك تحمل الجبال ويحصل لها الدك، وهو الدق بشدة، فإذا دُقت بشدة أصبحت هباءً مُنبثًا، فتدك الأرض والجبال وتُستبدل هذه الأرض الممزقة والمفرقة بأرضٍ جديدة هي أرض المحشر، **كما قال الله تعالى:** ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم:٤٨]، وتكون أرض المحشر، **كما جاء في الحديث:** "**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها علم لأحد**"(١)، **أي:** كقرص خبز البر الدائري المتساوي، كما قال: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[طه:١٠٧].

ثم قال سبحانه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾، **أي:** في ذلك الوقت الذي تُحمل فيه الأرض والجبال وتدك؛ تقع القيامة، **ووقوع الشيء أي:** تحققه وحصوله.

ثم قال: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾، وفي يوم القيامة تنشق السماء

---

(١) صحيح مسلم: (٤/ ٢١٥٠)، برقم: (٢٧٩٠).

بعد أن خلقها الله قوية سليمة من الفطور والخلل، أصبحت ضعيفة لا قوة فيها، ولا صلابة فيها، ولا إتقان في خلقها، بل تحولت من الإتقان والصلابة إلى الضعف وصارت واهية، والواهي من الشيء الذي لا يمسك شيئًا، أو لا يحمل شيئًا.

وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا﴾، والملَك جنس، والمقصود كل الملائكة يكونون مُنتشرين في أطراف السموات وحوافها.

وقوله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ﴾، وفي يوم القيامة، يحمل عرش الله تعالى - الذي فوق السبع السموات، وهو أعظم المخلوقات - ثمانية من الملائكة، **قولان**[1]: **قيل**: ثمانية أشخاص، **وقيل**: ثمانية صفوف من صفوف الملائكة، والأول أرجح، وهم من أعظم الملائكة خلقًا، **وفي الحديث**: **"أُذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام"**[2]، مما يدل على عظمة خِلقة هؤلاء الملائكة.

ثم قال: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾، **أي**: في يوم القيامة، تعرضون على الله لا يخفى من أعمالكم وأحوالكم وأسراركم وأجسادكم أدنى شيء مخفي، فالكل يطّلع الله عليه، والسر يُصبح يوم القيامة علانية، **وقد جاء في الحديث**: **"يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله"**[3].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٥٨٣).

(٢) سنن أبي داود: (٤/ ٢٣٢)،برقم: (٤٧٢٧)، وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح:٨/ ٦٦٥.

(٣) مسند أحمد: (٣٢/ ٤٨٦)، برقم: (١٩٧١٥)، وسنن ابن ماجه: (٢/ ١٤٣٠)، برقم: (٤٢٧٧)، وإسناده ضعيف.

ولما يُحشر الناس ويُجمعون بين يدي الله يوم القيامة، ينقسمون إلى صنفين:

الصنف الأول: يأخذ كتابه بيمينه، **قال الله:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾، وهم المؤمنون، حيث تتطاير الصحف وتُوزع الكتب التي مكتوب فيها الحسنات والسيئات، فالمؤمن يأخذ كتابه بيمينه، وهذه علامة وبُشرى على الخير والسعادة، فإذا أخذ كتابه بيمينه، وفتحه ونظر فيه البشرى له بالجنة، حينئذٍ يفرح ويصيح بأعلى صوته، **ويقول لمن حوله:** ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾، **أي:** خذوا واطّلعوا على ما في هذا الكتاب من البشارة العظيمة، لأنه كان يُخفي أعماله الصالحة في الدنيا إخلاصًا لله، فسمح له أن يُظهرها يوم القيامة فرحًا وسروراً بها، **ثم يقول لمن حوله:** ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾، إني كنت في الدنيا موقنًا أني ملاقٍ جزائي وحسابي عند الله، ولذلك كنت مستعداً له في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح.

ثم وصف الله حاله، فقال: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾، فمن كان هذا حاله؛ فإنه سيكون في الآخرة في عيشةٍ راضية، ووصف العيشة بالراضية مع أن الراضي هو صاحبُها؛ لأن الرضى تحقق له ومنه، فهو في عيشة مرضية، رضي هو عنها، ورضي الله عنه، ثم وصف الله مكان هذه العيشة الراضية للمؤمن فقال: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾، فهو في جنة، وهذه الجنة عالية، والمقصود به العلو المطلق: علو الشأن، وعلو المكان، **وقد جاء في الحديث:** **"الجنة مائة درجة، ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض"**[(١)].

(١) مسند أحمد: (٣٧/ ٣٦٩)، برقم: (٢٢٦٩٥)، وسنن ابن ماجه: (٢/ ١٤٤٨)، برقم: (٤٣٣١)، وإسناده صحيح.

ثم وصف هذه الجنة العالية، فقال: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾، فالجنة رغم علوها وارتفاعها، إلا أن ثمارها قريبة التناول لأهل الجنة، يقتطفون منها دون تعبٍ ولا مشقة، ويقول الله لهم وهم في الجنة: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾، يا أهل الجنة! كلوا من ثمار الجنة، واشربوا من أنهارها دون كدرٍ ولا تنغيص، وكل ذلك لكم بسبب ما قدمتم من أعمالٍ صالحة في أيام الدنيا التي مضت وانتهت، والباء هنا سببية لا ثمنية، والفرق بين الباء السببية والثمنية: أن الباء السببية: تعني أن أعمالك الصالحة كانت سببًا لدخولك الجنة، لا أنها ثمنًا لدخول الجنة، **كما في الحديث: "سددوا وقاربوا، واعلموا أنه لن يُدخل أحداً الجنة عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني منه برحمة"**[(١)]، فالجنة رحمة الله، والأعمال سببٌ لنيل هذه الرحمة.!

وفي ذلك إشارة إلى ضرورة استغلال أيام العمر في الدنيا بالأعمال الصالحة، فهذه الأيام ستكون بعد أن تموت من الخوالي أي التي انتهت وذهبت، ولكن عملُك فيها يبقى ويحفظُه الله تعالى.

ثم أردف يحدثنا عن الصنف الثاني، وهم الكافرون والمنافقون الذين يُؤتون كتبهم بشمالهم أو من وراء ظهورهم، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦﴾، فهذا الصنف يأخذ كتابه بيده الشمال، وهي علامة على الشؤم والهلاك، فإذا أخذ كتابه بشماله وفتحه وجد فيه الموبقات والبشارة بالنار وبئس القرار، **نادى بأعلى صوته:** يا ليتني لم أُعطَ هذا الكتاب،

(١) صحيح البخاري (٨/ ٩٨)، برقم: (٦٤٦٧)، وصحيح مسلم:(٤/ ٢١٧١)، برقم:(٢٨١٨).

ويا ليتني لم أدرِ ما فيه من الفضائح والعقوبات، **أي:** لا يريد أن يعرف ماذا له وماذا عليه؛ لأنه مقتنع أنه على باطل وضلال، ويريد أن يتخلص من حسابه وذنوبه، ولكن الندم اليوم لا ينفع، ثم يقول: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ٢٧﴾، يا ليت الموتة التي متها كانت هي نهاية الحياة، ولا بعث بعدها!، حتى لا يحاسب ولا يُعاقَب.

ثم بدأ يتذكر ماله الذي انشغل به عن طاعة الله وعبادته والإيمان به، **فقال:** ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾، وهذه هاء السكت؛ لأنها تُخرج من داخل النفس، وفيها شعور بالندامة والتحسر، وبعضهم أطلق عليها هاء التحسر!، فلم يجد لماله الذي أنفقه بالباطل في الدنيا أي ثمرة صالحة في الآخرة، ولم يجد للجاه والمنصب في الدنيا أي ثمرة صالحة في الآخرة، بل جاءته العقوبة بسببهما لأنه استغلهما في معصية الله، وبعد ندمه وتحسره وتلفته يمينًا وشمالًا لعله أن يجد منقذًا لحاله؛ إذا به يسمع النداء من الجبار تعالى، آمراً ملائكته: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ٣٢﴾، فيبتدره سبعون ألف ملك[1]، فيُقيّدونه ويحبسونه بالأغلال، فتُربط الأيدي والأرجل إلى رقبته، فيصير مغلولًا، ثم يلقونه في الجحيم، فيحترق فيها، ثم يأمر الله الملائكة أن تسلكه بسلسلة من الحديد الذي قد أُحمي عليه في نار جهنم، **ومعنى يسلك، قيل**[2]: تدخل من دبره وتخرج من فمه، ويصير يُشوى ويُصلى بالنار من الداخل ومن الخارج، والعياذ بالله، **وقيل**[3]: بل هو يُسلك

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢١٦).

(٢) ينظر: المصدر السابق.

(٣) ينظر: تفسير الرازي: (٣٠/ ٦٣١).

فيها، **أي:** يدخل في حِلَقِها، وتكون الحِلق على ظهره وجسده وسائر أعضائه، فتكون السلسة من فوقه، وكلا المعنيين ممكن، وهو تصوير للعذاب الذي يصيبه، فهو مغلول، وهو محروقٌ في النار، والسلسلة قد سلكت فيه، أو هو سلك فيها، **وهذه السلسة قيل**(١): طولها سبعون ذراعًا، بذراعٍ الله أعلم بقدر طولها، **وقيل**(٢): بل المقصود بالسبعين ذراعًا، الوصف بالطول المطلق للمبالغة، كما قال: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ﴾[التوبة:٨٠]، **يريد:** مرات كثيرة، ولأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد.

ثم بيّن تعالى سبب عذاب هذا الكافر في جهنم، **فقال:** ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣٤﴾، **أي:** كان في الدنيا كافراً بالله تعالى، وبرسله وبسائر أركان الإيمان، وكان لا يحث غيره على إطعام الجائعين من المساكين ومن باب أولى أنه لا يُطعمهم من ماله ولا من طعامه، فقد جمع بين السوأتين، وفي هاتين الآيتين إشارة إلى أن المطلوب من العبد لكي يكون صالحًا في هذه الحياة، أن يُحسن علاقته مع الله بالإيمان والعبادات، وأن يُحسن علاقته مع الخلق بالإحسان إليهم، **فذكر هنا نموذجين لذلك:** الإيمان بالله لحسن العلاقة مع الله، والإحسان إلى المساكين لحسن العلاقة مع الخلق، وهما ديوانان: ديوان بينك وبين الله، وديوان بينك وبين الخلق، فديوان الله مبني على العفو في غير الشرك والكفر، وديوان الخلق مبني على المشاحة، فلا بد من أن تستسمِح منهم قبل الموت.!

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٥٨٩).

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٠٥).

ثم قال الله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾، فلا يوجد له في الآخرة من يدافع عنه من الأقرباء ولا من الأصدقاء ولا من الشركاء الذين ادعاهم، وسيكون طعامه في النار الغِسلين، وما هو الغسلين؟ الغسلين: هو الصديد وعُصارة أبدان أهل النار، فهو حارٌ وطعمه قبيح ورائحتُه نتنة، وهذا الطعام مخصص لأصحاب الخطايا العظيمة، وأولها الشرك والكفر وسائر الذنوب والمعاصي.

فوائد وهدايات من الآيات:

١ - عظمة قدرة الله سبحانه، وأنه يُحيي الخلق كلهم من لدن آدم ﷺ إلى آخرهم، بنفخة واحدة.

٢ - أن السر يُصبح يوم القيامة علانية، والجميع يعرضون على الله.

٣ - ضرورة استغلال أيام العمر في الدنيا بالأعمال الصالحة، فهذه الأيام ستكون بعد أن تموت من الخوالي أي التي انتهت وذهبت.

٤ - أن المطلوب من العبد لكي يكون صالحًا في هذه الحياة، أن يُحسن علاقته مع الله بالإيمان والعبادات، وأن يُحسن علاقته مع الخلق بالإحسان إليهم.

تفسير المقطع الثالث من سورة الحاقة

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾، تكرر في القرآن هذا القسَم، **وقد تكلم العلماء في معنى (لا) على عدة أقوال**[١]:

منها: أن (لا) مزيدة للتوكيد، **ومنها:** أن (لا) هنا تنفي ما قبلها ويكون ما بعدها هو القسَم، **ومنها:** أن (لا) هنا جاءت على صيغةٍ اعتاد عليها العرب وهو القسم الذي يتحقق وقوعُه، وهو الذي لا حِنث فيه، فتُضاف إليه (لا) على سبيل التوكيد له، وأتى هنا بصريح الفعل في القسَم، وغالبًا ما يأتي في القرآن محذوفًا، ويُكتفى بأداة القسَم مثل ﴿وَٱلطُّورِ﴾[الطور:١]، **أي:** أُقسم بالطور، وأقسم الله هنا بالذي ترونه بأعينكم وبالذي لا ترونه، فشمل كل شيء، فيدخل فيه ذاتُ الله

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ١٩٢)، وتفسير الألوسي: (١٤/ ١٥١).

تعالى، فإنها مما لا تُرى بالعين في الدنيا، ويدخل فيه الملائكة والجن ويدخل فيه مشاهد اليوم الآخر، ونحوها.

وجواب القسم في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠﴾، فأقسَم على أن القرآن قولُ رسولٍ كريم، يتلوه ويُبلِّغه للناس رسولٌ كريم، هو محمد ﷺ، وقد وصف القرآن **بأنه قول رسول في موضعين: هذا أحدُها**، والمقصود به محمد ﷺ، لأنه بلغه لغيره من أمته.

والثاني: في التكوير، في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾[التكوير:١٩]، والمقصود به جبريل ﷺ؛ لأنه بلّغه إلى محمد ﷺ، وكريم لفظةٌ عامة تدل على عِدة خصال حميدة، اتصف بها نبينُا محمد ﷺ.

ثم قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١﴾، فنفى عن القرآن أن يكون قول شاعر؛ لأنه ليس على نظم الشعر، وإنما له نظمٌ خاصٌ به، وصار نظمُه معجِزًا للبُلغاء والفصحاء والشعراء، فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، بل إن محمداً ﷺ، لم يُعلّمه الله الشعر، **كما قال:** ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾[يس:٦٩]، حفظًا لجنابِه من أن يُتهم بأن ما يبلغه من القرآن مأخوذ من بعض الأشعار التي كان ينظمها، وقوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١﴾ **أي:** قليلًا المُؤمنون منكم بالقرآن وأنه كتابُ الله المُنزّل، والسبب يعود إلى الشك والريب الذي في قلوبهم حوله.

ثم قال: ﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾، ونفى أن يكون القرآن قول كاهن، والفرق بين الكاهن والشاعر، أن الشاعر يقول كلامًا موزونًا مُقفّى ومنتظمًا،

والكاهن يقول نثرًا مسجوعًا، والكاهن أعلى رتبة من الشاعر؛ لأنه يتّصل بالشياطين، ويأخذ منهم بعض المعلومات الغيبية فيُضيفُها إلى سجعِهِ فيفتن بها الناس، بخلاف الشاعر، ولذلك نفى أولًا أن يكون القرآن قول شاعر، ثم ترقى فنفى أن يكون قول كاهن، **وقد ورد** أن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: "خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، فقرأ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، فقلت: كاهن، فقرأ: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، إلى آخر السورة، قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع"[١]، وكانت هذه أول محاولة لعمر في معرفة الإسلام، وبداية دخول القناعة به إلى قلبه، ثم أسلم بعد ذلك بسبب حوادث أخرى وقعت له.

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾، **أي:** قليل منكم من يتعظ، والتذكرة هنا بمعنى الموعظة، والاتعاظ.

ثم وصفه بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾، **أي:** أن القرآن ليس بقول محمد، ولا بقول شاعر، ولا بقول كاهن، بل هو كلامُ الله، الله تكلّم به، ثم سمعه منه جبريل فبلّغه إلى محمد ﷺ، فوصفه بأنه تنزيل، **أي:** كلامه الذي أنزله لخلقه، وأتى بلفظ رب؛ ليُشعر الخلق بعنايته ورعايته لهم من خلال إنزاله لكتابه عليهم، ولفظ العالمين؛ ليشمل كل العوالم، فالقرآن رحمة للخلق أجمعين.

---

(١) مسند أحمد: (١/ ٢٦٢)، برقم: (١٠٧)، وأورده الهيثمي، في مجمع الزوائد: ٩/ ٦٢، **وقال:** رواه الطبراني، في الأوسط، ورجاله ثقات، إلا أن شريح بن عبيد لم يدرك عمر.

ثـم قـال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾، التقوُّل هو نسبةَ القول إلى شخصٍ لم يقُلْه، ولو أن محمدًا ﷺ، أضاف في القرآن بعض الآيات أو زاد فيه بعض الكلمات؛ لما ترك الله عقوبته على هذا الفعل، بل لانتقم الله منه بقوة، وإنما عبّر هنا باليمين لأن استخدام اليد اليمنى أقوى من اليسرى، كما قال: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[الصافات:٩٣]، **أي:** ضربهم بيده اليمنى، والمقصد من هذا اللفظ بيان قوة الأخذ والعقوبة، **أي:** لعاقبناه وانتقمنا منه بقوة وشدة، ثم لقطعنا منه الوتين وهو العِرق الذي يصلُ بين الدماغ والقلب، وهو يُسمى نياط القلب(١)، وهو الذي يُقطع حينما تُذبح الحيوانات، فينهُمر منه الدم ويخرج منه بشدة، وهو أقرب وسيلة للهلاك، **أي:** لأنهينا حياته وأهلكناه بسرعة.

ثم قال: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾، ولو فعلنا فيه تلك العقوبة؛ فلا أحد منكم ولا من غيركم يحجُزنا عنه ولا يمنعنا منه.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾، عاد مرة أخرى لوصف القرآن، بعد أن ذكر بعض الجُمل الاعتراضية، فالقرآن تذكرة وموعظة ينتفع منها المتقون، **كما قال:** ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾[الذاريات:٥٥]، فالمؤمن وصاحب الخشية من الله تعالى، هو الذي ينتفع من الذكرى، أما المعرض والكافر بالله فلا يستفيد من الذكرى، والمُتقي هو من اجتنب المُحرمات والمكروهات، وفعل الواجبات والمستحبات.

---

(١) ينظر: العين (٨/ ١٣٦).

ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾، هذه جملة اعتراضية والمعنى: مع عِظم هذا القرآن ومكانته، إلا أنه سيوجد منكم مُكذبون به، وعند الله العلم المُسبق بذلك، فمهما كان وصفُ القرآن ومهما كان بلاغتُه؛ إلا من طُبع على قلوبهم من المُخاطَبين به وهم كفار مكة، لا يصدقون به، وسيستمرون في التكذيب والإعراض عنه.!

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾، رجع مرةً أخرى لوصف القرآن، وأنه سيكون حسرة على من كفر به، في الدنيا وفي الآخرة، أما في الدنيا فإن القرآن فضح عقائد وأخلاق وآلهة الكفار فهو يستمع القرآن ولم يستطع أن يُؤمن في الدنيا بسبب إعراضه، فيكون القرآن حسرة عليه، أما في الآخرة فحين يُبعث الكافر ويرى من آمن بالقرآن وعمل به يدخلون الجنان ويُكرّمون بين يدي المنّان سبحانه، فإنه يتحسر على نفسه ويدعو عليها بالثبور والهلاك.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾، **أي:** إن القرآن الكريم هو حق اليقين، وهي أعلى مراتب العلم وذلك أن مراتب العلم ثلاثة: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، فعلم اليقين هو: الذي يصل إليك عن طريق السمع من ثقة، وعينُ اليقين هو: الذي يصل إليك عن طريق النظر، فتراه بعينك، وحق اليقين هو: الذي يصلُك عن طريق الذوق والملامسة، فالقرآن يتذوقُ معناه المؤمنون، ويعرفون قيمته، فوصل عندهم العلم به إلى مرتبة حق اليقين.

ثم ختم الله هذه السورة بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ أمر عبده ورسوله محمداً ﷺ أن ينزّه ربه تعالى، عما لا يليقُ به، مما ادّعاه الكفار من الشركاء

والأنداد له، جلّ وعلا، والباء هنا للملاصقة، يعني: للبركة، **أي:** تبرّك باسم الله، حين تقول: سبحان الله، مثل ما تقول: بسم الله، والتسبيح من أفضل العبادات والطاعات القولية التي ينطق بها اللسان، ويدخل في معنى التسبيح، تسبيح القلب وهو تعظيم الله في النفس، وقد أمر الإنسان أن يُسبح ربه في موضعين في الصلاة: في الركوع يقول: سبحان ربي العظيم، وفي السجود يقول: سبحان ربي الأعلى، تنزيهًا لله تعالى وتقديسًا لمكانته العالية العظيمة في نفوس الخلق.

فوائد وهدايات من الآيات:

١ - تنزيه القرآن الكريم عن أن يكون قول شاعر أو قول كاهن، بل هو كلام الله تعالى.

٢ - بيانُ خطر التقوّل على الله، ولو كان من نبي، مع أن النبي مُعظم ومُقدر عند الله، لكن لو زاد كلمة لم يقلها الله في الوحي لعاقبه الله.

٣ - أن القرآن حسرة على من لم يؤمن به ولم يعمل بما فيه.

٤ - جواز قول: سبحان الله، على سبيل التنزيه، وعلى سبيل التعجب، عند سماع من يُنسب إلى الله، أو إلى دين الله، أو إلى رسول الله ﷺ ما لا يليق به.

تفسير سورة المعارج

تفسير المقطع الأول من سورة المعارج

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ١٨﴾.

شخصية السورة:

سورة المعارج؛ سورةٌ مكية بلا خلاف[١]، نزلت قبل الهجرة، والمقصد العام لهذه السورة هو: بيانُ حال الخلق يوم القيامة.

وقد ابتدأت بقول الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١﴾، أخبر الله تعالى في هذه الآية أن هناك سائلًا ما سأل ودعا على نفسه بالعذاب، **وقد قيل**[٢]: إن هذا

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٦٤).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣٣٥)، و تفسير النسفي: (٣/ ٥٣٥).

السائل هو حارثة بنُ النضر، **وهو الذي قال:** ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[الأنفال: ٣٢]، وهو خلاف ما يجب على العاقل قوله، وهو إخبارٌ يُعم المشركين كلهم وإن كان تلفظ به أحدُهم؛ لأنهم كانوا يسألون رسول الله ﷺ بين الحين والآخر عن موعد الساعة، وعن نزول العذاب بهم، وعن مجيء البعث، على سبيل الاستهزاء والتكذيب، وهو متحقق وقوعه لا محالة، وليس بمتخلِّف، وهو العذاب والنكال الذي أعده الله للكفار يوم القيامة.

وفي قوله: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢﴾، اللام للتعليل[١]، **أي:** أن هذا العذاب والعقوبة كائن بهم بسبب كفرهم، ولا يرده عنهم راد، ولا يدفعه دافع.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣﴾، فهو عذاب صادر عن الله الذي قدّره وأوجده وأمر به، ووصف نفسه بذي المعارج **أي:** صاحب العلو والدرجات، فالمعارج جمع مِعراج.

والمِعراج: هو السلم والدرج الذي يُصعد به إلى أعلى، وفي هذه الآية دليلٌ على علو الله على خلقه، فإنه على العرش استوى سبحانه.

ثم قال جلّ وعلا: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾، **أي:** تصعد الملائكة إليه، **وفي معنى الروح، قولان: الأول**[٢]: إنه جبريل، **والمعنى:** ويصعد جبريل إنه معهم إليه، فيكون من ذكر الخاص بعد العام لمزيد اختصاص.

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٣٤٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٦٠١).

والثاني[(١)]: إن الروح هنا هي: جنس الأرواح، **أي**: أرواح عموم المخلوقات التي تصعد إلى الله، بعد وفاتها وقبض ملك الموت لها، والأول أرجح، وقوله: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤﴾، إذا علّقنا الظرف بالعُروج، فهذا العُروج إما أن يكون في الدنيا، فمعناه: أن مقدار الوقت الذي تُقطع فيه المسافة بين الأرض السابعة وبين عرش الرحمن، هو خمسون ألف سنة[(٢)].

وإما أن يكون في يوم القيامة، فمعناه: أن مقدار ذلك اليوم الذي يُحاسب فيه الكفار ويقفون بين يدي الله في أرض المحشر للحساب خمسون ألف سنة من أيام الدنيا[(٣)]، ولكن الله تعالى يجعله على المؤمن في مقدار صلاة فريضة، كما جاء في الحديث[(٤)]، فهو خفيف على المؤمنين، وثقيل على الكافرين، والثاني أرجح.

ثم قال الله لنبيه: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥﴾، **أي**: فاصبر يا محمد، على أذية الكفار واستهزائهم وأسئلتهم الاستفزازية لك، وأمره أن يصبر عليهم صبراً جميلًا، وليس مجرد الصبر، فما هو الصبر الجميل؟! الصبر الجميل المقصود به: الصبر الذي لا شكوى فيه ولا تأفف، فيجمع بين رضى القلب وسكون

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٣٤٥).

(٢) ينظر: تفسير الرازي: (٣٠/ ٦٤٠).

(٣) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٦٠٢).

(٤) مسند أحمد: (١٨/ ٢٤٦)، برقم: (١١٧١٧)، وأورده الهيثمي، في مجمع الزوائد: ١/ ٣٣٧٠، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، وإسناده حسن، على ضعف في راويه، وحسن الحافظ إسناده في الفتح: ١١/ ٤٤٨.

الجوارح، لأنه يمكن تتحمل أن من الناحية الجسمية الألم والتعب، ولكن لا تتحمله من الناحية النفسية فلا ترضى بما أصابك، بل تشكو أمرك إلى غير الله، فمثلاً: لو سبك شخص فصبرت عليه، ولم ترد عليه سيئته، ولكنك بعدما ذهبت عنه حدثت أصحابك، فقلت: هذا فعل لي كذا وكذا، ولكني والحمد لله صبرت عليه، فقولك هذا أخرج صبرك عن وصف الصبر الجميل، بل عليك إذا أردت أن يوصف صبرك بالجميل؛ أن لا تُحدث بذلك أحدًا، وأن تحتسب الأجر من الله، فهو يعلم بحالك سبحانه.

ثم قال الله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾﴾، الضمير يعود إلى العذاب، وهذا سببُ استبعادهم له واستهزائهم به؛ فقد كانوا يرونه مستحيلاً، وأنه لن يقع، وأن وقوعه بعيد، فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾، **أي**: ليس قوعه عندنا بمستحيل ولا بمُستبعد، بل هو كائن لا محالة، وإن وقوعه قريب جداً.

ثم بيّن متى يكون ذلك العذاب، فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾، حين تتمزق السماء وتضعف، وتكون كالمهل، **وهو**: ما أذيب من الرصاص والنحاس والفضة[١]، أو تكون مثل دردي الزيت[٢]، **وهو**: بقايا الزيت الذي يستقر في أسفل الوعاء بعد غليانه، وقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾، **أي**: تصير الجبال الصلبة كالصوف المتمزق، ففي هذا اليوم تقوم القيامة، ويُحشر الناس بين يدي الله تعالى، ثم **وصف حال الناس في ذلك اليوم، فقال:** ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾،

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (١٨/ ٢٨٤).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٣٤٦).

أي: من شدة الخوف والفزع؛ فكل واحد مشغول بنفسه، فلا يسأل الصديق عن حال صديقه، كما قال: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٖٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾[عبس:٣٧].

ثم قال: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾، أي: يُبصر كل إنسان صاحبه في المحشر(١)، فيتمنى الكافر المجرم في ذلك اليوم، لو يفتدي من العذاب بأحب الناس إليه، من فداء الأسير، وهو: دفع مادي مقابل فكه من الأسر، فالمجرم أسير بين يدي الله بسبب كفره، وسيُلقى في جهنم، فيتمنى أن يأخذوا أبناءه إلى جهنم بدلًا عنه، وقد كان في الدنيا يُدافع عنهم، ويسهر ويتعب من أجلهم، ولا يريد أن يكون أحد أفضل منهم، فإذا لم يُقبل منه الأبناء، أضاف إليهم زوجته وإخوانه، وذكر هنا الزوجة والأخ بالمفرد، والمقصود بذلك الجنس فيعم جميع زوجاته وجميع إخوانه، فإن لم يقبل منه ذلك أضاف إليهم الفصيلة، والفصيلة هي القبيلة والعشيرة التي ينتمي ويرجع إليها(٢)، فإذا لم يقبل منه ذلك كله، قال: أُعطيكم من في الأرض جميعًا بدلاً عني، وخلوا سبيلي، وهذا كله على سبيل التمني والافتراض، وإلا فهو لا يملك التصرف بكل من ذكر في يوم القيامة، وفي ذلك إشارة إلى حال الكافر المجرم في ذلك الموقف العظيم، وأنه لو طُلب منه الفداء لافتدى بأولاده وبزوجته وبإخوانه وبأبيه وأمه وعشيرته وقبيلته، بل لافتدى بأهل الأرض جميعًا، من أجل أن يحصل على

(١) ينظر: المصدر السابق: (٥/ ٣٤٧).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٢٥).

النجاة من العذاب، وأنّى له ذلك؟!. فكان الرد من الله تعالى على هذا التمني الذي طلبه الكافر المجرم **بقوله:** ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ١٦﴾، كلا، كلمة ردع وزجر، تردع وتزجر كلما سبق ذكره وهو قبول الفداء وحصول النجاة للمجرم، فلا فداء مقبول، ولا نجاة حاصلة لك أيها المجرم، بل مصيرك إلى لظى، واللظى في الأصل هو: الشيء المُلتهب شديد الحرارة[(١)]، فهو اسم لجهنم، فهي مشتعلة ملتهبة بأهلها، وهي نزاعة صيغة مبالغة من النزع وهو الأخذ بشدة وقوة، **والشوى قيل**[(٢)]: إنها جلدة الرأس، تنتزعُها النار وتأخذها بقوة، **وقيل**[(٣)]: إنها اللحم والعصب الموجود في الإنسان تنزعه النار فلا يبقى إلا عظمه، **وقيل**[(٤)]: إنها كل الأعضاء ما عدا الرأس، فتأخذ الأطراف والأرجل والجلد وسائر اللحم وسائر العظم، وهذا المعنى أشمل، وهو يتوافق مع الواقع أن النار إذا عُرضت على الجسد فإنها تبدأ بأكل الشيء اللين منه، وأول شيء يُؤكل الجلد ثم اللحم ثم العصب ويبقى العظم آخر شيء، وعبّر بالنزع؛ ليذوق العذاب، لأنها لو أحرقته دفعة واحدة لانتهى، ولكنها تنتزعه عضوًا عضوًا، وعصبًا عصبًا، وقطعةً قطعةً، والعياذ بالله.

ثم قال: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧﴾، **قيل**[(٥)]: إن جهنم تصيح وتنادي، حيث

(١) ينظر: تاج العروس: (٣٩/ ٤٥٩).
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٢٥).
(٣) ينظر: تفسير البغوي: (٨/ ٢٢٣).
(٤) ينظر: التفسير البسيط: (٢٢/ ٢٢٠).
(٥) ينظر: زاد المسير: (٤/ ٣٣٧).

يخلق الله للنار لسانًا، فتتكلم ويسمعها الكافر، وهي تدعوه وتناديه، تقول: إليّ، يا مشرك، إليّ يا منافق، **وقيل**[١]: إن خزنة جهنم من الملائكة، هم الذين يدعون وينادون الكفار، لا مانع من أن يكون هذا وذاك، بل دعاء النار لصاحبها أشد إعجازًا وأشد فزعًا وخوفًا للكفار، الذين أدبروا في الدنيا عن سماع الحق، وتولوا عن الإيمان بالله تعالى، **وقيل**[٢]: تدعو من يهرب مدبراً على ظهره في المحشر، حينما يرى جهنم؛ فتدعوه وتأخذه، والقول الأول أرجح؛ للسياق بعده، ولأن الثاني وصف لحال الناس في المحشر، ويمكن أن يقع من المؤمن والكافر، بخلاف الأول، فهو خاص بالكفار، وهم الذين أعرضوا عن الحق وتولوا عن الطاعة والعبادة في الدنيا.

وقوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ١٨﴾، هذا استكمال لوصف حال الكافر في الدنيا، **قيل**[٣]: جمع المال، وكان حريصًا عليه، وحفظه ولم ينفقه، بل جعله داخل الوعاء، وربط وكاءه، **بمعنى**: أنه كان حريصًا على جمع المال، بخيلًا في إنفاقه، **وقيل**[٤]: أنه جمع الخبائث كلها من الكفر والشرك والفساد وسائر المعاصي، واستمر يمارسها، والمعنى الثاني أشمل، فدل على أنه كان قبيحًا في عقيدته بربه، وقبيحًا في أخلاقه وتعامله مع الخلق.

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٣٤٨).

(٢) ينظر: تفسير الماتريدي: (١٠/ ٢٠٤).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٢٨٩).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ١٦٦).

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن الكفار كانوا يسألون رسول الله ﷺ بين الحين والآخر، عن موعد نزول العذاب بهم، على سبيل الاستهزاء والتكذيب، وهو متحقق وقوعه بهم لا محالة.

٢- فضل وأهمية الصبر الجميل، وأن الأجر فيه عظيم، وهو الذي لا شكوى فيه.

٣- شدة الفزع والهلع والخوف في يوم القيامة حتى لا يعرف القريب قريبه ولا الصديق صديقه.

٤- بيان شدة عذاب النار وأن المجرم يتمنى أن يفتديها بكل ما يملك، بل يفتديها بأهل الأرض كلهم لو قُدر له أن يملكهم.

٥- أن جهنم يوم القيامة تصيح وتنادي الكفار الذين أدبروا في الدنيا عن سماع الحق، وتولوا عن الإيمان بالله تعالى، وتردهم إليها.

تفسير المقطع الثاني من سورة المعارج

﴿ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾
إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ
وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ
غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾
وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ
جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾
عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾
يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي
كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾، هذا إخبارٌ من الله تعالى عن الفطرة التي خُلق عليها جنس الإنسان، فإنه مجبولٌ في طبعه وفي خلقته على عدم الصبر والتحمل،

والهلوع هو: الذي يجزع ويفزع من الشر، ويحرص ويشح على المال، أو الضجور الذي لا يصبر على المصائب[١]، **أي**: تتغير طباعُه تبعًا لما نزل به من خير أو شر، وإن كان الهلع غالبـًا يُستخدم في شدة الجزع، **ولكن الآيات هنا ذكرت أن الهلوع هو**: الذي لا يستطيع أن يثبُت على حال، فإذا نزل به شرٌ أو مُصيبة أو بلاء؛ أصيب بالجزع وعدم الصبر والتحمل، وإذا نزل به خير أُصيب بالحرص ومنع البذل والعطاء والإنفاق في وجوه الخير، **بمعنى**: إذا أصابه الفقر لم يصبر، وإذا أصاب المال لم ينفق[٢].

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾، استثنى الله من صفات هذا الإنسان الهلوع الجزوع المنوع، المُصلين، ويقصد بهم المؤمنون، فالصلاة لا تقبل إلا بعد الإيمان، **ثم وصفهم بقوله**: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾، **دائمون فيها معنيان**[٣]: **من المداومة، وهو الاستمرار** على أدائها، فالمحافظة على الصلاة علامة على الإيمان، فهم مستمرون عليها، محافظون عليها في كل الفروض، وفي كل الأوقات، **وقيل**: إن دائم هنا بمعنى خاشع، ومنه الماء الدائم، أي الساكن، ولا تعارض بين المعنيين، فكلاهما مطلوب من المصلي.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾، وهذا الوصف الثاني لهم، فهم محافظون على الصلاة بخشوع، وغير مقصرين في أداء

---

(١) ينظر: القاموس المحيط: (ص: ٧٧٦).

(٢) ينظر: تفسير البغوي: (٨/ ٢٢٣).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٢٦).

الزكاة والصدقة، فقد جعلوا نصيباً معيناً في أموالهم لمن سألهم من المحتاجين، ولمن لم يسألهم منها من المتعففين الذين حرمهم حياؤهم من سؤال الناس مع حاجتهم، **كما قال الله تعالى:** ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣]، وفي الحديث: "ليس الفقير الذي يتكفف الناس ولكن هو الذي لا يسأل ولا ينتبهون له"؟ **أي:** حرمه حياؤه أن يسأل، أو حُرم بسبب كثرة السائلين؛ فيُعطي الناس لمن يسأل، وينسون المستحق المتعفف الجالس في بيته ولا يخرج يطلب الناس.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾، **وهذه الصفة الثالثة لهم،** أنهم يُؤمنون بيوم الحساب، وهو يوم القيامة، وسُمي بيوم الدين؛ لأن الله يُحاسب فيه كل إنسان بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، إلا أن يعفو الله سبحانه وتعالى عنه.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾، وهذه الصفة الرابعة لهم، أنهم خائفون من عذاب الله تعالى، فالمُشفِق هو الخائف الحذر، حذر من مخالفة أمر الله، وخائف من عذابه وعقوبته في يوم القيامة، ومن كان هذا حاله؛ فإنه لن يقع فيما يُغضب الله ويسخطه.

ثم بيّن سبحانه أن عذاب الله لا يأمنه إلا الكافر الغافل، أما المؤمن العاقل فإنه لا يأمن مكر الله، فقد ينحرف قلبُه في أي لحظة، فيظل على حذر وخوف من عذاب الله، فمن أمن عذاب الله ومكر الله وقع في المخالفة.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾، **وهذه الصفة الخامسة لهم،** أنهم

يحفظون فروجهم، وحفظها يشمل أمرين: حفظها من الوقوع في المحرم من زنا ولواط؛ وهو نكاح الرجل للرجل، وسحاق؛ وهو الاستمتاع بين المرأة والمرأة، ونحوه، وحفظها من أن تُكشف فيراها من لا يجوز له أن يراها.

وقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠﴾، **واستثنى من الأمرين السابقين** الأزواج والإماء والسرايا المملوكات لسيدهن، فللرجل أن يستمتع بزوجته ويرى عورتها، وللمرأة أن تستمتع بزوجها وترى عورته، فلا حرج فيما بينهما في هذا الباب، وكذلك يجوز للرجل أن يستمتع بملك يمينه من الإماء والسرايا، ويرى عورتهن، فقد رفع الله اللوم عمن فعل ذلك؛ لإباحته له، ولا يوجد الآن إماء ولا سرايا، فلم يبق في هذا العصر إلا إباحة استمتاع الزوجين بعضهما ببعض.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١﴾، **أي**: فمن أراد أن يستمتع بغير الزوجة أو الأمة فهو متعدٍ لحدود الله، ومنتهك لما حرم الله، وفي هذه الآية دليل على تحريم ما يُسمى بالعادة السرية، أو الاستمناء باليد، لأنه خارج عن المأذون به.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢﴾، **وهذه الصفة السادسة لهم**، أنهم يُحافظون على ما ائتمنوا عليه، سواء كانت من الأمانات الحسية أو الأمانات المعنوية، ويدخل في ذلك أمانة التكاليف كلها، **كما قال**: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾[الأحزاب:٧٢]، كالصلاة، والصوم، وسائر الفرائض، وكالغسل من الجنابة، والوضوء للصلاة وسائر التكاليف الشرعية، ويدخل فيها

الأيمان والعهود، ونحوها، فيجب على العبد رعايتها والمحافظة عليها، وعدم التفريط بها.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣﴾، **وهذه الصفة السابعة لهم،** أنهم يقومون بالشهادة على أكمل وجه، مكتملة الوصف لا زيادة فيها ولا نقصان، إذا طلبت منهم، ولا يكتمونها، لأن من دُعي إلى شهادة فلم يأت بها، فهو آثم، **كما قال:** ﴿وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾[البقرة:٢٨٣]، وذلك لأن بالشهادات تحفظ حقوق الناس، وتقام الحدود.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٣٤﴾، **وهي الصفة الثامنة لهم،** أنهم يحافظون على الصلاة، فابتدأ صفاتهم بالصلاة وختمها بالصلاة؛ لِيُشعرنا بقيمة وأهمية الصلاة عند الله، فالصلاة صلة بين العبد وربه، وهي أهم صفة يتميز بها المؤمن، وهي عبادة مكررة في اليوم والليلة خمس مرات، ولا تسقط عن الإنسان إلا إذا ذهب عقلُه، **وقال في الصفة الأولى:** ﴿دَآئِمُونَ﴾، **وختم هنا بقوله:** ﴿يُحَافِظُونَ﴾، **ما الفرق بين اللفظين؟ الجواب: دائمون؛ بمعنى:** الاستمرار بأدائها وعدم تركها أحياناً؛ **ويُحافظون، بمعنى:** يؤدونها على أكمل وجه بشروطها وأركانها وواجباتها.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾، **أي:** الذين سبق ذكرُ صفاتهم، واتصفوا بها مصيرهم إلى جنات، وعبّر بـ(في) التي تدل على الظرفية، بمعنى أنهم سيستقرون فيها، ولن يخرجوا منها، وهم مُكرمون فيها، وكرم الله بهم لا يُعد ولا يُوصف، ففي الجنة ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم قال: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦﴾، **الفاء هنا** فاء التفريع، حيث رجع السياق يصف لنا حال الكفار، فسأل عن حالهم سؤال تعجب، والمقصود بهم المشركون الذين كانوا يتجمعون حول محمد ﷺ، حينما يدعوهم إلى الإيمان، ما لهم قادمين إليك، مسرعين خائفين، **والمهطع:** الذي يقبل مسرعًا خائفًا ويمد عنقه ويصوب رأسه(١)، فوصف حالهم في المجيء إلى رسول الله ﷺ، وهم مسرعون مرتبكون ومُحركون رقابهم، وهذا يدل على أنهم لم يأتوا للعلم والفائدة، لأن الذي يأتي للعلم والفائدة يأتي مؤدبًا، متواضعًا.

وقوله: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧﴾، **المقصود** أنهم كانوا محيطين برسول الله ﷺ من كل الجهات، وإنما ذكر اليمين والشمال كعلامة من علامات الجهات، فقد تجمعوا حوله في جماعات متفرقة، وجاؤوا بقلوب متنافرة وبأفكار مختلفة وبآراء متناقضة، فتناقضت أفكارُهم وتباعدت أجسادُهم.

وقوله: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ٣٨﴾، هذا ملخص لما كان يدور أثناء التجمع والإحاطة بالنبي ﷺ، **فقد كانوا يقولون:** لا يوجد جنة ولا نار ولا بعث، ولو افترضنا أن هناك جنة في الآخرة؛ فنحن أولى بها من هؤلاء المؤمنين الضعفاء!!، لأننا مُكرمون بالمال والجاه في الدنيا، فسنكون مكرمين في الآخرة في الجنة، فرد الله عليهم بسؤال استنكاري، كيف يطمع هؤلاء المشركون أن كل واحد منهم سيدخل الجنة قبل المؤمنين وينعم فيها؟!!، **ثم قال:** ﴿كَلَّآ﴾، كلمة ردع وزجر، **أي:** لا يمكن أن يتم ما طمعتم فيه من دخول الجنة، قياسًا

---

(١) ينظر: المعجم الوسيط (٢/ ٩٨٨).

على تنعمكم بالدنيا، فالجنة أمرها يختلف عن الدنيا، فالدنيا يُعطيها الله من أحب ومن لا يحب، وأما الآخرة والجنة، فلا يمنحها الله إلا لمن أحب، **وفي الحديث:** **"واعلموا أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة"**[(١)]، فنفس الكافر لا تدخل الجنة، بل هي محرمة عليه، **كما قال:** ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾[المائدة:٧٢].

وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾، لما افتخروا وتكبروا على الضعفاء بما منحهم الله من نعم في الدنيا، نبههم الله إلى أصل خلقتهم، وأهمله ولم يذكره لهم تحقيراً له، وقد ذكره في آية أخرى، **كما قال:** ﴿مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾[المرسلات:٢٠]، **والمعنى:** كيف تتكبرون على خلق الله، وأنتم مخلوقون من نطفة مهينة؟!!.

وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾، **سبق أن القسَم الذي يتحقق ولا حنث فيه يُبتدأُ به بـ"لا"، وهنا أقسم برب المشارق أي:** أقسم الله بنفسه، وأتى بصيغة الجمع، ويُقصد بها أحد أمرين: إما مشرق كل كوكب، لأن الكواكب تُشرق وتغيب، أو يُقصد بها مشارق الشمس المتعددة خلال السنة[(٢)]، ومثلُها يقال في المغارب، **وجوابُ القسَم في قوله:** ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾، **أي:** فعندنا القدرة المطلقة على تبديلهم بغيرهم ممن يُطيع الله، **كما قال:** ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾[محمد:٣٨]، فيُهلكهم الله، ويأتي بقوم خيرٍ منهم يعبدون الله، والخطاب لكفار مكة في الدنيا.

---

(١) مسند أحمد: (٢/ ٣٢)، برقم: (٥٩٤)، وسنن الدارمي: (٢/ ٨٩٦)، برقم: (١٤٧٠)، وسنن الترمذي: (٥/ ٢٧٦)، برقم: (٣٠٩٢)، وإسناده صحيح.

(٢) ينظر: تفسير الخازن: (٤/ ٣٤٢).

وقوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾، **أي:** بمغلوبين، فلا أحد يسبقنا إلى ذلك بسبب عجزنا عنه، فنحن قادرون على ذلك.

وقوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٤٢﴾، اتركهم وأعرض عنهم، ولا تشغل نفسك بمجادلتهم فهؤلاء قومٌ معاندون، لا ينفع معهم الحوار والجدال، وليس معنى ذلك أن لا تدعوهم أو أن لا تعظهم، بل معناه لا تضيع وقتك معهم، واتركهم في خوضهم، وهو الكلام الباطل، الذي لا حجة له ولا برهان، واللعب معناه عدم الجد، فقد اتخذوا هذه الحياة الدنيا حياة للهو واللعب، ولم يستعدوا فيها للآخرة، واستمر في تركهم حتى يموتوا، ويلقوا الله في يوم القيامة، وهو يومُهم الذي كانوا يوعدون به في الدنيا.

وقوله: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣﴾، وفي يوم القيامة، يخرجون من قبورهم، وسُمي القبر جدِثًا لأنه حفرة، فينتشرون من قبورهم مسرعين، **كما قال:** ﴿كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧﴾[القمر:٧]، وشبه سرعتهم في الحشر كسرعتهم إلى أصنامهم في الدنيا المعروفة لهم، والنُصب هو ما يُنصب للعبادة، وهو الصنم، والنُّصب هو الشيء الذي يكون واضح المعالم لمن يراه.

ويُوفضون أي: يتسابقون سريعين كل واحد يريد أن يسبق الآخر، والإسراع في السير إلى المعبودات الباطلة كان عادة للمشركين(١).

ثم وصف حالهم، فقال: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤﴾، **أي:** ذليلة أبصارهم من شدة الاحتقار لهم، تغشاهم الذلة، فالذل ليس في وجهه

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٧٤).

فقط، بل غطى الذل كل أعضائه وجسده، وذلك هو يوم القيامة الذي كنتم تكذبون به وتنكرون وقوعه.

فوائد وهدايات من الآيات:

١ - أن الإنسان مجبولٌ في طبعه وفي خلقته على عدم الصبر والتحمل، وأن الإيمان والعمل الصالح سبب لتغيير هذا الطبع والتغلب عليه.

٢ - أن من يستمتع بغير الزوجة، أو الأمة، فهو متعدٍ لحدود الله، ومنتهك لما حرم الله تعالى.

٣ - أن ابتداء الصفات بالصلاة وختمها بالصلاة؛ يُشعرنا بقيمة وأهمية الصلاة عند الله تعالى.

٤ - أن الجنة محرمة على الكفار ولا يدخلها إلا نفس مؤمنة.

تفسير سورة نوح

تفسير المقطع الأول من سورة نوح

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾ قَالَ
يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ
وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ
قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ
أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ
جِهَارٗا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴿٩﴾ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا
﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا
﴿١٢﴾ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴿١٣﴾ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴿١٤﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة نوح؛ سورة مكية، بإجماع المفسرين[1]، والمقصد العام لهذه السورة، **هو**: البيان التفصيلي لقصة دعوة نوح لقومه، وأساليبها وهو نوع من التسلية والتعليم لرسول الله ﷺ، لكي ينشط ويستمر في دعوة قومه ويتفنن في

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٧٢).

أساليب الدعوة معهم، كما فعل نوح ﷺ، مع قومه.

ابتدأت بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾، (إنّا) المؤكدة التي تدل على أن الإرسال لنوح حصل وتأكد وقوعه من الله تعالى، وعادة الله في الرسل أن يبعث في كل قوم رسولًا منهم، فبعث نوحًا ﷺ إلى قومه، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض[(١)] بعد آدم ﷺ، **وفي الحديث: "أن التوحيد بقي في الأرض عشرة قرون بعد آدم"**[(٢)]، **أي**: ألف سنة، ثم بدأ الشرك يدب إلى البشرية، فأرسل الله نوحًا ﷺ إليهم، ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

وقوله: ﴿أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١﴾، فالهدف من الإرسال هو الإنذار بترك الشرك، ولم يُذكر بجواره ذنوبًا أخرى، فقد كان الناس ما زالت فطرُهم في الغالب في جانب الأخلاق والقيم سليمة ولم تنحرف انحرافًا كبيرًا، وإن كان أعظم انحرافهم هو الشرك، وبيّن لهم أن مصير الكافرين هو العذاب الأليم، **أي**: الموجع الذي يُؤلم صاحبه.

وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢﴾، فامتثل نوح الأمر وأبلغ قومه ما طُلب منه.

وقوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣﴾، (أن) هي التفسيرية، التي تُفسر ما ذكر قبلها بما يأتي بعدها، وهنا فسرت الإنذار بأمرهم بعبادة الله تعالى، وهي: فعل الإيمان والطاعات والقرُبات، وأمرهم بتقوى الله تعالى، وهي ترك الشرك

---

(١) صحيح البخاري: (٨/ ١١٦)، برقم: (٦٥٦٥).

(٢) صحيح ابن حبان: (١٤/ ٦٩)،برقم: (٦١٩٠).

والمحرمات والذنوب والمعاصي، وأمرهم بطاعة نوح ﷺ، وهي طاعة الرسول فيما أمرهم به، أو فيما نهاهم عنه، وحذفت ياء المتكلم للفاصلة.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، **أي:** إن استجبتم لما أمرتكم به، غفر الله لكم ذنوبكم السابقة، **إذا قلنا:** أن (مِن) بيانية(١)، أو يغفر لكم بعضًا من ذنوبكم وهي الذنوب العظام **إذا قلنا:** إن (مِن) تبعيضية(٢)، وهذه جائزة أُخروية، ووعدهم بجائزة دنيوية، وهي أن يُمتعهم في الحياة الدنيا ويجعلهم يعيشون بسعادة ونعمة إلى أن يأتي أجلهم المحدد، وهذا طلب كل مخلوق.

وقوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٤﴾، هذا يحتاج إلى شيء من البيان؛ لأن الظاهر فيه التعارض مع ما سبق قبله، فكيف يؤخركم إلى أجل مسمى، وأجل الله لا يُؤَخَّر؟! **والجواب: للمفسرين في ذلك قولان(٣):**

الأول: أن الله تعالى ربط الأسباب بمسبباتها، فذكر في علمه الأزلي الشيء وسببه، **مثال ذلك:** إن آمن قوم نوح يُعمروا ألف سنة، وإن كفروا أهلكهم على رأس تسعمائة سنة(٤)، **أي:** ينزل عليهم العذاب قبل أن يُتموا الألف السنة، فهذا من ربط الأسباب بمسبباتها، فإن حصل الإيمان حصل لهم التأخير، وهو أن يُتموا مدة العمر المؤجل لهم، وإن لم يحصل منهم الإيمان نزل عليهم العذاب.

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٣٥٦).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٣١).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي: (١٨/ ٢٩٩).

(٤) ينظر: البحر المحيط في التفسير (١٠/ ٢٨١).

والقول الثاني: أن نُفرق بين الأجلين في الآية، **ففي قوله**: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾، فهذ **الأجل العام**، وهو أجل الاستئصال والإهلاك الذي يحصل للأمة المكذبة دفعة واحدة، **والأجل الثاني** في قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، هذا الأجل الخاص بكل شخص، فعمرك خمسٌ وخمسون سنة، فستموت فيها، وهذا عمره ستون سنة، فسيموت فيها، فكلٌ سيموت عند انتهاء أجله، وبهذا يُجمع بين العبارتين بهذين الأسلوبين.

وقوله: ﴿لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾، **أي**: لو كنتم تعلمون هذه القواعد، وهي من علم القدَر المرتبطة بنواميس محددة وبأسباب مقدرة لا تتخلّف، وفي الآية دليل على أن الطاعة والعبادة سببٌ في بركة العمر **كما في الحديث**: "**من أراد أن يُنسأ له في أجله فليصل رحمه**"[(١)]، أي يُبارك له في عمره، بحيث يعمل من الخير والأعمال وينجز من المهمات في وقت قصير ما لا ينجزه غيره في وقت طويل، أو أن تكون الزيادة في عمره حقيقة لأنها ربطت بسببها، فيقال: هذا الرجل إن كان صالحًا فعمرُه تسعون، وإن فسد وانحرف فعمره ثمانون، فيرتبط الشرط بحصول سببه.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦﴾، هذا نوع من الاعتذار قدمه نوح بين يدي ربه، وهو يشكوا إليه إعراض قومه، فأخبر أنه قد دعا قومه واستخدم معهم وسائل متعددة، منها: الاستمرار في دعوتهم بنشاط وحيوية، فلم يفتُر عنهم في وقت من الأوقات، بل واصل الليل بالنهار،

(١) صحيح البخاري: (٣/ ٥٦)، برقم: (٢٠٦٧).

لمحاولة إقناعهم بالإيمان، واختار من وقت النهار ووقت الليل ما يناسب لعرض الدعوة عليهم، وهذا يُسمى بالأساليب الزمانية في الدعوة، يعني ممكن تُغير زمن الدعوة إلى الوقت المناسب للمدعوين، ولكن مع هذا كله لم يزدادوا إلا فرارًا من قبول الدعوة، والاستثناء هنا منقطع؛ لأن فراراً ليست جزءًا من المستثنى منه، فيكون أن الذي حصل لهم هو مزيدٌ من الفرار، أي: كلما حاولت أن اقترب منهم بالدعوة فروا عنها، وازدادوا إعراضًا وبُعدًا عن الإيمان بها.

وقوله: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾، كلما تُدل على العموم والاستمرار، أي: وفي كل مرة أدعوهم فيها للإيمان الذي هو سبب لحصول المغفرة لهم منك؛ لم يقبلوا الدعوة، بل إنهم من شدة إعراضهم عنها؛ يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا ما أقول لهم، وعبّر هنا بالجمع للأصابع؛ إما أن يكون لبيان فُحش ما يفعلوه، وكأن كل واحد منهم أدخل كل أصابعه في أذنيه؛ حتى لا يسمع أي كلمة، أو أن يكون الجمع باعتبار أصابع الأشخاص فكل واحد منهم أدخل أصبعه في أذنه، وهو فعل من يعرض ولا يريد سماع ما يقال له، وغطوا عيونهم بثيابهم حتى لا يروني، فهم لا يُريدون أن يسمعوا الحق ولا يروا من يدعوهم إليه، فسدوا على أنفسهم منافذ العلم والمعرفة، وهي السمع والبصر، واستمروا في الإصرار على إعراضهم، واستكبروا عن قَبول الحق والإذعان له بكل وسيلة.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾، ثم ارتقى في شكواه واعتذاره، بأن دعوته كانت متنوعة الأحوال في نوع القول، فقد

دعاهم جهراً، والدعوة الجهرية هي التي تكون في مجمع من الناس مثل الخطبة، وهي تحتاج إلى رفع الصوت، **وقد جاء في الحديث**[(١)]: "**أن النبي ﷺ، كان إذا خطب رفع صوته كأنه مُنذر جيش**"، فهذا أيضًا من أساليب الدعوة، وقد دعاهم سراً، والإسرار هو أن تُكلم الشخص بينك وبينه، وخاصة الكُبراء من القوم الذين ينفرون من الدعوة العامة، فهم لا يرغبون أن يتعامل معهم في الأمر على أنهم أناس عاديون، **وكان نوح** ﷺ، قد نوّع الوسائل والأساليب مع قومه واستخدم مع كل فئة الأسلوب المناسب لها، وجمع بين الجهر والإسرار؛ لأن الجمع بين الحالتين أقوى في الدعوة من إفراد إحداهما.

وقوله: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾، ومما قلته لهم، وأنا أدعوهم إلى الله، أن يؤمنوا بالله ويطلبوا المغفرة منه، **قيل**[(٢)]: إن قوم نوح لما كفروا بالله تعالى، وعصوا رسوله مع طول مُكث نوح بينهم؛ منع الله عنهم المطر ومنع عنهم الذرية، **فقال لهم نوح** ﷺ: لو آمنتم واستغفرتم الله الغفار الذي يغفر ذنوب عباده؛ لغفر لكم ذنوبكم ورفع عنكم ما أصابكم من قحط وبلاء، وأرسل لكم ما حبسه عنكم من المطر، وجعله ينزل عليكم متواصلًا غير مُنقطع، ويمددكم بأموال متنوعة، وذكر الأموال نكرة لتشمل كل ما يُتموّل به من نقد وحبوب ونحوها، ويمنحكم البنين، وقد كانوا أهل زراعة وفلاحة[(٣)]، فهم

(١) صحيح مسلم (٢/ ٥٩٢)، برقم: (٨٦٧).
(٢) ينظر: البحر المحيط في التفسير: (١٠/ ٢٨٢).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (٢٩/ ١٩٨).

محتاجون للمطر والأنهار للزراعة، ومحتاجون للبنين كي يُساعدوهم في عملهم، **وقد كان عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إذا استسقى يقرأ هذه الآيات، ويعظ الناس بها(١)، لأن القحط سببه الكفر والمعاصي، ومن تاب وأناب إلى الله حلت به بركات السماء والأرض، **كما قال:** ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف:٩٦] فبركات السماء المطر، وبركات الأرض الثمار الطيبة.

وقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾، ثم التفت إلى مخاطبة قومه بأسلوب العتاب والتوبيخ والتأنيب لهم بسبب إعراضهم، قائلاً لهم: ما لكم يا قوم لا تُعظمون شأن الله تعالى، وهو استفهام إنكاري، فتعبدونه طمعاً في ثوابه وخوفاً من عقابه، والتوقير؛ التعظيم للشيء، **كما قال:** ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح:٩]، وهو من أعمال القلوب؛ فيُورث خشيةً وخوفًا وحبًا لله، وتعاملاً حسناً مع الله بما يستحق، **وفي الحديث:** **"ليس منّا من لم يُوقر كبيرنا"** **أي:** يحترمه ويتعامل معه بشيء من التعظيم لكبر سنه، وهؤلاء القوم لما أشركوا بالله، لم يُعظموا الله، ولم يخافوا منه، لعدم معرفتهم بالله، **كما قال:** ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[الزمر:٦٧]، فمن لم يعرف الله لم يُقدره ولم يُوقره حق التوقير، من أجل ذلك منّ الله تعالى علينا بأن عرّفنا بنفسه من خلال أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه؛ حتى نزداد به معرفةً وعلمًا؛ فيحصل منا التقدير والتوقير له كما يستحق سبحانه وتعالى.

ثم بدأ يبيّن لهم نعم الله عليهم، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾، هذه أحد

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٣٢).

وسائل التذكير بعظمة الله أن يتذكر العبد نعم الله عليه، كيف خلقه الله، ومر في أطوار متعددة؟ فقد كان نُطفة، ثم مضغة، ثم علقة، ثم جنينًا مكتمل الأعضاء، ثم خرج من بطن أمه طفلًا رضيعًا، ثم صبيًا، ثم شابًا، ثم شيبة كبيرًا، فخلْقه بهذه الأطوار تدل على عظمة الخالق سبحانه، وتدل على نعمة الله على المخلوقين، فقد أوجدهم من العدم ورباهم ومنّ عليهم بنعمه، فكان الواجب عليهم شكره على هذه النعم والإيمان بالله، لا التكذيب والإعراض والكفر به تعالى.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن نوح ﷺ، هو أول رسول أرسله الله إلى البشرية بعد آدم ﷺ.

٢- أن الاستغفار سبب لصلاح الدنيا والآخرة.

٣- أن الله ربط الأسباب بمسبباتها في تقديره الأزلي، وأمر الناس بالأخذ بالأسباب لتحقيقها.

٤- أن نوح ﷺ، بذل في دعوة قومه كل الأسباب، ونوّع لهم كل الأساليب.

٥- أن الكفر والمعاصي سبب لنزول النقم والبلاء بالناس، وأن الإيمان والتوبة سبب لرفعها.

٦- أن الله عرّفنا بنفسه من خلال أسمائه وصفاته وأفعاله ونعمه؛ حتى نزداد به معرفةً وعلمًا؛ فيحصل منا التقدير والتوقير له كما يستحق سبحانه وتعالى.

تفسير المقطع الثاني من سورة نوح

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ
سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ
لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ
يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا
وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا
خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ
عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا
﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ
ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾.

قول الله تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ ﴾، هذا خطابٌ من نوحٍ ﷺ لقومه وهو يُعدد عليهم نعم الله جل وعلا، بعد أن نّبههم إلى نعمة الخلق لهم بأطوار مختلفة، ثم انتقل ليُخبرهم عن خلق الله تعالى، الذي يرونه بأعينهم، فرؤية الكون أمر مُشاهَد لكل الناس، فطلب منهم أن يتأملوا كيف خلق هذه السموات بهذه الطريقة المُتقنة التي لا خلل فيها ولا

نقص، وقد خلقها الله طبقة فوق طبقة، **أي**: سماء فوق سماء إلى أن تنتهي بالسماء السابعة.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾، فيهن، **أي**: معهن[١]، **والمعنى**: خلق القمر مع خلق السموات، وجعله منيراً، أو تكون (فيهن) على أصلها للظرفية، **والمعنى**: صيّر القمر في السموات منيراً، وإن كان نور القمر في سماء الدنيا[٢]، من باب الإخبار عن الجزء في مُقابل الكل، ونورُه مأخوذٌ من نور الشمس، وهو نور يستفيد منه أهل الأرض في الليل، وفي الحساب ومعرفة دخول الأشهر وخروجها، وصير الشمس سراجًا، والسراج؛ هو الذي ينبعث منه النور وتشع منه الحرارة، فالشمس منبع النور، ومنبع الحرارة التي بها يحصل الدفء للأرض.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾، وهذه نعمة أخرى يذكرها نوح ﷺ لقومه وهي نعمة الإيجاد والخلق لهم، أنبتكم، **أي**: أنشاكم منها، فاستعير الإنبات للإنشاء، فقد خلق أباهم آدم من تراب الأرض، ثم بعد ذلك خلق الخلق من نطفة وجعلها تمر بأطوار حتى صارت جسداً يحتاج إلى أن يعيش على الأرض التي هيأها الله له؛ لكي ينمو عليها ويتغذى مما أخرجت من أقوات، فيأكل ويشرب ويترعرع عليها وينمو فيها كما ينمو النبات.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾، فالأرض محل الإنبات والنمو

---

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٢٦٠).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٢٣٣).

للناس، وهي كذلك محل دفن أجسادهم إذا ماتوا، ومنها يخرجون ويُحشرون يوم القيامة إلى ربهم تعالى.

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩﴾، **أي:** خلق لكم الأرض وصيرها مبسوطة لكي تستقروا عليها، واللام للامتنان، والبساط: هو الفرش، وليس معنى ذلك أنها مسطحة كلها، فهي كروية، ولكن لعِظم حجمها كان سطحها كبيرًا، فيظهر للناس أنها مُسطّحة، وهي في الحقيقة كروية.

وقوله: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾، اللام للتعليل، والفِجاج جمعُ فج، وهو الطريق الواسع بين جبلين، **أي:** جعلناها مبسوطة لكم من أجل أن يتهيأ لكم المشي عليها، من خلال الطرق التي تختارونها للانتقال من مكان إلى آخر فيها، وفي ذلك إشعار بأن الله تعالى لما خلق الأرض خلق الجبال فيها بهيئة لا تحجز الناس ولا تمنعهم من الحركة، بل جعل بينها طرقًا متنوعة وواسعة.

كل هذه النعم التي عددها نوح على قومه؛ لعلهم أن يفيقوا من شركهم وكفرهم؛ فيؤمنوا بربهم تعالى، إلا أنهم لم يستفيدوا من ذلك، **وكانت النتيجة هي قوله:** ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١﴾، فهذه ثمرة دعوته لهم تسعمائة وخمسين سنة، فأغلبهم كفروا به **كما قال:** ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾[هود:٤٠]، فلم يُطيعوه ولم يقبلوا ما جاءهم به من الإيمان والهدى، واتبعوا المترفين من أصحاب الأموال والأولاد، وهم الملأ الذين يذكرهم الله غالبًا مع كل رسول، **كما قال:** ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾[الأعراف:٦٠]، ولذلك كان أتباع الأنبياء غالبًا هم الضعفاء والمساكين، والحقيقة أن هذه

الأموال والأولاد ليست نافعة لهؤلاء المترفين، وإنما ستزيدهم بُعدًا وخسارةً في الآخرة، كما أبعدتهم عن الهدى وجعلتهم يخسرون الإيمان في الدنيا، وفي هذه الآية إشارة إلى أن هؤلاء القوم استخدموا نعمة المال والولد في غير محلها؛ فكانت خسارتهم في الآخرة عظيمة.

ثم وصفهم بقوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢﴾، فهؤلاء المُترفون والكفار الذين أعرضوا عن الإيمان بنوح ﷺ، ورسالته، لم يكتفوا بالكفر والإعراض، وإنما خططوا بمكرٍ عظيم وكبير في أذية نوح ودعوته، وبذلوا جهودًا كبيرًة في محاربتها، ويُسمى الكيد إذا كان خفيًا مكرًا.

وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾، **وقال بعضُهم لبعض وقالوا لمن دونهم:** لا تتركوا آلهتكم، وهي الأصنام التي صنعوها من التماثيل ثم عبدوها، ولا تُطيعوا نوحًا عليه وعلى آله وسلم، في تركها واتباع التوحيد، ثم خصوا خمسة أصنام لهم بالذكر وهي أعظمها وأكبرها، **فقالوا:** ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾، **وقد جاء عن ابن عباس** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: "أن هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسخ العلم عُبدت"[1]، **أي:** جاء الشيطان بعد ذلك إلى أبنائهم، فقال لهم: إن آباءكم كانوا يعبدون هذه التماثيل، فعبدوها، ولما جاء الطوفان وأغرق الأرض بما فيها من أصنام، ظلت أسماء هؤلاء الأشخاص موجودة في ذهن الذين نجوا،

---

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٦٠)، برقم: (٤٩٢٠).

لأنهم كانوا رجالًا صالحين، وكانوا يتحدثون عن عبادتهم، فاستمر الحديث عنهم حتى الفترات المتأخرة من حياة البشرية، ولما اتخذوا لهم أصنامًا سموها بأسمائهم، فقد جاء عن ابن عباس، أنه قال: "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما وُدّ؛ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع؛ فكانت لهذيل، وأما يغوث؛ فكانت لمراد، وأما يعوق؛ فكانت لهمدان، وأما نسر؛ فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع"[١]، **وكان عمرو بن لُحي** هو أول من أفسد ملة إبراهيم[٢] ﷺ، فأدخل عبادة الأصنام إلى أرض الجزيرة حيث أتى بها من الشام إلى مكة، ثم تتابع بعده الناس، حتى صار لكل قبيلة صنمًا وإلهًا تعبده من دون الله، **وقد بُعث النبي** ﷺ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، ولم يهدمها إلا في فتح مكة[٣].

وقوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴿٢٤﴾﴾، **أي:** أن الأصنام هذه أضلت كثيرًا من الناس عن التوحيد وصرفتهم عن عبادة الله وحده، واستمرت عبادتها إلى زمننا هذا، ولذلك حرم الله صناعة التماثيل على هذه الأمة، ثم ختم نوح ﷺ الخبر عن الأصنام وأثرها، بالدعاء على الظالمين من قومه بأن يزيدهم ضلالاً وبعداً عن الحق؛ لينزل بهم عذاب الله وعقوبته[٤]، وكان هذا منه بعد أن أخبره الله أنه لن يؤمن قومه إلا من قد آمن، ويجوز أن تكون جملة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ينظر: أخبار مكة للأزرقي: (١/ ٨٨).

(٣) ينظر: المصدر السابق: (١/ ١٢١).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٣٦).

معترضة وهي من كلام الله تعالى لنوح[١]، **والمعنى**: ولا تزد في دعائهم فإن ذلك لا يزيدهم إلا ضلالاً، والأول أرجح للسياق.

وقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥﴾، هذه الآية جملة اعتراضية بين حديث الله تعالى عن الأصنام، وبين ما سيدعو به نوح عليهم، أراد الله بها أن يُسلي على نبيه محمد ﷺ[٢]، ويُعطيه النتيجة قبل سماع الدعاء، فبسبب خطيئاتهم -وهي جمع خطيئة، والمقصود بها الكفر والشرك ومعصية الله تعالى- أغرقهم الله بالطوفان.

وقوله: ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾، الفاء تعقيبية، وهذا أحد أدلة إثبات عذاب القبر، **أي**: فبعد أن ماتوا بالغرق، في عذاب القبر وهو صورة مصغرة لعذاب النار، حيث يُفتح لكل كافر طاقة إلى النار؛ فيأتيه من سمومها وحرها، فيتعذب بذلك وهو ما زال في قبره، كقوله في قوم فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾[غافر:٤٦]، فهم يُعرضون على النار غدوًا وعشيًا وهم في قبورهم، وبهذا تبطل شبهة من ينكر عذاب القبر، لأنه حسب زعمه غير مذكور في القرآن، وقد جاءت نصوص السنة بإثباته والتحذير منه، فالقبر إما روضة من رياض الجنة للمؤمنين الصالحين، وإما حفرة من حُفر النار للكافرين والمنافقين وأصحاب الكبائر، وفي هذا الآية تهديد لقريش التي كانت تكذب برسولها، فمصيركم إن استمريتم بالتكذيب مصيرهم.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٢٩/ ٢١١).

(٢) ينظر: المصدر السابق: (٢٩/ ٢١٢).

وقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾، فبعد أن يأس من إيمانهم، وصبر عليهم تسعمائة وخمسين سنة، دعا عليهم بأن يهلكم الله ويطهر الأرض منهم جميعـًا، والألف واللام في الأرض للعهد الحضوري، أي على هذه الأرض التي يعيشون فيها، لأن عهده بآدم كان قريبـًا، ولم يكن قد سكن فيها أناس كثير، والديَّار هو الذي يسكن في الدار، والمعنى: أهلِكم جميعـًا ولا تترك فيها أحداً حيـًا، وفيه إشارة إلى أن على الداعية أن يصبر على العُصاة والمجرمين، كما صبر نوح على قومه، وأن يدعو لهم بالهداية.

وقولـه: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾، هـذا تعليل لدعائه عليهم، **والمعنى:** لو تركتهم على الكفر ولم تهلكهم؛ لكانوا سببـًا في ضلال الآخرين من الخلق بالشرك والكفر، ولأن كل كافر سيُولد منه كافر، وكل فاجر سيُولد منه فاجر، وهكذا يستمر تسلسل الكفر والفجور في الأرض.

فلما استجاب الله لنوح دعاءه وأغرقهم، قال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وهذا من آداب الدعاء أن يبدأ الداعي فيدعو لنفسه، **وفي الحديث:** **"إذا دعا أحدكم فليبدأ بنفسه"**(١)، فإذا دعوت لأحد، **فقل مثلاً:** وفّقنا الله وإياك، لأن نفسك أولى من تدعو لها، ثم دعا لوالديه، وهم أقرب الناس إليه، ويطلق على الأب والأم ومن علا، كالجد والجدة ومن فوقهم، ثم دعا لمن يدخل بيته دخولاً متكرراً، والمقصود بهم من سكن فيه معه من أهله وذويه من المؤمنين، وخص المؤمنين بالذكر ليخرج من

---

(١) سنن الترمذي: (٥/ ٤٦٣)، برقم: (٣٣٨٥)، وإسناده صحيح.

أهله من كفر به كزوجته وولده، ثم دعا بعد ذلك لباقي المؤمنين والمؤمنات وهذا يشمل الأحياء والأموات، ومن السنة إذا دعا الشخص أن يشمل بدعائه عموم المؤمنين والمؤمنات.

وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ٢٨﴾، هذا دعاء من نوح ﷺ على عموم الظالمين، **مثل قوله:** ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ٢٤﴾، ما الفرق بين الضلال والتبار؟! التبار؛ هو الهلاك والخسار، **كما قال:** ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ [الإسراء:٧]، **والضلال هو** البُعد عن الحق والصواب، فالضلال سبب، والتبار ثمرة له، فمن ضل عن الهدى حصل له الهلاك والتدمير، والله أعلم.

فوائد وهدايات من الآيات:

١ – خطورة الملأ وقادة الشر، في محاربة الدعوات وإفساد الناس.

٢ –أن الذنوب سببٌ للهلاك في الدنيا والآخرة.

٣ – إثبات عذاب القبر.

٤ – من آداب الدعاء أن يبدأ الداعي فيدعو لنفسه.

تفسير سورة الجن

تفسير المقطع الأول من سورة الجن

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ
فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ
يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ
رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ
أَحَدٗا ٧ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا
مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي
ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١ وَأَنَّا
ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن
يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣﴾.

شخصية السورة:

سورة الجن: سورة مكية بإجماع المفسرين[١]، **وقد جاء في سبب نزولها**[٢]:

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٢٥٠ برقم: (٧٧٣)، صحيح مسلم: ١/ ٣٣٠، برقم: (١٤٩).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٦٤٧).

أن النبي ﷺ، عمد مع مجموعة من أصحابه إلى سوق عكاظ، ثم صلى بهم صلاة الفجر، وأن الجن كانوا يبحثون عن خبر السماء، فلمّا اقتربوا من السماء وجدوها قد مُلئت بالحرس ورُصدت بالشُهب، فقال قائلُهم: لا بدّ من سببٍ حدث في هذه الأرض، منعنا من استراق السمع، فابحثوا عن ذلك السبب، فانطلقوا ذات اليمين وذات الشمال، فمرت مجموعة منهم بوادي نخلة قريبًا من سوق عُكاظ، فوافقوا النبي ﷺ، وهو يُصلي بأصحابِه صلاة الفجر، فاستمع النفر من الجن إلى القرآن، فأنزل الله تعالى هذه السورة على رسوله ﷺ، يخبره عن حالهم وما حصل منهم.

ومقصد السورة الأعظم: بيان حال الجن وعقائدهم الباطلة، وسرعة تأثرهم بالقرآن حينما سمعوه، وإبطال مزاعم المشركين فيهم.

وافتُتحت هذه السورة بقوله: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١﴾، أمر الله نبينه محمداً ﷺ أن يقول لأصحابه قصة استماع نفر من الجن للقرآن، وهذا يدل على أن القرآن مُوحى به من عند الله، وأن رسول الله ﷺ مُبلغٌ له، **والنفر:** من الثلاثة إلى السبعة، ودل ذلك على أن النبي ﷺ لم يكن يعلم بحال الجن، وإنما أوحى الله إليه بخبرهم وما حصل منهم، فقد صرفهم الله وهيأهم، وجعلهم يذهبون إلى المكان الذي فيه رسول الله ﷺ، وجعلهم يستمعون إلى قراءته للقرآن، **كما قال:** ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[الأحقاف:٢٩]، ثم بعد أن استمعوا للقرآن رجعوا إلى قومهم، فقال الجن لقومهم إنا سمعنا كلامًا يُتلى فيه العجب، ووصفوه

بالعجب؛ لأنهم لأول مرة يسمعون مثله من الكلام المُعجِز البليغ، وهذا يدل على أن الجن مثل الإنس، لهم لغات متعددة، فمن سكن بين العرب من الإنس كانت لغته عربية، ومن سكن بين العجم كانت لغتُه أعجمية، **وقد قيل**(١): إن هؤلاء النفر من جن نصيبين، وهم من أشراف الجن.

وقوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾، ثم وصفوا هذا القرآن لقومهم بأنه يهدي إلى الرشد، **أي**: من اتبعه هداه إلى ما فيه الرشاد والخير في الدنيا والآخرة، **كما قال**: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[الإسراء:٩]، وهو كل صوابٍ وسداد في الاعتقادات والأقوال والأعمال، ولذلك لما سمعناه وأُعجبنا به ورأينا ما يدعو إليه من الرشاد والهدى؛ صدقناه واتبعناه، **ومقتضى الإيمان بالقرآن** أن تُؤمن بالمرسِل وبالرسول الذي جاء به، وفيه تعريض بالمشركين من العرب الذين سمعوا القرآن فلم يؤمنوا به، وأن الجن كانوا أعقل منهم في تفهُّم كلام الله والإقبال عليه، ثم نفوا عن أنفسهم الشرك بالله لأنه لا يقبل من الإنسان إيمان يُخالطه شيءٌ من الشرك، فنفي الشرك شرط لتتحقق الإيمان الكامل، عملاً بقاعدة التخلية والتحلية، فالتخلية: نفي الشرك، **والتحلية**: إثبات التوحيد، وبهما يكتمل الإيمان.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾، **الواو** حرف عطف، والجد هنا بمعنى العظمة وكمال الجلال، **أي**: كمُلت عظمة ربنا، **وقيل**: الجَد هنا بمعنى الغنى، **أي**: اكتمل غناه عن الخلق سبحانه، والمعنيان متقاربان، ومن

(١) ينظر: تفسير البغوي - إحياء التراث (٥/ ١٥٩).

كمال غناه عن الخلق أنه لم يتخذ صاحبة وهي الزوجة، ولا ولداً، والولد ثمرة وفرع عن الزواج، فإنه لا يوجد ولد من دون زوجة.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾، ثم بدأوا يُحدثون أنفسهم عن عقائدهم الباطلة التي تربوا عليها، وورثوها عن آبائهم وأجدادهم، كما هي موجودة عند الإنس كذلك، وكان يقول هذه العقائد كل سفيه منهم، والسفيه، قيل: المقصود به كل مشرك ينسب إلى الله الشريك والصاحبة والولد، ولو كان كامل العاقل لما أشرك بالله، تعالى، **وقيل:** المقصود به اسم شخص وهو إبليس، كبيرُ السفهاء وقد علم تلاميذه وأتباعه من الجن والإنس هذا السفه، **والشطط:** وصفٌ للقول المُتجاوِز للحق البعيد عن الصواب، **كما قال في قوله:** ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ [ص:٢٢]، والمقصود به هنا نسبة الشريك والولد والصاحبة إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾، الظن، هنا على أصله وهو عدم اليقين، فقد كانت الجن تظن أنه لا أحد يكذب على الله، وما توقعوا أن مخلوقًا يخلقه الله ويُنعم عليه، ثم يقول قولًا يكذب فيه على الله، ولكن بعد أن استمعوا إلى القرآن وقد نفى الشريك والولد عن الله وبيّن ما عليه الناس من الانحراف؛ تذكروا كل سفيه كذب على الله وأشرك به غيره، من الإنس والجن، فصدقناهم ظنًا منا أنهم لن يكذبوا على الله، وهذا فعلاً هو الذي يحصل غالبًا عند عوام الناس من تقليدهم للآباء والأجداد وللشيوخ المبتدعة ولأصحاب الخرافة فيُسلمون لهم بما يقولون دون أن يتأكدوا من صحة زعمهم، والأصل أن يتأكد الإنسان من كل ما يسمع، وخاصة فيما يتعلق بالعقائد، فيتأكد هل هذا

يليق بالله؟، وهل جاء في القرآن، أو ثابت في سنة رسول الله ﷺ؟، فليس كل من قال وتكلم في دين الله صادق؛ لأنه كما رأيت يوجد من يكذب على الله من الإنس والجن.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦﴾، وأخبروا أيضًا عن حال تعامل الإنس مع الجن، وخاصةً في جزيرة العرب، وما زال هذا الحال موجودًا عند بعض الناس إلى اليوم، فهناك أناس يعتقدون أن الجن ينفعون ويضرون، ولذلك يُنذرون لهم، ويذبحون لهم، ويتعاملون مع السحرة من أجل التقرب للجن، ونحو ذلك، ولا يُنبئُك مثلُ خبير، فقد أخبرنا مجموعة من الجن ماذا يحصل للجن حينما يعوذ الإنس بهم، كان بعض العرب إذا نزل أحدُهم واديًا، يقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهائه، فيحصل من استعاذة الإنس بالجن ازدياد الرَّهَق، وهو الغَشَيان، من الجن للإنس، **والمعنى:** فيزداد الجن تكبرًا وتعاظمًا في أنفسهم وعتوًا ونفورًا، فتزداد أذيتهم للإنس، وهذا واقع الجن مع الإنس حتى اليوم، وكلما ازداد الإنسان تعلُّقًا بالجن كلما ازدادت أذيتهم له، **وفي الحديث:** **"من تعلّق بشيءٍ وُكل إليه"**، **أي:** أن الله يتخلى عنه وعن حمايته ورعايته؛ فينفرد به الشياطين فيؤذونه، ولو توكل على الله واعتمد عليه؛ فإن الله يحميه ويحفظه من الشياطين وغيرهم.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ٧﴾، الخطاب هنا من الجن لأقوامهم عن الإنس، **والمعنى:** وأن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الإنس، أن الله لن يبعث أحدًا بعد موته، وفي هذا دليل على أن بعض الجن كانوا يُنكرون البعث

والنشور، كحال بعض الإنس.

وقوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾، اللمس هنا معناه البحث عن الشيء والنظر فيه، فقد كان الجن يبحثون عن خبر السماء باستراق السمع، فكان يصعد بعضهم فوق بعض حتى يقتربوا من السماء، فإذا خطفوا كلمة منها ألقوها في أذن الكاهن أو الساحر من أصحابهم، فيأخذها الكاهن ويزيد عليها كذباً من عنده وينشرها، فلما بُعث محمد ﷺ، مُنعت الجن من استراق السمع من السماء، فلما جاؤوا وجدوا السماء قد ملئت بالحرس، والحرس جمعٌ لا مُفرد له من لفظه، والمقصود به الملائكة الموكلون بحماية السماء، وقد وصفوا بالشدة، إشارة إلى قوتهم وشدة انتباههم، فليس فيهم غفلة ولا تفريط، ومعهم شُهُب من النيران وهي أسلحتهم التي يرمون بها الشياطين إذا اقتربوا منهم، وقلّ أن ينجو شيطان اقترب من السماء ولحقه الشهب.

وقوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾، وكنا قبل بعثة محمد ﷺ، نتخذ لنا مقاعد حول السماء لنسترق من خلالها السمع، والقعود هنا المقصود به الملازمة، أي: وكنا نلازم في أماكن معينة للتصنت، كقوله: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾[التوبة: ٤٦]، أي: لازموا الراحة ولم يخرجوا للجهاد، واللام للتعليل، أي: من أجل الاستماع، وليست للمكث، يعني: نقعد مقاعد من أجل أن نستمع، لأننا لو ابتعدنا لن نحصل على السمع، ومن يقترب الآن، أي: بعد بعثة محمد ﷺ، من السماء ليستمع خبرها؛ يُرمى بشهاب مُخصص له، يرصده ويُتابع المسترق للسمع، أو شهاب مترصد له

بمجرد أن يقترب يُطلق عليه، والشهاب لا يُسمى شهابًا حتى يكون مشتعلاً بالنار، اليوم تسمعون بما يُسمى بالصواريخ الموجهة التي تطلق عن طريق الليزر، ومرتبطة بشريحة معينة في الهدف، فإذا أُطلقت لا تترك الهدف حتى تُصيبه، وهذا من اختراع بشر، فكيف بخلق الله سبحانه؟!!.

ثم قال: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾، هذا الكلام قالوه حينما اكتشفوا أن السماء محروسة وممنوعة من استراق السمع، وذكروا أن السماء لا تُحرس إلا في حالتين، حالة أن ينزل عذاب بقوم، أو حالة أن يُرسل رسول ويوحي إليه، حتى لا يُسترق السمع، إذ لو استُرق السمع لحصل تسريب للمعلومة قبل تنفيذ المهمة، وفي الآية بيان أدب الجن في التخاطب مع الله، **ففي باب الشر لم ينسُبوه إلى الله بل قالوا:** ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾، لما لم يُسم فاعلُه تأدبًا مع الله، **وفي باب الخير قالوا:** ﴿أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾، **والرشد** هو الخير، فنسبوه إلى الله تعالى، فمن الأدب مع الله أن لا ينسب الشر إليه، وإن كان الشر والخير يقعان بإذن الله وإرادته.

ثم قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، **أي:** المؤمنون المستقيمون على دين الله، فالجن كالإنس فيهم المؤمن وفيهم الكافر، وفيهم الصالح وفيهم الفاسد، **والتعبير بقولهم:** ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، يشمل ما دون رتبة الصلاح من فاسق ومنافق وكافر.

وقوله: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١﴾، **أي:** مِلل ونِحَل وأهواء متنوعة، والقِدد؛ هي القِطَع المتناثرة، **وفي الحديث:** **"إنما أنا ابنُ امرأةٍ كانت تأكل القديد بمكة"**،

والقديد؛ هو قطع اللحم الصغيرة اليابسة، فالجن ملل ونِحل وفرق وأهواء متعددة مثل الإنس، ففيهم البوذي والمجوسي واليهودي والنصراني والشيعي والسني، ونحوها.

وقوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢﴾، الظن هنا بمعنى اليقين **أي**: أيقنا أنا لن نُفوّت من عذاب الله تعالى، ولن نجد مهربًا منه لو أراد الله أن يعذبنا، فإنه لا يُعجزُ الله شيءٌ في الأرض ولا في السماء، فنحن في أرضه وتحت سمائه، وداخل مُلكه، فلا مهرب من الله إلا إليه.

وقوله: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣﴾، **والمقصود بالهدى** هو القرآن، فقد سمعوه من قراءة محمد ﷺ له فآمنوا به، ثم شجعوا غيرهم على الإيمان به، ببيان أن المؤمن بالله تعالى، لا يخاف نقصًا لحسناته، ولا يخاف إثمًا زائدًا يُصيبُه فيتعبه.

فوائد وهدايات من الآيات:

١ - تأثير القرآن فيمن يسمعه بقلبٍ سليم، من الإنس والجن، وغيرهم.

٢ - أن الجن قبائل ومِلل ونِحل مثل الإنس، وأنهم لا ينفعون ولا يضرون.

٣ - أن عالم الجن، مثل عالم الإنس، فيهم صالحون مؤمنون، وفيهم كفار فاسدون.

٤ - فضل محمد ﷺ، ومكانته عند ربه تعالى، وتخصيصه بمزية حماية السماء ببعثته ﷺ.

٥- أن عالم الجن وعالم الملائكة عالم غيب لا نراه ولا ننظر إليه ولا طريق لمعرفته إلا بالوحي.

٦- من الأدب مع الله أن لا ننسب الشر إليه، وإن كنا نعتقد أن الشر والخير من الله.

تفسير المقطع الثاني من سورة الجن

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا
ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾
لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ
ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ
بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن
دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا
﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا
يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ
رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾، هذا من حديث الجن الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ، فإنهم أخبروا عن حالهم بعد سماعهم للقرآن، **وأنهم انقسموا إلى قسمين: من آمن به**؛ وهم المسلمون، **ومن كفر به**؛ وهم القاسطون، والقاسط هو الظالم الذي تجاوز الحد، **ويُذكر** أن سعيد بن جبير لما قبض عليه الحجاج، قال له سعيد: ماذا تريد

أيها القاسط؟ فقال من حول الحجاج له: قد مدحك وأثنى عليك، فقال: بل يقصد أني ظالم ولست بمُقسط[١]، فإن القاسط هو الظالم، والمُقسط هو العادل، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة:٨]، وفي الحديث: **"المقسطون على منابر من نور"**[٢]، فالمسلمون هم الذين انقادوا وخضعوا لله بالطاعة والاستسلام لأمره وشرعه، واجتهدوا فيما يجب عليهم ويحسُن فعلُه، والتحري: القصد إلى الشيء الطيب والبحث عن الصواب وترك ما يناقضه[٣]، وهل قوله: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾، من حديث الجن أو هو من تعقيب الله تعالى على حديثهم؟! قولان للمفسرين، قيل[٤]: هذا قول للجن، هو والذي في الآية بعده، فقد عرفوا أن المسلم في الجنة، وأن القاسط في النار، وقيل[٥]: بل هو تعقيب من الله وحكمه على الفريقين، ولا تعارض بين القولين، فهو حكم الله، علمه الجن فأخبروا به.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾، أي: الجائرون عن الحق والصواب البعيدون عن الاستقامة على دين الله، فمصيرهم إلى جهنم فيلقون فيها كما يلقى الحطب في النار؛ فتشتعل بهم النار كما تشتعل النار بالحطب، وهذا حكم عام يشمل الجن والإنس، فمن أسلم منهما فقد تحرى الرشد

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٢٨).

(٢) مسند أحمد: (١١/ ٣٢)، برقم: (٦٤٩٢)، وإسناده صحيح.

(٣) ينظر: تاج العروس: (٣٧/ ٤٢٠).

(٤) ينظر: تفسير الثعالبي: (٥/ ٤٩٦).

(٥) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٨٢).

والخير والصواب، ومن كفر منهما وظلم، فقد حكم الله عليه بالاحتراق بالنار كما يحترق الحطب.

وقولـــــه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾، **والمقـــــصود بالخطاب هنا** القاسطون، لأن القاسط فيه معنى الانحراف عن طريق الحق والهدى، فلو استقام هؤلاء الذين مالوا عن الحق والهدى، وساروا على الطريق المستقيم وهو طريق الحق، وقد شبه الاستقامة على الحق والهدى بالسير على طريق واضح لا عوج فيه، يسير فيه الإنسان مستقيماً غير منحني على وجهه، **فشمل هذا التشبيه أمرين**: الطريق المستقيم، وهو الإسلام، وسير الإنسان عليه سيراً سليماً، ثم ذكر ثمرة هذه الاستقامة، وهي حصول البركة في رزقه وتوافر النعم عليه في الحياة الدنيا، فمن استقام على طاعة الله تعالى هيأ الله له نعم الأرض كلها، وما حصل في هذا العصر من فقر وجوع في كثير من بلدان المسلمين، فهو ثمرة لانحرافهم عن الاستقامة، فإن المعاصي تُزيل النعم، وتُذهب بالبركة فيها، **والمعنى**: لو استقام المكلفون على طريق الإسلام وهدايته، لأسقاهم الله تعالى ماءً كثيرًا مستمرًا غير مُنقطع، وسيكون من كثرة المياه وانتشارها ظهور الثمار، وحصول البركات والخيرات في الأرض، **وفي الحديث**(١): أنه في آخر الزمان بعد نزول عيسى ﷺ، الذي يملأ الرض عدلاً، تظهر البركات وتخرج الأرض خيراتها، حتى أن الفئام من الناس يستظلون بقحف الرمانة، إشارة إلى كبر حجمها.

(١) ينظر: صحيح مسلم (٤/ ٢٢٥٠)، برقم: (٢٩٣٧).

وقولـــــه: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾، أي: لنختبرهم بتلك النعم، فإن الله يختبر الناس بالشر ويختبرهم بالخير، كما قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[الأنبياء:٣٥]، لينظر هل يشكرون أم يكفرون؟، فإن شكروا زادهم من فضله في الدنيا، وأثابهم على ذلك في الآخرة، وإن كفروا وأعرضوا عاقبهم وعذبهم في الدنيا بذهاب النعم وفي الآخرة بإدخالهم في عذاب جهنم، والإعراض المقصود به هنا الإعراض عن قبول الحق والعمل به، وذكرُ الله المقصود به هنا الدين كله، وليس مجرد الذكر باللسان، ويسلكُه أي: يُدخله عذابًا صعداً، أي: شاقًا، لا راحة فيه، كما قال: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾[المدثر:١٧].

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، وهذا إخبارٌ من الله تعالى لبيان الغاية من بناء المساجد، وماذا يجب على المسلم أن يفعل فيها، فإنما بُنيت للعبادة، وإقامة ذكر الله، وتحقيق التوحيد، فلا يجوز في المسجد ولا في غير المسجد دعاء غير الله، وفي هذا إشارة إلى ما كانت تفعله قريش من جعل الكعبة مكانـًا لعبادة الأصنام، والمساجد فيها قولان[1]: اسم للمكان الذي يسجدُ فيه العبد لله، وهي بيوت الله كما قال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[النور:٣٦]، أو هي أعضاء السجود، والمعنى: لا تسجد لبشرٍ كائنًا من كان، فالسجود لا يكون إلا لله وحده، وهو أكثر قداسةً من الركوع، والركوع منهي، وهو من عادات الأعاجم، فقد كانوا يركعون ويسجدون لملوكهم، وفي حديث زيد بن أرقم، قال: "بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى الشام، فلما قدم قال:

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٨٣).

يا رسول الله، إني رأيت أهل الكتاب يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، ألا نسجد لك؟ قال: لا"[(١)]، ولا تعارض بين المعنيين، فيجب أن تُنزه بيوت الله عن الشرك وعن دعاء غير الله، والسجود لا يجوز إلا لله تعالى، وما يحصل من بعض الناس من السجود عند الشيخ، أو عند القبر، فكل هذه من الشركيات الباطلة، وهو تشبه باليهود في بِيَعهم والنصارى في صوامعهم، فهم يدعون عزيرًا أو يدعون عيسى أو يدعون الصليب، والأصل أن هذه الأماكن بُنيت لعبادة الله وحده وإقامة التوحيد.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، المقصود بـ(عبدالله) هنا: محمد ﷺ، والعبودية أعلى مرتبة وُصف بها في مقامات التكريم ، فقد وصفه بها هنا في مقام الرسالة والبلاغ والبيان، ووصفه بها في مقام الإسراء به، **كما في قوله:** ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾[الإسراء:١]، وهذا يدل على أن العبد كلما ارتفع شأنُه؛ كلما ازدادت عبوديته لله تعالى.

وقوله: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩﴾، **أي:** أن الجن اجتمعوا عليه، وهو يُصلي بأصحابه ويقرأ القرآن في وادي نخلة، فكادوا من كثرة تجمُّعهم عليه وحرصهم على الاقتراب منه، أن يكون بعضُهم فوق بعض، كما سبق ذكره في أسباب النزول، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي على طلبة العلم إذا حضروا درسًا أن لا يتفرقوا عن الدرس، ولا يجلسوا بعيدًا عن الشيخ، بل يقتربوا منه ويسدوا الفُرَج، فلا يكون الجن أحسن أدبًا من الإنس.

(١) المعجم الكبير للطبراني (٥/ ٢٠٨)، برقم: ٥١١٧

وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠﴾، قل يا محمد للمشركين من جن وإنس، إنما أعبد الله وحده لا شريك له، وأدعوه وحده دون سواه، وقد كانت قريش تُحاول أن تحصل من النبي ﷺ على شيء من مدح وإقرار لآلهتهم.

وقوله: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾، وقل لهم أيضًا أنا بشر مثلكم، لا أملك أن أنفعكم، ولا أملك أن أضركم، فهدايتكم ليست بيدي، وعذابُكم أيضًا ليس بيدي، فأنا مُبلّغ ومرشد لكم إلى الحق والصواب، والذي بيده الضر والنفع هو الله تعالى.

وقوله: ﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾، وأخبرهم أني لو خالفتُ أمره، وأشركتُ به، وقبِلتُ بما عرضته قريش عليّ من المداهنة والمهادنة للشرك؛ فلن ينقذني من عذاب الله أحد، ولن أجد عند غيره مُلتجَأ، ألجأ إليه وأحتمي به من الخوف، ومنه اللحد في القبر، حيث يحفر إلى جهة معينة من أجل يكون المدفون فيه في مأمن من سقوط التراب عليه.

وقوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾، إلا أداة استثناء، والاستثناء هنا مُنقطع، فلم يذكر المستثنى منه، **ويُمكن تقديرُه:** لا أملك أن أنفعكم ولا أملك أن أضركم، وما أملكُه لكم هو البلاغ المبين، بأن أدلكم وأرشدكم إلى الحق، وأبلغكم عن الله رسالاته، وهي وحيُه وأحكامُه التي أنزلها عليّ، فهذه مهمتي، أنا مبلغ ورسول من الله إليكم، هذا الذي أملك أن أقوم به، ولا أملك أن أدخل الإيمان إلى قلوبكم، ومن يعصِ

الله ورسوله في أمر البلاغ والرسالة، فجزاؤه نار جهنم، فيعذب ويُخلد فيها، ولا يخرج منها أبداً.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤﴾، الخطاب للكفار، الذين كانوا يُنكرون البعث والنشور، فإذا ماتوا وبُعثوا وشاهدوا ما كانوا يُوعدونه من تطاير الصحف والحساب والنار؛ حين ذاك، يتحقق لهم العلم من هو الضعيف الذي لا ناصر له عند الله ولا يوجد معه حوله من الناس من يحميه ويدافع عنه، كما كانوا يحمونه في الدنيا، لأن الذي منع الكفار عن الإيمان هو الأشر والبطر والاعتداد بالمال والجاه والولد والسلطان، فكانوا يظنون أنها ستنفعهم في الآخرة كما نفعتهم في الدنيا.!!

وقوله: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾، أخبرهم يا محمد، أنك لا تدري بموعد الساعة، هل هو قريب، أم أنه ما زال موعده بعيدًا، فموعد قيام الساعة من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وحده، **وقد أخبر الله النبي** ﷺ، **بعلامات قُرب قيام الساعة، منها**: العلامات الصغرى، **مثل**: بعثته ﷺ، **ومنها** العلامات الكبرى، وهي التي ستكون قبل قيام الساعة، **مثل**: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدجال، وغيرها.

وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾، فالغيب لله وحده، والله سبحانه هو عالمُ الغيب، ولا يُطلِع على غيبه أحداً من الخلق، لا ملكاً مُقرباً ولا نبياً

مرسلاً، واستثنى من ذلك من ارتضى من رسول، وهو اسم جنس، **قيل**[١]: المقصود به الملك كجبريل ﷺ، الذي ينزل بالوحي، فيحرُسه من بين يديه ومن خلفه حراسة شديدة بالملائكة بحيث لا يُمكن لأحد أن يسترق منه السمع، ولا أن يخرج هذا الغيب عن الرسول الذي أُرسل به إلى من أُرسل إليه، **وقيل**[٢]: المقصود به الرسول من البشر، فلا يطلع على الغيب إلا من ارتضاه الله للرسالة خاصة.

وقوله: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾، الضمير في (ليعلم) يعود إلى الله[٣]، **والمعنى**: ليعلم الله أن الرسل قد أبلغوا رسالتهم دون نقص أو تحريف، **وقيل**[٤]: يعود إلى محمد، والمعنى: ليعلم محمد أن الرسل قبله قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو الرسالة، والأول أرجح، لأن الضمير في الأفعال بعده عائدة إلى الله دون سواه، فقد أحاط علماً بما لدى الملائكة الذين يحرسون الغيب والرسالة والوحي، وهو لا يخفى عليه من ذلك شيء، وأحصى كل شيءٍ عددًا، على وجه الإجمال والتفصيل، وشيء نكرة أضيف إلى كل، فيشمل علم الله وإحاطته وإحصائه لعدد كليات وجزئيات الكون كله، من الحجر والشجر والمخلوقات والفيروسات والميكروبات التي لا يراها الإنسان، فضلًا عن أن يعلم تفاصيل حياتها.

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٨٥).

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٣٢).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٤٨).

(٤) ينظر: تفسير ابن جزي: (٢/ ٤٢١).

فوائد وهدايات من الآيات:

١ - أن الجور والظلم والشرك سببٌ من أسباب دخول النار.

٢ - أن الاستقامة على الطاعة سبب في نزول البركات، وأن المعصية سبب في محق البركات.

٣ - أن الله حفظ الوحي وحرسه بملائكة شداد، حتى يبلغ إلى المرسل إليه كاملاً.

٤ - سِعة علم الله تعالى وإحاطته بعدد الجزئيات والكليات في الكون كله.

تفسير سورة المزمل

تفسير المقطع الأول من سورة المزمل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ
ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ
لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ
أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣
يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾.

شخصية السورة:

سورة المزمل؛ سورة مكية[١]، وهي من أوائل السور التي نزلت بمكة، وسُميت بسورة المزمل لمُخاطبة الله تعالى للنبي ﷺ بهذا الوصف، ومقصدُها الأعظم هو الدعوة إلى الإسلام، وبيان أهميتها، وأنها حملٌ ثقيلٌ يحتاج إلى عوامل مساعدة حتى يقوم بها النبي ﷺ ومن اتبعه على أكمل وجه.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٤٩).

قـول الله تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾، هـذا أسـلوب مـن أسـاليب التلطـف بالمنادى، ومن تعظيم الله تعالى للنبي محمد ﷺ، لم يُناده باسمه أبدًا، بل ناداه باسم النبوة والرسالة وبوصفٍ مُؤقت من باب التلطف معه كالمتزمل والمتدثر، والمتزمل[(١)]: هو الملتف بثيابه، وهل المقصود بهذا الوصف الحقيقة أم المجاز؟ **قولان**[(٢)]: **فالحقيقة**: أن النبي ﷺ ،كان ملتفًا بثوبه حين جاءه الوحي وناداه الله بهذا الوصف، **والمجاز**: معناه أن النبي ﷺ، متزمل بالرسالة والنبوة، **أي**: مُشمر لها، ومُهتم بالقيام بها، ومستعد للخروج لتبليغها، والأول أرجح؛ لأن الأصل في الكلام هو الحقيقة، ولا يُنتقل إلى المجاز إلا لصارف أو قرينة، والأصل فيها يا أيها المتزمل، وإنما أُدغمت التاء للتخفيف[(٣)].

وقولـــــــه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾، المطلوب منك أن تقوم الليل بالصلاة، ومعنى ذلك أن النبي ﷺ، كان مُلتفًا بثيابه استعدادًا للصلاة، فأمره الله تعالى بأن يستغرق الليل في الصلاة النافلة، وأن لا ينام إلا وقتًا قليلًا منه، **كما في قوله**: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧﴾[الذاريات:١٧]، **أي**: كانوا ينامون وقتًا قليلاً من الليل، وإلا فوقتهم كله في قيام وصلاة وعبادة وذكر، والأمر يدل على الوجوب والفرضية، وقد كانت صلاة الليل في بداية الإسلام واجبة، كما **قالت عائشة**[(٤)]: "إن الله افترض

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٣٤).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٣٧٨).

(٣) ينظر: التفسير البسيط: (٢٢/ ٣٤١).

(٤) صحيح مسلم: (١/ ٥١٢)، برقم: (٧٤٦).

قيام الليل في أول هذه السورة، فقام ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة"، وكان الواجب فيها أن يقوم ما حُدد له منه، وهو: الليل إلا قليلاً منه، أو نصف الليل، أو ثلثه، أو ثلثاه، وقد كان الصحابة جادين وحريصين على تنفيذ هذا الأمر، وكان يشق عليهم حساب الليل، فكان بعضهم يتجاوز الليل كله حتى لا يُنقص من المطلوب شيئًا[(١)]، ثم خفف الله عنهم بعد ذلك، وأمره أن يقرأ القرآن بتمهل، وهو الترتيل وهو القراءة المعتدلة مع التدبر لما يقرأ، وفي هذا الفائدة والمنفعة للقلب والفكر، ويُؤثر ذلك في الاستقامة وزيادة الإيمان وانشراح الصدر، وقد كان النبي ﷺ يصلي فيقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها[(٢)].

وقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾، هذا هو علة لأمره بقيام الليل وترتيل القرآن وتدبره، من أجل أن يُساعدك هذا العمل الصالح على تحمل القول الثقيل الذي سنُلقيه عليك، وهو الرسالة وإبلاغها، وماذا يُقصد بكلمة ثقيل؟! **قيل**[(٣)]: ثقيل وقت نزوله؛ كما **قال زيد بن ثابت:** "أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فكادت ترض فخذي"[(٤)]، **وقالت عائشة:** "ولقد رأيته ينزل عليه الوحي، ﷺ، في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٦٧٨).

(٢) صحيح ابن حبان: (٦/ ٣١٨)، برقم: (٢٥٨٠)

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٥١).

(٤) صحيح البخاري: (٤/ ٢٥)، برقم: (٢٨٣٢).

ليتفصد عرقًا"[(١)]، **وقيل**[(٢)]: ثقيل من حيث العمل به، **وقيل**[(٣)]: ثقيل في الميزان يوم القيامة، فأجر من يدعو إليه ويتعلمه ويقرأه كبير، ولا تعارض بين هذه الأقوال كلها، فهو ثقيل من حيث نزوله على النبي ﷺ، وثقيل من حيث العمل به والاستقامة عليه؛ لأنه أمانات يحتاج الإنسان أنه يتحملها بقوة حتى يُؤديها كما أمر الله تعالى، وثقيل في الميزان يوم القيامة من حيث الأجر المترتب عليه.

وقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦﴾، وهذا تعليل للأمر بقيام الليل والترتيل، فناشئة الليل؛ هي ساعة الليل التي تنشأ فيه[(٤)]، وهي القيام بعد نوم، وسميت ناشئة؛ لأنها تنشأ بعد أن كان الإنسان قد نام وأُخلد إلى الراحة، فيقوم من جديد، فقيامُك للصلاة بعد نوم في الليل سواءً كان بعد العشاء أو في نصف الليل أو في الثلث الآخر كله يُسمى ناشئة، **واختيرت لسببين**:

الأول: أن ما يُتلى ويُقرأ فيها من القرآن أكمل مواطأةً وموافقةً للسان مع القلب، فقلبُك حاضر، وسبب حضور القلب أنك قمت من النوم، ولا يوجد ملفات مفتوحة في دماغك تفكر فيها، كالذي يأتي من المتجر أو من الشارع ويدخل إلى الصلاة، فستبقى ملفات مفتوحة في ذهنه، وهو يُصلي ويقرأ؛ فتشغله تلك الملفات المفتوحة عن التدبر، وتحول بين مُوافقة لسانه في التلاوة لقلبه.

---

(١) صحيح البخاري: (١/ ٦)، برقم: (٢).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٥١).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٣٨).

(٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٥/ ٢٤٠).

والسبب الثاني: أن طبيعة الليل هو الهدوء، سواءً على مستوى النفس أو من حولها؛ فحصل هدوء من حيث الزمان، وهدوء واستعداد من حيث النفس، وطئًا؛ **فيها قراءتان**(١): بكسر الواو، والمد، **أي**: أشد مُوَاطأة للقول، وفراغًا للقلب، وبفتح الواو والقصر، **بمعنى**: أنها أثقل على المصلي من ساعات النهار.

وقوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، **أي**: وأصوب في القول، فليس فيها غلط ولا نسيان؛ لأن العقل غير مشتت، وهناك هدوء حولك، فانعدمت أسباب الخطأ للقراءة من الحفظ.

وفي قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧﴾، **أي**: فخص الليل بالعبادة وقراءة القرآن والذكر، واستغل النهار في قضاء أشغالك، من تجارة وصناعة وزراعة، ونحوها من المشاغل الدنيوية، وفيه إشارة إلى جعل الليل محلاً للعبادة والطاعة، فالناس نائمون، وأنت تذكرُ الله وتعبده، وفي ذلك فضل كبير، **كما قال**: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ﴾[الزمر:٩]، فلا تشغل ليلك بالسهر على المحرمات، فيضيع وقتك في اكتساب الآثام، وفيه إشارة إلى أهمية الحفاظ على الوقت، فلا تُضيَّع دقيقة منه إلا فيما ينفعُك في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ۝٨﴾، وأمره الله أن يذكر اسمه بلسانه وقلبه، وينقطع عن الخلق بالتفكر في مخلوقاته تعالى، والتأمل في نعمه، **كما في قوله**: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾[الشرح:٧-٨]، **والتبتل**؛ هو

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٦٨٤).

الانقطاع للعبادة[(١)]، **وفي الحديث:** "رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، **أي:** ترك الزواج لأجل التعبد، ولو أذن لنا لاختصينا"[(٢)]، **أي:** لقطعنا عروق الخصية، قطعاً للشهوة.

وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وذكر المشرق والمغرب على سبيل الجنس، والمقصد المشارق كلها والمغارب كلها، **كما قال:** ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾[المعارج:٤٠]، لأن الشمس تعدد مشارقها ومغاربها خلال العام، والقمر يكون تبعاً لها، وهو رب الكون كله، وهو من باب ذكر الجزء الذي يدل على الكل، والله الإله الذي لا يُعبد بحقٍ إلا هو، ووجود آلهة غير الله من أصنام وأوثان وصُلبان ونيران وكواكب فهي معبودة بغير حق.

وقوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾، وهذا هو الأمر الخامس له، **أي:** فوض أمرك إلى الله واعتمد عليه لا على غيره، فهو الذي يُعينك على تنفيذ ما أمرك به من قيام الليل، وترتيل القرآن، وذكر الله المطلق، والانقطاع للعبادة، فهذه كلها تحتاج إلى من يعينك عليها ويُوفقُك إليها، وهو الله تعالى، وهو الوكيل الذي يجب عليك الاعتماد عليه في أمورك كلها حتى تُنجَزها؛ فإنه لا حول لك ولا قوة إلا بالله تعالى.

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾، وهذا هو الأمر السادس والسابع له، وقد كان ذلك في بداية تبليغ الرسالة؛ لأنه سيواجه كلامًا

---

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج: (٥/ ٢٤١).

(٢) صحيح البخاري: (٧/ ٤)، برقم: (٥٠٧٣).

سيئًا يُؤذيه من كفار قريش، كقولهم عنه: إنه ساحر أو كاهن أو مجنون ونحوها، فأمره بالصبر على ذلك كله، كما أمره بالهجر الجميل لهم، فلا يشغل باله في التفكر في سبهم وشتمهم حتى لا يؤثر ذلك على نفسه، **والهجر**: هو ترك الشيء ومفارقته، ووصف الهجر بالجميل، **وهو الذي يتوفر فيه شرطان:**

الأول: أن يكون لمصلحة دينية راجحة وليس لمصلحة شخصية.

والثاني: أن تترك الشكوى من الشخص الذي هجرته وتكتفي أنك هجرته لله، فهذا هو الهجر الجميل.

وكان هذا هو المشروع للمؤمنين في الفترة المكية، بسبب ضعفهم، وذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية وأمثالها نُسخت بآيات الجهاد والأمر بالقتال[1]، والصحيح أنه لا نسخ، فآيات الصبر والإعراض والهجر الجميل مُحكمة، وآيات القتال والجهاد مُحكمة، ويعمل بهما في حالتين مختلفتين، فإذا كان المؤمنون في حالة ضعفٍ واستضعاف؛ فالواجب عليهم الصبر والإعراض، وإن كانوا في حالة قوةٍ وقدرة على القتال؛ فالواجب عليهم الجهاد.

وقوله: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾، وأخبره أن يترك أمر المكذبين أصحاب التنعم له، وهو سيتصرف معهم بما يستحقون، **قيل**[2]: نزلت في بني المغيرة، وهم قوم من قريش كانوا متنعمين في الدنيا، **والصحيح** أن اللفظ عام يشمل المكذبين من أهل مكة ومن غيرهم، من أصحاب النَّعمة. ما الفرق بين

(١) ينظر: الناسخ والمنسوخ، للنحاس: ٢٩٢.

(٢) ينظر: تفسير ابن جزي: (٢/ ٤٢٤).

النَّعمة والنِّعمة؟! النِّعمة من الإنعام، والنَّعمة من التنعم، **والمعنى**: أن الله تعالى، أعطاهم نَعماً ظهرت على أجسادهم، وأحوالهم.

وقوله: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾، **أي**: لن نتركهم عمرًا طويلًا بدون عقوبة، بل سنعطيهم مهلة قليلة لعلهم يتوبون ويرجعون إلى الله، وهذه الآية تشير إلى ما حصل لهم في غزوة بدر(١)، فقد قتل منهم سبعون رجلاً من المتنعمين.

وقوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢﴾، ثم أخبر الله عما أعده لهم من العذاب في الآخرة إن ماتوا على الكفر، فالأنكال؛ هي القيود(٢)، **وقيل**(٣): أعد لهم عذابًا يُنكل بهم، **أي**: يُقعِدهم بلا حركة كالمقيدين، ولا مانع من اجتماع الأمرين بحقهم في النار المشتعلة بهم، فيجمع لهم العذاب الحسي والعذاب النفسي، وبين النكال والجحيم.

وقوله: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣﴾، **أي**: وأعددنا لهم طعاماً ذا غصة، **والغصة**: ما ينشب في الحلق من عظم أو غيره(٤)، فلا يستطيع أن يبلعه ولا يستطيع أن يُخرجه، **وقد اختلف المفسرون**(٥) في نوع هذا الطعام، **فقيل هو**: شجرة الزقوم، **وقيل هو**: الغسلين، **وقيل هو**: الضريع، وهذه كلها أنواع، وأعددنا لهم عذاباً أليماً في النار، ووصف العذاب بالأليم؛ لأنه يُؤلم خلايا الجسم كلها.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٦٩٠).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٥٦).

(٣) ينظر: تفسير السعدي: (ص: ٨٩٣).

(٤) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٣٨٢).

(٥) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٣٥٥).

وقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾، وسينالهم هذا العذاب في يوم القيامة، حين تضطرب الجبال وتتحول إلى رمل سائل متحرك من شدة اضطرابها، **والرجفة**: الزلزلة والرعدة الشديدة، **والكثيب**: الرمل، **والمهيل**: السائل المتحرك[1]، **مما يدل على أن الرجفة عظيمة، كما قال:** ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾[الواقعة:٥]، **أي**: تُفت وتُدق، ثم تنسف نسفًا، فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، حتى تصير الأرض قاعًا صفصفًا.

فوايد وهدايات من الآيات:

١ – أهمية قيام الليل للمؤمن عمومًا وللداعية خصوصًا الذي يُريد أن يُبلغ رسالات الله.

٢ – أهمية تلاوة القرآن وذكر الله والصبر والتوكل على الله لتحمل تكاليف الشريعة.

٣ – بيان أن قيام الليل من أفضل الأساليب لمراجعة القرآن وحفظه.

٤ – أن القيام بتكاليف الإسلام كلها يحتاج إلى تربية شاملة للعبد، وكلما تربى العبد تربيةً إيمانية متكاملة شاملة كلما ثبت دينُه وصلح حاله.

٥ – أن الفترة المكية كانت من أعظم فترات التربية الشاملة للمؤمنين، وتخرج منها الذين نشروا الإسلام قادوا الفتوحات بعد ذلك.

---

(١) ينظر: التفسير البسيط: (٢٢/ ٣٧٦).

تفسير المقطع الثاني من سورة المزمل

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾﴾، الخطاب موجه إلى كفار مكة، فقد أرسل الله إليهم رسولًا، وهو محمدٌ ﷺ، وهو شاهدٌ عليهم في الدنيا وشاهدٌ عليهم في الآخرة، كما سبق أن أرسل موسى إلى فرعون، وإنما لم يذكر هنا اسم موسى لأنه واضحٌ من السياق، فرسول الله الذي أرسله إلى فرعون هو موسى، وأما هارون فهو تبع بطلبٍ من موسى ليشد أزره ويُشركه في أمره، وهو أسلوب تعريض بكفار قريش؛ لأنهم قد علموا نهاية فرعون بسبب كفره، ومصير كل كافر هو الهلاك.

وقوله: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾، بيان لموقف فرعون من موسى ﷺ، حيث عصى فرعون ولم يطع موسى فيما أرسل به إليه، فترتب على عصيانه أن أخذه الله أخذًا شديدًا قاسيًا، **والوبيل**(١): الثقيل الغليظ جدًّا، ومنه الوابل، وهو المطر الشديد، وقد وصف الله لنا في آيات أُخرى كيف أغرق الله فرعون في البحر.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾، الخطاب لكفار مكة، كيف تمنعون أنفسكم من عذاب يومٍ عظيم إن بقيتم على كفركم، لأن الذي يُعذب ويُنكل به في الآخرة هم الكافرون، أما المؤمنون فإنهم من فزع يومئذٍ آمنون، ومن شدة فزع الناس في ذلك اليوم تشيبُ رؤوس الولدان صغار السن من هول الموقف وشدته(٢)، وفيه إشارة أن الفزع والخوف من أسباب الشيب، **وقيل**(٣): إن سبب شيب الولدان. هو شدة طول ذلك اليوم، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيب.

وقوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾، فالسماء متشققة فيه، أو بسبب هوله، **وذكر لفظ** (منفطر) لمعاملة السماء معاملة السقف، فكل ما فوق رأسك يسمى سماء، **كما قال:** ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾[الأنبياء:٣٢]، أو لأن السماء من الألفاظ التي تأنيثُها مجازي، فيجوز أن توصف بلفظ المذكر(٤)،

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٣٧٧).
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٥٧).
(٣) ينظر: تفسير الرازي: (٣٠/ ٦٩٢).
(٤) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٦٩٦).

والضمير في: ﴿وَعۡدُهُۥ﴾، عائد إلى الله، أي: كان وعدُ الله كائنًا لا يتخلف.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾، إن هذه السورة[1]، أو ما سبق أن ذكرناه لكم من أوصاف يوم القيامة[2]، موعظة لمن أراد أن يتعظ، وآيات القرآن كلها تذكرة وموعظة، فمن يريد أن يهتدي بهذه الآيات، ويتعظ بها ويتخذها طريقًا صحيحًا يوصلُه إلى الجنة؛ فليفعل، وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان مسؤول عن نفسه، وأن الله تعالى لا يُجبر الخلق على الإيمان أو على الكفر، خلافًا لمن يقول أن الإنسان مُجبر على أفعاله، وهو مذهبٌ باطل، بل إن الله تعالى أعطى الإنسان مشيئة لاختيار الإيمان والكفر، والهدى والضلال، بعد أن منحه هداية الإرشاد والبيان والتوجيه، كما قال: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾[البلد:١٠]، وقال: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، فللعبد مشيئة، ولكنها داخلة تحت مشيئة الله، كما قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الإنسان:٣٠]، فيمنح الله العبد التوفيق في اختيار الحق، أو يخذله، فيقع في الضلال والانحراف، والعياذ بالله.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾، هذه الآية نزلت مُتأخرةً عن بداية السورة، كما ثبت عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، أنها قالت: إن الله تعالى افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٥٧).

(٢) ينظر: تفسير السعدي: (ص: ٨٩٤).

في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة"[١]، وذكر الله تعالى في بداية هذه الآية توطئة بأن الله قد علم منك الامتثال لأمره بقيام الليل فقمت أنت وجماعة من أصحابك المؤمنين تارة أقل من ثلثي الليل، وتارة نصفه، وتارة ثلثه، وذلك كله من غير قصد منكم، لأنه يشق عليكم المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل، لصعوبة ضبطكم لهذه الأوقات.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾، جملة اعتراضية تبيّن أن الله وحده هو القادر على أن يُحصي ساعات الليل والنهار بكل دقة، وكان الرجل من الصحابة يصلي الليل كله مخافة أن لا يصيب ما أمر الله به من قيام ما فرض عليه[٢]، وكان في تلك الأيام لا يوجد لديهم وسائل للتنبيه أو ساعات لضبط الأوقات، وإنما كان الأمر على سبيل التقدير، **وعلّل التخفيف بقوله:** ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾، **أي**: علم أن لن تُطيقوا الاستمرار على هذه العبادة بهذا النوع من التكليف الدقيق، ولكن طالما قد امتثلتم الأمر وبذلتم وسعكم في تنفيذه، فإن الله قد خفف عنكم.

وقوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾، **أي**: فيكفيكم أن تصلوا ما تيسر لكم من ساعات الليل كل حسب استطاعته، فنقلهم من القيام بالزمان من ثلثي الليل، ونصف الليل، وثلث الليل، إلى القيام بما تيسر من الآيات، **وفي الحديث**: **"من قام الليل بمائة آية لم يُكتب من الغافلين"**[٣]، ثم ذكر الأعذار التي تعتري البشر،

---

(١) صحيح مسلم: (١/ ٥١٢)، برقم: (٧٤٦).

(٢) ينظر: التفسير البسيط: (٢٢/ ٣٨٥).

(٣) صحيح ابن حبان: (٦/ ٣١٠)، برقم: (٢٥٧٢).

وتحول بينهم وبين قيام الليل، **فقال:** ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾، وهذا هو العذر الأول، وهو أن الإنسان مُعرض للمرض، وفي وقت المرض لا يستطيع قيام الليل، كما لو كان صحيحاً.

وقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، وهذا هو العذر الثاني، وهو السفر في طلب الرزق والتجارة، فلا يتيسر له قيام الليل، كما لو كان مقيماً، وسمى السفر ضربًا في الأرض؛ لأن الماشي يضرب الأرض برجله.

وقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهذا هو العذر الثالث، وهو الانشغال بالقتال والجهاد في سبيل الله، فإذا قلنا إن هذه الآية مكية لأن السورة كلها مكية، فهي بشارة للمؤمنين أنهم سيُتاجرون بعد فقرٍ، ويكسبون مالًا، وأنهم سيُقاتلون ويغزون عدوهم بعد أن منعوا عن القتال في مرحلة الاستضعاف.

وقوله: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، وكرر هذه العبارة مرتين، ففي المرة الأولى كان السبب لها عدم قدرة المسلمين على إحصاء الليل، وفي الآية الثانية كان السبب لها ما ذكره من الأعذار الثلاثة، والضمير في (منه)، عائد إلى القرآن الكريم.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، **أي:** استمروا في المحافظة على الصلوات الخمس واعتنوا بإقامتها، فلم يجر تخفيف فيها، وإنما جرى التخفيف في نافلة قيام الليل، والإقامة معناها أداء الصلاة بكل أركانها وشروطها وواجباتها، وآتوا الزكاة؛ **أي:** أعطوها لمستحقيها بطيب نفسٍ وإخلاص لله، فإن قلنا إن الآية مكية، فلم يكن ثَمّ زكاة في مكة، فإنها لم تُفرض إلا في المدينة،

فيكون المقصود بذلك صدقة التطوع العامة، أو أنها إشارة إلى فريضة الزكاة التي ستفرض عليهم في المدينة.

وقوله: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، القرض الحسن؛ هو مطلق الصدقة بطيب نفس لمن يستحقها، دون مَنٍّ ولا أذى، وسماها قرضًا حسنًا؛ لأن الله طلبها من العبد، وسيُعيدها له بأجر مضاعف، **وفي الحديث:** **"إن الله يأخذ صدقة أحدكم بيمينه ثم يُبارك له فيها أو يربيها كما يُربي أحدُكم فُلوه أو فصيله، وإن التمرة تُصبح يوم القيامة كجبل أحد"**(١).

وقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وهذا أسلوب تحفيز وتشجيع فقد سمى الصدقة للمخلوقين قرضًا مع الله، والخالق كريم سيُعطيك أضعافها، وأنت مُقبل على الآخرة، وفي الآخرة تحتاج إلى الحسنة لترفعك درجة، فقدم لنفسك الخير من الآن، ونكّر لفظ خير لتدل على العموم والتنوع لكل خير حسي أو معنوي، **وفي الحديث:** **"لا تحقرن من المعروف شيئًا"**(٢)، فإذا لم يجد الإنسان مالًا يتصدق به ويُقدمه لنفسه، فليُقدم أعمالًا خيرية أخرى من ذكرٍ واستغفارٍ وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإماطة الأذى عن الطريق ونحوها من الأعمال الصالحة، وسيجدون أثر ذلك الخير وثمرته عند ملاقاته لله في أول منازل الآخرة وهو القبر، فيأتي العمل الصالح على صورة رجل صالح يُؤنس صاحبه في قبره، ويُوسَّع له فيه، ويأتيه من رَوح الجنة وريحانها، حتى

(١) صحيح البخاري:(٢/ ١٠٨)، برقم: (١٤١٠)، وصحيح مسلم:(٢/ ٧٠٢)،برقم:(١٠١٤).
(٢) مسند أحمد:(٢٥/ ٣٠٩)، برقم:(١٥٩٥٥)، وصحيح مسلم:(٤/ ٢٠٢٦)،برقم:(٢٦٢٦).

يبعث فيدخل الجنة.

وقوله: ﴿هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗا﴾، **أي:** هذا الخير الذي قدمته لله، هو أفضل ما تقدمونه للآخرة، وأعظم ثوابًا فيها.

ثم ختم السورة بقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾، أي يستر، يُغطي الذنوب، ويرحم العبد المذنب الذي وقع في الخطأ والتقصير، فيؤجّل عنه العقوبة حتى يتوب، وفيه إشارة إلى أن العبد مهما فعل من هذه الطاعات والقربات إلا أنه لا بد من التقصير فيها والخطأ؛ لأنه غير معصوم.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن أحداث يوم القيامة عظة وعبرة وتذكرة لمن تذكر.

٢- أن المشقة تجلب التيسير، فحين شق على المؤمنين الأوائل قيام أغلب الليل ولكنهم امتثلوا؛ أنزل عليهم التخفيف.

٣- أن حكم قيام الليل هو الاستحباب، ومن أهمل وترك الوتر منه فقد فرط.

٤- من أساليب التحفيز أن سمى الله الصدقة قرضًا له سيجده صاحبه يوم يلقى الله تعالى.

٥- الاستغفار مأمورٌ به بعد الطاعة لاحتمال وقوع الإنسان في القصور والضعف، وبعد المعصية للتوبة من الذنب.

تفسير سورة المدثر

تفسير المقطع الأول من سورة المدثر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴿٥﴾ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ﴿١٠﴾ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة المدثر، سورة مكية[١]، نزلت بعد سورة العلق، **فقد جاء في**

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٦١).

الصحيح(١): "أن الوحي فتر عن النبي ﷺ، حتى كان النبي ﷺ يذهب إلى الجبال والشواهق، فيراه جبريل فيقول له: اثبت فإنك رسول الله، ثم رأى النبي ﷺ، جبريل على هيئته جالسًا على كرسي قد سد الأفق، فأصابته رهبة، فرجع إلى خديجة فقال: (دثروني دثروني)، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾"، والعلاقة بينها وبين التي قبلها؛ أن في سورة المزمل أمره بأفعال خاصة تُعينه على الطاعة وتُقوي قلبه لاستقبال الوحي، بينما في سورة المدثر أمره بالقيام بالإنذار والتبليغ، فالأولى تهيئة وسبب للثانية.

والمقصد العام للسورة؛ الأمر بالاجتهاد بدعوة الكافرين المكذبين، بالبيان وإبلاغهم الرسالة، وإنذارهم بالقرآن الكريم، وتخويفهم بالنار، وذكر نماذج لبعض المكذبين به.

ابتدأت السورة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾، هذا نداء فيه معنى التلطف بالنبي ﷺ، وإدخال السرور عليه، وليس بالضرورة أن يكون لقبًا له، وإنما هو وصف له في حالة مؤقتة، وقد كان النبي ﷺ يفعل ذلك مع بعض أصحابه، فقد دخل يومًا المسجد فوجد عليًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ نائمًا على حصباء المسجد وقد أثّر التراب على جسده، فقال له مداعبًا ومتلطفًا به: "قم يا أبا تراب"(٢)، **والمدثر** هو المتغطي بثوبه.

وقوله: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾، ومن حين نزلت عليه كلمة "قم" ما جلس ولا قعد

(١) صحيح البخاري (١/ ٧)، برقم: (٤)، وصحيح مسلم: (١/ ١٤٣)، برقم: (١٦١).

(٢) صحيح البخاري (١/ ٩٦)، برقم: (٤٤١).

عـن الـدعوة بـل اسـتمر في نـشاطه وسـعيه في الـدعوة والـبلاغ حتـى توفـاه الله، والمعنى: يا أيها المتغطي بثوبه، قـم وانهـض، فقد ذهـب وقـتُ النـوم والكسل، وجاء وقت العمل والسعي في الدعوة والبلاغ وتعليم الناس التوحيد والإيمان، والقيام هـو أن يـأتي الإنـسان بالـشيء علـى أكمـل وجـه، **كقولـه:** ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الإسراء:٧٨]. **أي:** أدّها على أكمـل وجـه، والفـاء واقعـة في جـواب الأمـر، الدالـة علـى الاسـتعجال وعـدم التـسويف، فـانهض مباشـرةً إلـى إنـذار قومـك، ولا تتأخر!!.

وقوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣﴾، **أي:** اجعل الله تعالى أعظم شيءٍ في حياتك، فكل شيءٍ دون الله صغير.!

وقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤﴾، للمفـسرين في معنـى هـذه الآيـة أقـوال[1]، **قيـل:** ونفسك، طهرها من الـشرك والمعاصي وسـيء الأخـلاق، **وقيـل:** وثيابـك التـي تلبسُها يجب أن تكون طاهرةً من الأنجاس والأوساخ، **وقيل:** وخلقـك فحسنه، والمعنى يشمل هذا كله، وإن كان الأصل في الخطاب على مـا اعتـاد العـرب مـن المعاني الظاهرة، وظاهر اللفظ أنها الثياب المعروفة، فإذا كان أمـره بتطهيـر ثيابـه الظاهرة، فمن باب أولى أن يُطهر قلبه أو أن يُطهر نفسه، وإذا كان أمـره أن يتطهـر من النجاسات المحسوسة، فمـن بـاب أولـى أن يـأمره أن يتطهـر مـن النجاسـات الخفية، مثل الشرك وسائر المعاصي وأدرانها.

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٩٢).

وقوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾، **الرجز؛ فيه قراءتان**[١]: بكسر الراء وضمها، فالضم المقصود به الشرك والأوثان، وعبادة غير الله، **أي:** اهجرها وابتعد عنها، وبالكسر المقصود به العذاب، **أي:** اهجر كل ما يُؤدي إلى العذاب، والجمع بين المعنيين ممكن، فترك الشرك يدخل في ترك ما يُوجب العذاب.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾، **للمفسرين فيها أقوال**[٢]، **منها:** لا تُعطي غيرك شيئًا، وتطمع بأكثر منه، **ومنها:** لا تعمل الأعمال الصالحة، وتظنها كثيرة فتمنّ بها على الله، **ومنها:** لا تضعف أن تستكثر من الأعمال الصالحة، بل قوِّ نفسَك واستمر في أدائها، وكلها معانٍ قريبة من بعضها، والمقصد من ذلك أن يجتهد في طاعة الله وعباداته وأعماله، وأن لا يمنّ بهذه العبادات على الله، ولا على الخلق، بل المنّة لله سبحانه الذي وفق لذلك.

وقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾، اللام هنا لام الاختصاص، **أي:** لربك لا لغيره فاصبر، بمعنى أخلص نيتَك لله في عملك، واستمد منه الصبر، وفيه استشعار اختصاص الرب بالعبادة؛ لأنه الذي خلقك ورباك، والصبر يشمل أنواع الصبر الثلاثة، وهي الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على ابتلاءات الله وأقداره المؤلمة.

وقد قام النبي ﷺ بما أمره الله من أوامر سابقة على أكمل وجه، فمنذ أن أمره الله بالقيام قام ولم يجلس، واستمر في الدعوة والبلاغ، قالت عائشة

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ١٢).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣٦٠).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "كان النبي يصلي في آخر عمره جالسًا، فقيل لها: لـمَ؟ قالـت: حطَمَه الناس"(١)، **أي**: صار يصلي جالسًا من ضعفٍ حل به بسبب ما كان يُلاقيه من الناس من لقاءات وزيارات وطلبات وأعمال، ولم يكن له حُجّاب يحجبونه عن الناس، بل كان يُقابل كل الناس حتى الطفلة الصغيرة كانت تراه في الطريق، فتأخذ بيده، وتسأله فيجلس إليها ويتكلم معها.

وكبّر الله أعظم تكبير، واتقاه حق تقواه، حتى **قال عن نفسه**: "**والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلم بما أتقي**"(٢)، فلا أحد يحاول أن يصير أحسن منه في هذا الباب.

وفي باب الطهارة فقد بلغ المنتهى في ذلك، فقد كان يكره أن تشم منه رائحة كريهة، فكان يستاك ويُطيب فمه، ويُطيب ثيابه، ويغتسل، **وقد عُرف عنه** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أنه كان يكره أن يُشم منه رائحة غير طيبة، حتى تآمرت عليه زوجتاه وقالتا له بعد أن شرب عسلًا عند إحدى زوجاته: "**إنا نشم منك رائحة مغافير**"، والمغافير؛ شجرة لها رائحة كريهة، فقال: "بل شربت عسلاً، فقالوا: بل رائحة مغافير، فحرّم أن يشرب العسل مرةً أخرى"(٣)، فقد بلغ أعلى رتبة في الطهارة والنظافة ظاهرًا وباطنًا، قلبًا ونفسًا، وأطهر الناس جسدًا ورائحة.

وهجر الشرك، وأسباب العذاب، فلم يُؤثر عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أنه سجد لصنم، أو

---

(١) صحيح مسلم: (١/ ٥٠٦)، برقم: (٧٣٢).

(٢) صحيح مسلم: (٢/ ٧٨١)، برقم: (١١١٠).

(٣) صحيح البخاري: (٦/ ١٥٦)، برقم: (٤٩١٢).

استمع إلى منكر قبل البعثة أو بعدها.

ولم يستكثر عمله، بل استمر في العبادات والطاعات، حتى قالت له عائشة حين رأته يقوم الليل حتى تتفطر قدماه: "أتفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا"[(١)]، فلم يستكثر العبادة والطاعة والعمل الصالح على ربه.

وأما في باب الصبر فقد بلغ منتهاه، فصبر على أذى قومه، وصبر على دعوة الناس وتعليمهم، وصبر على ما نزل به من الفقر والحاجة، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾، فإذا حان وقت قيام الساعة، وصاح إسرافيل في الناقور، وهو البوق أو القرن، **وفي الحديث**: "**كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر متى يؤمر**"[(٢)]، فإذا نفخ فيه النفخة الأولى، مات كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، وإذا نفخ فيه النفخة الثانية قام الناس إلى ربهم يُحشرون.

وقوله: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾، **أي**: يوم القيامة سيكون يومًا فيه شدة، وخوف على الكافرين، ولن يكون يسيرًا عليهم، ومن هذا نفهم أن الأمر يومئذ سيكون يسيراً على المؤمنين، **كما قال عنهم**: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[النمل:٨٩].

---

(١) صحيح البخاري: (٦/ ١٣٥)، (٤٨٣٧).

(٢) مسند أحمد: (٣٢/ ٩١)، برقم: (١٩٣٤٥).

ثم قال الله تعالى لرسوله: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١﴾، هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان من أثرياء وأغنياء قريش، وقد جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً؛ ليعطوه لك، فإنك أتيت محمداً لتنال منه شيئًا، فقال: قد علمت قريش أني من أكثرهم مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، ولا برجزه ولا بقصيده مني، ولا بشاعر الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلوا وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، ففكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾[1].

لقد خاف كفار قريش أن يُسلم الرجل، وإذا أسلم الوليد فسيُسلم بعده كثير منهم، لأنه كان من عِلية القوم، فاقتنص أبو جهل الفرصة وكان يعرف صفات الوليد بن المغيرة، فقد كان صاحب أنفة، لأنه غني وثري، فاخترع تلك الكذبة ليحرك فيه الغيرة الجاهلية، وأخبره أن قومه لن يقبلوا منه حتى يقول في محمد قولًا يُثبت أنه ما ذهب ليطلب منه شيئًا، فدفعوه إلى أن يقول: إن هذا القرآن الذي جاء به محمد سحرٌ أَثَره عن غيره، **فقال الله لنبيه:** ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم: (٢/ ٥٩٦)، برقم: (٣٩٢٩)، وصححه على شرط البخاري.

وَحِيدًا﴾، أي: اتركه لي، وهذا نوع من التهديد والوعيد، فالمعركة قد انتقلت من بين محمد ﷺ والوليد إلى أن تكون بين الله والوليد، ومن يقف أمام الله تعالى! ثم بدأ يصفه، فقد خلقته وحيدًا في بطن أمه ضعيفًا، ثم أخرجه منها جنينًا ضعيفًا، لا شيء له من مال ولا ولد، وقيل[(١)]: أن وحيداً، صفة الله تعالى، والمعنى: ذرني ومن خلقته وحدي لم يشركني في خلقه أحد، فأنا أعلم به، وأقدر عليه، وقوله: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾، أي منحته مالًا كثيرًا، قيل: كان ماله أربعة آلاف دينار من الذهب[(٢)]، وكان عنده أراضٍ ممتدة، فهو من أغنياء وأثرياء قريش.

وقوله: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾، أي: وجعلت له بنينًا من الذكور، قيل: كان عددهم عشرة[(٣)]، ووصفهم بالشهود، أي: حاضرين مع أبيهم يلتفون حوله، غير مبتعدين عنه، لأنهم أغنياء، فلم يتفرقوا في طلب الرزق.

وقوله: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾، أي: منحت له من وسائل الرزق والراحة الشيء الكثير، فأموره كلها ميسرة، قيل[(٤)]: كانت تصله غلة شهر بشهرٍ، من أمواله وأراضيه وتجارته، ونحوها.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾، ثم يأمل ويرجو أن أزيده من المال والولد

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٤١٨).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٢٣/ ٢٠).

(٣) ينظر: المصدر السابق.

(٤) ينظر: المصدر السابق.

على ما أعطيته، **الجواب**: ﴿كَلَّآ﴾، وهي كلمة ردع وزجر، تنفي ما سبق، **أي**: لن أزيده شيئًا، ثم بيّن السبب، **فقال**: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦﴾، **أي**: جحوداً، لأنه كفر بعد أن علم الحق، فقد كان وصف القرآن بأنه أحسن الأوصاف، ولكنه رجع عن ذلك بسبب الحمية الجاهلية، ووصفه بالسحر، واستمر في كفره.

ثم هدده الله تعالى، بقوله: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾، **أي**: سأُصليه وأُدخله جهنم، والصعود؛ وصفٌ للنار ومشقتها، **أي**: عذابًا لا راحة فيه، **وقيل**[1]: الصعود اسمٌ لجبلٍ في جهنم يكلف الكافر بصعوده، ثم ذكر قصته مع القرآن، **فقال**: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨﴾، **أي**: تأمل وأعمل فكره ونظره في القرآن، وقدّر كلامًا في نفسه، باطلاً عن القرآن.

وقوله: ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠﴾، **أي**: لُعن وطُرد، كيف جاز له أن يقول هذا القول الباطل بعد هذا التفكير؟!!، ولو فكر تفكيرًا مستقلًا لوصل إلى الحق، ولما قال هذا القول الباطل.

وقوله: ﴿ثُمَّ نَظَرَ ٢١﴾، **أي**: تأمل مرة أخرى، وقال في القرآن قولاً أسوأ من الوصف الأول، ثم وصف لنا حاله وهو يُفكر، **فقال**: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢﴾، أي أثناء التفكير في وصف القرآن، ظهر على وجهه العبوس، وهو تقطيب ما بين الحاجبين، وبسْرَ **أي**: وتغير لونه[2].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٦٦).

(٢) ينظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٤٢٩).

وقوله: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ (٢٣)﴾، **أي**: أعرض وابتعد عن قبول الحق، وتكبر عنه، **وانطلقت لسانُه، تقول:** ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ (٢٤)﴾، **أي**: هذا ليس وحيًا من الله، بل هذا سحر أخذه محمد عن غيره من الناس، **ثم قال:** ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ (٢٥)﴾، بل هذا قول البشر، **فرد عليه بقوله:** ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧)﴾، **أي**: سأُدخله جهنم، وعظم الله أمرها بالسؤال وما أعلمكم عنها؟ **ثم وصفها بقوله:** ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨)﴾، **أي**: لا تبقي لهم لحمًا، ولا تذر لهم عظمًا، بل تحرقهم فيها، وكلما نضجت جلودهم بدّلهم الله جلودًا غيرها ليستمروا في العذاب.

وقوله: ﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ (٢٩)﴾، **أي**: **والبشَر** جمعُ بِشرة، هذه النار مُحرقة لبِشر أهل النار فتُصبح جلودهم سوداء من احتراقها وذهاب ما فيها من حياة.

وقوله: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ (٣٠)﴾، **أي**: لها خزنة من الملائكة، وهم مالك ومعه ثمانية عشر ملكًا، **قيل**(١): أن أبا جهل، قال: كيف تُغلبون وعددكم كثير، وعدد أهل النار تسعة عشر، فقال أبو الأشدين الجمحي: يا معشر قريش، إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين أيديكم على الصراط، فأدفع عنكم عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر، ونمضي فندخل الجنة، **فأنزل الله تعالى**: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۚ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، **أي**: إن خزنة النار ملائكة وليسوا بشراً مثلكم، وقد وصفهم في آية أخرى، **بقوله**: ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾[التحريم:٦]، وقد جعل عدتهم ابتلاءً واختباراً للكفار في الدنيا،

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٦٩).

فيقولون مثل هذا القول، أو وما جعلنا الملائكة بهذا العدد إلا ليُعذبوا الذين كفروا في الآخرة.

وقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾، وهذا الوصف مذكورٌ في التوراة والإنجيل، فتوافق ما في القرآن مع ما في التوراة والإنجيل، كي يحصل اليقين عند أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، ويزداد المؤمن من أمة محمد ﷺ إيمانًا بذلك؛ لأن كل آية تنزل يُخبر الله بها الخلق بمعلومة غيبية تزيدهم إيمانًا.

وقوله: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، **أي**: ولا يحصل عندهم ريبة أو شك بأن القرآن حق.

وقوله: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا﴾، وأما من في قلبه شك من الكفار الجاحدين، فإنهم يتساءلون، فيقولون: ماذا أراد الله بذكر عدد الملائكة من خزنة جهنم، وما الفائدة من ذلك؟! **فرد الله عليهم بقوله:** ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، **أي**: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام، ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة في ذلك كله، فيُضل الله من يشاء حين يحرمه التوفيق، فلا يقبل الحق، ويهدي من يشاء حين يمنحه التوفيق، فيقبل الحق.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾، **فإن قلنا**: إن الجنود هنا هم الملائكة؛ فعدد الملائكة غير معلوم لنا من كثرتهم، فما يعلم عددهم إلا هو تبارك وتعالى، **وفي الحديث**: **"أطّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أصابع إلا عليه ملك**

ساجد"[1]، **وإن قلنا**: إن الجنود اسم عام لكل من يسلطه الله على الكفار؛ فهم أنواع وأعداد لا يعلمهم إلا الله، فالبعوض جند من جند الله، والريح من جند الله، والطير الأبابيل من جند الله، وهكذا.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾، **أي**: إن النار التي سبق وصفها؛ موعظة يتّعظ بها البشر وهم بنو آدم، ويدخل معهم الجن، فهم من ضمن المكلفين.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- وجوب الطهارة من الأوساخ والأدران الظاهرة والباطنة.

٢- أن إنعام الله على الشخص لا يعني أنه كريم على الله، فقد يُنعم الله على إنسان كافر فاسق ليبتليه ويختبره.

٣- خطورة الكِبر، فإنه من أسباب الكفر.

٤- جعل عدة خزنة النار ابتلاءً واختباراً للكفار في الدنيا.

٥- أن جند الله من الملائكة ومن غيرهم، كثير لا يعلم عددهم إلا الله.

(١) مسند أحمد: (٣٥/ ٤٠٥)، برقم: (٢١٥١٦)، وهو حديث حسن.

تفسير المقطع الثاني من سورة المدثر

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾،كلا، تأتي بمعنى حقًا، وتأتي بمعنى الردع والزجر وإبطال ما سبقها من كلام، بحسب السياق، وفي هذا النص الأقرب إلى معناها أنها بمعنى الردع والزجر، لأن ما سبق ذكره كلام غير مقبول، والمعنى: ليس الأمر كما يزعم المشركون ويتصورونه عن الملائكة وخزنة جهنم. وأقسم الله تعالى بالقمر، وهو الكوكب المعروف.

وقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾، وأقسم الله تعالى بالليل، وهو الزمن المعروف

الذي يُقابل النهار، وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وأقسم به في حال إدباره، وذلك عند قدوم الفجر، فإذا اقترب الفجر ذهب الليل وغادر الأرض بظلامه، وحل محله النهار.

وقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾، وأقسم الله تعالى بالصبح، في حال ظهور ضوئه قبل شروق الشمس، **وجواب القسم في قوله:** ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ٣٥﴾، إنَّ جهنم الذي سبق ذكرها في **قوله:** ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾، **والكُبَر،** جمع كُبرى، وهي الأشياء العظيمة، فجهنم شيءٌ عظيم مهول، وهي إحدى مخلوقات الله الكبرى، كالجنة والعرش ونحوها من عظائم مخلوقاته.

وقوله: ﴿نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ٣٦﴾، **أي:** يخوف بها البشر، وهم بنو آدم، لأن لهم بِشرة ظاهرة محسوسة، وهل للجن أبشار؟! ما المانع أن تكون لهم أجسام وأبشار، ويدخلون ضمن المنذرين بجنهم.

وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾، **أي:** لمن شاء منكم أن يقبل الموعظة فيُؤمن أو يُعرض عن الموعظة فيُدبر، فعبّر بالتقدم عن الإيمان والقبول، وعبّر بالتأخر عن الإعراض والكفر، ثم أثبت للعبد مشيئة في أن يقبل الخير أو يقبل الشر، وجعل العبد صاحب إرادة ولم يجعله مسلوب الإرادة، فهو الذي يُقرر أن يقبل أو يمتنع، وخلق الله تعالى فيه هذه الإرادة، وبيّن له طريق الحق من طريق الضلال بإنزال الكتب وإرسال الرسل، فإن اختار الحق أُجر عليه، وإن اختار الباطل عُوقب عليه، وفي هذا إشارة إلى المفهوم الشامل للتقدم والتأخر، فمن هم أصحاب التقدم؟! المؤمنون الصالحون الذي تقدموا إلى الطاعة والأخلاق والقيم، وما

يُرضي الله تعالى، وما يُصلح البشرية، فهذا معنى التقدم بمفهومه الشامل، **وأن التأخر معناه الشامل**: البعد عن الإيمان، والوقوع في الشرك والمعاصي والمنكرات، وهذا المعنى القرآني يُبطل المعنى المعاصر للتقدم والتأخر، فاليوم يُراد من الناس أن يتقدموا إلى جهنم بالمعصية والكفر والانحلال الأخلاقي، وإذا رأوا شخصًا مستقيمًا متدينًا، قالوا عنه: هذا متخلف، ومتأخر، فهذا مفهومٌ باطل، ومعاكس لمفهوم التقدم والتأخر بمفهوم القرآن الكريم، فمفهوم التقدم في القرآن؛ هو الإقبال على الله، والتخلق بأخلاق الإسلام، وعمل ما يُدخل الجنة، ومفهوم التأخر في القرآن؛ هو البعد عن الله، فأنت تتقدم بقربك من الله، وتتأخر ببعدك عن الله، وشتان بين المصطلح القرآن والمصطلح البشري الباطل.

وقوله: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾، **أي**: كل من الأنفس البشرية المكلفة سترُهن وتُحبَسُ بسبب أعمالها السيئة، **والباء** للمصاحبة، **أي**: يصحبها عملها السيء فتُحبس معه، ورهينة، **أي**: مرهونة، والمرهون، هو الشيء الذي لا يُتصرف به، ومنه الرهن، وهكذا النفس كانت في الدنيا تتحرك وتفعل وتتصرف كما تريد، فلما جيء بها بين يدي الله تعالى، صارت محبوسة بسبب ما حصل منها من ذنوب ومعاصٍ وأعمالٍ سيئة.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩﴾، هذا استثناء من الرهن والحبس، فأصحاب اليمين غير مرتهنة نفوسهم في الآخرة، وهم المؤمنون[١]، **وقيل**[٢]: إن المقصود

---

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٤٥٢).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣٦٦).

بهم هنا الوِلدان المُخلدون في الجنة، أو أطفال المسلمين الذين يموتون قبل أن يبلُغوا، فمن قال: إنهم المؤمنون، جعل لفظ (أصحاب اليمين) متعلقًا بما سبق، وهو الرهن، ومن قال: إنهم الولدان أو أطفال المسلمين الذين ماتوا صغارًا؛ جعل لفظ (أصحاب اليمين)، متعلقًا بما بعده، **وهو**: ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠﴾، لأن الأطفال ماتوا صغارًا، ولم يعرفوا سبب دخول المجرمين النار، وأما الولدان المخلدون فخُلقوا في الجنة، ولم يطلعوا على أحوال أهل الدنيا، والأولى حمل اللفظ على جميع أصحاب الجنة، وحصول التساؤل من بعضهم، والتساؤل بصيغة التفاعل **يأتي على أحد وجهين**[1]: إما أن بعض أهل اليمين يسأل البعض الآخر، عن الذين دخلوا جهنم، ما سلكهم في سقر، أو أن التساؤل معناه كثرة حصول السؤال من بعض أصحاب اليمين عن حال الذين دخلوا سقر، ﴿عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢﴾، **أي**: يتساءلون عن المجرمين، وهم الذين كانوا في الدنيا يفعلون الإجرام، والإجرام: كل ما هو قبيح من الذنوب، وأعظمه الكفر والشرك بالله تعالى، وعبّر بهذا اللفظ (سلك)؛ لأن دخول جهنم ليس برضاهم، وإنما تزجرُهم الملائكة وتدفعُهم إليها دفعًا، ويُؤخذون بالنواصي والأقدام ويُرمون فيها.

وقوله: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣﴾، فأجاب هؤلاء المجرمون بذكر عدة أسباب لدخولهم النار، ولكن كيف أجابوا أهل الجنة، وهم في جهنم؟ الجواب: أن الله يُعطي أهل الجنة خاصية الاطلاع على أهل النار، ولا يُعطي أهل النار

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٥٥).

خاصية الاطلاع على أهل الجنة، لأن الجنة محرمة على الكافرين، فيطّلع أهل الجنة وهم في غرفهم(١) على من يعرفون من أهل النار، فيسألونهم فيجاوبون بصدق، **وذكر هنا أربعة أسباب لدخول المجرمين جهنم:**

السبب الأول: في قوله: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣﴾، وهو يتعلق بالخضوع والخشوع والاستسلام لله بالصلاة والانقياد له بها، فلم يكونوا يُصلون، منعهم الكِبر من الصلاة؛ لأن الصلاة أفعالٌ تدل على التواضع، كالركوع والسجود، وفيها غاية التذلل والخضوع من العبد لربه تعالى، ولذا يحرُم السجود والركوع لغير الله.

والسبب الثاني في قوله: ﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤﴾، وهذا السبب وراءه صفةٌ قبيحة أخرى، وهي صفة البخل، وصفة كراهية الخير للآخرين، وصفة الشح، فليس فيه خير لمخلوق، مما يدل على أن هذه النفس خبيثة في حق الله، وخبيثة في حق الخلق.

والسبب الثالث في قوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥﴾، وهذه صفة قبيحة، تتعلق بموقف الإنسان من الحق والباطل، فهو معرض عن الحق ومشارك في الباطل، وعبّر هنا بالخوض وهو: المشي وسط الماء، الذي يؤدي إلى اختلاط الماء بالذهاب والإياب بسبب حركة الرِجل داخل الماء، والمعنى: لا يستقر على قول ولا على مبدأ ولا على صفة، كل يوم بمذهب، ووصف من يعمل معهم بالخائضين، إذ الخوض أبرز صفاتِهم، ناس مهيؤون للباطل، في الجدال والنقاش والحوار وإلقاء الشبه، وهو مشغول معهم.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٧٣).

والسبب الرابع في قوله: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤٦﴾، **أي:** كنا ننكر الحساب والجزاء في اليوم الآخر، وختم بهذا السبب وهو عدم الإيمان باليوم الآخر وتكذيبهم به، وذلك لما له من أثر في استمرارهم بالصفات القبيحة السابقة، فإن الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، لن يخضع لله، ولا يُعطي المسكين، ولا يقبل الحق، ويظل يجري وراء الباطل!!.

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ٤٧﴾، **أي:** استمروا بهذه الصفات القبيحة الأربع إلى أن فاجأهم الموت(١)، **كما قال:** ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر:٩٩]، وسُمي الموت يقينًا؛ لأنه مُتحقق لا محالة، ولا بد لكل نفس من أن تذوقه، فهو اليقين حقيقة لا مجازًا.

ثم قال الله معقبًا على اعترافهم: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ٤٨﴾، وهو جواب عن سؤال متوقع، وهو: هل يمكن أن يشفع فيهم أحد؟! لا مجال أن تشفع أيها المؤمن لصديقك الكافر؛ لأن الشفاعة يُشترط فيها شرطان: أن يرضى الله عن الشافع، وأن يكون المشفوع له يستحق الشفاعة، ولا أحد يستحق الشفاعة إلا بالإيمان والتوحيد، فهؤلاء كفار مكذبون لا تنفعهم شفاعة الشافعين، وفي هذا دليلٌ على أن هناك غيرهم من ينتفع بالشفاعة وهم المؤمنون الموحدون.

ثم أخبر تعالى عن موضوع آخر، فقال: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ٤٩﴾، واستخدم أسلوب الالتفات، فالتفت من الآخرة إلى الدنيا، مخاطبًا كفار

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٧٣).

قريش، ما لهؤلاء القوم معرضين عن الاتعاظ بما جئتهم به يا محمد من القرآن وآياته، مُبتعدين عن سماعه، والإيمان به؟!

ثم وصف إعراضهم فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾ فشبه إعراضهم عن الحق وهروبهم من سماعه والإيمان به، بنُفرة الحُمر الوحشية، وأضاف السين والتاء للمبالغة، **أي:** بالغت في النُفرة واستخدمت كل طاقتها في الهروب من شدة فزعها وخوفها، والمقصود بالحُمُر هنا الحُمُر الوحشية؛ لأن الحمار الأهلي اعتاد أن يعيش مع الناس، بخلاف الحُمُر الوحشية، فتعيش في الغابات وإذا اقترب منها الإنسان هربت خوفاً منه.

وقسورة لها معنيان[1]، **الأول:** القناصون، أو الرماة عمومًا، **والثاني:** الأسد، وكلا المعنيين جائز.

فالحمر تفر من الصياد المتمكن، أو من الأسد المفترس، وهو تشبيه بليغ، فلماذا تتحولون من بشر إلى حمير؟! ولماذا تتخيلون محمدًا والقرآن أسداً أو صياداً يريد أن يقتلكم؟! هذا يدل على خبَل في العقول، والصواب أن لا تنفروا منه، بل تقتربوا منه خاصة أنه من أنفسكم، وعاش بينكم أربعين سنة، وكنتم تُسمونه بالصادق الأمين، وجاءكم بالقرآن بلغتكم، وفيه من الفصاحة والبلاغة والإعجاز ما يجعلكم تُقبلون عليه مؤمنين مُقرين، ولكن سبحان الله!! إذا لم يُرد الله للعبد الهداية يتعامل مع وسائل النجاة، وكأنها وسائل هلاك، وإذا أراد له الغواية تعامل مع وسائل الغواية على أنها وسائل نجاة!!، ومن ذلك ما حصل

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٣٩٩).

لولد نوح ﷺ، ولده تعامل مع وسائل الهلاك على أنها وسائل نجاة، وأبوه يقول لـه: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾[هـود:٤٢]، أي: في هـذه الـسفينة، ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾[هود:٤٣]، فأضاع فرصة النجاة، وتمسك بوسيلة الهلاك، وهذا من سوء التدبير وخذلان الله للعبد، نسأل الله السلامة والعافية.

ثم قال الله سبحانه: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ٥٢﴾، **أي:** لـن يقبلوا الحق الذي جاءهم، بل يرغب كل شخص منهم أن ينزل عليه كتابـًا منشوراً باسمه، وقد جاء هذا الطلب على لسان أبي جهل وعبد الله بن أبي أُمية، قالا: يا محمد إن شئت أن نُؤمن لك؛ فاءتنا بكتابٍ من الله مكتوبٌ فيه من الله تعالى إلى فلان بن فلان. وهو إشارة إلى ما في نفوسهم من الكِبر والغطرسة، فعقّب الله على ذلك **بقوله:** ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٥٣﴾، وكلا، كلمة ردع وزجر وإبطال لما سبق، أي ليس طلبهم بصحيح، ولو أعطاهم الله طلبهم لما آمنوا، بل سبب كفرهم أنهم لا يخافون الآخرة، ولو خافوا الآخرة والوقوف بين يدي الله؛ لآمنوا، وفيه إشارة إلى أن من أسباب عدم الإيمان، نسيان الله والدار الآخرة.

ثم قال أيضاً: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ٥٤﴾، كلا هنا بمعنى حقًا، بحسب السياق، **أي:** حقًا إن القرآن تذكرة وموعظة كافية.

وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ٥٥﴾، **أي:** من شاء أن تتعظ به فعل، وفي هذا ردٌ على الجبرية الذين يقولون أن الإنسان مجبور على أفعاله، فالله لم يجبر أحداً على أن يكفر أو يُؤمن، بل خلق له عقلًا وسمعًا وبصرًا وأرسل إليه رسلًا وأنزل عليهم كتبًا، وترك الاختيار للعبد بإرادته، حتى يُحاسبه على ما اختار.

وقولــه: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾، بيــان أن مشيئة العباد تحت مشيئة الله، فالله إذا لم يشأ شيئًا؛ فلن يحصل، ثم أخبر الله تعالى: عن نفسه بأنه أهل التقوى، **أي:** مستحق أن يتقيه الخلق بفعل ما أمر وترك ما نهى، فإن اتقوه حق التقوى فقد استحقوا منه المغفرة، فربط بين التقوى من العبد لله وحصول المغفرة له من الله، فإذا أردت أن يغفر لك الله؛ فاتق الله، فإن التقوى سبب للمغفرة، وفيه إرشاد للناس أن يُقبلوا على هذا الرب العظيم الغفور.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن الكِبر، والبخل، والإمّعة، والتكذيب باليوم الآخر، صفات قبيحة فاحذر أن تكون فيك واحدة منها.

٢- أن مفهوم التقدم في القرآن؛ هو الإقبال على الله، والتخلق بأخلاق الإسلام، وعمل ما يُدخل الجنة، ومفهوم التأخر في القرآن؛ هو البعد عن الله وشرعه وعمل ما يوجب دخول النار.

٣- أن من خذلان الله للعبد أن يتعامل مع وسائل النجاة كأنها وسائل هلاك، ووسائل الغواية على أنها وسائل نجاة!!.

٤- أن من أسباب عدم الإيمان، نسيان الله والدار الآخرة.

٥- أن مشيئة العبد مُقيدة بمشيئة الله، وأن الله يمنح العبد مشيئة لكنها تحت مشيئة الله تعالى.

٦- أن تقوى الله سبب لمغفرته.

تفسير سورة القيامة

تفسير المقطع الأول من سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨﴾.

شخصية السورة:

سورة القيامة؛ سورةٌ مكية[1]، **ومقصدها العام**: بيان قدرة الله تعالى على بعث الخلق وجمعهم إلى يوم القيامة.

قال سبحانه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾، وقد اختلف المفسرون في معنى (لا) التي تأتي قبل القسَم **على أقوال**[2]: **قيل**: إنها نافية للقسم، وضعفها جمهور

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٧٥).

(٢) ينظر: التفسير البسيط: (٢٢/ ٤٧١).

المفسرين[١]، **وقيل**: نافية لما قبلها، **والمعنى هنا**: لا صحة لما تزعمون من عدم البعث والنشور، ثم أقسم الله بيوم القيامة لإثباته، **وقيل**: إنها صِلة، **وقيل**: إنها لام التوكيد، ولكن مدت الفتحة قليلًا فصارت ألِفًا، **والمعنى**: لأُقسِم، ومعلوم أن القسَم قد يأتي بأداة قسَم مثل الواو والتاء ونحوها، وقد يأتي بلفظ القسم ويأتي بعده بالباء، كما هنا، والأصل أن لفظ (أقسم) يكون محذوفًا. ويوم القيامة معروف، ويبدأُ من علامات الساعة الكبرى حتى يفصل بين الخلق ليرى كلٌّ مصيره إلى الجنة أو إلى النار.

وقوله: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾، والقول فيها ما قيل في الآية قبلها، والنفس اللوامة، **قيل**[٢]: هي النفس المؤمنة التي تلوم صاحبها على التقصير في الدنيا، وقيل: هي النفس الفاجرة تلوم صاحبها يوم القيامة، **وقيل**: هي النفس المُعرضة للذم، وهي الملامة في الدنيا والملامة في الآخرة.

والذي يترجح لنا، والله أعلم، أن النفس اللوامة صنفٌ بين النفس المطمئنة، والنفس الأمارة بالسوء، **فقد ذكر الله أصناف النفوس الثلاثة**:

فالصنف الأول: هي النفس المطمئنة، وهي المكتملة بالإيمان والتقوى فهي مطمئنة في الدنيا بإيمانها وتوحيدها وأعمالها الصالحة، ومنشرحة كثمرة من ثمار الإيمان في هذه الدنيا، ومطمئنة إلى ما أعده الله لها في الآخرة من دخول الجنة، وهذه في أعلى المراتب.

---

(١) ينظر: زاد المسير: (٨/ ١٣٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٤٩).

والصنف الثاني: هي النفس الأمارة بالسوء، وهي التي بلغت من الانحراف مبلغًا كبيرًا فلم تعد تأمر صاحبها إلا بالشر، وهذه في أدنى المراتب.

والصنف الثالث: هي النفس اللوامة، وهي وسط بينهما، فلا هي مطمئنة كاملة الاطمئنان، ولا هي فاسدة كاملة الفساد، بل عندها من الإيمان ما يجعلها تلوم صاحبها على المعاصي، وعندها من الضعف والتقصير ما يجعلها تقع في المعصية، فإن اللوم لا يكون إلا بعد التقصير، ولهذا سُميت لوامة، لأنها قصرت، ثم أفاقت، فلامت صاحبها، لماذا فعلت كذا؟، ولماذا لم تفعل كذا؟.
ما وجه العظَمة من القسم بالنفس اللوامة، الذي أريد إبرازه بالقسَم بها؟!
الجواب: هو التنبيه على أنها جمعت بين شيئين متناقضين وهو الخير والشر، وهذا يدل على قوة تدبير الله وخلقه في أن يجمع في الشيء الواحد شيئين متناقضين، **كما في قوله**: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾[النجم:٤٣].

وقوله سبحانه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣﴾، في هذه الآية تقدير جواب القسم للقَسَمين السابقين، **والمعنى**: أيظن هذا الإنسان الكافر، الذي ينكر البعث والنشور، أن الله غير قادر على أن يبعثه ويجمع عظامه التي قد أرمت وأكلها الدود وذهبت في التراب، **فأجاب على ذلك بقوله**: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾، بلى قادرين على أن نبعثه ونعيد مفاصل عظامه إلى أماكنها ونُتم خلقه، ونُسوي خلق بنانه ونُعيدها كما كانت، **وقيل**[(١)]: إن هذا تهديدٌ للإنسان الكافر في الدنيا أن الله قادرٌ على بعثه في الآخرة، وقادرٌ الآن أن يجعل يديك ورجليك بلا أصابع كخُف

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٣٦٩).

البعير، **وقيل**: إن هذا من السبق العلمي، فالعلم الحديث اكتشف أن أطراف أصابع الإنسان لكل طرف منها بصمة خاصة بها، وهو ما يُستخدم اليوم في إثبات الشخصية، فالله تعالى قادر أن يجعل البصمات كلها متساوية كما جعلها مختلفة، وكل ما سبق يدل على قدرة الله وعظمته وأنه لا يُعجزه شيء سواءً في إعادة البنان كما كانت، أو في تسويتها في الدنيا، أو في جعلها بصمة واحدة، أو في تنوع بصماتها واختلافها.

وقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾، بل من طبيعة هذا الإنسان الكافر ورغبته أن يستمر على فجوره ولا يتوقف عنه، بل يمضي قدُمًا في فعله، **وقيل**: معناه أن هذا الإنسان الكافر يرغب أن يستمر في إنكاره للبعث والنشور، **وقيل**: يريد أن يستمر في المعصية.

ويقول: إذا اقترب أجلي سأتوب، وكل تلك المعاني السابقة تدل على تخبط هذا الإنسان، فلم يؤمن بالبعث ولم يستعد للآخرة ولم يتب من ذلك قبل أن يفجأه الموت، والغالب في حياة الكفار هو رغبتهم بالاستمتاع بالدنيا ونسيان الدار الآخرة، فلا يريد الانضباط بالحلال ولا الابتعاد عن الحرام، يريد أن يعيش متمتعًا بكل شيء كالأنعام، يأكل ما يشاء، ويشرب ما يشاء، ويفعل مما يشاء، لا يمنعه مانع ولا يردعه رادع.

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾، أي ومن طبيعته أيضًا أنه كثير السؤال عن موعد يوم القيامة، **كما قال**: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس:٤٨]، سؤال استنكار واستفزاز للمؤمنين، فرد الله عليه أن يوم القيامة سيكون عند

حصول علاماته الكبرى، **ومنها قوله:** ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧﴾، برِق، **فيها قراءتان**[١]: بفتح الراء وكسرها، بالفتح لمع نور البصر من شدة الفزع والخوف، وبالكسر؛ تحيّر ودهش، **والمعنى:** يشخص بصر الكافر يوم القيامة، فلا يطرف لما يرى من الأمور التي كان يكذب بها في الدنيا.

وقوله: ﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ٨﴾، **أي:** ذهب نورُه، وفي هذا إشارة إلى كسوف الشمس، فالقمر يستمد ضوءه من الشمس، والخسوف الذي يحصل للقمر في الدنيا لمدة ساعة أو ساعتين هو أن تمر الأرض بين الشمس وبين القمر، فتُغطي ضوء الشمس عن القمر، فيُصبح مظلمًا، ولكن يوم القيامة يُنزع نورُ القمر وهو علامة على نزع نور الشمس.

وقوله: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩﴾، **وفي معناه أقوال**[٢]، **قيل:** يجمعا بعد انتزاع نورهما ويكُورا ويُلقيا في النار، **وقيل:** جُمعا في انتزاع النور منهما معًا، **وقيل:** ظهرا جميعًا في جهة المغرب وهي علامة على قيام الساعة، والأول أولى.

وقوله: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠﴾، **أي:** إذا شاهد الإنسان الكافر هذه العلامات ومجيء يوم القيامة يقول لنفسه إلى أين أهرب؟!، وأين أختبئ، وإلى أي جهة أفرّ؟!، **فجاءه الجواب:** ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ١١﴾، لا يوجد ملجأ ولا حصن ولا مكان تفر إليه، **وأصل الوزر:** الجبل المنيع[٣]، ومن طبيعة الإنسان في الدنيا

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٣٦٩).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: (١٩/ ٩٦).

(٣) ينظر: الصحاح: (٢/ ٨٤٥).

الهروب من المصيبة، بخلاف يوم القيامة فلا يُسمح له بالفرار؛ فالملائكة تُحيط بالناس يوم المحشر، كما قال: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر:٢٢]، أي: يقفون على شكل صفوف في المحشر ويُقال: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ﴾[الرحمن:٣٣]، من استطاع منكم الهرب؛ فليفعل، ولو فعل لما استطاع، ولما وجد مكانًا مُناسبًا يفر إليه!!.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾، أي: مرجع الناس ومآبُهم إلى الله وحده، فيُحاسبون ويكون مكان قرارهم الجنة أو النار، فهناك المستقر.

وقوله: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾، يخبر كل إنسان يوم القيامة بما عمل في الدنيا من عمل، واختلفوا في تفسير لفظ (قدّم وأخّر) على أقوال[1]: فقيل: قدّم للآخرة من صدقة وعمل ونحوه، وبما أخّر لورثته من مال، وقيل: ما قدّم؛ هي الأعمال القاصرة على نفسه، وما أخّر؛ هي الأعمال التي لها أثر بعده، وقيل: ما قدّم؛ هو عمله في أول عمره، وبما أخّر؛ ما عمله في آخر عمره، وقيل: ما قدّم؛ ما عمل من طاعة الله، وما أخّر؛ ما ضيّع من حق الله وقصّر فيه فلم يعمله، والراجح عموم ما فعله الإنسان من خير أو شر.

وقوله: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾، بل الإنسان الكافر حجة على نفسه وشاهد عليها بما عمل[2]، فإن الكفار ينكرون ما عملوا، فيختم الله على أفواههم، وتنطق جوارحهم، كما قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ

---

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢٢/ ٤٩١).

(٢) ينظر: تفسير البغوي: (٨/ ٢٨٣).

﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[يس:٦٥]، فمن طبيعة الإنسان الخصام، وهو في قرارة نفسه يعلم أنه ليس عنده حجة.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ⑮﴾، **أي:** ولو جمع المعاذير التي يحاول أن يتعذّر بها بين يدي الله، ويبحث بها عن مخرج له، فهو يُخاصم في الآخرة كما كان يُخاصم في الدنيا، لعله يخرج بشيء، ولكن لا فائدة من الخصام، فقد انتهى وقت المغالطات وجاء وقت إحقاق الحق بين يدي الله تعالى، فلا تنفعه الأعذار ولا يُلتفت إلى جداله.!

وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ⑯﴾، هذا مقطع جديد من السورة يُحدثنا فيه ربنا تعالى، عن حال النبي ﷺ عند تلقيه للوحي، فقد كان جبريل ﷺ ينزل على رسول الله ﷺ ليُوحي إليه القرآن، ومن حرص النبي ﷺ على الوحي وخوفه من أن يتفلت منه شيء؛ كان إذا قرأ عليه جبريل ﷺ قرأ معه، فنهاه الله تعالى عن ذلك، وأمره أن يستمع له حتى يتم ما يوحي به إليه، **كما في قوله:** ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[طه:١١٤]، **يعني:** لا تستعجل في تلاوته قبل أن يكتمل جبريل من إيحائه إليك، لا تستعجل، لا تقرأ وجبريل يقرأ، بل انتظر حتى يُتم جبريل من الوحي، وإن كان مقصدك حسن وهو خشية أن يتفلت منك الوحي.

وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ⑰﴾، وعدٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يجمع له القرآن في صدره، فلن ينساه ولن يضيع عليه منه شيء، ووعده بقراءته له، **كما قال:** ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[الأعلى: ٦].

وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾، **أي**: فإذا قرأه جبريل عليك فاستمع قراءته بإنصات حتى ينتهي من القراءة، فإن الله أوحى القرآن إلى محمد ﷺ بواسطة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾، ثم بعد حفظك له سنُفسر لك المعاني، ونُبين لك المفردات، فجمع الله له بين ثلاثة وعود، وتحققت له ﷺ، وهي: حفظ القرآن في صدره فلم ينساه، وتلاوته كما تلاه جبريل ﷺ، وبيان معاني مفرداتِه وألفاظه، فلما وُعد بهذا كان جبريل يتلوا عليه الآيات والنبي ﷺ يستمع، فإذا انتهى جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منها، قرأها النبي ﷺ على أصحابه، فإذا سألوه عن بعض الألفاظ فسّرها لهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- بيان حال المشركين المستهزئين بيوم القيامة، فإذا نزل بهم فزعوا وبحثوا عن المخرج والمفر.

٢- بيان أن من طبيعة الإنسان الكافر الجدال والخصومة في الدنيا، والبحث عن المعاذير في الآخرة.

٣- حرص النبي ﷺ على ضبط ما أُوحي إليه.

تفسير المقطع الثاني من سورة القيامة

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾، ﴿كَلَّا﴾: كلمة ردعٍ وزجرٍ لما سبق من القول، من الكفر بالله وإنكار البعث، أو إلقاء الكافر للمعاذير يوم القيامة، فلا يوجد له عذر يجيز له الكفر بالله تعالى، بل سبب الكفر والإعراض عن الله تعالى؛ أنكم أيها الكفار تُحبون الحياة الدنيا وتنسون الآخرة، وسمى الله الحياة الدنيا بالعاجلة؛ لأن نعمها معجلة للإنسان، بينما نعم الآخرة مؤجلة، والنفس في طبيعة خِلقتها تحب الشيء الحاضر المعجل، ولا يُعجبُها الشيء الغائب المؤخر، كما أن الدنيا عاجلة وقليلة لو قيست إلى زمن الآخرة، فزمن الآخرة لا نهاية له أبد الآبدين، وسميت بالآخرة لأنه ليس بعدها دار.

ثم إذا انتقل الناس إلى الدار الآخرة، فإنهم سينقسمون إلى فريقين: فريقٌ في الجنة، وفريقٌ في السعير، فذكر لنا بعض صفات فريق الجنة **فقال:** ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، فعبّر عن سعادة أهل الجنة يوم القيامة، بنضارة وجوههم، فالنعمة ظاهرة على وجوههم، فالسرور والجمال ظاهر فيها، والمقصود ذات الشخص كلها، وإنما ذكر الوجه لأنه أشرف ما في الإنسان، وبه يُواجه الناس وفيه الحواس المهمة التي ترى بها وتشم وتسمع وتتذوق، فإذا ظهر هذا الوجه في كمال جماله ونضارته وسُروره؛ دل ذلك على سرور ونضارة وجمال وتنعم باقي الجسد، ولا شك أن أبلغ نعيم وسعادة يكون في الجنة، ولكن لا يمنع أن يحصل لهم السرور والفرح في المحشر، **كما قال:** ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾[النمل:٨٩]، وعند دخولهم الجنة يزدادون نضارة وسروراً وفرحًا وجمالًا بعد أن يُسمح لهم بالنظر إلى وجه الله الكريم في جنات عدن، فيكشف الحجاب عن وجهه فينظرون إليه، وهذه أعظم نعمة ينتظرها أهل الجنة في الجنة، ونظر المؤمنين إلى الله تعالى في الجنة يتفاوت بحسب درجاتهم، فهناك صنفٌ ينظرون إلى وجه الله بكرةً وعشيًّا، هؤلاء هم السابقون، نسأل الله أن يجعلنا منهم، وهناك صنفٌ ينظرون إلى وجه الله في كل جمعةٍ مرة، كما في حديث أبي هريرة في الصحيح، فمن أراد أن ينافس على هذه النعمة فمن الآن، ولْيكن من السابقين إلى الأعمال الصالحة.

وإثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة، هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا لمن يُنكر ذلك من الفرق، بسبب قياسهم الذات العليّة على ذات

الإنسان، وتقديم عقولهم القاصرة على نصوص الوحي[(١)]، وأهل السنة والجماعة من السلف والصحابة ومن بعدهم، يقولون: ما نثبته لله من أسماء وصفات إنما نُثبتُها له بلا كيفية ولا تخيّل، ولا تشبيه ولا تعطيل، فنُثبت له السمع كما يليق بجلاله، ونُثبت له البصر كما يليق بجلاله ونُثبت له الرؤية كما يليق بجلاله، ومن فسّرها بأنها منتظرة للثواب، أو منتظرة لرضاه، فقد وقع في التأويل المذموم[(٢)]، فالثواب لهم والرضى عنهم، قد أعطاهم الله بإدخالهم الجنة، ولو لم ينظر المؤمنون إلى ربهم في الآخرة، **فما الفائدة من قول الله عن الكافرين:** ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾[المطففين:١٥]؟!!، فلمّا حجب الله الكافرين عن رؤيته وعن النظر إليه؛ دلّ ذلك على أن المؤمنين ينظرون إليه، وهذا دليل على التكريم والتشريف لهم.

وقوله: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۢ بَاسِرَةٞ ٢٤﴾، هذا وصف لحال الفريق الثاني وهم الكفار أهل النار، فوجوههم باسرة، **أي:** كالحة وعابسة[(٣)]، وفيها القترة وتعْلوها الغبرة، **كما قال:** ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾[عبس:٤٠-٤١]، فالحزن والبؤس والتعب ظاهر على وجوههم، مما يجدونه من هول العذاب والنكال يوم القيامة، ويزداد حالهم شدة في النار، **كما قال:** ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾[المؤمنون:١٠٤]، فالوجه عند تعرضّه للحرارة الشديدة ييبس وتتأخر الشفتان، فتظهر الأسنان بصورة قبيحة مزعجّة.

---

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٦٢).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٨٠).

(٣) ينظر: التفسير البسيط: (٢٢/ ٥١١).

وقوله: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾، **أي:** تيقنت أنها إلى الجحيم، والفاقرة؛ الداهية العظيمة، **يقال:** فقرته الفاقرة، **أي:** كسرت فقار ظهره، وأصل الفاقرة، هو الميسم الذي يُوضع في الأنف فيقطعه[1]، **كما قال:** ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، [لقلم:١٦]، **فالفاقرة** وضع الكيّ على الأنف حتى يُغيّر معالمه، وهي إشارة إلى أن معالم هذا الوجه تتغير بسبب ما يتعرض له من عذابٍ شديد يوم القيامة.

وقوله: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾، كلا، **أي:** ليس الأمر كما يزعم المشركون أنه لا يوجد بعث ولا نشور بعد الموت، ثم بدأ يصف حال الإنسان وهو يُساق إلى الدار الآخرة، فتبدأ تخرج الروح من الساقين، وتستمر في الانتقال شيئًا فشيئًا حتى آخر ما تكون عليه عند الترقوة، ولكل إنسان تُرقوتان ترقوة ذات اليمين، وترقوة ذات الشمال، وهما العظمتان الموجودتان نهاية الصدر من جهة النحر مما يلي الحنجرة، فإذا خرجت الروح من الحنجرة فقد مات، وفي هذه الحالة العصيبة للإنسان المحتضر، يهتم به أهله وأقاربه ومحبوه، ويقولون: هل يوجد طبيب ماهر يساعدنا في علاج هذا الرجل؛ لكي نُعيد له الحياة قبل أن تخرج منه الروح؟! **وقيل**[2]: إن القائل لهذا القول هم الملائكة، **والمعنى:** من يصعد ويرتقي بروحه، والسياق يرجّح المعنى الأول.

وقوله: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾، **أي:** وتيقن من نزل به الموت أنه سيُفارق كل شيءٍ في هذه الحياة، وتيقن أن هذا هو الفراق الحقيقي الذي يهرب منه.

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٤٠٨).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ١١٢).

وقوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾، الساق في لغة العرب المقصود به شدة الأمر وعظمته، وعندنا ساقان، شدة ألم الموت والنزع وفراقه وهو من الدنيا، وشدة ألم وعظمة البرزخ والقبر وما بعده وهو من الآخرة، فالتقت شدة الدنيا ونهايتها بشدة الآخرة وبدايتها[1].

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾، **أي:** إلى الله المرجِع، حيث يُساق الميت من قبل من حوله من الأحياء إلى قبره، وهو أول منازل الآخرة.

وقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾، وصف حال الكافر في الدنيا، أنه لم يؤمن بالله ولا برسله، ولم يؤد الصلاة، فذكر التصديق كنموذج لأعمال القلب، والصلاة كنموذج لأعمال الجوارح.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾، فهو مكذب بالإيمان وبالله ومعرض عن الطاعة والامتثال لأوامر الله وترك نواهيه.

وقوله: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾، فقد كان في الدنيا متكبراً على غيره من الخلق، وهذا حال كثير ممن لا يُصلون، فالدافع الحقيقي لتركهم للصلاة هو الكِبر الذي في قلوبهم؛ لأن الصلاة سجود وركوع وخضوع بين يدي الله، والمتكبر يأنف عن ذلك، كما فعل إبليس فقد امتنع عن السجود لكِبره **كما قال:** ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٣٤]، وحينما يصاب الإنسان بالكِبر تكون علامة الكِبر فيه ظاهرة في مشيته، فهو يمشي متبختراً، والمطي اسمٌ

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٨٢).

للظهر(١)، أي حركة مشيته تُشير إلى غطرسته وكِبره.

وقوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾، هذا تعقيب فيه وعيدٌ لمن هذا وصفه، **قيل**(٢): إن هذا الوعيد وجّهه النبي ﷺ لأبي جهل ابن هشام، وهو في مكة، فقال: أتتوعدني يا محمد؟! والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئًا، وإني لأعز من مشى بين جبليها، ولذلك يبكّت في الآخرة عند دخول النار فيقال له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[الدخان:٤٩].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾، **أي**: أيظن الإنسان الكافر أن الله خلقه هملًا بدون غاية ولا هدف ولا أمر ولا نهي، حاله كالحيوان يأكل ويشرب ويُذبح ويُؤكل أو يموت وتأكله الدود؟!، ثم ذكّره بمراحل خلقه؛ ليعظه في كِبْره وغطرسته، **فقال**: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾، أصله كان نطفة من المني الذي يُخرج من مخرج البول، ويُصب في رحم المرأة، فهذا هو أصلك وذاك مكان خلقتك، فلا تتكبر على الله تعالى، وعلى خلقه.

وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾، **أي**: إن هذه تعلَّقت في جدار الرحم، فصارت علقة، ثم مضغة، ثم بعد ذلك صار جنينًا، مكتمل الخِلقة في بطن أمه، ثم يولد ويترعرع بهذه الخِلقة المكتملة الجميلة، والصورة الحسنة.

وقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾، فصيّر هذا الخلق إلى صنفين، صنف الذكور وصنف الإناث، من أجل أن يستمر الخلق في التناسل، وانظر كم

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٨٢).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٨٣).

عدد البشرية اليوم، قيل: تجاوز عددهم ثمانية مليار نسمة، يعيشون على كوكب، خلقهم الله تعالى بهذه الطريقة.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ٤٠﴾، **أي:** أليس الله الذي خلقكم وأوجدكم من العدم وصيركم بشراً سويًا، بقادرٍ على أن يُحييكم بعد موتكم، ويُحاسبكم على أعمالكم؟!!

والجواب: بلى، لأن الإعادة أسهل من الخلق من العدم، **كما قال:** ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

فوائد وهدايات من الآيات:

١- خطورة حب الدنيا والإعراض عن الآخرة.

٢- نعمة النظر إلى وجه الله تعالى في الآخرة نعمة لا يُساويها نعمة.

٣- المشيء بتبختر علامة من علامات التكبر.

٤- تذكير الإنسان بأصل خلقته، يدفعه للتواضع.

تفسير سورة الإنسان

تفسير المقطع الأول من سورة الإنسان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن
نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا
كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ
مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ
وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا
نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ
شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى
ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة الإنسان سورة مدنية في قول جمهور المفسرين(١)، **ومقصدها العام:** التذكير بخلق الإنسان وبأصله، وبمصيره إما إلى نعيم الجنة وإما إلى السعير، والعلاقة بينها وبين سورة القيامة التي سبقتها؛ أن آخر سورة القيامة **قال فيها:**

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (١٩/ ١١٨).

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾[القيامة:٣٦]، أي: بدون تكاليف ولا حساب ولا عقاب، وفي أول هذه السورة بيّن العلة والهدف من الخلق، وهو الابتلاء بالتكاليف.

ومن فضائل هذه السورة أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في صلاة الفجر من يوم الجمعة في الركعة الثانية، والسجدة في الركعة الأولى[١]، لأن السجدة تحدثت عن الجنة إجمالًا، وهذه السورة فصّلت في النعيم المقيم في الجنة، ولعل العلة من ذلك التذكير لنا بالآخرة؛ لأن الساعة تقوم يوم الجمعة.

وافتتحت السورة بقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾، وجمهور المفسرين[٢] على أن (هل) بمعنى قد، أي: قد مر على الإنسان قبل أن يُنفخ فيه الروح ويُكلف وقت من الزمن لم يكن فيه ذا شأن، ولم يكن له ذكر، والمقصود بالإنسان هنا آدم ﷺ، فإن الله تعالى خلق آدم من الطين وشكّله على هيئة جسد، والحين من الدهر في تفسيرها قولان[٣]، قيل: تركه أربعين سنة لم يُنفخ فيه الروح، وقيل: زمن لا يعلمُه إلا الله، لم يكن شيئًا له نباهة ولا رفعة، ولا شرف، إنما كان طينًا لازبًا وحمأً مسنونًا، ثم نُفخ فيه الروح فأصبح له شأن عند الله وعند الملائكة، وفي الكون كله، فقد كرّمه وأسجد له ملائكته وجعله أبًا لبني الإنسان الذين سيحملون التكاليف مع من سبقهم من بني الجان.

(١) ينظر: صحيح مسلم (٢/ ٥٩٩)، برقم: (٨٨٠).
(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٣٧٤).
(٣) ينظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٨٨).

وقولــــه: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾، **أي:** خلق ذرية آدم من نطفة وُصفت بأنها أمشاج، والأمشاج هي الأخلاط، حيث يخلط ماء الرجل بماء المرأة عند التقائهما في رحم المرأة[1]، وهي أصل خلقة الإنسان، بعد تلقيح الحيوان المنوي للرجل ببويضة المرأة فتتكون العلقة ثم المضغة، ثم يُصبح الإنسان جنينًا في رحم أمه، ثم بيّن الله العلة من خلق هذا الإنسان، وهي: الاختبار له بالتكاليف، وخلق له سمعًا وبصرًا وسائر الجوارح، وإنما ذكر السمع والبصر لأنهما أبرز الجوارح وبهما يتم التعلم والفهم، وبهما تُعرف دلائل الإيمان وحقائقه، حتى يقوم بما كلف به، فإنه لو أذهب عنه السمع والبصر ولم يُعطه العقل الكافي للفهم والاستيعاب؛ لرفع عنه قلم التكليف.

وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾، بيّن الله لهذا الإنسان ووضّح له الطريق، بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فدلّه على طريق الحق وحذره من طريق الضلال، ثم منحه الله تعالى خاصية الاختيار والإرادة ليختار الحق أو يختار الضلال، فإن اختار الحق أُجر عليه، وإن اختار الضلال عوقب عليه، ولا يظلم ربك أحدًا، فبعض الناس يوفق فيكون شاكراً لربه مطيعاً له، وبعضهم يخذله الله فيكون كافراً بربه عاصياً له، أو أن الإنسان يتقلب بين الشكر والكفر، والمعصية والطاعة، والعبرة بالخاتمة التي يُختم له بها، وهي التي تُقرر مصيره في الآخرة.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾، بدأ ببيان حكم الأخير، وهو الكافر، وهذا يسمى باللف والنشر، كأنك تلف الشيء ثم تنشره

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٨٥).

فتبدأ بآخره، والتعقيب بهذا الكلام يُشعِر بالتهديد والوعيد لمن كفر، **كما في قوله:** ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩]، فمن كفر فقد أعد الله له ما يستحقه من أنواع العذاب.

والسلاسل: تُربط بها الأرجل، **والأغلال:** تُربط بها الأيدي إلى العنق، فيُربط الكافر من أقدامه ويُربط من يديه بسلاسل وأغلال تُحرقه وتُعذبه في النار المستعرة المشتعلة التي لا تنطفي، وأوجز في بيان هذا الصنف دون تفصيل احتقارًا لهم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾، ثم بيّن حال الشكور من خلقه، وهم المؤمنون، وهم درجات، فأعلاهم درجة الأبرار، وفصّل كثيرًا في حالهم في الجنة؛ تعظيمًا لشأنهم وتشويقًا للنفوس إلى مراتبهم، **وقد روي:** "أن عبداً حبشياً، نزلت هذه السورة وهو عند رسول الله، فقال: يا رسول الله، هل ترى عيني في الجنة مثل ما ترى عينك؟، فقال رسول الله: **نعم، فبكى الحبشي حتى فاضت نفسه**"(١)، والتفصيل في بيان أوصاف الجنة يدفع النفس إلى الاشتياق إليها والعمل من أجلها، **كما قال:** ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦﴾[المطففين:٢٦]، فهل من مشمر إليها.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾، الأبرار؛ هم الذين يعملون البر، وهو فعل الطاعات والقربات، ويدخل في ذلك إبرارهم

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم: (٤٧٧٤)، **وقال الطبراني:** "لا يروى عن ابن عمر إلا بهذا الإسناد، تفرد به عفيف".

بأقسامهم وأيمانهم، وإبرارهم بآبائهم، ووصف لنا بعض نعيمهم في الجنة، فهم يشربون خمرًا ممزوجة برائحة الكافور، إما لطيب رائحته أو لبياض لونه، وفي هذا تحبيب وتشويق لمن امتنع عن الخمر.

وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، ومصدر هذا الشراب الممزوج بالكافور من عينٍ خاصة بعباد الله، وهم الذين عبدوا الله حقًا في هذه الدنيا، وعبّر بلفظ (بها) مع أن السياق يقتضي أن يقول: (منها)، لأنه يقصد الارتواء، وليس مجرد الشرب فقط، **أي:** يرتوي بمائها.

وقوله: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾، **أي:** أعطاهم خاصية التحكم في مجرى هذه العين، فهم الذين يُسيلون ماءها بالاتجاه الذي يُريدون، وهذا من فضل الله لأهل الجنة.

ثم ذكر بعض أوصاف هؤلاء الأبرار فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾، **أي:** كانوا في الدنيا يُوفون بالنذر، وهو النذر المعروف، وهو ما يُلزم الإنسان به نفسه من الطاعات، مثل نذرت أن أصوم لله شهرًا، ونحوه، وحكمه في الشرع من حيث الأصل مكروه، فلا تُلزم نفسك بطاعة وعبادة ما ألزمك الله بها، لكن إن فعلت وجب عليك الوفاء به، **وقيل:** المقصود بالنذر هو التزامهم بأداء الطاعات كلها، فهم يوفون مع ربهم بكل طاعة أمروا بها، فلم يكونوا يُقصرون في طاعة الله مطلقًا، بل نزّلوها منزلة النذر الواجب عليهم الوفاء به، وكانوا مع ذلك يخافون يوم القيامة، الذي عذابه وعقوبتُه وشره منتشر، فيعم أهل المحشر كلهم، **كما في حديث الشفاعة وفيه: "إن ربي قد**

غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله"(١)، فالأبرار كانوا يعملون الطاعات في الدنيا استعداداً لهذا اليوم وخوفًا من شره المنتشر، وعبّر بالفعل المضارع الذي يفيد الاستمرار، والمعنى أن أعمالهم هذه تتم منهم على سبيل الاستمرار.

وقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾، وكانوا في الدنيا يُطعمون الطعام مع حاجتهم إليه، فيطعمون به المسكين واليتيم والأسير، ويؤثرونهم على أنفسهم، ولأنهم يُريدون الدار الآخرة، وليس الرياء والسمعة والشهرة، فقد اختاروا أن يطعموا الضعفاء، فالمسكين شخص ضعيف لا يُؤبه له، واليتيم طفل صغير لا مصلحة شخصية دنيوية منه، والأسير كل محبوس لا يستطيع أن يحصل على طعامه، فهذه الأنواع الثلاثة لا منفعة عاجلة من ورائهم لمن أطعمهم، ولذا صرّحوا بقصدهم من هذا الفعل **في قوله:** ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾، فأخبر الله عن ما يدور في نياتهم، مع أنهم لم يُصرحوا بهذا، ولذلك لصدقهم فيها ولكي يقتدي الناس بهم، وأن فعلهم ذلك إخلاصًا لله لا رياء فيه ولا سمعةً، ولا يُريدون جزاءً ولا شكورًا ممن أطعموهم، وقد أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية كراهية أن تتصدق على مسكين وتقول له: ادعُ الله لي، لأنك قد طلبت الجزاء على فعل ممن تصدقت عليه، فالدعاء جزاء، **كما في الحديث: "من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له"**(٢)، والأصل أن تُعطيه وتنتظر الجزاء من الله لا منه، والجزاء

(١) صحيح البخاري: (٦/ ٨٤)، برقم: (٤٧١٢)، وصحيح مسلم: (١/ ١٨٢)، برقم: (١٩٣).

(٢) مسند أحمد: (٩/ ٢٦٦)، برقم: (٥٣٦٥)، وسنن أبي داود: (٢/ ١٢٨)، برقم: (١٦٧٢)، واسناده صحيح.

قد يكون عطاء آخر، والشكر هو الثناء.

وقولـه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾، ذكـروا العلـة مـن اجتهـادهم وإخلاصهم في فعل الطاعات، أنهم يخافون الوقوف بين يدي الله في يوم القيامة، الذي تعبُس فيه الوجوه من شدة أهواله، والقمطرير: الطويل أو الشديد[1]، وكلا الوصفين متحقق في يوم القيامة، فأهواله شديدة ومدته طويلة.

وقولــه: ﴿فَوَقَاهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾، بـسبب أعمـالهم وقـاهم **أي:** حفظهـم مـن الأشـياء التـي خـافوا منهـا في ذلـك اليـوم، وهـي الـشر المستطير وأهوال وشدة وطول يـوم القيامـة، فالوقاية لهـم كانـت مـن الـشر، أمـا الخير فهو سائرٌ وواصلٌ إليهم، ومـنحهم البهـاء والجمـال والنعـيم الظـاهر على وجـوههم وأجـسادهم، والـسرور في قلـوبهم، فجمـع لهـم بـين الجـزاء الحـسي والجزاء المعنوي، وفي الغالـب أن سرور القلب يظهر منـه راحـة الجسد وجمـال الوجه، فجمع لهم بين الصورة الحسنة والنفس الراضية.

وقولــه: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾، **أي:** أعطـاهم الأجـر والثـواب بسبب صبرهم في الدنيا، حيث صبروا على طاعة الله، وصـبروا عـن معاصـي الله، وصبروا على ابتلاءات الله وأقداره، الجنة التي يسكنون فيه، وفيها كل نعـيم ممـا لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وذكر لنا هنا أحد أنـواع اللباس وهو الحرير، وقد كان مُحرمًا في الدنيا على الرجـال، فأعطـاهم الله بـدلًا عنه حريرًا في الجنة.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ٩٩).

وقولـه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ١٣﴾، وهـذا وصـف لحال جلستهم في الجنة، وهو الاتكاء، ولا يتكئ الإنسان إلا حينما يكون مطمئنًا في جلسته، أما الخائف فيجلس مستوفزًا، مستعداً لما يأتيه، والأرائك هي الأسرّة المرتفعة المغطاة بالحجال وهي الثياب، وكانت تُصنع للملوك وكبار القوم، ولم يكن يجلس فيها عامة الناس، فصار أهل الجنة كلهم ملوكًا على الأسرّة، ولا يصيب أهل الجنة في الجنة حرارة الشمس، ولا شدة البرودة، وفي حديث بن مسعود وهو موقوف عليه، ولكن له حكم الرفع: **"الجنة سجسجٌ لا حرٌ ولا قر"**[١]، **والسجسج**: هو الجو المعتدل الذي يُشبه جو ما بعد الفجر قبل طلوع الشمس، **وقيل**[٢]: الزمهرير اسمٌ من أسماء القمر في لغة بعض القبائل، والأول أرجح؛ لأن المقصود نفي ما يؤذيهم في الجنة.

وقولـه: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ١٤﴾، **أي**: قريبة منهم ظلال أشجار الجنة المثمرة، فإذا همّ أن يتناول من ثمارها؛ تدلت إليه حتى يتناول ما يريد منها، **كما قال**: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾[الحاقة:٢٣]، **أي**: إن قام ارتفعت بقدره، وإن قعد تدلت له حتى ينالها، وإن اضطجع تدلت له حتى ينالها، وهذا من خصائص نعيم الجنة أن تأتي إليك النعم دون أن تبحث عنها، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهلها.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: (٧/ ٣٠)، برقم: (٣٣٩٧٠).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٤٢١).

فوائد وهدايات من الآيات:

١ – لم يكن آدم ذا شأن حتى نُفخ فيه الروح، فأصبح له شأن عند الله وعند الملائكة، وفي الكون كله.

٢ – أن العلة من خلق الإنسان الاختبار له بالتكاليف.

٣ – أن الله بيّن للعبد طريق الحق وطريق الضلال، ومنحه خاصية الاختيار والإرادة، وسيحاسبه على اختياره.

٤ – حفظ الله الأبرار في الآخرة من الشر المستطير، ومنحهم النعم العظيمة، بسبب خوفهم من الله في الدنيا.

تفسير المقطع الثاني من سورة الإنسان

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ
فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا
رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ
وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ
سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا
أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا
طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ
وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ
رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن
يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾، ذكر الفعل هنا مبنيًا للمجهول وبيّنه في موضع آخر، **أي**: ويطوف على أهل الجنة وهم متكئون على الأرائك في الجنة وِلدانٌ مُخلدون، يقومون بخدمتهم، ويترددون على أسرتهم وأرائكهم ليُقدموا لهم ما يُريدون وما يشتهون من طعامٍ وشراب، والآنية جمع إناء، وهي التي يُقدم بها الطعام، والأكواب

جمع كوب، وهو ما لا عروة له ولا أذن من الأواني(١)، ويقدم بها الشراب، وكلها مصنوعة من الفضة، ولكنها من صفائها وجمالها، ترى كما يرى الزجاج، فهي شفافة من حيث الرؤية ولكنها قوية وصلبة بصلابة الفضة التي لا تنكسر(٢)، وقد كان استخدام أواني الذهب الفضة ممنوع على المسلمين في الدنيا، وأُبيحت لهم في الآخرة، بل الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب.

وفي معنى قدّروها قولان للمفسرين(٣): إما أن الذين يسكبون عليها الطعام أو الشراب أو الماء وهم الوِلدان المخلدون عندهم من الفهم والدقة والاستيعاب ما يُقدّرون الشراب والطعام لآكله، فلا يزيدون عليه ولا يُنقصون منه، بل يُعطون الطلب بقدر ما يريد الطالب له، أو أن صاحب الشأن وهو المؤمن يُقدر ما يُريد في خاطره؛ فيأتي ما قدّره في الإناء على حسب ما يُريد، وهذه نعمة لا شك عظيمة وتكريم كبير من الله لخلقه، وكلا المعنيين جميل وجائز.

ثم قال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾، ويُسقى أهل الجنة في الجنة كأسًا مليئًا بالخمر، **كما قال:** ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾[النبأ:٣٤]، **أي**: ممتلئ خمراً ممزوجًا برائحة الزنجبيل، ورائحة الزنجبيل تُعطي نوعًا من السيولة في الحلق، والرائحة الطيبة، خالية من أي صفة سلبية في زنجبيل الدنيا وإنما هي اتفقت في الأسماء واختلفت في الحقائق.

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية: (٥/ ٤١٢).

(٢) ينظر: النكت والعيون: ٦(/ ١٧٠).

(٣) ينظر: التفسير البسيط (٢٣/ ٤٥).

وقوله: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾، في نصب (عينًا) **قولان**[1]: على أنها بدل، **أي**: الزنجبيل يخرج من عين، ويُمزج به الخمر، أو نصبت بنزع الخافض، **أي**: يشربون من عينٍ في الجنة، تسمى هذه العين سلسبيلاً، وسُميت بذلك؛ لسلاستها ورقة حركتها في الحلق[2]، فحين يشرب ماؤها يتقاطر من الحلق على شكل القطرات تتدحرج دون غصة ولا ألم!!.

ثم قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾، **أي**: يطوف عليهم في مساكنهم ولدان يقومون بخدمتهم، وهم الغلمان الصغار الذين خلقوا في الجنة ويعيشون فيها فلا يموتون ولا يخرجون منها، ومن جمال منظرهم وكثرتهم وبياض وجوههم وتلألئ أجسادهم إذا نظرت إليهم ظننتهم لؤلؤاً منثوراً، وكلما ازداد اللؤلؤ عدداً كثُر جماله، فالولدان من كثرتهم وجمالهم صاروا مثل اللؤلؤ في كثرته وجماله ومنظره الحسن، وشبهوا باللؤلؤ المنثور لانتشارهم في خدمة أهل الجنة[3].

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾، الخطاب لمحمد ﷺ، **والمعنى**: لو دخلت يا محمد الجنة ورأيت ما أعده الله لأهل الجنة، فسترى المؤمنين في الجنة متكئين على الأرائك والخدم حولهم كاللؤلؤ المنثور في جماله ومنظره، ولو رأيت (ثَم)، **أي**: مكانًا بعيدًا عنك، لرأيت نعيمًا آخر عظيمًا وملكًا كبيراً،

---

(١) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٤٢٣).

(٢) ينظر: تفسير البغوي: (٨/ ٢٩٧).

(٣) ينظر: التفسير البسيط: (٢٣/ ٥٠).

وفي الحديث: **"أن آخر من يدخل الجنة له عشرة أضعاف الدنيا"**[١]، فكيف بالأول؟! **والملك**[٢] إما أن يكون ما يملكه الإنسان من القصور والبساتين والنعيم، وقيل: جمعُ مَلَك، وهي الملائكة التي تكون منتظرة للسلام على أهل الجنة، **كما قال**: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

وقوله: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ﴾، **أي**: يجلل ما يظهر من أجسادهم ثياب السندس، وهو ما رقّ من الحرير، **والإستبرق** وهو ما غلُظ منه، **فالسندس** يكون هو الملاصق للجسم والإستبرق يكون فوق ذلك، **والمعنى** أن الشخص يلبس في الجنة حلتين: حلة من سندس وحلة من إستبرق، وكلاهما من الحرير، ووصفت بأنها خضراء اللون، وهو الذي يمنح النفس البهجة والسرور، ولذلك فالأطباء اليوم إذا كان عند الإنسان مشكلة نفسية ينصحونه بأن يخرج إلى أماكن خضراء، ليرى الورود والرياحين، ويسمع فيها خرير الماء، وزقزقة العصافير؛ فتنتعش نفسه وتتحسن صحته، وقد يُستدل بهذا على استحباب اللبس الأخضر في الدنيا، لكن لباس أهل الجنة يختلف عن لباس أهل الدنيا فلباسهم الأخضر من الحرير، وهو محرم على أهل الدنيا، وقد ورد استحباب اللبس الأبيض، **كما في الحديث**: **"إن خير ثيابكم البيض فالبسوها وكفنوا بها موتاكم"**[٣].

---

(١) صحيح مسلم: (١/ ١٧٤)، برقم: (١٨٧).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: (١٩/ ١٤٥).

(٣) سنن أبي داود: (٤/ ٨)، برقم: (٣٨٧٨)، وسنن الترمذي: (٢/ ٣١١)، برقم: (٩٩٤)، وإسناده صحيح.

وقوله: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، **أي**: أُلبسوا الحُلي في الجنة، وهي أدوات الزينة من ذهب وفضة، ونحوها، والأساور ما يلبس على اليدين من ذهب أو فضة، وقد يُوضع في الرجلين، وقد أُبيحت في الدنيا للنساء فقط، وحرمت على الرجال ليكونوا خشنين قادرين على تحمل مشاق الحياة، أما في الجنة فهي دار التنعم، وكل شيء مباح فيها.

وقوله: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١﴾، وصف الله الشراب الذي يشربونه بالطهور **لحكمتين، ذكرهما الزمخشري**(١):

الأولى: أنه لا يتكون منه بول ولا عرق ولا غائط، وإنما يرشح مسكًا وطيبًا.

والثانية: لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوسخة، وتدوسه الأقدام الدنسة، ولم يجعل في الدنان والأباريق التي لم يعن بتنظيفها، ويمكن أن يضاف لهما ثالثة، **وهي**: أن هذا الشراب لا يمكن أن يُؤدي إلى أي خلل أو مرض في الجسد، فهو طاهر من الأسقام حسًا ومعنًى، فليس فيه ميكروبات ولا بكتيريا ولا شيء من هذا القبيل، وهذا من فضل الله وكرمه على عباده في الجنة.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ٢٢﴾، **أي**: ما سبق ذكره من نعيم أهل الجنة هو ثواب ومجازاة لهم بسبب أعمالهم الصالحة، وشكر الله لكم السعي ولو كان قليلاً، ويُعطي عليه الأجر الكثير.

---

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٧٤).

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، الخطاب لمحمد ﷺ، نحن أنزلنا القرآن عليك رحمة وهداية للبشرية، وليس كما يدعي الكافرون أنك قلته من نفسك أو تعلمته من غيرك، وإنما نزل من الله بواسطة جبريل، وأنت حفظته وبلّغته للناس، فهو كلام الله تعالى، والتوكيد بالمصدر من أجل إثبات حقيقة التنزيل في الواقع، وليس مجازيًا.

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾، الخطاب هنا لرسول الله ﷺ، أمره بالصبر لحكم ربه سواءً كان هو الحكم القدري أو الحكم الشرعي، فالقدري كتعرضه للابتلاء من المشركين بطرده من مكة، ومُقاتلتهم له في عدة غزوات، ونحوها، والحكم الشرعي، كصبره على قيام الليل والصوم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحوها، ونهاه عن طاعة الكفار، وعدم القبول بما يطلبونه منه من محاولات لترك شيء من دينهم، والآثم هو المرتكب للإثم وهي المعاصي والمنكرات، والكفور هو الجاحد الذي يجحد ربه سبحانه، إلهًا وربًا ومعبودًا.

وقوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾، وأمره بذكر اسم الله، والمقصود به الذكر المطلق صباحًا ومساءً ليلًا ونهارًا، **وقيل**(١): المقصود بذلك صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر، والأول أرجح.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾، **أي**: قم صل له في

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ١١٦).

الليل، وذكر السجود؛ لأنه أعظم ركنٍ من أركان الصلاة، وتنفل لله بقيام الليل الطويل، وقد كان النبي ﷺ يقوم أغلب الليل حتى توفاه الله.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ۝٢٧﴾، **أي:** هؤلاء الكفار الذين أمرناك بالصبر عليهم، وعدم طاعتهم، من طبيعتهم حب الدنيا، والغفلة عن الآخرة، فلا يهتمون بإصلاح حالهم في الدنيا بالعبادة والإيمان والطاعة، استعداداً لذلك اليوم الثقيل على الكافرين، وهو يوم القيامة، الذي مقداره خمسين ألف سنة، وهو يوم عسير عليهم، **كما قال:** ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾[المدثر: ١٠].

وقوله: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ۝٢٨﴾، **أي:** نحن من أوجدناهم من العدم، وأتقنا خلقهم، بضبط المفاصل والأوتار والأعصاب، فارتبط كل عضو من أعضائهم بمفصله بدقة وإحكام(١)، فعيش العبد أكثر من سبعين سنة وهو على خلقته المتقنة لجميع أعضائه، وفي هذا تنبيه للإنسان الذي يكفر بالله الذي أعطاه هذه النعم سبحانه.

وقوله: ﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ۝٢٨﴾، **لها معنيان**(٢): أن نُهلكهم في الدنيا، ونأتي بآخرين يعبدون الله بدلًا عنهم، أو نمسخهم إلى أسمج صورة وأقبح خلقة، والأول أرجح.

---

(١) ينظر: تفسير الزمخشري: (٤/ ٦٧٥).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٤٢٧).

ثــم خــتم الله هــذه الــسورة بقولــه : ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠﴾، **أي:** هـــذه السورة فيها عظات وعِبر، وقد منح الله الإنسان مشيئة لاختيار طريق الخير أو طريق الشر، فمن شاء اتخذ إلى ربه طريقًا مستقيمًا، وهو طريق الخير، ومشيئة هذا العبد مرتبطة بمشيئة الرب سبحانه، ومشيئة الله هي النافذة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن أراد الله له الخير وفقه لاختيار طريق الخير، ومن حصل له الخذلان ذهب في طريق الشر، والكون كله تحت مشيئة الله وإذنه، فلا يكون في الكون شيء بدون إذنه، حتى إبليس يعصي الله بإرادة الله، وبمشيئة الله الكونية، وهناك فرق بين إرادة الله ومشيئته الشرعية، وإرادة الله ومشيئته الكونية، وقد ضلت بعض الفرق بسبب الخلط بينهما، فالإرادة والمشيئة الكونية لا يُشترط فيها الإذن ولا المحبة، بل هي نوع من الابتلاء للبشر، وهي واقعة كونًا وقدراً بإذن الله، **كما قال:** ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾، [الزمر:٧]، فالكفر يُفعل من الخلق، والله غير راضٍ عنه، ولكن ليس غصبًا عنه، ولا بدون إذنه، بل يقع تحت إذنه الكوني، أما الإرادة والمشيئة الشرعية فهي المحبوبة إلى الله، وقد أمر بها الخلق وطلبها منهم، فيُريد منك أن تُؤمن وتُصلي وتستغفر وتذكر الله، وتبتعد عن المعاصي، وقد تحصل من العبد بتوفيق الله له وقد تتخلف منه بسبب خذلان الله له، ويُحاسَب العبد عليها فعلاً وتركًا، وهو سبحانه عليم بمن يصلُح له التوفيق، وحكيم يضع الشيء في موضعه، فالهداية والضلال ناتجة عن علمه وحكمته وليس عن جهلٍ وغفلة.

وقوله: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾، هذا من الله للعبد أن يمن عليه بالهداية؛ فيهتدي، فيدخل في رحمة الله، وهي الهداية والاستقامة على الشرع في الدنيا، ثم يرحمه في الآخرة بدخول الجنة، وهي من رحمته المخلوقة **كما في الحديث:** "وأنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء"(١).

وقوله: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾، وهم من خذلهم الله فكفروا به وابتعدوا عن هدايته وشرعه، وساروا في طريق الشيطان، وقد أعد الله لهم عذابًا أليمًا في النار، **والناس في هذه الدنيا صنفان:** **إما** موفق آمن وأطاع الله، فكان من أهل الجنة، **وإما** مخذول كافر، فكان من أهل النار.

فوائد وهدايات من الآيات:

١- أن نعم الله تعالى لأهل الجنة كثيرة وعظيمة.

٢- خطر التعلق بالدنيا وحبها، والانشغال بها عن الآخرة.

٣- بيان أن دخول الجنة برحمة الله وفضله.

٤- أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، ولا يكون في هذا الكون إلا ما شاء الله تعالى.

---

(١) صحيح البخاري: (٦/ ١٣٨)، برقم: (٤٨٥٠)، وصحيح مسلم: (٤/ ٢١٨٦)، برقم: (٢٨٤٦).

تفسير سورة المرسلات

تفسير المقطع الأول من سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾
فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ
فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ
أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ
﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ
فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة المرسلات، سورةٌ مكية[1]، ومقصدُها العام بيان حال المكذبين والوعيد لهم بالويل والثبور يوم القيامة.

ابتدأت بالقسم، فقال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾، الواو أداة القسم، والمرسلات مُقسمٌ به، والمقصود بالمرسلات **قولان للمفسرين**[2]: هي الرياح التي يتبع

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٩٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ١٢٤).

بعضها بعضًا، أو الملائكة التي أرسلت بأمر الله ونهيه، وذلك هو العرف.

وقوله: ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ٢﴾، هي الرياح الشديدة، أو الملائكة، ولكنها في الرياح أقوى لأن العاصفات جمع عاصفة، والعاصفة هي الريح الشديدة، وهو قول الجمهور[١] وأكدها بالمصدر.

وقوله: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ٣﴾، هي الرياح التي تنشر السحب وفيها المطر، أو الملائكة التي تنشرُ الكتب، ولكنها في الرياح أقرب، وهو قول الأكثر[٢]، وأكدها بالمصدر.

وقوله: ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ٥﴾، وهي الملائكة، التي تفرّق بين الحق والباطل، والهدى والغي وتُلقي الذكر، وتنزل بالوحي على الأنبياء، وتنزل بأمر الله على الرسل[٣].

وقوله: ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ٦﴾، نُصبت عذرًا أو نذرًا لتعلقها بالذكر، أو على الحال[٤]، ما الفرق بين الإعذار والإنذار؟! يقال: قد أعذر من أنذر، ومعناه: لا لوم عليه لو عاقب، فالإعذار يكون أولاً وهو إرسال الرسل وإقامة الحجة على الناس، فإن لم يُؤمنوا وحصل لهم العقاب فلا عذر لهم؛ **والمعنى**: تُعذرهم وتُنذرهم، **أي**: تقيم عليهم الحجة، وتُخوفهم من العقوبة، وهذه هي مهمة

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (٤/ ٣٨٣).

(٢) ينظر: المصدر السابق.

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٩٧).

(٤) ينظر: فتح القدير للشوكاني (٥/ ٤٣٠).

الرسل الذين ينزل الله عليهم الوحي بواسطة الملائكة، والرسل يبلغونه للناس على سبيل الإعذار والإنذار.

ما وجه الجمع بين الرياح والملائكة في هذا القسَم؟! وجه الشبه وسر الاجتماع بينهما هو الخير والشر، فالرياح تأتي بالخير وتأتي بالشر، والملائكة تحمل الرحمة وتحمل العذاب، وكلاهما من جند الله.

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ٧﴾، هذا هو جوابُ القسَم، وهو إثبات حقيقة البعث والنشور؛ لأن قريشًا كانت تُنكره، وتوعدهم به الرسل، فأقسم الله بهذه الأمور الخمسة على وقوع البعث والنشور ومجيئه لا محالة في موعده.

ما علاقة المُقسَم به بجواب القسَم؟!، العلاقة هنا خفية، فلو نظرنا فيما تحمله الرياح من ماءٍ ومطر وما تحمله الملائكة من وحي؛ لوجدنا أن بهما تحصل الحياة في الأرض، فهما وسيلتان لإحياء الدنيا روحًا وحسًا، فالمطر ينزل فتحيا الأرض، والوحي ينزل فتحيا القلوب، فالذي أوجد وسائل الحياة الدنيوية، قادر على إعادة الحياة للخلق في الآخرة بوسائل أخرى.

وقوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨﴾، **الفاء** للتوقيت، **أي**: إذا جاء وقتُ قيام الساعة فالنجوم تُطمس، والنجوم هي الكواكب التي لها نور وتُضيء في الليل سواءً كانت تقتبس نورها من الشمس أو بعضها أو كان مُضيئًا بنفسه، وطُمست، **أي**: ذهب نورُها، وفي الحقيقة هي اندثرت، **أي**: تفككت وتساقطت ولم تعد ترى نجومًا في السماء، فصارت كأنها مطموسة، وهذه من علامات الساعة الكبرى.

وقولـــه: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩﴾، **أي**: شُـــقت، **كمـــا قـــال**: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦﴾[ق:٦]، وهي الأخراق والشقوق، ولكنها قبل يوم القيامة تتشقق **كما قال**: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[الانشقاق:١]، **وكما قال**: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾[التكوير:١١]، وكلها معانٍ متقاربة، تدل على أن تغير السماء وذهاب الإتقان فيها، ولم تعد كما خلقها الله؛ إيذانًا بنهاية الكون.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠﴾، النسف تفريق الأجزاء، ومنه نسف الطعام، لأنه يحرك حتى يذهب الريح بعض ما فيه من التبن[(١)]، فهذه الجبال العظيمة تدك فتتمزق، **كما قال**: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾[الواقعة:٥]، ثم تنسف فتكون كالهباء في الهواء.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ١٣﴾، جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً، ومائة وأربعة وعشرون ألف نبيٍّ[(٢)]، فهؤلاء كلهم ضُرب لهم موعد للاجتماع واللقاء، فيُجمعون لميقات يوم معلوم هو يوم القيامة؛ لأنهم سيكونون شهداء على أقوامهم، وسُمي بيوم الفصل؛ لأنه يتم فيه الفصل بين الناس في كل المظالم التي حصلت بينهم في الدنيا.

وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ١٤﴾، ما أدراك يا محمد ما يوم الفصل، وهذا أسلوب من أساليب التهويل والتعظيم يأتي في سياق الحديث عن يوم القيامة،

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ١٥٧).

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٨/ ٢١٧)،برقم: (٧٨٧١)، واسناده ضعيف.

كما قال: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢﴾[الحاقة:١-٢]، وكما قال: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣﴾[القارعة:١-٣]. ونحوها.

ثم قال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾، الويل والثبور والخسارة في هذا اليوم سيكون لمن كذّب بالله ورُسله، والويل، في معناه عدة أقوال[1]: قيل: وادٍ في جهنم، وقيل: العذاب، والصحيح أن كلمة ويل في لغة العرب معناها الدعاء بالهلاك، وهي هنا دعاء بالهلاك على المكذبين بذلك اليوم الذي هو يوم القيامة.

وقوله: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧﴾، هذا وعظ من الله تعالى للكفار الذين يسمعون هذا الوعيد وهم ما زالوا مكذبين، أما بلغكم خبر من قبلكم من المكذبين، وكيف أهلكهم الله بسبب تكذيبهم للرسل، والمقصود بالأولين هنا قوم عادٍ وثمود، وهم من أوائل من أُهلك، ثم نتبعهم في الهلاك الذين أتوا بعدهم وكذبوا رسلهم كقوم نوح وقوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب وغيرهم، فقد عاقبنا الأولين ثم عاقبنا الآخرين وأهلكناهم أجمعين.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨﴾، هذا تلميح وتهديد بهلاك كفار قريش إن استمروا على الإجرام والتكذيب، أي: سنفعل بهم مثل ما فعلنا بالأولين والآخرين، والإجرام فعل عظائم الذنوب، ومن أعظم الذنوب الشرك بالله تعالى، ثم فعل باقي الجرائم الأخرى المتعلقة بالبشر من القتل والفاحشة ونحوها.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ١٥٨).

وقوله: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٩﴾، تكرر هذا اللفظ في هذه السورة عدة مرات، فهل التكرار للتوكيد أم للتأسيس؟! **الجواب:** للتأسيس[(١)]، وهو التعقيب على شيء جديد، **والمعنى:** ويلٌ لمن اتصف بهذه الصفة، وكرر الدعاء عليهم؛ لعلهم أن يفيقوا من تكذيبهم، ويرجعوا إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢٢﴾، الخطاب للناس كلهم، وإن كان الخطاب موجهًا إلى كفار قريش الذين نزل القرآن فيهم وتكذيبهم بالبعث والنشور، لكن كل بني آدم خُلقوا من ماءٍ مهين، هو النطفة من المني التي تخرج من الرجل من مجرى البول، وتصبُ في رحم المرأة، فيقر فيها ويتمكن، وهذا التمكن يكون بعد أن تتعلق العلقة بجدار الرحم، ويبقى الجنين فيها إلى وقت محدد، والغالب أنها تسعة أشهر، وقد تزيد أو تنقص ومقدار ذلك الوقت يعلمه الله تعالى.

وقوله: ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣﴾، **فيها قراءتان**[(٢)]: **بالتخفيف**، بمعنى ملكنا، فنعم المالكون، مدح الله تعالى نفسه، وهو الذي يملك الخلق، **وبالتشديد** "فقدّرنا"، من التقدير، **أي:** قدّرنا صفة المولود ذكراً أو أنثى، شقياً أو سعيداً، وكل ما يتعلق به من لونه وعمره وجنسه، فنعم المُقدِّر وهو الله تعالى.

وقوله: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٤﴾، ويلٌ لمن يُكذب بقدرة الله تعالى، الذي أوجد هذا الإنسان وخلقه بهذه الدقة.

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي: (١٥/ ١٩٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ١٣٢).

فوائد وهدايات من الآيات:

١ - أن الله تعالى له أن يُقسم بما شاء من المخلوقات، وفي ذلك لفتُ لانتباه المخلوقين إلى عظمة هذا الخلق.

٢ - أن من علامات الساعة الكبرى تغيّر الكون واختلاله.

٣ - أن الرسل كما يُبلغون في الدنيا فهم شُهود على أقوامهم في الآخرة.

٤ - بيان خطورة التكذيب بالله تعالى، وبرسله، وبأحكامه الشرعية، وأن تكرار الدعاء بالهلاك للمكذبين دليل على خطورة هذا الذنب وآثاره على الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة.

٥ - أن الله تعالى يُذكّر الإنسان بأصل خلقته بين الحين والآخر، ليعظه عن التكبر، ويدعوه إلى التواضع، فلا فرق بينك وبين من تتكبر عليهم في الخلقة.

تفسير المقطع الثاني من سورة المرسلات

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ
فُرَاتٗا ﴿٢٧﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي
ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ
صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيۡلٞ
يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيۡلٞ
يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ
هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ
قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيۡلٞ
يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾﴾، هذه من النعم التي امتن الله بها على الخلق، فهو يُذكرهم بنعمة هذه الأرض التي جعلها تضمهم أحياءً على ظهرها في دورهم ومنازلهم، وتضمهم أمواتًا إذا قبروا في بطنها[1].

وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾، **أي:** ثبت الأرض بالجبال الراسية المرتفعة، فلا تتحرك ولا تضطرب.

(١) ينظر: التفسير البسيط (٢٣/ ٩٢).

وقوله: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾، ومن النعم التي أنعم الله بها على الخلق أن أسقاهم الماء العذب الزلال، وهو مياه الأنهار وما ينزل من الأمطار.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾، سبق معنا أن التكرار لهذه الآية في هذه السورة، يُفيد التأسيس، لأنها تذكر بعد نعم متعددة على سبيل التهديد والوعيد لمن كذب بتلك النعم، وهنا توعد من كذب بنعمة تهيئة الأرض لضم الناس فيها، وخلق الجبال أوتادًا لها، ونعمة جعل الماء عذبًا زلالاً يشرب منه الناس.

وقوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾، الخطاب للكفار، وسيكون في الآخرة، يوم أن يبعثهم الله، ثم يأمرهم بالانطلاق إلى النار التي كانوا يُكذبون بها، ويُنكرون وجودها في الدنيا، ثم كرر لهم الأمر بالانطلاق إلى مكان مخصص في النار، وهو مكان ظل دخان النار، لأن النار حين تشتعل اشتعالًا كبيرًا بمن يكون فيها من أهلها من الناس والحجارة؛ يخرج منها دخانٌ عظيم، فينقسم إلى ثلاث فرق[(١)]، وهذه الفرق ترتفع، فمن شدة الحر والضنك والعطش الذي يُصيب أهل النار المكذبين في الآخرة يُقال لهم: اذهبوا استظلوا تحت ظل ذلك الدخان، وهو في الحقيقة ليس بظل، فلا يوجد تحته ما يُريح، بل هذا نوع من التهكم عليهم، فيذهبون فلا يجدون بردًا ولا ظلًا وإنما يزدادون ألمًا من ريحته الكريهة، فهو دخان جثث أهل النار ولا يمنع عنهم لهب اشتعال النار، فلم يستفيدوا منه شيئًا بل اقتربوا من رائحته ومن حر لهيب النار، والعياذ بالله.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٩٩).

وقوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾، الضمير يعود إلى النار، لأن النار هي المشتعلة، وهي التي تقذف الشرر، وهو جمع شرارة، وهي التي تخرج مشتعلة من النار، وسُمي شررًا من الشر الذي يحمله، وحجم كل شرارة مثل البناء العظيم، أو كأسفل النخيل المقطوعة، والأول أرجح(١)، لأن فيه معنى التهويل والتخويف لأهل النار، كأن هذا الشرر جمالات، جمع الجمع، فجمل يجمع على جمال.

وجِمالات جمع جِمال، وهي الإبل العظيمة الكبيرة التي تميل إلى السواد، فإن العرب إذا أطلقوا كلمة صُفر يقصدون بها السواد الأدهم(٢)، أو أن لونها فيه شيء من اللون الأصفر الذي يُشبه لهب النار، **والمعنى**: أن النار من شدة حرارتها اسودت، ويكون في أطرافها شيء من اللهب الأصفر فوُصفت باللون الأصفر الذي يميل إلى السواد، وهذا وصفٌ عظيم للشرر الذي ينطلق منها، فما بالك بالنار نفسها.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾، هلاك للمكذبين بعذاب الله الذي سبق وصفه.

ثم قال سبحانه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾، وُصف يوم القيامة باليوم الذي لا ينطق فيه الكفار، وقد جاء في آيات أخرى أن الكفار يتكلمون، **كما قال:** ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾[المجادلة:١٨]،

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٢٤/ ١٣٧).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٤٣٤).

والجمع بينها أن هذا يكون في مرحلة وذاك في مرحلة أخرى[1]، ففي مرحلة البعث الأولى فمن شدة غضب الجبار في ذلك اليوم؛ لا يُسمح لأحد أن ينطق بكلمة، ولا يوجد مجال للاعتذار، فإذا شفع محمد ﷺ بالفصل بين الناس وحسابهم، سُمح لمن أراد أن يتكلم أو يسأل.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧﴾، هلاك لمن كذّب بأخبار هذا اليوم وما يجري فيه من الصمت المُطبق في بدايته وعدم السماح لأحد أن يعتذر في هذه المرحلة.

وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾، سمّى الله يوم القيامة بيوم الفصل؛ لأن الله يفصل فيه بين المتخاصمين، وبين أهل الحق وأهل والباطل، وبين الظالم والمظلوم، والخطاب موجه لكفار أمة محمد ﷺ لأنهم هم المتأخرون، والأولون هم أقوام الرسل في الأمم السابقة، حيث يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد في يوم القيامة.

وقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۝٣٩﴾، خاطبهم على سبيل التهكم والتوبيخ: إن كان لديكم خطة خفية أو حيلة للتخلص من هذا الوقف فافعلوا؟!، والكيد هو المكر الخفي، والواقع أنهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠﴾، ويلٌ وخسارةٌ وهلاكٌ للمكذبين بيوم الفصل وما يجري فيه.

ومن عادات القرآن وأساليبه المطردة أنه إذا حدثنا عن النار وأهلها؛ حدثنا عن

(١) ينظر: التفسير البسيط: (٢٣/ ١٠٢).

الجنة وأهلها، من باب المقارنة حتى يتضح للعاقل حال الفريقين؛ فيختار لنفسه من أيهما يكون!!، **فقال:** ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢)﴾، التقوى أرقى وصف للمؤمنين؛ لأنهم اتقوا الله تعالى، وترقوا في درجات الكمال والإيمان بفعل الطاعات والقربات، وابتعدوا عن كل ما نهى الله تعالى عنه، حتى وصلوا إلى درجة التقوى، هؤلاء جزاؤهم أنهم في الجنة وتحت ظِلال أشجارها يتنعمون، ومن الأنهار التي تسيل منها المياه الطيبة العذبة يشربون، ويُعطون الفاكهة التي تشتهيها أنفسُهم، **ويُقال لهم:** ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، القائل قد يكون الله سبحانه، وقد تكون الملائكة أو الخدم الذين يمرون عليهم(١)، ويظهر أن الخطاب من ربهم سبحانه، فهو الذي يتفضل عليهم بذلك، وهو خطاب مُجازاة لهم، لأنهم تعبوا في الدنيا في طاعته وحُرموا من كثير من النعم، والأكل والشرب الهنيء هو الذي لا مُنغص فيه، لا حسي ولا معنوي، فالحسي قد يكون الطعام غير طيب في مذاقه، أو يكون قليلاً وغير كافٍ.

والتنغيص المعنوي: أن يُقال له أثناء الأكل عبارات التوبيخ والمن والأذى، وأحيانًا الإنسان قد يتحمل المرارة من أجل عزة النفس، ولا يتحمل الحلاوة في مقابل جرح النفوس، فجمع الله للمتقين في الجنة بين هناءة العيش حسًا ومعنىً.

وقوله: ﴿بِمَا﴾، هي باء السببية(٢)، **كما في قوله:** ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾[النحل:٣٢]؛ لأن دخول الجنة مرتبة عظيمة جدًا، والعمل والطاعة

(١) ينظر: تفسير الخازن: (٤/ ٣٨٥).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (٥/ ٤٣٥).

قليل لا يساوي ثمن دخول الجنة، فيكون دخول الجنة برحمة الله سبحانه، **كما في الحديث**: "**لن يُدخل أحدكم الجنة عمله، قالوا: ولا أنت؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**"(١)، ويمكن أن نقول إنها باء الثمنية، لأن تفاوت نعيم أهل الجنة في الدرجات والأكل والشرب فيها؛ يكون بسبب أعمالهم، ولذلك أُمرنا بالتنافس في الدنيا عليها، **كما قال**: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الفردوس الأعلى.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٤٤﴾، **أي**: هذا الجزاء حصلتم عليه لإحسانكم في أعمالكم في الدنيا، فلما أحسنتم في عبادتكم لله، وأحسنتم إلى خلق الله في الدنيا؛ أحسن الله إليكم، ومنحكم جزاءً وثوابًا في الجنة فكنتم على أحسن حال.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥﴾، هلاكٌ وخسارة لمن كذب بنعيم أهل الجنة.

ثم رجع الخطاب إلى الكفار، فقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦﴾، والمعنى: استمروا على كفركم بالله وتمتعوا بما أعطاكم الله من النعم في الدنيا(٢)، وهذا التمتع سيكون قليلًا، وترحلون وتتركونه، وبكفركم بالله وتكذيبكم برسوله ﷺ أصبحتم في عداد المجرمين، **ولو قلنا**: إن الخطاب موجه لهم في الآخرة. وهم في النار، فهو على سبيل التوبيخ والتهكم، **كما قال**: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، **أي**: تمتعوا بمرارة الضريع

---

(١) صحيح البخاري: (٧/ ١٢١)، برقم: (٥٦٧٣).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير: (٨/ ٣٠١).

والغسلين وشجرة الزقوم، بسبب أنكم كنتم مجرمين في الدنيا.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾، ويل وهلاك لمن يكذب لما سيحصل لأهل النار.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾، وإذا قيل للكفار في الدنيا: اركعوا، لا يركعون، وللمفسرين في معنى اركعوا قولان[1]، **قيل**: أطيعوا الرسل وآمنوا بهم، فمعنى الركوع هنا الاستسلام والخضوع والاستجابة والامتثال، فلا يفعلون ذلك، **وقيل**: إن معنى اركعوا هنا، صلوا، وعبّر بالركوع عن الصلاة لأنه من أشرف المواضع فيها، فإذا قيل لهم: صلوا، لا يُصلون، والراجح الأول؛ لأنه عام ويدخل فيه القول الثاني.

وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾، هلاكٌ وخسران لمن يُكذب بما جاءت به الرسل، من الأمر والنهي.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾، **أي**: إن لم يُؤمن الكفار بهذا القرآن، وقد احتوى على الحجج والبراهين والأدلة وأوضح جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين، فإن لم تهتدي قلوبهم وتؤمن به مع ما فيه من وسائل الهداية والبيان والحجج والبراهين؛ فبأي كتابٍ أو برهان وحجة، يُمكن أن يقتنعوا؟! وهذا معناه أن من وصل إلى هذا الحال؛ فلا خير فيه، فمن لم يهتدِ بالقرآن والسنة؛ فلن تحصل له هداية بغيرهما.

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ١٦٩).

فوائد وهدايات من الآيات:

١- اتساع الأرض وكفاتها لمن عليها من الأحياء والأموات.

٢- خُطورة التكذيب بآيات الله ونعمه والوعيد الشديد لمن يفعل ذلك.

٣- بيان أن ما منحه الله للمؤمنين في الجنة كان بسبب إيمانهم وإحسانهم في العمل، وما عاقب الله به الكفار في الجحيم كان بسبب إعراضهم وكفرهم.

٥- أن من لم يهتدِ بالقرآن والسنة، فلن تحصل له هداية بغيرهما.

نسأل الله تعالى أن ينفعنا وإياكم بما قلنا وسمعتم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

تفسير جزء عم

تفسير سورة النبأ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا
سَيَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ
سُبَاتٗا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١١﴾ وَبَنَيۡنَا شِدَادٗا ﴿١٢﴾ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا
وَهَّاجٗا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ﴿١٤﴾ لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ﴿١٦﴾
إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ
أَبۡوَٰبٗا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ﴿٢٢﴾
لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ وِفَاقًا
﴿٢٦﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ
كِتَٰبٗا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴿٣٢﴾
وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا
﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ﴿٣٧﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ
ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ
ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا
﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴿٣٥﴾ جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ
أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ
أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة النبأ[(١)]؛ سورةٌ مكيةٌ بالإجماع[(٢)]، **أي**: نزلت قبل الهجرة، **والقرآن الذي نزل قبل الهجرة يمتاز بمجموعةٍ من الخصائص والصفات؛ منها**: أنه يهتم ببيان التوحيد وإثبات البعث والنشور، والرد على المشركين المنكرين له، **ويمتاز** بِقِصر الآيات؛ لأن الآية القصيرة لها وقعٌ في النفس، بخلاف الآية الطويلة، ولا يوجد فيه تفاصيل للأحكام الشرعية الفرعية، وفيها أيضًا الترهيب والترغيب، ودعوة الناس إلى محاسن الأخلاق قبل أن تنزل عليهم الأحكام والحدود، حتى تتألف النفوس وتُقبل على الله سبحانه وتعالى، وينمو فيها الإيمان، ثم يأتي بعد ذلك تفاصيل الأحكام الشرعية في القرآن المدني الذي سُوره وآياته طويلة، وأحكامه مُفصّلة.

ومقصد السورة الأعظم، هو إثبات البعث والجزاء والرد على المنكرين، وبيان عقوبة المكذبين، وجزاء المؤمنين الصالحين.

وابتدأت بقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾﴾، عمّ، هي عبارة (عن)، و(ما) الاستفهامية،

---

(١) **وتسمى سورة** عم، وعم يتساءلون، والتساؤل، والمعصرات، وآياتها إحدى وأربعون. ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (١٥/ ٢٠١).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥/ ٤٣٢).

ولكن أُدغِمت النون مع الميم في الخط لِقربهما من بعضٍ في المخرج،وحُذِفت الألف تخفيفًا، لكثرة الاستخدام، أو ليتميز الخبر عن الاستفهام[(١)]، **والمعنى**: عن أي شيءٍ يتساءل المشركون إذا اجتمعوا في نواديهم ومجالسهم وأثناء حواراتهم ونقاشهم؟!، وليس بالضرورة كل تساؤلٍ يحتاج إلى جوابٍ، فقد يكون السؤالُ استنكاريًا تعجبيًا!!، لإثارة الموضوع، أو لاستغرابه!!،**كما قال الله**: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾[الطور:٢٥-٢٦]، **أي**: يتذاكرون أخبارهم في الدنيا، ويأتي السؤال بمعنى الحديث، **أي**: تُحدثني وأُحدِّثك، ولما بُعث محمدٌ ﷺ، أحدث ضجةً كبيرةً في مكة؛ وجاءهم بشيءٍ جديدٍ، فكلما الْتقى مشركٌ مع مشركٍ تحدّثوا عن ما جاء به محمدٌ ﷺ؛ **ولذلك قال الله جوابًا عن ذلك**: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾، فأهل مكة مشغولون في حواراتهم ونقاشاتهم بالنبأ العظيم، وهو: الخبر الذي فيه عَظَمة، ومن عظمته أن الناس يتحدثون عنه كلما تقابلوا، فليس خبرًا عاديًا، وإنما هو خبرٌ عظيمٌ، فيه تغييرٌ للواقع الذي يعيشه الناس.

وقد اختُلِف في تفسير النبإ العظيم، فقيل: المقصود به البعث[(٢)]، **وقيل**: محمدٌ ﷺ[(٣)]. **وقيل**: القرآن[(٤)]. ولكل قولٍ حُجتُه، وقد كانت هذه الثلاثة الأمور مدار اختلاف المشركين، ويمكن الجمع بينها كلها، فالنبأ العظيم؛ هو

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ١٦٩).

(٢) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٤: ١٥٠)

(٣) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج الجوزي (٤/ ٣٨٨).

(٤) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٤: ١٤٩)، وزاد المسير، لأبي الفرج الجوزي (٤/ ٣٨٨).

محمدٌ ﷺ، وقد جاء بالقرآن، الذي فيه إثبات البعث والنشور الذي تُنكره قريش، وكلها متناسقةٌ ولا تعارض بينها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾، **أي:** هذا النبأ العظيم الذي اختلف فيه كفار مكة، **فإن قُلنا:** إنه محمد؛ فقد قالوا فيه أقوالاً كثيرةً، **قالوا:** ساحرٌ، وكاهنٌ، وشاعرٌ، ونحوها، **وإن قلنا:** إنه القرآن؛ فقد قالوا فيه أقوالًا كثيرةً، ﴿قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، **وقالوا:** ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، **وقالوا:** ﴿يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾، **وإن قلنا:** إنه البعث والنشور، فهم أيضًا مختلفون فيه أيضًا؛ فمنهم من يُنكِرُه جملةً وتفصيلًا، **كما في قوله:** ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[الأنعام:٢٩]، **ومنهم من يقول:** بالبعث، دون الحساب، **ومنهم من يقول** غير ذلك.

ثم قال الله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾، كلا، كلمة ردعٍ وزجرٍ لإبطال كلامٍ سابقٍ، وهو اختلافهم في محمدٍ ﷺ، واختلافهم في القرآن، واختلافهم في البعث، وهو كلامٌ باطلٌ، فمحمدٌ حقٌ، والقرآن حقٌ، والبعث حقٌ، وكل ما قلتم عنهم مردود عليكم.

وقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ فيه تهديدٌ ووعيدٌ لهؤلاء المنكرين، وأنهم سيحصل عندهم العلم اليقيني حينما يُبعثون فيرون البعث حقـًا، ويعلمون صدق القرآن وصدق محمدٍ ﷺ، ثم كرّر العبارة **فقال:** ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾، وهذا التكرار للتوكيد، وفيه معنى التهديد والوعيد لهم، وفيه تُنبيهٌ للغافل لعله يرجع ويتوب.!!

ثم جاءت الفقرة الثانية في السورة وتحدثت عن تسع قضايا كلها تدل على قدرة الله وعظمته وأنه قادرٌ على البعث والنشور، وإنزال القرآن وإرسال الرسل،

وكلها أدلةٌ عقليةٌ، ناقش فيها القرآن الكريم المشركين؛ ليعلموا عظمة الله وقدرته، ومَن كانت هذه أوصافه فلا يُعجزه أن يبعث الناس ويحاسبهم؛ فإن البعث والنشور في حقه سهلٌ يسيرٌ.!!

القضية الأولى في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾، **نجعل**: (النون) للتعظيم **أي**: صيّر الله الأرض مُمهدةً، **وفي آيةٍ أخرى جعلها**: ﴿فِرَٰشًا﴾[البقرة:٢٢]، والأرض الممهدة تستطيع أن تفترشها وتعيش عليها بسهولةٍ ويُسرٍ، بخلاف غيرها من الكواكب، كالمريخ والمشتري وغيرها، ففي العيش على ظهرها صعوبةٌ جداً؛ لأنها غير مُهيأةً للحياة عليها.

ثم ذكر القضية الثانية فقال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾، **أي**: صيّر الجبال أوتاداً للأرض، والوتد هو: قطعةٌ من الحديد تُربط به الخيمة ويمسكها حتى لا تضطرب، فالله صيّر الجبال أوتاداً للأرض، حتى لا تضطرب، وسُميت بالرواسي لأنها تجعل الأرض راسيةً مستقرةً.

ثم ذكر القضية الثالثة فقال: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾، **أي**: أن الله خلق الخلق أزواجًا، وأزواجًا لها معنيان في لغة العرب: فالزوج يأتي بمعنى الذكر والأنثى، وهو يشمل الإنسان والحيوان؛ حتى يتم التزاوج والتناسل بينهم، ويأتي بالمعنى الثاني وهو الأعم وهو أن الله خلق في هذه الأرض من كل شيءٍ زوجين متقابلين مثل الليل والنهار، والشمس والقمر، والفرح والحُزن، والأبيض والأسود، ونحوها، وهذا التقابل يُسمى أزواجًا(١)، والأول أرجح؛ لأن الخطاب فيه

(١) ينظر: فتح القدير (٥/ ٤٣٩).

للمكلفين، ولكي يظهر أثر هذا التزاوج في استمرار نسلهم.!!

ثم ذكر القضية الرابعة، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾، وهذه نعمةٌ من نعم الله سبحانه وتعالى على الخلق؛ أن صيَّر لهم النوم متقطِّعًا، من سبتُّ الشيء سَبْتًا إذا قطعتُه، **والمعنى:** أن الله سبحانه وتعالى مَنَحَكُم النوم عند حاجتكم إليه ورفعه عنكم حينما لا تحتاجونه، فصار بهذا الشكل نعمة، بخلاف من نام طوال الوقت فهو مريضٌ، ومن صحى طوال الوقت فهو مريضٌ، فجعل الله سبحانه وتعالى النوم متقطعـًا نعمةً واضحةً وفيها فائدةٌ للخلق، وتدل على عظمة قدرة الله وتدبيره في اختيار ما ينفعهم.

ثم ذكر القضية الخامسة، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾، **أي:** صيّر لنا النهار مكانًا لطلب المعاش، وهو الرزق، والليل جعله للسكون والراحة، وفيه إشارةٌ إلى ضرورة استغلال النهار في العمل والإنتاج وعمارة الأرض، **كما قال:** ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾[المزمل:٧]، والليل استغله بالنوم والصلاة والذكر والتسبيح ونحوها.

ثم ذكر القضية السادسة، فقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾[النبأ:١٢]، والسبع الشداد، هي السموات، فقد بناها الله بناءً محكمـًا، لا تجد فيها من فُطُورٍ أو خللٍ، وجعلها فوقنا ننظر إليها كل لحظةٍ فنرى فيها قدرة الله وعظمته.!!

ثم ذكر القضية الثامنة، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾، **والسراج الوهّاج،** هو الشمس، **وفيها صفتان: الصفة الأولى:** أنها تُضيء بالنور؛ لذلك لما تغيب يُظلم النهار ويأتي الليل، فهي سبب للنور. **والصفة الثانية:** أنها سبب للحرارة،

فهي نورٌ للأرض، ومصدرٌ لحرارتها، وجعلها الله سبحانه وتعالى بمسافةٍ معينةٍ بينها وبين الأرض فلو اقتربت من الأرض لذابت الأرض من شدة الحر، ولو ابتعدت كثيرًا لمات الخلق من شدة البرد.!!

ثم ذكر القضية التاسعة، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾، والمعصرات هي السُّحب التي تعصرها الريح؛ فتُمطِر، وسُمِّيت مُعصرات؛ لأن الريح تعصرها حتى يخرج منها المطر، فالله سبحانه وتعالى يُرسل الريح لتعصر السحب وتسوقها إلى مكانٍ مُعينٍ ثم تُنزل ماءها، وهو المطر، والثجاج المتتابع القطرات، من الثج، وهو سرعة التدفق؛ **أي:** تصُب ماءً مُنهمرًا مُتتابعًا، **ومنه قول النبي ﷺ:** "**أفضل الحج العَجُّ والثَّجُّ**"[1].

فالعَجُّ: رفع الصوت بالتلبية، **والثَّجُّ:** تتابع إنهارُ دماء الهدي.

ثم قال: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾، فالعلة من إنزال المطر هي: أن يُخرج به الحب ويُنبت به النبات ويُنشأ به البساتين الكثيرة الأشجار التي التفت سيقانها وأغصانها على بعضِها من كثرتها.

ثم ذكر بعد ذلك الفقرة الثالثة من السورة، فقال: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾، والمناسبة بين هذ الفقرة والتي قبلها: أن هذه الحياة التي هيأها الله للعباد بتمهيد الأرض، وجعل الأوتاد فيها، وإنزال الأمطار، وإخراج الثمار والحبوب منها، وجعلها محلًا مناسبًا لعيشكم فيها؛ إلا أنكم لن تستمروا عليها، فحياتُكم مؤقتةٌ ومصيركم إلى الموت ثم البعث والحشر، إلى يوم الفصل وهو يوم القيامة،

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (٩/ ١٩) برقم (٥٠٨٦) **وقال محققه:** إسناده حسن.

وسُمي بيوم الفصل لأن فيه يفصل الله بين الناس، ويحكم بينهم، ويجازي كل واحدٍ منهم على عمله في الدنيا، وهو يومٌ مؤقتٌ ومحددٌ ومكتوبٌ عند الله يأتي في موعده، فلا يتأخر ولا يتقدم.

ثم ذكر ماذا يجري في ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾، فحين ينفخ إسرافيل بالبوق النفخ الثانية، يبعث الناس بعدها جماعاتٍ، جماعاتٍ إلى ساحة المحشر، **وقال بعضهم:** أن الصور؛ جمع صورةٍ، **أي:** يُنفخُ في صُوركم فتدخل أرواحُكم فيها؛ فتُحيَون[(١)]، والقول الأول، هو الراجح؛ لورود النص في ذلك، **فقد قال** ﷺ: **"كَيْفَ أَنْعم وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَحَنى جَبْهَتَهُ يَنْتَظِرُ حَتَّى يُؤْمَرَ أَنْ يَنْفُخَ؟"**[(٢)].

وقوله: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾، وتتفتح السماء يوم القيامة أبوابًا وطرقًا للملائكة، **كما قال:** ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾[الفرقان:٢٥].

وقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾، **أي:** تتحرك من أماكنها، ولا يُمكن أن تتحرك الجبال، وهي جبالٌ، بل تُدك وتُنسف وتصبح هباءً منثورًا، ثم هذا الهباء هو الذي يسير، وإذا سار ابتعد فيراه الرائي من بعيدٍ على أنه سرابٌ، فإذا اقترب منه فلا يجده، والسراب هو رؤية الخيال في الصحراء على أنه ماءٌ، **كما قال:** ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[النور:٣٩].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١﴾، وتكون جهنم مَرصَدًا لكل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٢).

(٢) رواه ابن حبان، كما في الإحسان: ٢/ ٩٥ برقم (٨٢٠)، وإسناده صحيح.

الناس بدلالة **قوله تعالى**: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[مريم:٧١]، فهي ترصُد الجميع، ويمرون جميعًا من فوقها، فالمؤمنون ينجون منها، والطاغون يسقطون فيها، **وبيّن ذلك بقوله**: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ٢٢﴾، **أي**: مرجِعًا ومأوىً ومكانًا يعيشون فيه، والطاغون هم الكفار الذين طغوا وبغوا وأكثروا في الأرض الفساد.

وقوله: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ٢٣﴾، **أي**: ماكثين في النار أحقابًا، **والأحقاب**: جمع حَقِب أو حِقْبَة، **والحِقْبَةُ** من الزمن، **قيل**: ثمانون سنة[1]، **وقيل**: حَقِب وراء حَقِب[2]، **وقد فهم بعضهم من لفظ**: الأحقاب، مهما كانت، فإن لها نهاية[3]، وهذا المعنى إن صح فهو مقيدٌ بما بعده، **وهو قوله**: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ٢٤﴾، **والمعنى**: أن هذه الأحقاب التي يمكن أن تنتهي هي المقيدة بمنعهم من البرد والشراب الطيب، ولكن يمكن أن يأتيهم ما هو أسوأ من ذلك، على أن هذا فهمٌ للنص، ومنطوق النص مُقدمٌ على المفهوم، فقد وردت نصوصٌ تفيد بمنطوقها أنهم مخلدون فيها، ولا يخرجون منها أبدًا، فدل ذلك على خلود أهل النار فيها إلى الأبد.

وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ٢٤﴾، **البرد المقصود به هنا**: الريح التي تُبرد أجسامهم، والشراب: الماء الذي يشربونه، فيذهب ظمأهم، والشراب يُتذوّق، ولكن كيف يذوقون البرد؟! **قالوا**: إن من أشد حر الكافر وعطشه؛ تؤثر

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (١٩/ ١٧٨).

(٢) ينظر: المصدر السابق: (١٩/ ١٧٧).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: (٥/ ٤٢٦).

فيه أدنى نَسَمات الهواء؛ فيشعر بنوعٍ من الرَّيْ، وقد منع الله ذلك عن أهل النار، وأبدلهم بقوله: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾، فالحميم: هو الماء الحار، والغسّاق: هو الصديد النتن والقبيح المنظر والرائحة[1]، فإذا شربوا منه أحرق ألسنتهم وقطع أمعاءهم، وإن شموه أفسد عليهم حياتهم من شدة جيفته.!!

وقوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾، أي: هذا الذي حصل لأهل النار إنما هو جزاءً مُوافقًا لفعلهم القبيح في الدنيا، لأن الجزاء من جنس العمل، وهذه قاعدةٌ معروفةٌ دلت عليها نصوص كثيرة، مثل قوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[الشورى:٤٠]، وهذا يدل على كمال عدل الله سبحانه، وأنه لا يظلم أحدًا، فما وقع بهم من العذاب كان بسبب اعتقاداتهم الباطلة وأفعالهم السيئة.!

ثم قال: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ فقد جمعوا بين قبح الاعتقاد وقبح العمل، فلم يفعلوا خيرًا قط، ولا تركوا شرًا قط، وأضافوا إلى ذلك التكذيب بالآيات، وإنكار المعجزات.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: كل ما عملوه من أعمالٍ في الدنيا أحصيناه وكتبناه في صحائفهم، فلا يُمكن أن يُنسى، كما قال: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء:١٤] وقوله: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾[الكهف:٤٩].

---

(١) ينظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٠٧).

ثم قال لهم: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾، **أي:** ذوقوا جزاء عملكم، ولا تنتظروا منا رحمةً ولا عفوًا، بل انتظروا مزيدًا من العذاب والتبكيت؛ لأنكم تستحقون ذلك، وهذا من أصعب ما يسمعه أهل النار من ربهم.!

وبعد أن ذكر الله جزاء الكفار المكذبين الطاغين، اتبعه بالحديث عن الجنة وأهلها؛ لكي يتضح لنا حال الفريقين، **فقال:** ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١﴾، المتقون: هم الذين اتقوا الله، وجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقايةً بالإيمان والعمل الصالح، وللعلماء في تعريف التقوى تعريفات كثيرة، ومنها: ألا يراك الله حيث نهاك، ولا يفتقدك حيث أمرك[1]، **ومنها:** أن تفعل الفرائض والواجبات، وتبتعد عن المناهي والمحرمات والمكروهات[2]، **ومنها:** الاستعداد ليوم الرحيل والعمل بالتنزيل، والخوف من الجليل سبحانه[3]، وكلها معان وألفاظ متقاربة تدل على الاستقامة والطاعة والعمل الصالح، فالفوز هو النجاة من الهلاك وحصول النعم، **كما قال الله تعالى:** ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾[آل عمران:١٨٥]، فربما ينجو الشخص من الهلاك، ولكن لا يحصل على النعم، وربما يحصل على النعم، ولكن لا يضمن النجاة، ومن دخل الجنة فقد حصل له الأمران.!!

ثم بيّن سبحانه وتعالى بعضًا من محتويات هذا الفوز، فقال سبحانه: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبًا ٣٢﴾، **فالحدائق** بدل من (مفازًا)، ولذلك نُصبت.

---

(١) ينظر: موسوعة فقه القلوب، محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري (٢/ ١٨٨٨).

(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب (٢/ ٤٧٠).

(٣) ينظر: كوثر المعاني الدراري للشنقيطي (١/ ٤٠١).

والحدائق جمع حديقةٍ، وسُميت حديقةٌ؛ لأن أشجارها وثمارها وخضرواتها تُحدِق بالذي يدخلها، وتُغطيه، مثل الجنة التي تُغطي من دخلها بكثرة أغصانِها وأشجارِها وتحتوي هذه الحدائق على الثمار، ومن هذه الثمار العنب، وأفردها بالحديث لأهميتها، ولأنها كانت عند العرب من أعظم وأحسن وأجمل الفواكه، ومنها يصنعون الخمر، فالخطاب القرآني كان يُراعي حال المخاطَب، وهم العرب الذين نزل القرآن فيهم، فذكر الحدائق؛ لكونها تعطي النفس نوعًا من البهجة والسرور، وذكر الأعناب؛ لكونها ممن يتذوق ويتلذذ بطعمه.!!

ثم ذكر صفات نساء أهل الجنة، فقال: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾، **الكواعب**: النساء الشابات اللواتي ظهرت كواعبُهن **أي**: أثداؤهن، والثدي في المرأة عُنوان الجمال، وهؤلاء النساء اللاتي أعدهن الله لمن يدخل الجنة، هن من الحور العين، **وقد وصفهن بوصفين:**

الأول: أبرز مكان الفتنة والجمال فيهن وهو الكواعب.

والثاني: أنهن مُتساويات في السن، **وقد جاء في الحديث**: **"أن سنّ أهل الجنة حينما يدخلونها ثلاث وثلاثون سنة"**[(١)]، وهي قمة الشباب والنظارة، فهُن في سنٍ واحدٍ، ومتشابهات في الجمال، حتى تطمئن نفوس أهل الجنة، وأن كل واحدٍ عنده مثل ما عند الآخر، **كما قال**: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾[ص:٥٢].

ثم قال الله: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾، **الكأس**: الإناء المملوء بالخمر، ولا يُسمى

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٥٤٥)، (٤/ ٦٨٢)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (١١٨)، (٢٠/ ٦٤)، وحسنه الألباني.

الكأس كأسًا إلا إذا كان مملوءًا بالخمر، ودهاقًا؛ لها ثلاثة معانٍ في اللغة، وهي: مملوءة، وصافية، ومتتابعة[1]، ويمكن أن تجتمع المعاني كلها في هذا اللفظ، فتكون ممتلئةً وصافيةً ومتتابعًا شرابُها، ولهذا الوصف أهميته عند العرب؛ فقد كانوا مدمنين على شرب الخمر، وهذه الآيات مكية، نزلت قبل تحريم الخمر، فكأنه يُرشدهم إلى آثار الخمر على عقولهم وجوارحهم؛ بخلاف حال خمر الآخرة التي تختلف صفاته عن خمر الدنيا، **كما قال**: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[الصافات: ٤٧].

ثم قال الله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾، **أي**: لا يسمع أهل الجنة في الجنة الكلام الباطل، ولا يوجد فيها كذبٌ ولا تكذيبٌ، وقيل: الضمير فيها يعود على الخمر، **والمعنى**: لا تُحدِثُ لعقولهم السكر؛ فيتكلمون كلامًا باطلًا، كعادة من يشرب الخمر في الدنيا[2]، فإنه يتكلم كلامًا فيه من الكذب واللغو والباطل الشيء الكثير؛ بسبب غياب عقله بالسكْر، والأول أرجح؛ لأن الجنة دار السلام، ودار الصدق، ودار الهدوء، وليس فيها صخبٌ أو إزعاجٌ كحال الدنيا.!!

ثم قال الله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾، **أي**: هذا الذي حصل عليه أهل الجنة من النعم فيها، وما ذكر هو أمثلة من النعيم فقط، وإلا فهناك آياتٌ أخرى وصفت نعيم الجنة أوصافًا متعددةً، فهذا جزاؤهم بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة، وقد جمع هنا بين العطاء والحساب، فما السر في هذا

(١) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، (١٠/ ١٠٦).

(٢) ينظر: زاد المسير، أبو الفرج ابن الجوزي (٤/ ١٧٨).

الجمع؟ **والجواب**: السر بناءً على معنى لفظة حسابًا، فمن قال: إن حسابًا من المحاسبة، فالمعنى: أعطاهم الله حقهم، ثم زاد لهم عطاءً فوقه، ومن قال: إن حسابًا من الحسيب، وهو الكافي، **فالمعنى**: أعطاهم الله عطاءًا يكفيهم[1]، فعلى كلا المعنيين، فما هم فيه هو فضلٌ ونعمةٌ من الله سبحانه وتعالى.

ثم قال الله سبحانه: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾، **أي**: إن الله الذي أعطاهم وكفاهم بهذه النعم في الجنة، هو ربُ السموات والأرض ومن فيهن، من أجرامٍ ومخلوقاتٍ كثيرةٍ، فهو رب الكون كله ومالكه والمتصرف فيه، ووصف نفسه بالرحمن بعد ذكر ربوبيته؛ من أجل أن يُحفز الخلق إلى أن يدعوه ويقتربوا منه، وهو الاسم المقابل لاسم الذات الإلهية، **كما قال**: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾[الإسراء:١١٠]، ولكن لشدة الموقف وعظمته وجلال الله وجبروته؛ لا يقدر الخلق على مخاطبته أو التكلم بين يديه بحرفٍ واحدٍ يوم القيامة.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾، وفي ذلك اليوم يقوم جبريل والملائكة صافين بين يدي الله.

قال بعض أهل العلم: أن جبريل من عظمته يقف صفًا لوحده والملائكة يقفون صفًا آخر.

وقال آخرون: بل كل ملكٍ يقف صفًا بمفرده[2]، **كما قال**: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ

---

(١) ينظر: تفسير الرازي - مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ٢٣).

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ١٨٦).

﴿وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾[الفجر:٢٢]، **أي:** واقفين صفوفًا لعظمة الله، فالله سبحانه وتعالى، والملائكة مع عظمتهم وقربهم من الله إلا أنهم مع ذلك ممنوعون من الكلام من شدة الموقف وهيبته وعظمته، ولا يتكلم إلا من أذن له الرحمن، وكان ما يقوله صوابًا، وتكرر اسم الرحمن هنا؛ لعظمة الموقف وما فيه من المهابة والجلال والخوف، مما يجعل النفوس تخاف وترتعب؛ فأبرز لهم اسمه الرحمن لتهدأ نفوسهم، وأن من رحمته أن يأْذن لمن شاء منهم بالكلام.

ثم قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩﴾، عبر بذلك، للتعظيم والتهويل، واليوم هو يوم القيامة، والوقوف بين يدي الله، وسيكون بتلك المهابة، ووصف اليوم بالحق، لتحققه؛ أو لأنه فيه يُحق الحق، ويُبطل الباطل؛ أو لأن الله الحق ينفرد فيه بالملك والفصل والحساب بين الناس، وكلها معانٍ متسقة لا تعارض بينها.

وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾، **أي:** يتعرف على الطرق التي تُوصله إلى الله وتُرجعه إليه رجوعًا حسنًا، وهو ما زال في الدنيا، فالناس كلهم سيرجعون إلى الله، ولكن فرق بين أن ترجع إلى الله صالحًا مستقيمًا مُستعدًا لملاقاته، وبين أن ترجع إلى الله وتتمنى أنك ما بُعثت ولا كُنت إنسانًا بل كنت ذرةً من التراب، **والمآب هنا هو:** المرجع، وأضاف المشيئة إلى العبد، وهي قدرته على الاختيار، فمن اختار طريق الهداية، منحه الله التوفيق والتسديد.

ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾، أخبر الله الخلق بهذه التفاصيل عن يوم القيامة

وما يجري فيه، ومع ذلك استمر بعضهم في الكفر وعدم الإيمان، فأنذرهم الله العذاب القريب، ووصف بالقريب؛ لأن كل آتٍ فهو قريب، ثم بيّن أن كل مكلفٍ يجب عليه أن يُحاسب نفسه، ويُراجعها في الدنيا، وينظر ما الذي قدّمت يداه من خيرٍ أو شرٍ، ويداه: هي إحدى جوارحه، وإنما عبّر باليدين لأن كثيراً من الأعمال تُنفذ باليدين، أو هو من التعبير بالجزء الذي يقصد به الكل، والمعنى: افعلوا ذلك في الدنيا قبل أن تفعلوا ذلك يوم القيامة، لأن كل واحدٍ ينظر في ذلك اليوم ما قدمته يداه في صحيفته.

وقال بعض أهل العلم: أن هذا الخطاب مُوجهٌ للمؤمن(١)، أما الكافر فقد علم أن ليس لديه شيءٌ، ولكن المؤمن ينتظر ربما حسناته زادت أم نقصت، والأول أرجح، وفي هذا اليوم تُنشر الصحف وتُجرى الموازين ويُعرف المحق من المبطل، وعندما يستيقن الكافر أنه هالكٌ يتمنى أن يعود تُرابًا، **وقد جاء في الحديث**: **"إذا كان يوم القيامة يحشر الله شاتين: أحدهما: جلحاء أي: بدون قرون، والثانية: قرناء، فيقول للجلحاء: اقتصي من القرناء؛ لأنها نطحتك ذات يومٍ في المرعى، فتنطحها ثم يقول لهما كوني ترابًا"**(٢)، فإذا نظر الكافر إلى هذا الموقف: تمنى أن يكون ترابًا، وهذا نموذجٌ لإقامة العدل، وإلا فالحيوانات ليست مكلفة، ولا تُحاسب في الآخرة، **وقيل**: إن الكافر يتمنى أن لا يُبعث، وأن يبقى ترابًا في القبر كما كان، لما يجد من عدل الله وحسابه، **وقيل**: إن الكافر

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٤/ ١٧٩، ١٨٠).

(٢) ورواه مسلم، برقم: (٢٥٨٢)، (٤/ ١٩٩٧)، مختصراً.

المقصود به هنا إبليس[1]؛ لأنه لما يرى عدل الله وفوز بني آدم المؤمنين؛ يتمنى أن يكون ترابًا، **أي:** مخلوقا من التراب؛ لأن سبب كفره أنه اعتدَ بأصل خلقه، واحتقر التراب الذي خُلق منه آدم، **كما في قوله:** ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينًا ﴾، [لإسراء:٦١]، والراجح الأول للسياق.

وبهذا خُتمت سورة النبأ، حيث افتُتحت بالحديث عن التساؤل عن النبأ العظيم الذي قيل إنه البعث، وخُتمت بالحديث عن البعث والجزاء، فخُتمت بما فُتحت به.

فوائد وهدايات من السورة:

١- كثرة نعم الله على عباده تستوجب شكره وعبادته.

٢- أن الطغيان سببٌ لدخول النار.

٣- زيادة العذاب على الكفار بسبب كفرهم وقبائح أعمالهم.

٤- تعداد نعم الله في الجنة ليتشوق إليها المؤمنون ويستعدوا لها بالعمل الصالح.

٥- عظمة وهيبة الوقوف بين يدي الله، فالجميع صامتٌ لا يتكلم.

٦- دقة عدل الله في الآخرة، وتمني الكافر لو لم يُبعث وكان ترابًا حتى لا يُعذّب.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي: (١٩/ ١٨٩).

تفسير سورة النازعات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا (١) وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا (٢) وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا (٣) فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا
(٤) فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا (٥) يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ (٦) تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ (٨)
أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ (٩) يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ (١١)
قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ (١٣) فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ (١٤) هَلۡ أَتَىٰكَ
حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (١٥) إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (١٧) فَقُلۡ هَل لَّكَ
إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ (١٩) فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ
أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ (٢٥) إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ (٢٦) ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغۡطَشَ
لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا (٣١) وَٱلۡجِبَالَ
أَرۡسَىٰهَا (٣٢) مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ (٣٣) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ (٣٤) يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا
سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ
ٱلۡمَأۡوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ (٤١)
يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ (٤٤) إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ
مَن يَخۡشَىٰهَا (٤٥) كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا (٤٦)﴾.

شخصية السورة:

سورة النازعات، سورةٌ مكيةٌ(١)، ومقصدها العام الحديث عن البعث وإثباته، والرد على المنكرين له، من خلال عرض مشاهد القيامة، والبعث والنشور، وضرب مثالٍ لأحد المكذبين بالعبث وكيف أهلكه الله، **وقد احتوت السورة على خمس فقرات:**

الفقرة الأولى: بدأ فيها القسم على البعث وما يجري فيه، **فقال:** ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾، الواو حرف قسمٍ، **والنازعات:** هي: ملائكة العذاب المكلفون بنزع أرواح الكفار عند الموت نزعًا شديدًا، **وغرقًا؛ أي:** إغراقًا، **أي:** بشدةٍ وقوةٍ وجهدٍ، **وجاء في حديث البراء بن عازب** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن روح الكافر تخاف فتشتت في جسده، فتُسحب منه سحبًا(٢).

وقوله: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢﴾، **الناشطات:** هي: ملائكة الرحمة التي تنشَط أرواح المؤمنين، **أي:** تأخذها بسلاسةٍ وهدوءٍ، **فالنشْطُ:** إخراج الشيء بهدوءٍ، **وفي حديث البراء السابق:** **"أن روح المؤمن تخرج منه كما تسيلُ القطرة من فم السقاء"**.

وقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣﴾، وهي الملائكة التي تسبح بالأرواح وتصعد بها إلى السماء.

---

(١) **وتسمى سورة الساهرة والطامة**، وهي مكية بالاتفاق، وعدد آياتها ست وأربعون في الكوفي وخمس وأربعون في غيره. ينظر: روح المعاني، للألوسي (١٥/ ٢٢٣).

(٢) رواه أحمد: (٤/ ٢٨٧) رقم الحديث (١٨٧٣٣)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (١/ ٨٥) رقم الحديث (١٠٧).

وقوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾، وهي الملائكة التي تسبق إما بالعمل الصالح أو تسبق في نزع الأرواح أو تسبق بطاعة الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥﴾، وهي الملائكة التي يُكلِّفُها الله بتدبير أعمال الخلق، بأمر الله سبحانه وتعالى، وهذا قول الجمهور في تفسير هذه الخمسة، وهي أنها تعود كلها على الملائكة، وقيل: تعود على الكواكب، وأنها خمسة أنواعٍ[1]، **والراجح** قول الجمهور، ولم يذكر جواب القسم، **ويمكن تقديره من السياق بعده:** لتُبعثُن، ثم ذكر متى يكون البعث، **فقال:** ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦﴾، **والراجفة؛** هي: الصيحة التي لها صوتٌ عظيمٌ، أو الهزة والحركة والاضطراب الذي يحصل للأرض، وكلاهما يحصل يوم القيامة، فتحصل الهزة وتضطرب الأرض، ويحصل الصوت القوي بواسطة النفخ بالصور بالنفخة الأولى[2].

وقوله: ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧﴾، **أي:** يأتي بعد الراجفة الرادفة، من أردفت الشيء إذا جعلته خلفك، وهي النفخة الثانية بالصور؛ التي يبعث الناس بها.

وقوله: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨﴾، **أي:** يُحشر الناس بقلوبٍ مضطربةٍ خائفةٍ، وهذا يدل على شدة خوفهم، فالخائف تكون حركة القلب لديه شديدة وسريعة.

وقوله: ﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩﴾، **أي:** أبصار أصحاب القلوب المضطربة، ذليلة حقيرة في ذلك الموقف.

---

(١) ينظر: فتح القدير، للشوكاني (٥/ ٤٤٩).

(٢) روى حديث النفخ في الصور البيهقي في كتابه البعث والنشور (٣٣٦) حديث رقم (٦٠٩)، منْ حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠﴾، **أي:** يتساءل هؤلاء الكفار، وهم بهذه الحال، هل سنعود مرةً جديدةً إلى الحالة السابقة؟!، والحافرة المقصود بها الحالة السابقة، من عاد السابق إلى حافرته، إذا عاد إلى أصله، والمعنى: هل سنعود أحياءً؟!.

وقوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١﴾، فكيف ستعود لنا حياةٌ جديدةٌ بعد أن كنا عظامًا باليةً؟!!.

وقوله: ﴿قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾، **أي:** إن حصل ذلك، وبُعثنا بعد الموت، وحاسبنا الله على أعمالنا في الدنيا؛ فسنكون من الخاسرين، فالفوز بالنسبة لهم أن يظلوا عظامًا نخرةً، بدون بعثٍ ولا حسابٍ ولا عقابٍ!!، **فرد الله عليهم ذلك، بقوله:** ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾، ما استبعدتموه من عودتكم إلى الحياة، وبعثكم بعد أن كنتم عظامًا نخرة، هو بالنسبة لله سبحانه وتعالى لا شيء، بل بصيحةٍ واحدةٍ، وهي النفخة الثانية في الصور الذي ينفخ فيه إسرافيل؛ فتبعثون جميعًا، وتكونون في أرض المحشر، والساهرة هي: الأرض المستوية البيضاء، ويقال أرضٌ ساهرةٌ، **أي:** سريعة النبات، كأنها سهرت بالنبات، وسميت بهذا الاسم؛ إما لسرعة بعثهم منها وظهورهم على سطحها وكأنهم نبتوا منها، أو لشدة خوف من في المحشر، فلا يقترب من عيونهم النوم ولا النعاس، فيظلون ساهرين[1] لوقتٍ طويلٍ حتى تكون الشفاعة العظمى من رسول الله ﷺ، إلى ربه للفصل بينهم.!!

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (١٩/ ٢٠٠).

ثم جاءت الفقرة الثانية من السورة للحديث عن فرعون وما وقع له بسبب تكذيبه لموسى، والمناسبة في ذكر قصة فرعون هنا، هي: أن يُسلّيَ على رسول الله ﷺ وأصحابه، وكأنه يقول له: لست يا محمد أول من كُذِّب من الرسل، وليس قومُك أول قومٍ كذبوا الرسل، فقد سبقهم فرعون وقومُه، وفي ذلك أيضًا إشارة إلى أن عاقبة المكذبين الهلاك، فهي تسليةٌ للرسول ﷺ وأصحابه من جهةٍ وهي أيضًا تهديدٌ ووعيدٌ لقريش والمكذبين من قومِه من جهةٍ أخرى، **فقال سبحانه وتعالى:** ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥﴾، **هل** للاستفهام، والمخاطَب فيها محمدٌ ﷺ، فإن كان لم يأتِه الخبر من قبل فمعناهُ: سنُخبرك، وإن كان قد أُخبرَ من قبل، فمعناه: هل تذكّر قصة موسى لما ذهب إلى فرعون؛ ليكون ذلك تسلية له، ويكونُ لقومِك العظة والعبرة منها، وتسمى القصة حديثًا أو خبرًا، **ثم بدأ بيان ذلك، فقال:** ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٦﴾، وقد تكررت قصة موسى مع فرعون في أكثر من سورةٍ، وهنا أُوجِز الخبر عنها، وفصّله في سورٍ أخرى، فبعد أن مكث موسى في مديَن عشرَ سنين ورجع بأهله إلى الشام، فلما وصل إلى جوارِ جبلِ الطور في وادٍ يُسمى وادي طُوى، **ناداه اللهُ سبحانه وتعالى بقوله:** ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾[طه:١٤]، **والوادي المقدّس هو:** المطهر، المنزّه، وطُوى بدلًا عن الوادي، فهو اسمه، **وكان مما ناداه الله به أن قال له:** ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧﴾، اذهب يا موسى إلى فرعون رسولاً إليه، وجرى في تفاصيل القصة في سُورٍ أخرى أن موسى سأل الله أن يضُم إليه أخاه هارون، **فأجابه، فقال:** ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ [طه:٤٣]، اذهب يا موسى ومعك هارون إلى فرعون وقومه، لأنه إذا آمن فرعون

فسيُؤمن قومُه، وبيّن له سبب إرساله إليه، وهو الطغيان، وهو: تجاوز الحدود سواءً فيما يتعلق بالله سبحانه وتعالى حيث كفر به وأنكره وادّعى أنه الإله وأنه الرب، وطغى فيما يتعلق بحقوق الخلق؛ فتجاوز الحدود في الظلم والإفساد والأذية لعباد الله.

وأمر الله موسى أن يخاطب فرعون بقوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨﴾، **أي:** هل لك رغبة في أن تُطهر نفسَك، فالتزكية هنا بمعنى التطهير، وهو إزالة القبائح وإزالة الشوائب الزائدة الخارجة عن الحد حتى تنمو النفس نموًا صحيحًا معتدلًا، **والمعنى:** فهل لك يا فرعون إلى أن تُطهر نفسك من طغيانك في حق الله أولًا ثم في حق الخلق ثانيًا، فأرشد الله موسى إلى الأسلوب المناسب لدعوة فرعون، وليكُن قولُه له على سبيل الحث والترغيب، فلا يأمره فينفُر، ولا يقسو عليه فيذهب، **كما في قوله:** ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾[طه:٤٤]، وهذا من الأساليب النافعة في إيصال الخير إلى الآخرين وسبب لقبولهم به؛ لأن الناس لا يُعجبُهم أن تأمرَهم وتنهاهم، ولكن يُعجبهم أن تُشير عليهم وتعرض عليهم الأمر على سبيل الاستشارة، أو على سبيل الحث، فيشعرون بأنك تحترمهم وتقدرهم، فهذا العرض الأول الذي أمر الله موسى أن يعرضَه على فرعون، وأردفه بعرضٍ ثانٍ، وهو قوله: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ۝١٩﴾، **أي:** وأدلك وأُعرفك على الله وما له من العظمة والجلال والمكانة، فإنك إن عرفت الله حقًا خشيتَه فعلًا، ولذلك قُدمت الهداية هنا على الخشية؛ لأن الخشية ثمرةٌ من ثمار الهداية، فإذا هُديت إلى معرفة الله كُنت أكثر خشية له، **ولذلك قيل:** أخشى الناس بالله أعرفُهم به،

وفي الحديث: **"أما إني أخشاكم لله وأتقاكم له"**(١)، لأنه أعلمنا بالله، **كما في الحديث:** **"أنا أعلمُكم بالله"**(٢)، والهداية هنا هداية الدلالة والإرشاد والبيان، هداية التعريف والتوضيح والإرشاد، وعبّر بالخشية وهي: خوفٌ منه مع تعظيمٍ له، فإذا خِفت من شيءٍ وأنت تُعظمُه في نفسِك فهي الخشية، ولذلك لا تقول: خشيتُ الكلب، لأنه لا يوجد تعظيمٌ للكلب في قلبك، وإنما قل: خِفتُ من الكلب، أما الله سبحانه وتعالى، فلأنه يُعظم في النفوس، فيُعبر عن الخوف منه بالخشية، وكلما كنت أكثر تعظيمًا لله كلما كنت أكثر خشيةً له، **كما قال الله:** ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر:٢٨]، وأتى بالفاء في فعل الخَشية التي تدل على التعقيب، ولم يقل: ثُم تخشى، أو وتخشى، ليبين سرعة تحقق الخشية من الله، بعد حصول الهداية مباشرة.

ثم قال سبحانه: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾، فذهب موسى إلى فرعون، فأراه الآية الكُبرى بعد أن جرى حوارٌ بينهما، **كما في قوله:** ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾[الشعراء:٣٠-٣٢]، **والآية الكبرى**؛ اختُلف في تفسيرها، **فقيل:** هي مُعجزة العصى(٣)، **وقيل:** المقصود بها اليد(٤)، **وقيل:** المقصود بها الآيتان معًا، وهذا قول جمهور

---

(١) رواه البخاري: (٧/ ٢) رقم الحديث (٥٠٦٣)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاري: (١/ ١٣) رقم الحديث (٢٠)، عَنْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢٠٢).

(٤) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج الجوزي (٤/ ٣٩٦).

المفسرين[١]، وهو الراجح؛ لأنهما تمّتا في آنٍ واحدٍ، والآية هنا بمعنى البينة أو المعجزة التي تدل على البرهان، والمقصود بها تحوُّل العصا إلى ثُعبانٍ، وخروج يده من جيبه بيضاء.

وقوله: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾، جاء بالفاء التي تدل على التعقيب وعدم وجود وقتٍ للتأمل في الطلب، فبمجرد أن عرض عليه الآيات، وقع منه التكذيب والعصيان، وهذا يدل على أن التكذيب شيءٌ والعصيان شيءٌ آخر، فالتكذيب المقصود به عدم قَبول الحُجة، وعدم الإيمان بالمعجزة، والعِصيان ناتجٌ من نواتج التكذيب أو ثمرة له، وهو التمرد والمخالفة، فلم يُؤمن بالمعجزة بل ردها، وعصى أمر الله سبحانه تعالى، وأمر رسوله موسى فلم يمتثل لهما.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾، وعبر بـ (ثم) التي تفيد التراخي، فقد رجَع إلى قومه وجمعَهم وتحدث معهم، **وأدبر بمعنى:** ذهَبَ باتجاهِ دبُره، والتفّ بوجهه عن موسى، والإدبار يأتي أيضاً بمعنى الإعراض، والحديث هنا عن الهيئة التي يتم فيها المشي، فأدبر الرجل إذا ولّى وتركك خلّف ظهرَه، وهو إشارةٌ إلى الإعراض وعدم القَبول، **ويسعى هنا بمعنى:** يجتهد في رد الحق، **والمعنى:** أعرض واجتهد بنشاطٍ وحيويةٍ وجِدٍ واجتهادٍ لإبطال الحق ورده.

وقوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾﴾، **أي:** فجمع قومه في مكانٍ واحدٍ، أو جمع مَن حولَه من الوزراء والكُبراء وصاح فيهم، **فالمناداة هي:** الصوت المرتفع، وهذا

---

(١) ينظر: المصدر السابق: (٤/ ٣٩٦).

يدل على الحالة النفسية التي كان عليها فرعون أثناء هذا الاجتماع، فقد جمع الحاشية وبدأ يصرخ ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾، أي: لا تُصدقوا موسى فيما يقوله لكم من وجود ربٍ غيري، وأن الحل هو في مجابهته والكفر به، باعتبار أن فرعون هو الإله وهو الرب الأعلى لهم.

فقال الله سبحانه وتعالى ردًا على تصرفه هذا: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾، **أي**: فأهلكه الله بسبب كُفره وتكذيبه وبادّعائه أنه الرب الأعلى الذي لا أحد فوقه، وجاء هنا بالفاء التي تفيد التعقيب، مع أن فرعون مكث سنواتٍ يُؤذي موسى وقومَه وما أُخذ إلا في نهاية المطاف، ليدل على تحقق وعد الله، ولو طال الزمن، **والتنكيل معناه**: لم يترك له أثرًا، **وللمفسرين في معنى الآخرة والأولى، عدة أقوالٌ**[(١)]، **فقيل**: إن المقصود عذاب الدنيا والآخرة، وقيل: أن المقصود بالآخرة والأولى هما العبارتان القبيحتان التي نطق بهما في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، **وقوله**: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾[القصص:٣٨]، فادّعى الربوبية والألوهية، فأخذه الله نكالًا بسبب هاتين الكلمتين، **وقيل**: بسبب الطغيان، والتكذيب، فأخذه الله نكالَ الطغيان ونكال التكذيب، والأول أرجح، ولا يمنع أن تكون الثلاثة الأقوال دائرةً في فَلَكٍ واحدٍ، فلا تعارُض بينها، فأهلكه الله بسببها جميعًا، وأن هذا التنكيل حاصلٌ له في الدنيا والآخرة، ثم ختَم الله هذه القصة، بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦﴾، **أي**: إن في قصة فرعون وهلاكِه وتنكيل الله به؛ بسبب كبريائه وطغيانه لعِظة، يتَّعظُ بها من يخاف الله ويُعظمُه،

(١) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٤/ ٢٠٣ و٢٠٤ و٢٠٥).

وهذا هو الهدف من ذكر القَصص السابقة؛ كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[يوسف:١١١]، **والمعنى**: هذا فرعون كان أكثر منكم مُلكًا، وسلطانًا وأتباعًا، ومع ذلك أهلكه الله بسبب كفره وطغيانه، فكيف بحالِكم أيها الأعراب الذين لا سُلطان لكم ولا مُلك؟!!، فاعتبروا بهلاك فرعون لأنه كذّب موسى.!!

ثم جاء الحديث في الفقرة الثالثة من السورة لبيان عظَمة الله وقدرته، فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾، الخطاب لمنكري البعث، مَن أعظم خلقًا، أنتم أيها الناس أم السماء؟! **والجواب**: واضحٌ، فما نحن إلا خلقٌ ضعيفٌ جدًا في مقابل هذا الخلق العظيم، فالسماء عظيمةٌ من حيث الخلْق والبناء.

وقوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾، السماكة من الأدنى إلى الأعلى، فكلما ارتفع يُسمى سَماكة، ومن الأعلى إلى الأدنى يُسمى عُمق؛ فرفع بناء السماء حتى صارت على شكل قُبةٍ فوق والأجرام السماوية الأخرى، فسوّى خلْقها بحيث أنه لا يوجد فيها خللٌ، ولا فُطورٌ، بل أبدع خلقها، **كما قال**: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[البقرة:١١٧]، وخلقها بدون أعمدةٍ، **كما قال**: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، [لقمان:١٠]، والتسوية هي أن يصير الخلْق في أحسن صورةٍ، **ثم قال**: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾، **أي**: أظلم ليل السماء بغروب الشمس عنها، وأظهر ضوئها بشروق الشمس عليها، وأضاف الظلمة والضوء إلى السماء لأنهما يظهران من جانب السماء عند طلوع الشمس وغروبها، وفي هاتين العبارتين إشارة إلى عظمة خلْقِ الشمس المرتبطة بالجُرم السماوي والتي بها يتمُ الليل

والنهار، **ثم قال:** ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾، **أي:** بعد أن خلقُ الله السماء، دحى الأرض، **أي:** بسطها، ولا يعني هذا أن الأرض خُلقت بعد السماء، وإنما الدحو الذي تم بعد خلق السماء، وإلا من حيث الترتيب فإنه خلق الأرض أولاً، ثم خلق السماء، ثم عاد فدحا الأرض.

وقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾، وهذا أيضًا أحد تفاسير الدحو، والمعنى: مهّدها وجعلها صالحةً للحياة، والحياة لا تصلُح فيها إلا بوجودِ الماء **كما قال:** ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[الأنبياء:٣٠]، وبوجود الماء تصلح التربة ومن خلالِه يتم الإنبات في الأرض، فيخرج الزرع، ونسب الماء إلى الأرض، لبيان أنه يكفيها، **ومرعاها، أي:** ما يحتاجُ إليه سكانُها من الطعام، سواءً كان ذلك للبشر أو الحيوان.

ثم قال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾، خلقَ الله الجبال من أجل أن ترسوَ الأرض وتستقر، **كما قال:** ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[النبأ:٧]، فالوتد هو الذي يقبِض الخيمة من الاضطراب، فهكذا الجبل يجعل الأرض راسيةً أي مُستقرة غير مُضطربة.

وقوله: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾، هذا الذي فعله الله تعالى من خلق السماء وبناها وإيجاد الليل والنهار ودحو الأرض وإخراج الماء والمرعى وجعل الأرض مستقرة بالجبال؛ الهدف منه أن تستمتع به أنت أيها الإنسان، وعبّر عن هذه النعم كلها بالمتاع، **أي:** الذي يزول بسرعة، وفيه إشارةٌ إلى حقارة هذه الدنيا، فمهما عظُمت وكبُرت، فهي متاعٌ زائلٌ، سنتركُها ونذهب عنها، والآخرة خيرٌ وأبقى.!

ثم جاء الحديث في الفقرة الرابعة من السورة، عن يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤﴾، **والطامة الكُبرى هي:** يوم القيامة، **أي:** بعد النفخة الثانية؛ لأن ما بعدها يدل عليها.

وقوله: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥﴾، **أي:** بعد بعثه ووقوفه في أرض المحشر، يبدأ الإنسان بالتذكر لأعماله التي عملها في الدنيا؛ ليبحث لنفسه عن مخرجٍ من هذا المأزق!!.

ثم قال: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦﴾، فالنار تُبرَز وتظهر، أمام الخلق في يوم القيامة، **وفي الحديث:** "**يؤتى بجنهم يوم القيامة لها سبعون ألف زمامٍ في كل زمامٍ سبعون ألف مَلَكٍ يجرونها**"[(١)]، **أي:** يُحضرونها إلى ساحة المحشر، فيراها الناس أجمعون المؤمن والكافر، **ثم يحاسب الناس فينقسمون إلى فريقين:** ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩﴾، **فهذا الفريق الأول** وهو الطاغي الباغي المفسد في الأرض، الذي قدم الحياة الدنيا على الآخرة، واستمتع بما أعطاه الله من نعمٍ في معصية الله تعالى، فمصيره ومرجعه إلى جهنم، فهي مُستقره ومرجِعُه ومكانه.

ثم قال: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾، **وهذا الفريق الثاني**، الذي خاف لقاء الله في الدنيا واستعد له بالأعمال الصالحة، ونهى نفسه عن اتباع هواها ومنعها من شهواتها التي لا ترضي الله سبحانه، فالجنة هي مصيرُه ومكانُه الذي يأوي إليه.

---

(١) رواه مسلم: (٨/ ١٤٩) برقم: (٧٣٤٣)، عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم خُتمت السورة في الفقرة الخامسة منها بالحديث عن الساعة، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢﴾، يسألونك، هؤلاء يا محمد، المكذبون بالساعة، وهو سؤال استفزازٍ واستهزاءٍ منهم؛ لأنهم لا يُؤمنون بالبعث والنشور، فيقولون لك: متى تقوم الساعة وتحدُث؟!! **فكان الجواب له:** ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾، أي لا علم لك بموعدها، بل هي غيب، منتهى علمها إلى الله سبحانه وتعالى، ولم يُعطِ هذا العلم لأحدٍ من الخلق، والفائدة من إخفاء موعد الساعة هو: أن يظلوا مستعدين لها، ولكنه سبحانه وتعالى أعطى علاماتٍ لها، فمنها علامات كبرى، ومنها علامات صُغرى، تنبيهًا للناس إلى قربها، ولو وقفت على ﴿فِيمَ﴾، ثم استأنفت القراءة بقوله: ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣﴾، **فالمعنى:** أنت يا محمد من علامات الساعة الصُغرى، **وهذا موافقٌ لقوله** ﷺ: "**بُعثتُ أنا والساعة كهاتين**"[١]، **فبعثته** ﷺ من علامات الساعة الصغرى.

ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾، **أي:** إن مهمتك هي الإنذار للناس أن يخشوا قيام الساعة والوقوف بين يدي الله؛ فيستعدوا لذلك بالطاعة والإيمان والعمل الصالح، وليس من مهمتك إخبارهم بموعد قيام الساعة فهذا غيبٌ لا تعلمه.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾، **أي:** عندما يرى هؤلاء المكذبون تحقق قيام الساعة، ينسون مُدة حياتهم في الدنيا،

(١) رواه البخاري: (٨/ ١٣٢)، برقم: (٦٥٠٥)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ورواه مسلم، (٨/ ٢٠٨)، برقم: (٧٥٩٣)، عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ولا يذكرون منها إلا مقدار ليلةٍ أو مقدار ضُحى ليلةٍ، فحياتهم كلها كانت يومًا أو ليلة، وقد جاء في آية أُخرى تقدير حياتهم بأقل من ذلك، **كما قال**: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[الروم:٥٥]، **يعني**: غير لحظةٍ من الزمن، وهذا يدل على حقارة الدنيا، وأنها تُنسى بمجرد قيام الساعة.!!

فوائد وهدايات من السورة:

١- أن قبض روح الكافر يكون بشدةٍ وعنفٍ، بينما تُقبض روح المؤمن برفقٍ ولينٍ.

٢- أن الله سبحانه وتعالى ذكر لنا حال قلوب الكفار وأبصارهم يوم القيامة تنبيهًا لنا على شدة ذلك الموقف حتى يستعد له المؤمن من الآن.

٣- وجوبُ الرفق في الدعوة إلى الله، فقد أمر الله موسى وهارون بالرفق بفرعون مع فجوره وطغيانه، فكيف بمن هو دونَه!

٤- عقاب الفُجار وهلاك الظالمين عبرة للمُعتبرين ممن أتى بعدهم.

٥- الخوف من الله وكف النفس عن الهوى من أسباب دخول الجنة، والطغيان والانهماك في الدنيا من أسباب الوقوع في النار.

٦- علم الساعة من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

تفسير سورة عبس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ (٢) وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ
(٤) أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ (٨) وَهُوَ
يَخۡشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ (١٣) مَّرۡفُوعَةٖ
مُّطَهَّرَةِۭ (١٤) بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ (١٥) كِرَامِۭ بَرَرَةٖ (١٦) قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ (١٧) مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطۡفَةٍ
خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ
أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا (٢٥) ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا (٢٦) فَأَنۢبَتۡنَا
فِيهَا حَبّٗا (٢٧) وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا (٢٨) وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا (٣٠) وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا (٣١) مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ
وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ (٣٢) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ
(٣٦) لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ (٣٧) وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ (٣٨) ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ (٣٩) وَوُجُوهٞ
يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ (٤٠) تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ (٤٢)﴾.

شخصية السورة:

سورة عبس(١)؛ سورةٌ مكيةٌ بالإجماع(٢)، وهي من أوائل ما أُنزل بمكة،

---

(١) **وتسمى سورة** الصاخة، وسورة السفرة، **وسميت في غير كتاب** سورة الأعمى، وآياتها اثنتان وأربعون في الحجازي والكوفي، وإحدى وأربعون في البصري، وأربعون في الشامي والمدني، ينظر: روح المعاني، للألوسي (١٥/ ٢٤١).

(٢) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج الجوزي (٤/ ٣٩٩)، وروح المعاني، للألوسي: (١٥/ ٢٤١)، =

والمقصد الأعظم لهذه السورة: بيان حقيقة دعوة الإسلام والقرآن ومكانتهما وعُلو مقامهما عند الله سبحانه وتعالى، وعلو مقام من اهتدى بهما، وحقارة من أعرض عنهما.

وقد ورد في سبب نزول مقدمة السورة، أن النبي ﷺ، في ذات يومٍ كان مشغولًا بدعوة كُبراء قريش لإقناعهم بالإسلام وهدايتهم إلى الإيمان، وبينما هو مشغولٌ بحوارهم ونقاشهم وإقناعهم إذ جاءه عبد الله بن أم مكتوم، وكان رجلًا أعمى، وكان قد أسلم، جاءه ليسأله عن بعض مسائل العلم، وكأنه قطع عليه مهمته وشغله عن تلك الغاية والهدف الذي كان يُريد أن يُحققها مع هؤلاء القوم، فقطَّب النبي ﷺ، وجهه، وأعرض عن إجابة سؤال الأعمى، واستمر في دعوة كُبراء قريش، فعاتبه الله تعالى في ذلك، فأنزل هذه الآيات(١).

قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾﴾، **أي:** قطب جبينه، وأعرض بوجهه عن رجلٍ أعمى، وهو عبد الله بن أم مكتوم، جاءه يسأله عن بعض أمور دينه، في وقتٍ كان رسول الله ﷺ مشغولاً بغيره من كبار كفار قريش، وهو عتابٌ لرسول الله، ﷺ، في صورة خبرٍ، ما هي الحكمة من هذا العتاب؟!

الجواب: حينما تنظر إلى الموقف مجردًا عن مُلابساتِهِ تقول: كان بإمكان ابن أم مكتوم أن ينتظر، **ولعل قائلاً يقول:** هو رجلٌ أعمى لم ير أن حول النبي، ﷺ، أحداً، **والجواب:** صحيحٌ أنه أعمى، لكنه ليس أصمًا، فلا شك أنه كان قد سمع

= وتفسير القرطبي (١٩/ ٢١١).

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٨/ ٣١٩)، والمحرر الوجيز، لابن عطية(٥/ ٤٣٦).

الحوار بينهم، فعلم انشغال النبي، ﷺ بهم؛ فكان الأولى به أن لا يُحرج رسول الله ﷺ بهذا الموقف، غير أن القرآن الكريم كان يتنزل ليُقيم موازين جديدةً تختلف عن موازين الأرض، وهذا الحدث من أعظم الأدلة التي يستدل بها المؤمنون في مُحاجة الملحدين الذين يُنكرون أن القرآن من عند الله، ويقولون: أنه من عند محمدٍ، ﷺ، فيُقال لهم: لو كان من عند محمدٍ، ﷺ؛ لما عاتب نفسه، وهُناك آياتٌ كثيرةٌ في عتاب الله له قد جمعها أحدُهم في رسالةٍ[١] ومنها هذه الآية.

فما هي الموازين التي أراد الإسلام أن يُقيمَها في الناس في أول ظهوره، غير الموازين الأرضية التي اعتادت عليها جماعات الناس وارتبطت بواقعهم؟!

الجواب: ميزانان؛ الميزان الأول: ميزان التقوى، **كما قال:** ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[الحجرات:١٣]، فهذا الميزان يحتاج إليه العرب؛ لأنهم كانوا يفرقون بين الناس بموازين أخرى: بمستواهم الاقتصادي، بمستواهم الاجتماعي، بلون بشرتهم، بأنسابهم، ولا شك أن الغني وصاحب الوجاهة له مكانة بسبب هذه الموازين البشرية، فإذا أسلم؛ أسلم من وراءه، وكان النبي ﷺ حريصٌ على أن يُسلم كبراء القوم؛ فيُسلم من وراءهم، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد بهذه الحادثة أن يقيم ميزان التقوى، فلا فرق بين هذا الأعمى الضعيف، وبين هؤلاء الكبراء من صناديد القوم عند الله إلا بالتقوى والعمل الصالح.

---

(١) ينظر: كتاب: "عتاب الرسول ﷺ في القرآن تحليل وتوجيه" للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق.

الميزان الثاني: ميزان الرغبة والإقبال، فهناك فرقٌ بين مَن أقبل عليك راغبًا في الخير، قد هيأ نفسه للاستفادة، وبين من أدبر عنك، واستغنى ولا يُريد أن يستمع إليك، فابنُ أم مكتوم من النوع الأول، جاء راغبًا طالبًا مُستعدًا قد تهيأت نفسُه للتعلم والتذكرة، وهؤلاء القوم الذين تحرص عليهم، مُعرضون مُستغنون، غير مستعدين لاستقبال النصيحة والدعوة، فمن هو الأولى بالاهتمام؟!! لا شك ولا ريب أن الأولى هو الأول، وهذه قاعدةٌ مطّردةٌ، لا تختص بالنبي ﷺ، بل تعُم كل معلمٍ وداعيةٍ ومُرشدٍ، فعليه أن يعتني ويهتم بالذين يُقبلون عليه، ونُفوسُهم مهيأةٌ للسماع وقبول النصيحة، ومحتاجون إلى التعلم، فهؤلاء هم الذين سيستفيدون من الدعوة، وستُثمر فيهم، وأما المعرضون؛ فقد يضيعُ الوقت في إقناعهم، وكلما ازداد الاهتمام بهم؛ ظنوا أنهم هم عمود الإسلام، وأن الإسلام لا يقوم إلا بهم؛ فازدادوا عتوًا ونفورًا، وفي ذلك فائدةٌ تربويةٌ عظيمةٌ لمن يشتغل بالدعوة إلى الله وتعليم الناس، وعليه أن ينتبه لهذا الملحظ، وأن يعتني ويهتم بمن أقبل لسماع النصح والتوجيه، وألا يشغل نفسه بالمعرضين إلا على سبيل البلاغ والتذكرة.!!

وقد جاء العتاب من الله إلى رسوله في هذه السورة على سبيل الحكاية، وهذا من تكريم الله ورحمته بهذا الأعمى، وإلا فالنبي، ﷺ، لما عبسَ وأعرض، ربما لم يشعر به الأعمى؛ لكن إن كان ابنُ أم مكتوم لم يرَ؛ فالله يرى، ومن كان حوله قد رأوا!!، ولا شك ولا ريب أن ما فعله النبي، ﷺ، مع قريش كان اجتهاداً منه، والنبي ﷺ، له أن يجتهد فقد بلغ رتبة الاجتهاد في العلم، فإن أقره الوحي صار

اجتهادُه وحيًا، وإن أنكر عليه الوحي صار اجتهاده عملاً بشريًا، وليس بالضرورة أن يكون هذا الاجتهاد خطأً محضًا، فقد يكون ما فعله النبي، ﷺ، مخالفة للأولى، فالأولى هو العناية والاهتمام بالمقبلين الراغبين، مهما كان حالهم ومُستواهم الاجتماعي، ولكن النبي، ﷺ، كان حريصًا على إسلام قادة المشركين؛ فلو أسلم واحدٌ منهم سيُسلم من بعده؛ باعتبار أن لهم مكانة وطاعة عند أقوامهم.

ثم كان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرم عبد الله ابن أم مكتوم(١)، وكان **إذا رآه** يقول: "**مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي**"(٢)، وكان يستخلفه على المدينة عند خروجه للغزو(٣).

ثم قال الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ، وهو يُحدثه عن تفاصيل هذا العتاب: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾، ما يُعلمك أيها الرسول لعل هذا الأعمى الذي جاء إليك يريد أن يتطهر من ذنوبه بسبب سؤاله لك وجوابك عليه ونصيحتك له، أو يتعظ بما يسمعه منك من مواعظ، فينفعه ذلك في الدنيا والآخرة، وهذا هو الهدف من بعثة الرسل، أن يتطهر الناس من ذنوبهم، ويتعظوا ويُصلحوا أحوالهم.!!

ثم قال: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾﴾، أما الذي

(١) ينظر: الطبري في "جامع البيان" ٣٠/ ٥١ عن ابن عباس.
(٢) ينظر: القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" ١٩/ ٢١٠ - ٢١١، عن الثوري.
(٣) ينظر: ابن سعد في "الطبقات" ٤/ ٢٠٥.

استغنى بماله، أو بجاهة، وأعرض عنك، وابتعد منك غير مُلتفتٍ إليك، فلم يأت ليسأل، ولا يُريد أن يستفيد، فأنت تتعرض له وتهتم به، وتلحق وراءه وتدعوه، وتُحاول إقناعه، وما عليك ألا يتطهر، فلا يضرك لو أنه ظل على ضلاله وانحرافه، ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾[فاطر:٢٣]، ولست مسؤولًا عن إدخال الحق إلى قلوب الخلق، فلا تنشغل بمن هذا حاله.!!

فكيف تنشغل بهذا الصنف عن الصنف الآخر، ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾، فمن جاءك مُجتهدًا راغبًا في الوصول إلى الحق الذي عندك، وهو يُعظّم الله، ويريد أن يعرف حق الله عليه؛ فاهتم به وأقبل عليه ولا تتشاغل عنه بهؤلاء الكفار من صناديد قريش المعرضين، وبهذه المقارنة يتضح لك الفرق بين من استغنى، وأنت تصدى له وتهتم به، وبين من جاءك يسعى، وأنت عنه تلهى وتنشغل عنه، وعلمنا بهذا مفهومًا جديدًا من مفاهيم الدعوة والتربية، وهو ضرورة الاهتمام بمن أقبل عليك، وتهيأت نفسُه للخير وقبول الحق، ومنه أيضًا استُنبطت قاعدةٌ معروفةٌ وهي: لا يُهتم بموهومٍ على حساب معلومٍ، فمن جاء طالبًا للعلم ومُهتمًا به، فهذا شيءٌ معلومٌ، والمعرض عنه؛ فقبولُه للعلم موهومٌ، فلا تترك المعلوم للموهوم، ولا تترك مصلحةً متيقنةً للبحث عن أخرى مُتوهمة.!!

ثم أخبر الله سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم تذكرة لكل الناس فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾، **كلا:** كلمة ردعٍ وزجرٍ لما سبق، **والمعنى:** لا يصلح ما سبق من تصرفٍ منك مع هذا الأعمى، وعليك أن تعتذر للأعمى، ولا تنشغل عنه، ولا

تشغل نفسك بمن أعرض عنك ولم يكن مستعدًا لقبول دعوتك، ثم بيّن أن هذه الرسالة تذكرة عامة، للفقراء والأغنياء، للكبراء ومن دونهم، فلا يُخصص بها أناسٌ دون أناسٍ.

ثم قال: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾، **أي:** فمن شاء اتعظ بالقرآن وقَبِله، لماذا في اللفظ الأول أتى بلفظةٍ مُؤنثةٍ، وفي اللفظ الثاني أتى بها مُذكرًا؟!، الجواب: في الأولى إخبارٌ عن ثمرة ووصف القرآن، فهو موعظةٌ وهو تذكرةٌ، وفي الثاني: إخبارٌ عن القرآن نفسه، **وقيل:** فمن شاء ذكره **أي:** الله[1].

ثم حدثنا عن هذا القرآن ومكانته الحسية والمعنوية، فقال: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣﴾، فهذا القرآن مكتوبٌ في صحفٍ شريفةٍ.

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤﴾، في مكانٍ عالٍ، وهي مُطهرةٌ لا تصل إليها النجاسات، ولا يُصيبُها الدنس.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥﴾، **السفرة** هنا المقصود بهم الملائكة، وسُمي الملائكة سفرة **لأحد سببين: إما سفرةٌ** بمعنى كتَبَة، ويُسمى الكاتب سافرًا؛ لأنه يُسفر عما في فؤاده من معلوماتٍ؛ فيضعها على الكتاب، **وإما سفَرةٌ، أي:** رُسلٌ بين الله وخلقه[2]، **ومنه** السفير، **ومنه** السّفر وهو الانتقال من مكانٍ إلى آخر، وكِلا المعنيين صالحان للفظ.

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢١٥).

(٢) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (٢٤/ ٢٢١، ٢٢٢).

ثـم وصـفهم الله بقولـه: ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾، **أي:** مُكـرّمين عنـد الله، **كمـا قـال:** ﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١﴾[الانفطار:١١]. **وبـررةٍ،** مـن الـبر، **أي:** كثـيري الطاعـة، وبهـذا انتهت الفقرة الأولى من السورة التي فيها عتابٌ لرسول الله ﷺ، وفيها بيانٌ للقرآن ومكانته، وأنه تذكرةٌ لكل الناس لا يختص بالأغنياء دون الفقراء، وأنه يجب أن تكون هذه القاعدة معلومة عند الجميع.!!

ثم جاءت الفقرة الثانية من السورة، تتحدث عن طبيعة الإنسان، قال الله: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾، **قُتِـلَ بمعنـى:** لُعِـن وأُبعِـد وطُـرِد مـن رحمـة الله، مـا المقصود بالإنسان؟ هو الكافر؛ **لأن الله قال:** ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾، **أي:** ما أشد كفره، ثـم بـدأ يعـظ هـذا الإنـسان الكـافر ويُـذكّره، **قـائلاً لـه:** لمـاذا تكفـر بـالله سـبحانه وتعالى؟! ولماذا تتكبر على الله؟! ألا تعلم ما هو أصلُك؟!، ومن أين خلقك الله؟! فلو تفكّرت في ذلك لعُدت إلى التواضع، ولما تكبرت.

وقولـه: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨﴾، لا شـك أن الإنـسان يعـرف مـن أي شـيءٍ خُلق، ولكنه أجابه هنا للتوكيد.

فقـال: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩﴾، فأنـت أيهـا الإنـسان المتكـبر المتغطـرس على الله، مخلوقٌ من نطفةٍ من ماءٍ مهينٍ، يخرج من مجرى البول، ويستقر في رحم المرأة ثم ينمو ويتطور بتقدير الله في أطواره المختلفة، وأزمنةٍ محددةٍ، فيكون نطفةً ثم علقةً ثم بعد ذلك مضغةً، ثم يُصبح إنسانًا كاملًا.

ثم قال: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠﴾، **في معناها قولان: القول الأول:** ثم يسّر له

سبيل الخروج من بطن أمه[(١)]، وهذه من آيات الله العظمى؛ فإن الطفل قد يكون في بطن أمه واقفًا، فإذا جاء وقت الولادة انقلب على رأسه، ثم حصل ارتخاءٌ في العضلات وفي الحوض، ويخرج هذا الطفل من مكانٍ ضيقٍ ثم يعود ويلتئم، فهذا من تيسير الله سبحانه وتعالى لهذا المخلوق، وإذا حصل نوعٌ من التعسير فما أمامهم إلا العمليات القيصرية، وكم هي نسبة العمليات القيصرية إلى تيسير الله سبحانه وتعالى لهذا المخلوق في أن يُولد طبيعيًا سواءً لهذا الإنسان أو في الحيوانات كما تشاهدون؟!!.

والقول الثاني: ثم بيّن له طريق الحق وطريق الضلال، ولم يتركه بدون إرسال الرسل ولا إنزال الكتب[(٢)]، **كما قال:** ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾[الإنسان:٣]، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾[البلد:١٠]، **أي:** بيّنا له طريق الخير وطريق الشر، ولا مانع أن يُجمع بين المعنيين لهذا اللفظ، فلا تعارض بينهما.

ثم قال: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾، **أي:** بعد أن يعيش عمره يُميته الله، وقد شرع له أن يُدفن؛ لأن لفظة أقبره غير لفظة قبره، **فأقبره بمعنى:** أذن بدفنه، أو شرع دفن الميت، **وأما قبره فمعناه:** دفنه، ولم يجعله كباقي الحيوانات التي تموت فتتحلل جيفتها في التراب، بل كرّم الله الإنسان وشرع دفن جثته.!!. **ثم قال:** ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾، **أي:** وبعد أن يقضي حياة البرزخ كلها، يأذن الله بالبعث والنشور، فيقوم هذا المخلوق مع غيره من الناس، ويُحشرون إلى الله سبحانه وتعالى.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥/ ٤٣٨).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج الجوزي (٤/ ٤٠٢).

ثم قال الله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُۥ ٢٣﴾، **كلا، بمعنى:** حقا، لم يقم هذا الكافر بتنفيذ وإنجاز أوامر الله وشرعه في الدنيا، ولم يعمل للغاية التي من أجلها خلقه الله، فلم يخلقه الله في بطن أمه أطوارًا، ثم يخرج ليأكل ويشرب ثم يموت، فهذه حياة الحيوانات التي لا تكاليف عليها، أما أنت أيها الإنسان فعليك أوامر ونواهٍ، لا بد أن تقوم بها على أكمل وجهٍ، فلماذا لم تقم بما أمرك الله من الأوامر والنواهي، وما السبب في ذلك؟!! إنه كفرُك وعنادُك، ولذا لعن الله أمثال هذا الكافر وطرده من رحمته.!!

ثم جاءت الفقرة الأخرى تتحدث عن قدرة الله العظيمة وأفعاله في الكون مخاطبًا هذا الإنسان، هل فكرت يومًا في كيفية صناعة طعامك، وكيفية وصوله إليك **فقال:** ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤﴾، **أي:** فليتفكر وليتأمل في طعامه، في كيفية تجهيز وإعداد وتهيئة الطعام له، فإن هذا الطعام يمر في أطوارٍ، **تبدأ بقوله:** ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ٢٥﴾، فأول طورٍ له هو إنزال المطر من السماء، متتابعًا وبقوةٍ من أجل أن يروي الأرض ويُحييها، فلو لم ينزل المطر لما نبت الحب ولا الزرع، فطعامك يبدأ من هذه الخطوة، فتأمل فيها.

واعلم أن الله سخر لك هذا الكون، وأنت مُعرِضٌ عن الإيمان به سبحانه.

ثم قال: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ٢٦﴾، فبعد نزول المطر تتشقق الأرض فينبت النبات، فلو بُذرت الحبة ولم تُسقَ بالماء، فلن تنشق الأرض عنها، ولن تنبت، **ولذا قال:** ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٧﴾، فإنبات الزروع الذي يثمر الحبوب، أثرٌ من آثار المطر وهو يشمل كل الحبوب.

ثم قال: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾، **أي:** وأنبتنا كذلك العنب، وهو نموذجٌ للفاكهة، وإنما أشار إليه هنا لمكانته عند العرب؛ فقد كانوا يصنعون منه الخمر، وذكر القضب؛ وهو نموذجٌ لما يقتاتُه الحيوان من الزرع والحشائش التي لا ساق لها ولا ثمر.

ثم قال: ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾، الزيتون معروفٌ ومنه يُستخرج الزيت الذي يؤدم به، والنخل معروفٌ وهو الذي يأتي بالتمر، وهل التمر فاكهةٌ أم قوتٌ؟ **قولان**[1] **للعلماء، والراجح** أنه قوتٌ عندما ييبس ولذلك تجب فيه الزكاة.

وقوله: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾، **الحدائق هي:** الأشجار الكثيفة الملتفة على بعض، **ثم قال:** ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾، وأنبت فواكه متنوعة غير ما سبق ذكره، والأبّ هو: الزرع الذي يأكله الحيوان؛ **لذلك قال:** ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾، فما سبق ذكره من النعم هو متاعٌ لكم ومتاعٌ لأنعامكم، وسماه متاعًا؛ لأنه بالنسبة للآخرة قليلٌ، وفيه إشارةٌ إلى أنه لا يدوم، وأن هذه الحياة زائلةٌ مهما كان فيها من النعم.

ثم ختم السورة بهذا المقطع الذي يتحدث عن القيامة وما يجري فيها، ووجه التناسب بين هذا المقطع والذي قبله؛ كأن الله سبحانه وتعالى، يشير إلى أن من هذه قدرته وعظمته في الكون؛ فهو القادر على البعث والنشور وعودةٍ للأرواح إلى الأجساد وإحيائها، **ولذا قال:** ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾﴾، **والمقصود بالصاخة:**

---

(١) ينظر: المغني لابن قدامة (٣/ ٣) وبداية المجتهد، لابن رشد (٢/ ١١).

النفخة الثانية من نفخات يوم القيامة، فإن النفخة الأولى يصير فيها الصعق والموت والهلاك للخلق أجمعين، ثم بعد ذلك -بما شاء الله من زمنٍ- يأمر الله إسرافيل فينفُخ النفخة الثانية، وهي نفخة البعث والنشور، وسُمِّيت بالصاخة؛ لأنها تصُخّ الآذان وتدفع الإنسان إلى سماعها رغم أنفه، ثم يأتي بعد الصاخة حشر الناس ووقوفهم بين يدي الله في عرصات القيامة؛ ثم بيّن حال الناس كيف تكون آنذاك.

فقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾، **أي**: في ذلك اليوم يهرب فيه الإنسان من أقرب الناس إليه، **وهم**: الأخ والأم والأب والزوجة والأبناء، سبب الهروب، **قيل**: انشغال كلّ إنسانٍ بنفسه وشأنه يوم القيامة، **وقيل**: تقصيره في حقهم، فالإنسان يهرب من أقاربه حتى لا يتعلقُوا برقبته، ولا يُكثروا من سؤاله، خاصةً من ضيّع وفرّط في أهله وقصّر في حقوقهم، فالهروب محاولةٌ للتخلُّص من المسؤولية، **وقيل**: إنما عبّر بالهروب هنا عن الحال، كيف يكون في المحشر، وأنه عكس الحال في الدنيا، ففي الدنيا إن حصلت لك مشكلةٌ هربت إلى أخيك أو إلى أبيك أو إلى أمك أو إلى زوجتك أو إلى أولادك، حتى يقفوا معك ويُساعدوك، أما يوم القيامة فأنت تهرب منهم، **والراجح الأول**(١)، لقوله في الآية التي بعدها: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾، **أي**: يُلهيه، ويشغله شأنه عن غيره، فهو في صحائف أعماله، ويتفكر في حاله، فيكون الهروب هنا هو شُرود

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥/ ٤٤٠)، والكشاف، للزمخشري (٤/ ٧٠٤).

العقول فلا يدري بمن حولَه، وإن كان بجواره أعز الناس إليه في الدنيا، وذلك من شدة المصيبة، **وعلى القول الثاني؛** فهو هُروبٌ حسيٌ، حيث يهرب بجسده ويبحث له عن مكانٍ يختبئ منهم، وقد رتّب الله سبحانه وتعالى الهروب بناءً على درجات العاطفة والقرب، أول شيءٍ تهرب من أخيك، ثم تهرب من أمك وأبيك، وهما أعلى رتبةٍ من أخيك، ثم رجع إلى الزوجة والولد؛ لأن العاطفة بينهما أشد، فعاطفة الأب مع ابنه أشد من عاطفة الابن مع أبيه.!

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى أن الناس يوم الحشر ينقسمون إلى فريقين، فالمؤمنون في الآخرة لهم شأنهم، والكفار في الآخرة لهم شأنهم، **وقد يقول قائلٌ:** أين المنافقون وهم فريقٌ ثالثٌ كان موجودًا في الدنيا؟! **الجواب:** في يوم القيامة تظهر السرائر، فلا يوجد نفاقٌ، فالنفاق حُكمٌ يتعلق بالخلق في الدنيا، أما عند الله فهم كُفارٌ في الدنيا والآخرة.

ثم بدأ بذكر حال الفريق الأول وهم: المؤمنون فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾، **الإسفار،** هو: النور والبياض الذي يظهر على الوجوه عندما تكون النفوس راضية، والأجسادُ آمنة، والقلوبُ مطمئنة، والضحك من صفات الأفواه، ولا يحصل إلا إذا كان القلب مطمئنًا، فكما يستنير الوجه تبتسم الشفتان، وتكون البشارة ظاهرة على وجوهها، بعد معرفتها بفوزها وفلاحها، وحصول الأمن لها، **كما قال:** ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾[الأنبياء:١٠٣].

وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾،كل هذه

الصفات ثمرةٌ من ثمار الاطمئنان والسعادة، وأن الله سبحانه وتعالى قد أعطاهم هذا الجزاء بناءً على استقامتهم وإيمانهم في الدنيا.

ثم أتبع ذلك بذكر حال الفريق الثاني وهم الكفار، فقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾، ووجوهٌ أخرى في يوم القيامة يظهر عليها الغبار، ويُتبِع هذا الغبار السواد، وهي: ظلمةٌ في الوجه، فالغبرة شيءٌ ظاهرٌ على الجسد.

والقترة: وصفٌ لجلد الوجه، وهو السواد من آثار الكفر والمعصية، **كما قال الله:** ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

ثم ختم وصفهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾، فهناك تقابلٌ في الصفات بين الغبرة والفجرة والكفرة والقترة، فقد جاءت القترة في الوجوه بسبب الكفر، وأُصيبوا بالغبرة في وجوههم بسبب الفجور، والكفر مُتعلقٌ بالقلب وهو الجحود وعدم الإيمان، والفجور متعلقٌ بالجوارح، فقد كانوا يفعلون القبائح، فهؤلاء هم أهل النار وتلك هي صفاتهم.

وفائدة المقارنة بين حال أهل الجنة وحال أهل النار، بين المؤمنين وبين الكافرين، لبيان الفرق بينهما، لكي يقرر القارئ ويختار من أي صنفٍ يكون.!!

فوائد وهدايات من السورة:

١ – أراد الله من معاتبة رسوله في قصته مع الأعمى أن يقيم في هذه الأمة ميزان التقوى، فلا فرق بين الأعمى الضعيف، وبين الكبراء من صناديد القوم عند الله إلا بالتقوى والعمل الصالح.

٢ – لو كان القرآن من عند محمدٍ كما يزعم الكافرون لما عاتب نفسه بنفسه.

٣ – بيان مكانة القرآن الكريم، وأنه تذكرة لكل الناس، ولا يختص بالأغنياء دون الفقراء.

٤ – انشغال كلّ إنسانٍ بنفسه وشأنه يوم القيامة، وفراره من أقرب الناس إليه.

٥ – أن فائدة المقارنة بين حال أهل الجنة وحال أهل النار، بين المؤمنين وبين الكافرين، لبيان الفرق بينهما، لكي يقرر القارئ ويختار من أي صنفٍ يكون.!!

تفسير سورة التكوير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا
الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ
زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا
السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾
فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ
رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾
وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ
تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن
يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة التكوير؛ سورةٌ مكيةٌ[1]، والمقصد العام لها بيانٌ علامات الساعة الكبرى، وما يحدث يوم القيامة من أحداث، والتنويه بشأن القرآن الكريم وبيان

(١) **ويقال سورة كورت وسورة إذا الشمس كورت**، وهي مكية بلا خلاف، وآياتها تسع وعشرون آية، وفي التيسير ثمان وعشرون، ينظر: روح المعاني، للألوسي (١٥/ ٢٥٣).

مكانته، **وفي حديث ابن عمر**، قال: قال رسول الله ﷺ: **"من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت"**[(١)].

ووجه التناسب بينها وبين سورة عبس: أن سورة عبس اختُتمت بالحديث عن حال الناس بعد النفخة الثانية، وهذه السورة تحدثت عن علامات الساعة الكبرى وقيامها.

قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾، (إذا)؛ ظرف للزمان، **وكُوّرت، بمعنى:** لُفّت فانمحى ضوؤها، ومنه تكوير العمامة[(٢)] وذهاب نورها، دليلٌ على انهيار الكون؛ لأن الله تعالى خلق الكون بنظامٍ مُتقنٍ لا يختل.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢﴾ **أي:** تساقطت من أماكنها.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣﴾، **أي:** حُرّكت من أماكنها، فالله خلق الجبال لتثبيت الأرض، فإذا تحركت الجبال وسارت اضطربت الأرض.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤﴾، **العشار؛** المقصود بها النوق الحامل في الشهر العاشر، لأن الحمل يبقى في بطن الناقة سنة، فالشهر العاشر يعني مُنتهى اكتمال الحمل، وكانت العرب تعتني عنايةً بالغةً بالنوق التي اقترب موعد ولادتها؛ لما تحصل عليه من مولودٍ جديدٍ ومن اللبن والسمن، فأخبر الله

---

(١) رواه أحمد: (٨/ ٤٢٣)، برقم (٤٨٠٦)، والترمذي وحسنه: (٥/ ٤٣٣)، برقم: (٣٣٣٣)، وصححه الألباني.

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٨١٠).

سبحانه وتعالى، أنهم من شدة الفزع والخوف يتركون النوق وهي قريبة الولادة، وخص العشار بالذكر؛ لأنها من أعظم وأحب ما كانت العرب تقتنيه[١]، مثل ما يقال اليوم: سيارةٌ آخر موديلٍ من أفخم أنواع السيارات.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾، **حُشرت بمعنى:** جُمعت، فالوحوش تجتمع بعدما تهتز الأرض وتضطرب، وتجَمّع الوحوش؛ إشارة شرودها وفزعها مما يحدث، فالوحش غالبًا يظل هاربًا في الجبال بعيداً عن الناس، سواءً كان حمارًا وحشيًا أو أسدًا أو ثعلبًا ونحوها من هذه الوحوش، فما الذي جعلها تجتمع وتُحشر مع الإنس وتقترب من بعضها؟!، الجواب: أن شدة الفزع مما يحدث أنساها ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾، **أي:** أُوقدت بالنار حتى ذهب ماؤها وأصبح نارًا من كثرة غليانه، وهذ هي الست العلامات الأولى، قبل النفخة الأولى[٢]، فإذا نُفخت النفخة الأولى مات الناس أجمعون، ثم بالنفخة الثانية يُبعثون، فإذا بُعثوا جاءت العلامات الست الأخرى، **وتبدأ بقوله:** ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧﴾، **قال بعض أهل العلم:** اجتمعت الأجساد بالأرواح، فكل روحٍ تدخل في جسدها؛ فتُبعث. **وقال آخرون:** اجتمع كل صنفٍ مع صنفه، فالمجرمون مع المجرمين، والمؤمنون مع المؤمنين[٣]، والأول أرجح.

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢٢٨).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢٣١).

(٣) ينظر: جامع البيان، للطبري: (٢٤/ ٢٤٥،٢٤٦)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥/ ٤٤٢).

ثم قال: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾، **والموءودة؛ هي**: الطفلة الصغيرة التي دفنها أهلها في الجاهلية بعد ولادتها خشية العار أو خشية الفقر، فتبعث يوم القيامة وتُسأل، لماذا قتلك أهلُك؟!! وهو سؤال تبكيتٍ وتوبيخٍ لمن قتلها، ويلحق بها ما يُسمى اليوم بعمليات الإجهاض، فلا يجوز إسقاط الحمل لأي سببٍ، فبعض الناس اليوم يتساهلون في ذلك، وهو من الوأد المحرم، خاصةً إذا كان قد نُفخ فيه الروح، فهو قتلٌ لنفسٍ معصومةٍ، فلا يجوز الإجهاض بسبب الفقر، فرزقه من الله، فضلًا عن أن يكون هذا الوأد والقتل بسبب الفساد والفواحش والإجرام والحمل من الزنى ونحوه، فهذا أشد قبحًا، وأعظم جرمًا.!!.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾، في ذلك اليوم تُنشر الصُحف، والمقصود بالصحف: صحائف الأعمال، وهي: التي كتبت فيها الملائكة أعمال العباد من حسنات أو سيئات، فتُوزع وتصل إلى كل شخصٍ صحيفتُه.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾، يعني نزعت، فطويت، وقال بعض أهل العلم: أن المقصود بالسماء هنا غير سماء الدنيا، إذ لو كانت سماء الدنيا لكان ذلك قبل النفخة الأولى، فالمقصود بالسماء هنا سماء الدار الآخرة[(١)]، **كما قال:** ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[إبراهيم:٤٨]، **وكُشطت أي**: أُزيلت عن مكانها وصارت في مكانٍ آخر وبُدلت.

ثم قال: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾، **أي**: يُزاد في وُقودها حتى يشتد حرها، **كما**

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٠/ ١٤٩).

قال: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[الملك:٨]، **أي**: من شدة غيظها على الكفار والمجرمين.

ثم قال: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾، **أي**: قُرِّبت للمؤمنين، وهُيئت في طريقة قُربها وتجهيزها وافتتاحها حتى يذهب إليها المؤمنون، فهذه اثنا عشر فعل شرطٍ ذُكرت، فأين جوابها؟! **الجواب** في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾، **أي**: إذا حصل ما سبق ذكره، فعند ذلك تعلم كل نفسٍ ما الذي كتب لها من عملٍ في صحائفها، وستعلم كل نفسٍ مصيرها هل هي من الفائزين أم من الخاسرين؟!!

ثم جاءت الفقرة الثانية من السورة مُبتدئةً بالقسم، قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾﴾، لا، من ألفاظ التوكيد، **ومعناه**: أُقسمُ بالخُنس، وقسم الله سبحانه وتعالى بأيٍ من مخلوقاته جائز، ليدلنا على عظمة ذلك المخلوق والذي به تعرف عظمة خالقه، أما أنت أيها العبد فلا تُقسم إلا بالله، ولا يجوز لك القسم بشيءٍ من مخلوقاته، **جاء في الحديث**: **"من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت"**[(١)]، **وقوله**: **"من حلف بغير الله فقد أشرك"**[(٢)].

والخنس: اسم جنسٍ للنجم، ويُقصد به النجوم التي تظهر في السماء ليلاً وتختفي نهاراً، وسمي الشيطان بـ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾[الناس:٤]، لأنه يخنُس **أي**: يتأخر إذا ذكرت الله، وإذا انشغلت رجع مرةً أخرى.

---

(١) رواه البخاري برقم(٢٦٧٩)، (٣/ ١٨٠)، ورواه مسلم عنه، برقم(١٦٤٦)،(٣/ ١٢٦٧).

(٢) رواه أحمد في مسنده، حديث رقم (٥٣٧٥)، (٩/ ٢٧٥)، وأبو داود برقم (٣٢٥١)، (٣/ ٢٢٣)، وإسناده صحيح.

ثم وصف الله النجم، بقوله: ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾، **أي**: الذي يجري ويأوي إلى مجاريه.

ثم قال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾﴾، فأقسم الله بالليل حال إقباله وإدباره، **فعسعس معناه**: الإقبال والإدبار، **نقول**: عسعس الليل يعني: أقبل عند غروب الشمس، **ونقول**: عسعس الليل بمعنى: أدبر عند طلوع الفجر، فالله تعالى أقسم بإقبال الليل وإدباره في لفظٍ واحدٍ، وهذا يدل على بلاغة القرآن وسعة لغة العرب، وقد لا تجد مثل هذه الكلمة في لغاتٍ أخرى وبهذا الجمال وبهذا الأسلوب.

ثم قال: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾، **تنفَس، أي**: ظهر ضوؤه، وسُمي ظهور الضوء تنفّسًا؛ لانقشاع ظلمة الليل وبزوغ النور، أو لما كان إقبال الصبح يلازمه الرَوح والنسيم، جعل ذلك نفسًا له، ففي الصباح يكون أحسن وأفضل أنواع الهواء، والجو لطيفٌ وجميلٌ جدًا؛ ولذلك طبيًا إذا أرادوا أن يعالجوا شخصًا من بعض المشاكل التنفسية؛ يجعلونه يصحو مبكرًا ويستمتع بالهواء قبل شروق الشمس، لأن الأشجار بالليل تنتج الأُكسجين، فتزداد كمية الأكسجين في الهواء، وفي النهار تنتج ثاني أكسيد الكربون، فيتغير ما يُسمى بالبناء الضوئي للنباتات، فيكون الليل قد امتص الأجواء السيئة، فيأتي الصباح بجوٍ لطيفٍ وهواءٍ نقيٍ، وزاد بعضُهم في مدح هذا الهواء حين سأله صاحبه، لماذا هواء الفجر جميل؟ قال: لم يُعكِّره المنافقون بتنفُّسهم، فالمنافقون غير موجودين فهم نيامٌ!!.

ثم جاء جوابُ القسم لما سبق، في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾﴾، **أي**: إن هذا القرآن أتى به جبريل من عند الله وأقرأه رسولَ الله ﷺ، ونسب القرآن هنا

إلى جبريل؛ لأن جبريل سمعه من الله، وأسمعه بلفظه لمحمدٍ ﷺ، فالقرآن كلام الله، وجبريل ناقلٌ له إليه، فالنسبة للصوت، وليست للقرآن، فالصوت الذي سمع به محمدٌ ﷺ القرآن هو صوت جبريل، وسُمي رسولٌ؛ لأنه مُرسَلٌ من الله إلى محمدٍ ﷺ وباقي الأنبياء؛ فلذلك جبريل رسولٌ، وأمتُه الرسل، ومحمدٌ ﷺ رسولٌ، وأمته الناس الذين أرسل إليهم، وهذا من اللطائف.!!

ثم بدأ وصفُ الله لجبريل، فقال: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾، **أي:** أنه صاحب قوةٍ وقدرةٍ على كل ما يكلف به، فلا يعجز عنه ولا يضعف، وأطلقها لتشمل مفهوم القوة بشكلٍ عامٍ سواءً كانت في البدن أو قوة الطاقة، أو قوة العبادة، وله عند الله مكانةً ومنزلةً، وجاهه عند الله عظيمٌ.

ثم قال عنه: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾، **ثَمَّ، بالفتح،** ظرف مكانٍ بمعنى هناك، **أي:** مطاعٍ في السماء من الملائكة فلا يعصونه، وأمين الله على وحيه، فلا يزيد ولا يُنقِص منه، **ومن قرأ ثُمّ، بالضم، أي:** هو مُطاعٌ وأمينٌ في نفس الوقت، والأفصح الأول.

ثم جاء بجواب القسم في قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾، **أي:** وما محمد ﷺ، بمجنون، بل هو كامل العقل، وعبّر عنه بصاحبٍ لهم لأنهم صاحبوه أربعين سنةً قبل البعثة، وكانوا يسمونه بالصادق الأمين.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾، **أي:** رأى محمدٌ ﷺ جبريلَ الأمين بصورته الحقيقية الملائكية في الأفق له ستمائة جناحٍ قد سد بها الأفق.

والأفق المقصود به: قطاع السماء الذي تراه بعينك واضحًا، **وقد رأى النبي**

محمد ﷺ **جبريلَ على حالته مرتين**[١]: **مرةً** عند بداية الوحي، رآه على جبل جياد قد سد أُفق المشرق، **والمرة الثانية**: رآه في الأُفقِ المبين عندما عرج به إلى السماء، وهي المذكورة في سورة النجم، في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾[النجم:١٣-١٤].

ثـم قـال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾، **بـضنين**، بالضاد **ومعناهـا**: البخيل ومعناها: أن محمداً، ﷺ، ليس ببخيلٍ ولا متهمٍ فيما أوحى الله به إليه، وهي قراءة الجمهور[٢]، **وقُرئ**: بظنين، بالظاء، **ومعناها**: مُتهم، وكِلاهما وصفٌ صالحٌ لنبينا محمدٍ ﷺ، فلا هو مُتهمٌ على الوحي ولا هو بخيلٌ يكتم ما أوحى الله به إليه فلا يبلغه للناس.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾، **أي**: القرآن الذي جاء به جبريل إلى محمدٍ ﷺ، فالقرآن ليس قول شيطانٍ وإنما هو وحيٌ من الله إلى رسوله ﷺ، والشيطان معروف، من شطن **أي**: ابتعد عن الحق، **والرجيم، أي**: المرجوم وهو الملعون المطرود عن رحمة الله، وفيه وفيما سبق من تنوع القسم وتنوع الحديث عن جبريل وعن القرآن وعن محمدٍ ﷺ، كان ذلك بتناسقٍ عجيبٍ، نظرًا لترابط العلاقة بين القرآن وجبريل ومحمدٍ ﷺ، فأخبرنا عن القرآن بوصفه كلام الله، ووصف لنا جبريل الذي أبلغه، ووصف محمدًا ﷺ الذي استقبله.!!

---

(١) ينظر: أحاديث رؤية النبي ﷺ لجبريل في الصحيحين، عن عائشة وابن مسعود وأبي هريرة، البخاري برقم (٣٢٣٢)، ورقم (٤٨٥٥)، ومسلم برقم (١٧٤)، ورقم (١٧٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٢٦٠)

ثم بعد ذكر هذه البراهين والأدلة، وجّه الله سؤالًا لكفار مكة، فقال لهم: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾، **أي:** ليس أمامكم إلا الإيمان والتصديق؛ إن كان لديكم عقل وفهم، فأين تهربون من هذه البراهين، وإلى متى تستمرون في التكذيب، وهو أسلوب تعجب واستغراب يتداوله الناس حتى اليوم، **والمعنى:** ما لكم من عذرٍ في التكذيب بعد هذه البراهين والأدلة التي تثبت صدق النبي محمدٍ ﷺ، ثم عاد للحديث عن القرآن الكريم.

فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾، فالقرآن تذكرة وعِظة، ليس لكم أيها المكذبون من قريش، فحسب، بل للعالمين، عالم الجن وعالم الإنس، فإن آمنتم؛ فهو خيرٌ لكم، وإن كفرتم؛ فغيرُكم يقوم مقامكم، **كما قال:** ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾[محمد:٣٨].

ثم قال: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾، فمن أراد أن يستقيم على الحق والطاعة ويفوز بالجنة؛ فلا بد أن يؤمن بهذا القرآن، فهو منبع ومصدر الاستقامة الحقيقية، وبغير القرآن واتباع ما جاء به محمدٌ ﷺ؛ لا استقامة شرعية مقبولة، فمهما حاولت أن تُصلح من أخلاقك ومن قيمك ومن تعاملاتك، دون أن تؤمن بالقرآن والسنة وتهتدي بهديهما فلا تُسمى مُستقيمًا استقامةً صحيحةً!!.

ثم قال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾، ولا تتحقق مشيئة العبد إلا بمشيئة الرب سبحانه، فعليك بالسعي والبحث والإقبال على الهداية والأخذ بأسبابها، واطلب التوفيق لذلك من الله، فكم من أُناسٍ لم تحصل لهم الهداية وقد عرفوها، كزوجة نوحٍ وابنه، وكأبي إبراهيم، وكزوجة لوطٍ، وكأبي

طالبٍ عم النبي ﷺ، فالهداية بيد الله، يمنحها لمن يشاء، فعلى العبد أن يطلب الهداية من الله، كما في الحديث: **"يا عبادي! كلكم ضالٌّ إلا من هديتُه، فاستهدوني أهدكم"**(١)، ومن صدق مع الله صدقه الله.!!

فوائد وهدايات من السورة:

١- أن الله سبحانه وتعالى يحشر المرء مع من يُماثلُه، المؤمن مع المؤمنين، والكافر مع الكافرين، وأهل الخير مع أهل الخير، وأهل الشر مع أهل الشر.

٢- أن وأْد البناتِ ذنبٌ عظيمٌ سيُسأل عنه من فعله يوم القيامة، ويلحق بها ما يُسمى اليوم بعمليات الإجهاض.

٣- ترابط العلاقة بين القرآن وجبريل ومحمد ﷺ، فأخبرنا عن القرآن بوصفه كلام الله، ووصف لنا جبريل الذي أبلغه، ووصف محمدًا ﷺ الذي استقبله.!!

٤- أن مشيئة الله سبحانه وتعالى هي الأصل وأن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله سبحانه وتعالى.

---

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه مسلم: (٤/ ١٩٩٤)، برقم (٢٥٧٧)، عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

تفسير سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ
بُعۡثِرَتۡ ٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦
ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩
وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ
ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧
ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾.

شخصية السورة:

سورة الانفطار؛ سورةٌ مكيةٌ[(١)]، **والمقصد الأعظم لهذه السورة هو:** بيان علامات الساعة وأحوال يوم القيامة، لإقناع المشركين بالأدلة والبراهين والحجج العقلية والنقلية التي تثبت البعث والنشور الذي ينكرونه.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢﴾، إذا:

---

(١) **وتسمى سورة انفطرت، وسورة المنفطرة**، ولا خلاف في أنها مكية، ولا في أنها تسع عشرة آية.
ينظر: روح المعاني للألوسي (١٥/ ٢٦٧).

ظرف زمان، **بمعنى**: متى ما جاء هذا الظرف وقع قيام الساعة، وانتهاء الحياة وبداية حياةٍ أخرى، فذكر الله أربع علامات، وهي أربعة أفعالٍ للشرط، وأتى بعدها بجواب الشرط في الآية الخامسة، وهذه الأفعال الأربعة، اثنان علوية واثنان سُفلية، فالعلويان هما: انفطار السماء وتساقط النجوم، فإذا حصل تشققٌ للسماء، بعد أن كانت مُتماسكة متقنة البناء؛ يتبعها تفرق وتمزق وتساقط النجوم.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾، وهذان هما الأمران السفليان: تفجر البحار وبعثرة القبور، والبحار هي المياه الملتصقة باليابسة، وهي كبيرةٌ جدًا، ولو نظرت في خارطة الأرض لرأيت أن نسبة اليابسة إلى الماء: ٢٩٪ يابسة، و٧١٪ ماء، فهذه البحار، تتفجر قبل يوم القيامة، وتتمزق الحواجز التي بينها، وتختلط مياهها؛ فتصير بحرًا واحدًا، أو انتهى ماؤها من شدة غليانها وصارت نارًا، وهي علامة على أن الأرض لم تعد صالحةً للحياة.

ولذا قال بعدها مباشرةً: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾، **البعثرة**: التقليب، **أي**: قُلب ترابها ليخرج كل من دُفن في باطنها، وهذا يكون بعد قيام الساعة.

وقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾، هذا جوابُ الشرط لما سبق، والمقصود بالعلم هنا نوعان، الأول: العلم الإجمالي، بمعنى: أن كل نفسٍ تعلم إجمالًا حالها، هل هي من أهل السعادة أو من أهل الشقاوة، بناءً على ما يحصل لصاحبها من تكريم أو إهانة عند الموت وأثناء البعث، فإذا بُعث مُكرمًا مُعززًا بدون فزعٍ ولا خوفٍ، علم إجمالًا أنه إلى خير، وإذا بعث مهانًا ذليلاً وحصل له

الفزع والخوف والهلع؛ علم إجمالًا أنه إلى شر، والثاني: العلم التفصيلي، وهذا لا يتم للنفس إلا بعد تطاير الصحف، ووزن الأعمال، فعندها يعلم هل ميزانُه ثقيلٌ أم خفيفٌ؟!، وهل هو ممن تساوت حسناتُه وسيئاتُه أم لا؟!، وما هي الدار التي سيذهب إليها؟!، والعلم التفصيلي لا يكون إلا في ساحة المحشر، فالآيات تذكر لنا بالتدريج أحداث يوم القيامة من علامات الساعة الكبرى إلى أن يصل الناس إلى ساحة المحشر، وقد بُعثروا من قبورهم وجُمعوا، ثم علموا ما أحضروه من أعمال، سواءً على سبيل الإجمال أو التفصيل، فهذه هي الفقرة الأولى التي تحدثت عنها السورة.

ثم انتقلت السورة إلى فقرةٍ جديدةٍ، وهي قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾، **المقصود بالإنسان هنا:** الكافر[1]، **وقيل:** بل المقصود بالإنسان هنا: الكافر والعاصي ولو كان مؤمنًا[2]، فالكافر اغتر بما عنده من العلم أو المال أو الجاه، فأدى ذلك به إلى الكفر، وأما العاصي فغرّه كرم الله ولطفه، فوقع في المعاصي، حيث تكرّم عليه بالإمهال والستر ولم يُعاجله بالعقوبة؛ فأدى ذلك إلى اغترار العبد؛ فاستمر على الكفر أو المعصية والذنب.!!

والسؤال هنا استنكاري لا يحتاج إلى جواب، بل هو للتقريع والتوبيخ، فكأنه يُنكر عليه حاله، ولا يحتاج إلى جوابٍ منه، والهدف منه التعجُّب، فهو مُتعجبٌ من غروره بدون سببٍ!!، فالله الكريم الذي خلقه ورباه ومنحه السّترَ

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٤/ ٢٦٩).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥/ ٤٤٦).

على الذنب وأمهله في العقوبة ولم يُعاجله بها؛ فالواجب عليه مقابل هذا الكرم، هو سرعة التوبة والندم والإقلاع عن الذنب وعدم الاغترار بكرم الله ورحمته، **أما إذا قلنا:** أن السؤال استفهاميٌ، **فيكون الجواب:** غرّني الشيطان، أو غرّتني النفس الأمّارة بالسوء ونحوها، والراجح الأول.

وقوله: ﴿بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، وصفٌ لله سبحانه، بأنه الرب، والتربية لها معنى عظيم يهز النفس، ووصف نفسه بالكريم؛ لأن الكريم لا يحصل منه إلا كل خيرٍ وفضلٍ وجودٍ.

ثم بدأ يُحدِّث هذا الإنسان عن نعم هذا الرب الكريم عليه، ليشعره بفضله عليه، ويقرعه من خلالها، بأسلوب التعجب من عدم إيمانه به، وعدم استقامته على طاعته، وعدم عودته إليه، فذكر الأفعال التي فعلها الله بالإنسان، **فقال:** ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧﴾، **ذكر ثلاثة أفعالٍ تتضمن ثلاث نعمٍ وهي: الخلق،** و**التسوية** للخلق، و**الاعتدال** فيه، **فالخلق هو:** الإيجاد من العدم، **والتسوية هي:** اكتمال الخلق، **والاعتدال:** جعل الإنسان معتدل الخلق متناسب الأعضاء من غير تفاوتٍ فيها، فلا يوجد فيها نقصٌ ولا تشوهٌ خَلْقي، وإن وجد التشوه الخلقي والنقص في بعض الأعضاء عند بعض الناس، فهي حالاتٌ نادرةٌ لأسبابٍ مُعينةٍ، مثل أن يخرج أعمى، أو أعور، أو عنده ستة أصابع، ونحوها، فهذه نسبةٌ قليلةٌ جدًا من خلق الله لها أسبابها، والأصل في خلق الله للخلق هو الكمال لا النقص.

وقوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾، **فيها قراءتان**[1]، **الأولى:** بالتخفيف، ومعناها: صرفك

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٤/ ٢٦٩).

عن خِلْقة غيرك، وخَلَقك خلقةً حسنةً مفارقةٍ لسائر الخلق، **والثانية**: بالتشديد، (فعدَّلك)، من التعديل **أي**: جعلك مُعتدِلاً متوسطًا، ولم يجعلك تمشي على أربعٍ، فلم يجعل أذنك كأذن الحمار أو كأذن الفيل، ولم يجعل لك ذيلًا كذيل البقرة، وقس على ذلك في باقي الأعضاء التي إذا نظرت إليها لم تجد فيها إلا الصورة المعتدلة الحسنة الجميلة، فهذا كله من تعديل الخلقة.

ثم قال: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾، **يعني**: في أي صورةٍ من الصور الجميلة ركّبها عليك!!.

نعم، فالإنسان أجمل مخلوقات الله!!، وهذا من نعم الله علينا، نعمةٌ في الخلق، ونعمةٌ في تسوية الأعضاء واعتدالها، ونعمةٌ في جمال الصورة، ومعها نعمة التربية التي هي النمو حالًا فحالًا حتى تصير شخصًا قويًا مُتمكنًا، فإذا كان هذا فعل الله فيك، فالواجب عليك أن تُقبِل عليه بالإيمان والعبادة لا أن تغتر بهذه النعم وبفضل الله وكرمه عليك، فتعصي الله أو تكفر به.!

ثم جاء المقطع الثالث فابتدأ بقوله: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩﴾، **كلا**: كلمة ردعٍ وزجرٍ لما سبق، **والمعنى**: ليس الأمر كما تصورتم، أيها المغرورون البعيدون عن الله مع ما منحكم إياه من نعم الخلق والإيجاد وتحسين الصورة، التي تدفعكم إلى الإيمان والطاعة، ولكن حصل منكم الكفر والتكذيب، وبناءً على هذا فقد ذهب بعض المفسرين إلى ترجيح أن المقصود بالإنسان هنا هو الكافر؛ لدلالة السياق عليه، **والمقصود بالدين هنا قولان**:

الأول: الإسلام(١)**، أي:** تُكذبون بالإسلام، وهو الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ وما يشمله من أحكام وعقائد وعبادات ومعاملات وغيرها، **كما في قوله:** ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾[آل عمران:١٩]، فأنتم معرضون وجاحدون لهذا الدين ولم تُؤمنوا به، وهذا السياق لا يختلف معه.

والثاني من الأقوال، أن المقصود بالدين هنا: الحساب(٢)، **كما في قوله:** ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[الفاتحة:٤]، **أي:** يوم الحساب، وهو البعث والنشور الذي تُنكره قريش، ويُمكن الجمع بين القولين في سياقٍ واحدٍ، فهم مُكذبون بالإسلام عمومًا، ومنكرين للبعث والنشور خصوصًا.

وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠﴾، **الواو هنا** تفيد العطف أو الحال، فعطف جملةٍ على جملة.

والحال من قوله: ﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ أي يقع منكم التكذيب في حال وجود حافظين عليكم، والحافظون هم الملائكة، والمعنى على العطف: تُكذبون بيوم الدين والحساب مع أن أعمالكم تُحصى وتُكتب من قبل ملائكةٍ.

ثم وصفهم بقوله: ﴿كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١﴾، وهذا من كمال عدل الله سبحانه وتعالى، وإلا فالله يعلم من العبد ما يفعل، ولكن لإثبات كمال عدل الله سبحانه وتعالى جعل الملائكة تكتب أعمالك وتحصيها لك في صحيفةٍ، فإذا جاء يوم القيامة سلمك كتابك.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥/ ٤٤٧).

(٢) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٤/ ٢٧١).

وقال: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤ ﴾[الإسراء:١٤]، فحاسب نفسك واطلع على عملك في صحيفتك بنفسك.!!

ووصف هنا الحافظين الذين يحفظون الإنسان، ويكتبون عمله، بأنهم كرام، وهو وصف يمنح العبد الاطمئنان، فالكريم لا يخون، **وكاتبين أي:** يكتبون ما تفعل، وهنا فيه إشارة إلى أن الكتابة وتسجيل المعلومة للحفظ، أولى من الاقتصار على الحفظ فقط، فالحفظ بالكتابة يعطيها معنى البقاء وعدم الذهاب، وهل المقصود بالحافظين هنا الذين يحفظونه بأمر الله، **كما في قوله:** ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[الرعد:١١]، أو الذين يُسجلون أعماله، **كما في قوله:** ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾[ق:١٨]، **والجواب** أن الوصف يشملهما معًا، فهناك ملائكة يحفظون العبد من تغوُّل الشياطين ومن أذية العفاريت وهناك ملائكة يحفظون أعمال العبد، فيُسجلون ما يفعل من خيرٍ أو شرٍ.

ثم وصفهم بقوله: ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾، **أي:** أعطاهم الله سبحانه وتعالى إمكانية أن يعلم ما يفعل العبد فيعلم نيته فيقول: هذه حسنةٌ فيكتبها في الحسنات، وهذه سيئةٌ فيكتبها في السيئات، ومنحهم أيضًا علم بعض ما تُخفيه الصدور من خواطر ووساوس، والتفريق بينها وبين حال العزم وقوة الإرادة فيها، فيكتب الإرادة والعزم ويترك الوساوس والخواطر، **كما في الحديث:** "**إن الله تجاوز لأمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به**"[1]، فيكتبون ذلك كله عن علمٍ، ثم يشهدون عليه يوم القيامة، والشهادة لا تكون إلا بعد العلم.!!

---

(١) الحديث رواه البخاري، (٧/ ٤٦)، برقم (٥٢٦٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم إذا وُزعت الصحائف وعُرف ما فيها، انقسم الناس في الحشر إلى قسمين: الأبرار والفجار، ثم بيّن حال كلٍ منهما، **فقال عن القسم الأول**: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣﴾، **والأبرار**: جمعُ بَر، وهو المطيع، والمقصود بهم المؤمنون، ومصيرُهم إلى نعيمٍ مطلقٍ، لم يحدده ولم يحدّثنا عنه، بل تركه مفتوحًا نتخيّله، فهنا نعيمٌ في ساحة المحشر، ونعيمٌ عندما تُزف إلى الجنة وهم يستقبلونك فيها، ونعيمٌ في داخلها عند رؤية الله -سبحانه وتعالى- ورضاه.!!

وأما القسم الثاني، فقال عنهم: ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤﴾، **والفجار**؛ هم الكفار، والجحيم؛ اسمٌ من أسماء النار.

وقوله: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾، بدأ يُفصّل في حال أهل الجحيم لأجل أن تنتبه لها، فالكفار يدخلون النار؛ فتستعر بهم وتُحرقهم، وعبّر عن ذلك بالصلاء، وهو ذوق شدة الحرارة فيها.

ثم قال: ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾، **أي**: أن هذه النار إذا دخلها الكفار لن يخرجوا منها، بخلاف المؤمن العاصي الذي وقع في بعض المعاصي ودخل النار، فإنه سيخرج من النار ولا يخلد فيها، ونفي الغياب عنهم، يفيد أنهم لا يُمكن أن يختبئوا من عذابها في أي زاويةٍ من زواياها، فلا مجال لأن تغيب عنهم النار وعذابها، أو يغيبوا عنها، بل هي تمر عليهم، وتبحث عنهم!! والعياذ بالله.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧﴾ هل الخطاب للكافر[1]،

(١) ينظر: زاد المسير (٤/ ٤١١)، وفتح القدير، للشوكاني (٥/ ٤٨٠).

أم لرسول الله ﷺ(١)؟ ممكن هذا وممكن هذا، ولكن الراجَّح أن الخطاب للنبي ﷺ؛ لأنه قد انتهى الحديث عن هذا الكافر، وإذا كان الخطاب لرسول الله فالخطاب لأمته ما لم يكن خاصًا به، فيكون الخطاب لكل من سمعه أو قرأه.

﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾، كرر هنا العبارة، والفائدة من التكرار التعظيم والتهويل، ولأجل أن تستعد لمعرفة الجواب.

ثم قال: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ **أي:** يوم الدين هو يوم الحساب، وهو اليوم الذي لا يمكن للإنسان أن يفعل شيئًا لغيره، ولا يستطيع أن ينفع نفسه، فكيف ينفع غيره، **كما قال:** ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤﴾[عبس:٣٤]، وفي هذا إشارةٌ إلى أن كل إنسانٍ في ذلك اليوم مشغولٌ بنفسه، ولا مجال أن ينفع إنسانٌ إنسانًا، كما كان ذلك ممكنًا في الدنيا.

ثم قال الله: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾، لما نزع الله الملك من كل النفوس؛ صار الملك كله لله في ذلك اليوم، **فينادي فيقول:** ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، فلا يُجيبُه أحدٌ، فيكون الجواب منه سبحانه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[غافر:١٦]، فيكون الأمر كله لله، وفي هذا تهويلٌ وتعظيمٌ لشأن ذلك اليوم ودفعٌ للنفوس للاستعداد له بالأعمال الصالحة، فإنه لا يفوز ولا يأمن ولا يكون في كنف الرحمن وظله إلا من كان على طاعةٍ وقربةٍ، والويل ثم الويل لمن أعرض عن الله وغره بربه كرمه ولطفه.!!

(١) ينظر: جامع البيان (٢٤/ ٢٧٢).

فوائد وهدايات من السورة:

١- على المسلم أن يحذر من الغرور الذي يمنعه من معرفة الحق، فالغرور أحيانًا يمنعك من معرفة الحق، والاغترار بكرم الله يمنعك من التوبة أحيانًا، فالله يُمهل ولا يهمل.

٢- أن تستحضر أن الله سبحانه وتعالى كما أكرمك بحافظين يحفظونك بأمره؛ كذلك وكّل بك كاتبين يكتبون أعمالك.

٣- أهمية مراقبة الله سبحانه وتعالى، فمن لم يخف من رقابة الله عليه؛ فلن يخاف من كتابة الملائكة، فليكن خوفك من الله أعظم، واستحضار مراقبته عندك أعظم من كتابة الملائكة، فهو سبحانه وتعالى الذي لا تخفى عليه خافيةٌ.

تفسير سورة المطففين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ
يُخۡسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ (٤) لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ (٥) يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ
(٦) كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ (٧) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ (٨) كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ (٩) وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ
لِّلۡمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ
أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ (١٤) كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ
(١٥) ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي
عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ (٢٠) يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ
(٢٢) عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ
(٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ (٢٧) عَيۡنٗا يَشۡرَبُ
بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ
يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَضَآلُّونَ (٣٢) وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ (٣٣) فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ (٣٤)
كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ (٣٦)﴾.

شخصية السورة:

سورة المطففين[١]؛ اختُلف هل هي مكيةٌ أم مدنيةٌ؟!، فبعض المفسرين

---

(١) سورة المطففين مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل. ومدنية في قول الحسن وعكرمة. =

يرون أنها مكية، **وآخرون يرون** أنها مدنية، ورجح بعض المحققين من المفسرين أنها نزلت أثناء الهجرة بين مكة والمدينة[(١)]، وهو الراجح؛ لأن الوضع في المدينة كان فيه تطفيفٌ للميزان، وكذلك كان الوضع في مكة، فنُزولها بين المدينتين إشارةٌ إلى معالجة هذين الخللين، واللهُ أعلم.

وهي في ترتيب المصحف بعد سورة الانفطار، والعلاقة بينهما أن سورة الانفطار خُتمت بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩].

وابتدأت سورة المطففين بقوله: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾، **أي**: أن الله سبحانه وتعالى هدد المطففين بالويل والثبور في ذلك اليوم الذي لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئًا وإنما الأمر فيه إلى الله، فيُجازي كل إنسانٍ بعمله.

قوله: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾، **ويل**، معناه الدعاء بالهلاك والخسارة، وبعض المفسرين يرى أنه اسمٌ لوادٍ في جهنم[(٢)]، ولكن الأول هو الراجح، فإن لغة العرب تدل على ذلك، وما زال يُستخدم هذا اللفظ حتى اليوم، فإذا أردت أن تُقرّع شخصًا، **فتقول له**: ويلٌ لك، والمطففون الذين دُعيَ عليهم بالهلاك والخسارة جاء تفسيرُهم في الآيتين التي تليها، **وهي قوله**: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى

= وهي ست وثلاثون آية، ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢٥٠).

(١) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤/ ٤١٣)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٥/ ٤٤٩).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٥/ ٤٤٩)، وزاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (١/ ٨٢).

ﭐلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾، **والمعنى**: أنه إذا ذهب ليزن أو يكتال لنفسه؛ أخذ الوزن أو المكيال كاملًا، وإن وزن لغيره أو كال لغيره؛ خان في الوزن وطفّف.

والتطفيف: نقصُ المكيال[1]، وهذا النقص هو في الحقيقة قليلٌ، ولذلك سُمِّي تطفيفًا، **والتطفيف في اللغة**: يعود إلى حافة الشيء وعدم استكمال جوانبه، بمعنى أنه إذا جاء ليكيل، فإذا وصل إلى حافة المكيال لا يملأه بل ينقص من جوانبه، **ولذا يُقال للشيء اليسير**: طفيفٌ، فيقال: تعديلٌ طفيفٌ، وخللٌ طفيفٌ، لأن الغالب أن المطفف لا يُنقِصُ كثيرًا من المكيال والميزان؛ لأنه لو أنقص كثيرًا من المكيال والميزان لكُشف أمره، فربما قد يجعل شيئًا في أسفل المكيال؛ ليخدع الناس، أو لا يُتم جوانبه وحافته بالكيل، وإن كان في الميزان فقد يلعب بشوكته، أو قد يضع في أسفل الميزان شيئًا ليثقل إحدى الكفتين على الأخرى قبل أن يُوضع فيها الوزن، كل ذلك على سبيل الخداع، فهذا هو المطفف، **وهنا لطيفةٌ من لطائف اللغة في قوله**: ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢﴾ حيث عبّر بـ (على) مع أن القياس أن يُعبر بـ(من) إذا اكتالوا من الناس، لأنك أنت الذي تكتال منه وتشتري، ولكن عبّر بـ(على) هنا وإن كانت الحروف ينوب بعضها عن بعضٍ في بعض المواضع؛ إشارة إلى حرص هذا الإنسان على استكمال حقه من الآخرين، فمن دقة الملاحظة والمتابعة، كأنه فوق ذلك الشخص الذي يكيل أو يزن، حتى يأخذ حقه منه كاملًا.!!

---

(١) ينظر: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية (٤/ ١٣٩٥).

وفي قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ حُذف الجار وحلّ المجرور منه، وتقديره: وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم، إشارةً إلى حرص ذلك الإنسان على أن يأخذ من مال ذلك الشخص بقدر الإمكان خِلسةً، ففي الأخذ هو موجودٌ، يراقب الكيل من علوٍ، ويريد أن يأخذ حقه كاملًا، بينما في العطاء لم يذكر حرف الجر، بمعنى أن فيه نوعًا من الاختلاس، وإن كانت هذه الأفعال قد تتعدى بنفسها وقد تتعدى بحرف الجر.

ومما سبق يمكننا أن نستفيد درسًا عامًا في كيفية التعامل مع الآخرين، وهو: أن نتعامل مع الناس بمثل ما نُحب أن يتعاملوا معنا، فكما تُحب أن يحترمك الناس؛ فاحترمهم، وكما تحب أن يُعطيك الناس كاملَ حقك؛ فأعط الناس كاملَ حقوقهم، وكما تحب أن لا يؤذيك الناس؛ فلا تؤذ أحدًا، وهكذا...، فإن لم تفعل واهتممت بنفسك على سبيل الأثرة في ذلك كله، ولم تنتبه لحقوق الآخرين؛ فأنت أحد المطففين، وتمارس التطفيف في صورةٍ من صوره!!، فلا نقصر معنى التطفيف على الكيل والوزن، وإن كان هو أصله، ولكنه يشمل أي تقصيرٍ في التعامل والحقوق والأخلاق في حق الآخرين، ومن ذلك: عدم هضم الآخر حقه من الوقت والفرصة أثناء النقاش والحوار معه حتى يقول فكرته؛ كما أخذت وقتًا كافيًا لتقول فكرتك؛ فأعطه وقتًا كافيًا ليقول فكرته، **ومن التطفيف**: أن تشعر أن لك مزيةً على غيرك، فهذا داخلٌ كله تحت مفهوم التطفيف بمعناه الواسع، فليحذر المسلم من هذه الصفات حتى لا يندرج تحت هذا الوصف المذموم.

ثـم وعظهـم بقولـه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥﴾، فهذا الفعل إنما يقع فيه من لا يُراقب الله ولا يستحضر وقوفه بين يديه، وقد يقع من الكافر لكفره بالله وعدم إيمانه باليوم الآخر، وقد يقع من المؤمن لضعف إيمانه وقلة استحضاره مراقبة الله، والوقوف بين يديه يوم الحشر،!! والظن إما أن يأتي على بابه وهو الشك، فيكون هذا في حق الكافر، وإما أن يأتي بمعنى اليقين، **كما في قولـه:** ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾[البقرة:٤٦]، **أي:** الذين يُوقنون، ويعلمون علمًا يقينًا أنهم ملاقوا ربهم، وهنا إن كان الفاعل مؤمنًا فالظن هنا معناه اليقين، وإن كان الفاعل كافرًا فالظن هنا بمعنى الشك.

ثم فقال: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾، **أي:** يقوم الناس أجمعون من آدم إلى يوم البعث، فيُجمعون كلهم في عرصةٍ واحدةٍ، ويقومون بين يديه، ينتظرون الفصل منه سبحانه، والحكم والقضاء منه، وهو المطلع على سرائرهم، العالم بأحوالهم، ووصف الله تعالى ذلك اليوم بأنه يومٌ عظيمٌ، فعظمته لا توصف، فالملائكة تقف فيه صفوفًا، والناس في خوفٍ وفزعٍ وشدةٍ إلا من شاء الله، **وقد جاء في الحديث**(١) أن الناس يقومون في الحشر حتى يبلغ العرق أفواههم من شدة الحرارة والزحام، وتقترب الشمس من رؤوسهم قدر ميل، فهذا الموقف العظيم يجب أن يتذكره الإنسان؛ حتى يُعطي كل ذي حقٍ حقه، ولا يظلم أحدًا، وكفى بهذا تحذيرًا وتوبيخًا وتنبيهًا لمن استمرأ التطفيف ومغالطة الناس في المكيال والميزان ونحوها من الأمور.!!

---

(١) رواه البخاري، (٢/ ١٢٣)، برقم (١٤٧٤)، ومسلم: (٤/ ٢١٩٦)، برقم: (٢٨٦٤).

ثـم قـال الله سبحانه وتعالى بعدها: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧﴾، **كـلا**، كلمة ردع وزجر، **والمعنى**: ليس الأمر كما تتصورون أيها المنكرون للبعث والنشور، بل هناك بعثٌ ونشورٌ وحسابٌ بين يدي الله سبحانه وتعالى، وسماهم فجارًا لكثرة فجورهم ومعاصيهم، وفي هذا اليوم يتضح حال الفاجر من حال المؤمن، فكتاب أهل الفجور من الكفار والمنافقين في سجينٍ، وهو اسمٌ لمكانٍ، **وقد اختلف المفسرون**(١) في ذلك المكان، **فقيل**: هو مكانٌ في الأرض السابعة، **يعني**: في مكانٍ سافلٍ وضيّقٍ ومُوحشٍ، **وقيل**: سجينٌ مأخوذةٌ من السجن، وفيها معنى المبالغة، والسجن فيه معنى الضيق والشدة، **ويُمكن الجمع بين القولين**: أن المكان سجنٌ وفيه ضيقٌ وشدةٌ ومشقةٌ وأنه في الأرض السابعة، وهذا المكان مكتوبٌ فيه كتاب أعمال الفجار من الكفار والمنافقين؛ **ولذا قال الله في الآية التي بعدها:** ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨﴾ **والسؤال** بما أدراك يأتي على سبيل التعظيم والتهويل للأمر، والمعنى: ما أدراك يا محمد عن شدة قُبح هذا المكان وضيقه، ونحوها من الصفات التي تدل على تهويله والتخويف منه.

ثم قال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩﴾، وهذا تفسيرٌ لكلمة سجين، بأنه كتابٌ مرقومٌ، **أي**: عليه علامةٌ، أو مكتوبٌ فيه، أو مختومٌ عليه، ويُمكن أن يُجمع بين هذه الثلاثة الألفاظ في معنى واحد وهو: أن كتاب الفجار مكتوبٌ فيه أعمالُهم، ومختومٌ على هذه الأعمال؛ حتى لا يُزاد عليها ولا يُنقَص، وعليه علامةٌ تدل على أنه كتابٌ خاصٌ بالفجار.

---

(١) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤/ ٤١٥).

ثم قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠﴾، **الويل**، الدعاء بالهلاك والخسارة، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾، **أي**: يوم القيامة، حين يأتيهم الويل والثبور، أو أنهم يدعون على أنفسهم بالويل، **كما في قوله**: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان:٢٨]، بل يقال هذا الدعاء من الجنازة حين تُحمل إلى المقبرة، كما في الحديث[1]، **فتقول**: يا ويلها أين تذهبون بها، **والمكذبون**: الذين كذّبوا بالرسل، ومن كذّب برسولٍ فقد كذّب بهم جميعًا.

ثم ذكر صفاتهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝١١﴾، فهم يُكذبون بالدين كله، ولكنهم أيضًا يُنكرون ويجحدون أن هناك حسابًا وبعثًا ونشورًا، **فقال الله ردًا عليهم**: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾، **أي**: وما يُكذب بيوم الحساب، ولا يُنكر ويجحد يومَ القيامة، إلا كل متجاوزٍ للحدود في الكفر والطغيان والإجرام، ومكثرٍ من الآثام، والفرق بين المعتدي والأثيم؛ أن المعتدي تجاوز الحد في حقوق الآخرين.

والأثيم: ارتكب ذنوبًا كثيرةً في حق الله، فمثلاً السرقة يُسمى فاعلُها معتديًا، ومن ترك الصلاة يُسمى فاعلها آثمًا.

ثم ذكر من صفات هذا المعتدي الأثيم أنه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾، فإذا تُليتْ عليه آيات القرآن؛ أعرض عن سماعها وكذّب بها، وقال عنها: إنها أقاويل وأكاذيب السابقين من الأمم الماضية، والأسطورة هي: القصة المخترعة المكذوبة، وهل هذا المكذّب شخصٌ بعينه أم هو عامٌ؟!

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٨٥)، برقم: (١٣١٤) عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بعضُ المفسرين قال: إنه الوليد بن المغيرة(١)، والآية نزلت فيه، **وقال آخرون:** بل هذا وصفٌ لكل من كذّب بالقرآن(٢) سواءً كان الوليد أو غيره، وهو الراجح، ولو صح سبب نزول الآية في الوليد؛ فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فالآية تشمل كل من هذا وصفه.

ثم رد الله على هذا المكذب فقال: ﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٤﴾، **أي:** ليس الأمر كما يقولون، فالقرآن ليس أساطير الأولين، بل سببُ تكذيبهم وجحودهم وعدم إيمانهم؛ هو ما أصاب قلوبهم وعقولهم، وغطّى عليها من الآثام والأوساخ التي هي أثرٌ من آثار ذنوبهم ومعاصيهم، فأصبحت قلوبهم لا تفهم ولا تقبل ولا تستوعب الحق، فحصل منهم التكذيب له ورده، وهنا إشارةٌ مُهمةٌ وخاصةٌ بطلبة العلم الباحثين عن الحق، **وهي:** إذا أردت أن تفهم وتستوعب ويفتح الله قلبَك لفهم الآيات والفقه في الدين؛ فنظف قلبَك من الأدران والأوساخ، واستعن بالله، سبحانه وتعالى، على التوبة والاستغفار حتى يطهُر القلب وتزكوا النفس؛ فيحصل لك بعد ذلك الفهم والاستيعاب فإن المعاصي تحول بينك وبين الفهم والحفظ، **كما قال الشافعي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

شَكَوْتُ إلى وَكيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعاصِي
وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ اللهِ لا يُهْدَى لِعَاصِي(٣)

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢٥٩).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٠/ ١٩٨).

(٣) ينظر: ديوان الشافعي (٦١).

فانتبه لهذا جيدًا، واحرص على أن يظل قلبك سليمًا، ونظفه من الأوساخ بكثرة التوبة والاستغفار، وكثرة الطاعات وترك المحرمات، حتى تفهم وتحفظ كلام الله ورسوله، وتفقه دين الإسلام بصورةٍ صحيحةٍ.

ثم قال الله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾، **قال بعض المفسرين**: إن (كلا) هنا بمعنى: حقًا[١]، **أي**: حقًا إنه بسبب كفرهم وإعراضهم عن آيات الله في الدنيا؛ حرمهم الله سبحانه وتعالى من النظر إليه في الآخرة، ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦]، وهذا دليلٌ على غضب الله عليهم؛ فإذا حجب الله العبد عن النظر إليه؛ فهو دليلٌ على أنه يكرهه، وأنه غير مُرحبٍ به عنده، وفي الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة؛ لأنه إذا كان الكافرون يُحجبون عن رؤيته عقوبةً لهم، فمعنى ذلك أن المؤمنين يرونه جائزة لهم، خلافًا **لقول المعتزلة الذين يقولون**: إن الله محجوبٌ عن الجميع، فلا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة[٢]، **فيقال لهم**: ما فائدة أن يذكر الله أنه قد حجب الكافرين عن رُؤيته.

ثم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦﴾، وهذا هو النوع الثاني من العذاب الموجه إلى الكفار، وهو: العذاب الحسي في النار، فهم داخلون إلى الجحيم على سبيل التخليد فيها يحترقون، من صلْي الشيء إذا أحرقته وأنضجته، والجحيم: اسمٌ من أسماء النار، سُمّيت كذلك لشدة اشتعالها وشدة حرها،

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢٦١).

(٢) ينظر: الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري (١٤)، والملل والنحل، للشهرستاني (١/ ٨٩).

إضافة إلى النوع الأول، وهو: العذاب النفسي لهم باحتجاب الله عنهم وعدم رؤيتهم له، وهو أمر شديدٌ على نفوسهم، فلا قيمة لهم عند الله، بل هم مُهانون ومحجوبون عن رؤيته.

ثم قال الله: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧﴾ ثم يُبكّتون ويُوبّخون بعد أن يدخلوا النار، ويقال لهم: أنتم كنتم تقولون: لا يوجد بعثٌ ولا يوجد نارٌ، فها هي أمامكم وأنتم تذوقون عذابها، وهو نوعٌ من العذاب النفسي لهم يتم عن طريق التوبيخ.!! وهكذا تنتهي قصة المكذبين في الدنيا والآخرة.

ومن طريقة القرآن؛ أنه إذا ذكر أهل الباطل وعقابهم؛ ذكر أهل الحق وجزاءهم؛ ولذا عقب هنا بوصف حال المؤمنين، **فقال**: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾، **كلا**: هنا بمعنى حقًا[١]، وتصلح أيضًا بمعنى حرف ردع وزجرٍ[٢]، **والمعنى**: ليس ما سبق عامًا لكل الخلق، بل هو خاصٌ بالكافرين، **وأما المؤمنون** فلهم شأنٌ آخر، ودارٌ أخرى، وجزاءٌ آخر، وسماهم أبرارًا لكثرة طاعاتهم وعباداتهم، ولفظة عليين مأخوذةٌ من العلو وهو المكان المرتفع، **فقيل هو**: عند سدرة المنتهى[٣]، **وقيل**: في السماء السابعة[٤]، **وقيل**: في مكانٍ مُرتفعٍ يتناهى ارتفاعه إلى حيث يشاء الله[٥].

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢٦٢).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٠/ ٢٠٢).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٢٩٢).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٢٩١).

(٥) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢٦٢).

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال كلها، كما قلنا في سجّين، **فنقول:** إن علّيّين؛ معناه العلو والسعة والارتفاع والشعور بالسعادة، والشعور بالمكانة عند الله سبحانه وتعالى، **وسِجينٌ:** معناه الضيق والشدة، والسفول، والشعور بالمهانة، وبذلك يتضح لنا مكان ومكانة الفريقين.!

ثم قال أيضًا: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾، **السؤال** يفيد التعظيم والتهويل، كما سبق.

ثم قال: ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾، **أي:** مختومٌ بأعمالهم، وفيه علامةٌ بأنهم صالحون ومكتوبٌ فيه حسناتهم.

ثم قال: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾، وهذه لفظةٌ زائدةٌ على اللفظ الذي وصف به كتاب الفجار، فكتاب الفجار لا عبرة به عند الملائكة، ولا يلتفتون إليه، ولا يحضرون عنده لما يحتويه من قبائح!! بل لا يصعد كتابُه ولا روحه إلى السماء، بل ترد وترمى في سجين، وهو نوعٌ من الاحتقار والذل له بسبب كفره!، أما كتاب المؤمنين الصالحين الأبرار، فإنه يحضره كل ملكٍ مُقربٍ في السموات السبع، ويمر من عندهم ويرون ما فيه.!!

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢﴾، فالأبرار ستكون أرواحهم بعد الموت في البرزخ في نعيمٍ إلى أن يتم البعث، ثم بعد البعث تجتمع الأرواح والأجساد، ويدخلون الجنة ويكونون في نعيمٍ، ونكّر النعيم لعظمته وكماله وتعدد أنواعه، ثم وصف بعض أحوالهم في هذا النعيم.

فقال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾، **الأرائك:** هي الأسرة المرتفعة التي عليها ستورٌ مرخاةٌ، وهي التي يجلس عليها الملوك، وأطلق لفظ: ينظرون ولم يذكر معموله؛ ليشمل كل أنواع النظر في الجنة، ينظرون في بعضهم بعضًا، ينظرون إلى نسائهم، إلى غلمانهم، إلى قصورهم، وينظرون إلى وجه الله الكريم، وهذا أشرف النظر وأكمله، ولعله هو المقصود هنا؛ لأن الآية التي بعده تدل عليه، **وهي قوله:** ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾، **نضرة النعيم، هي:** السرور والجمال وآثار النعمة التي في وجوههم وابتساماتهم وفرحهم بعد رؤيتهم لربهم، **كما قال:** ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[القيامة:٢٢-٢٣]، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة نظر المؤمنين لربهم في جنات النعيم[1]، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن ينظر إلى وجه الله الكريم في جنات الخلد.!

ثم قال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾، **الرحيق المقصود به هنا** عُصارة الخمر الطازجة المختومة، **ومعنى مختوم:** أي رحيقٌ معصورٌ ثم خُتم عليه بختمٍ فلا يُفتح إلا عند الشرب، وهو مرتبةٌ عُليا من الشراب، وإلا فهناك نهرٌ من خمرٍ، ولكن فرقٌ بين أن تشرب من النهر أو أن تشرب من وعاءٍ مغلقٍ ومختومٍ تفتحُه بنفسك.

ثم وصفه بقوله: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾، **أي:** نهاية الشراب يكون بطعم المسك، وحتى يبيّن لنا الفرق بين شراب الدنيا وبين شراب الآخرة، فإن شراب الدنيا غالبًا يكون في آخره شوائب تبقى في أسفل

(١) رواه البخاري: (٦/ ٤٤) برقم (٤٥٨١)، ومسلم (١/ ١٦٧)، برقم (١٨٣) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الكأس، وهذه الشوائب في الغالب لا تُشرب، أما شراب الآخرة؛ فآخره يكون أطيب من أوله، بل حينما تنتهي من شرابه تتذوق وتشم رائحة المسك مما يدل على عظمة هذا الشراب ورتبته.

ثم عقّب الله سبحانه وتعالى على ذلك بقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ **أي:** من أجل هذا النعيم وأسباب الوصول إليه؛ فليتنافس المتنافسون، فمن أراد أن يصل إلى هذا النعيم في الآخرة؛ فعليه أن ينافس غيره على العبادة والطاعة من الآن، وتقديم الجار والمجرور يفيد حصر التنافس المشروع فيما بعده، وهو التنافس على درجات الجنة ونعيمها، وهو المطلوب من كل مسلمٍ، وفيه إشارةٌ إلى تحقير أمر الدنيا والتنافس عليها.!!

ثم ذكر باقي أوصاف الشراب فقال سبحانه: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾، **أي:** أن هذا الشراب يُمزجُ من عينٍ اسمها تسنيم، وهي: عينٌ عاليةٌ مكانةً ورتبةً ومذاقًا في الجنة، **وسُميت بتسنيم**؛ من سنِمَ الشيء، إذا ارتفع وعلا، ومنه سنام الجمل، وهو الجزء المرتفع عن ظهره، حيث يُؤخذ منها قليلٌ من الماء ويُمزج بشرابهم به، وهو شراب الطبقة الثانية من أهل الجنة، وهم المؤمنون أصحاب اليمين.

ثم قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾، **المقربون**؛ هم السابقون وأصحاب المرتبة الأولى من أهل الجنة، وشرابهم كله من هذه العين المرتفعة في مكانها ومكانتها، حيث يشرب منها المقربون صرفًا دون أن يُمزج لهم ماؤها بغيره كما يفعل لغيرهم!، أو أن الباء في لفظ (بها) للملابسة، **أي**: أن أهل الجنة يشربون الرحيق، وهم مجتمعون حول هذه العين.!!

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾، هذا هو المقطع الأخير من سورة المطففين، وقد جاء ليُبيّن حال ووصف ما كان عليه الكفار والمكذبون المجرمون في الدنيا، وكان هذا هو موقف كفار قريش مع المؤمنين في مكة، فقد كان كُبراء القوم في بداية ظهور الإسلام على الكفر والتكذيب، وأغلب المؤمنين في مكة كانوا من المستضعفين، فقد كانوا إذا مرّوا بالمؤمنين وهم يُصلون أو يقرأون القرآن أو يتعبدون لله سبحانه وتعالى؛ يسخرون منهم ويضحكون عليهم.

ثم قال: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ **أي:** وإذا مرَّ المؤمنون من بين يدي الكفار، وهم جالسون في ناديهم، فإنه يحصل الغمز في هؤلاء المؤمنين من قِبل الكفار المجرمين، والغمز هو حركةٌ بطرف العين، **أي:** ينظر بعضُهم إلى بعضٍ؛ فيُحرِّكُ نظره على سبيل الاستهزاء والسخرية بالمؤمنين والتندر بحالهم.

قال: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾، **وفي قراءةٍ**(١): فاكهين، **أي:** مُتنعمين، أو تكون من الفكاهة، وهو الضحك والتندر، **والمعنى:** وإذا رجع هؤلاء الكفار بعد فعلهم هذا مع المؤمنين إلى أهلهم، رجعوا متنعمين بما هم عليه من النعم، أو رجعوا فرحين بما قاموا به من أذيةٍ للمؤمنين، وكل واحدٍ يذكر قصته التي فعلها مع المسلم المستضعف لمن حوله وهم يضحكون وينبسطون بفعله!!، وهذا في الحقيقة هو واقع المفسدين حتى اليوم؛ فإنهم يفعلون هذه الأفاعيل مع بعض الناس؛ فإذا اجتمعوا قص كلٌّ واحدٍ قصته،

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤١٨).

لِيُخبِر إخوانَه بما فعل بالآخرين، فيؤدي ذلك إلى الضحك وإلى الانبساط بينهم، أو تكون فاكهين من التّفكّه، وهو الحديث في أعراض الناس وهم غائبون، ولذلك تسمى الغيبة فاكهة مجالس أهل السوء، فإنهم يتفكّهون بالطعن في أعراض الناس والكلام فيهم، ويمكن الجمع بين كل ما سبق من معانٍ؛ فيدخل في ذلك أنهم كانوا منعمين، ويضحكون بما يفعلون بالمؤمنين، وكانوا يطعنون في أعراض الآخرين على سبيل الغيبة لهم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾، وإذا رأى الكفار المجرمون المؤمنين حكموا عليهم بالضلال؛ سبحان الله! بأي ميزانٍ يزنون الهدى والضلال، كيف ترى مؤمنًا يُصلي ويذكر الله، فتقول: هذا ضال؟!! إنه ميزان مقلوب!! ورثوه من عادات الآباء والأجداد ودينهم الباطل، فعندما يُقارِن ما يفعله هذا المؤمن من عبادةٍ وطاعةٍ، وبين ما هو عليه وقومُه من انحرافٍ وشركٍ وفسادٍ، فإنه يحكم على هذا المؤمن بالضلال، لمخالفته لدين الآباء والأجداد، ولذلك في أول الإسلام أُطلق على المؤمنين أنهم صبأوا، والصابئ هو الذي مال عن دين آبائه وأجداده وانحرف عنه، فهذا هو ميزان الكفار في الحكم على المؤمنين بالضلال.!!

فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣﴾، **أي:** هؤلاء الكفار المجرمون ليسوا بمُوكلين بالحُكم على هؤلاء المؤمنين، ولا بحفظ أعمالهم، ولا بتقييم سلوكهم؛ حتى يقولوا هذا القول الباطل، ولكنها انتكاسة الفطرة وانقلاب الموازين؛ أن يتحول الضال المنحرف إلى حاكمٍ ومُقيّمٍ للمؤمن

الصالح الموحد!!، وهذا يدل على أن المتغلب القوي هو من يحكم على المستضعف، فقد كانت السلطة والأمر والأغلبية بيد الكفار؛ وكانوا هم الذين يحكمون على المؤمنين بالضلال والانحراف، ولما قوي الإيمان وانتشر وصار أهله أقوياء؛ صار الحكم للمؤمنين، ولذلك ظهر النفاق في المدينة ولم يظهر في مكة، فصار الحُكم الواسع المؤثر في القوم هو الإسلام فلا بد من إظهاره.!!.

ثم قال الله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤﴾، **أي:** في يوم القيامة يتغير الحال، وعبّر هنا بالفاء التي تُفيد التعقيب دون تراخٍ، فطوى مراحل الحياة الدنيا في لحظاتٍ وألغى عمل سنواتٍ طِوالٍ قضاها الكافرون في غمز المؤمنين!! فالحال في الدنيا كان الكافر يضحك من المؤمن استهزاءً، ومرت الأيام وانقلبت الأحوال؛ فنُعِّم المؤمن وعُذب الكافر، فصار المؤمن يضحك من حال الكافر ومصيره في النار، وسماهم في الدنيا أثناء غمزهم للمؤمنين مجرمين؛ لتعلق أثر فعلهم القبيح بالمؤمنين، وهنا أطلق عليهم اسم الكفر؛ لأن كفرهم بالله واليوم الآخر، هو سبب خلودهم في النار.

وقوله: ﴿يَضۡحَكُونَ﴾، فضحك المؤمن من الكافر يوم القيامة؛ إنما يكون جزاءً وفاقًا، حيث كان الكافر يضحك على المؤمن في الدنيا، وشتان بين الحالين، بين من يضحك وهو جالس على حجرٍ، لأن قريش لم يكن لديهم أرائك، وأحسنهم حالًا من يجلس على قطعةٍ من الجلد أو من الحصير على ردائه، وبين من يضحك وهو على أريكته في مكان التنعم والرفعة وراحة النفس والبال!!.

ثـم قـال في وصـفهم: ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣﴾، ينظـرون إلـى مـاذا؟، **قيـل:** ينظرون إلى الكافر وهو يُعذب ويتألم من أجل أن ترتـاحَ نفسُه ويـذهب ما فيها من آثار ظلم هذا الكافر الذي كـان يؤذيه في الـدنيا[١]، **وقيـل:** ينظـرون إلـى وجه الله، فهو أعظم نعمةٍ للمؤمنين في الجنة[٢]، **وقيل:** بل ينظرون فيما آتـاهم الله مـن النعيم[٣]، **والحقيقة** أن حمل اللفظ على العموم أولى حتى يـشمل كـل مـا سبق، فهم ينظرون إلى الكفار نظرة ازدراءٍ، وينظرون إلـى مـا أعـده الله لهـم مـن الـنعم، وينظرون إلى الله، فيزدادون نضرةً وجمالًا وارتياحًا.!!

ثم ختم الله القصة بقوله: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾، **أي:** هل جُوزِيَ الكفار على أعمالهم التي عملوها في الدنيا بالعذاب الذي يجدونـه في الآخـرة؟!

الجواب: نعم؛ لأن الله لا يظلم أحدًا، فما حصل لهم من العذاب، إنما هو جـزاءٌ على أعمالهم.

فوائد وهدايات من السورة:

١- بيان خطورة التطفيف في الكيل والوزن وسائر المعاملات.

٢- بيان خطورة المعصية على القلب وأثرها في فساده وانحرافه.

٣- أن الله حجب الكافرين عن رؤيته عقوبةً لهم، وأن جائزة المؤمنين هـي:

---

(١) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤/ ٤١٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٣٥٤).

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي (٩١٦).

النظر إليه ورؤيته، سبحانه وتعالى، في دار كرامته.

٤- أن المتغلب هو من يحكم على المستضعف غالبًا، ويقيّم سلوكه بناءً على مذهبه.

٥- أن الجزاء في الآخرة يكون من جنس العمل في الدنيا.

تفسير سورة الانشقاق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ (١) وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ (٢) وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ (٣) وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ
(٤) وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنۡ
أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا (٩) وَأَمَّا مَنۡ
أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ (١٠) فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا (١١) وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا (١٣)
إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا (١٥) فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ (١٦) وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ
(١٧) وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ (١٨) لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ (١٩) فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ (٢١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣)
فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ (٢٥)﴾.

شخصية السورة:

سورة الانشقاق: سورةٌ مكيةٌ[(١)]، ومقصدها العام بيان علامات قيام الساعة، ورجوع الخلق إلى ربهم وانقسامهم في عرصات القيامة إلى مفلحين وهالكين، **وجاءت في الترتيب بعد المطففين، والمناسبة بينهما**: أن في نهاية سورة المطففين ذكر الله فيها جزاء الكفار، ثم جاءت سورة الانشقاق لبيان موعد ذلك الجزاء

---

(١) ويقال: سورة انشقت، وهي مكية بلا خلاف، ينظر: روح المعاني للألوسي (١٥/ ٢٨٦).

وأنه سيكون في يوم القيامة الذي يأتي بعد قيام الساعة وحصول علاماتِها الكبرى من انشقاق السماء ومد الأرض.

قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾، **أي:** تشققت، وتصدّعت، للإذن بخراب الكون، والمقصود بها السماء المعروفة، وهو ظاهر السياق، وقال بعضهم: تشقق السماء الجديدة التي بُدِّلت؛ لنزول الملائكة[1] منها ليقفوا بين يدي الله صفًا واحدًا.

وقوله: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢﴾، **أي:** استمعت وأطاعت ونفّذت أمره، كما نفذته عند الخلق، **كما في قوله:** ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

وقوله: ﴿وَحُقَّتۡ﴾، **أي:** وحُق لها أن تسمع لربها، وأن تستسلم وتُذعِن وتُطيع أمره، فلا أحد في هذا الكون يملك أن يعصي الله، أو يتمرد على أمره، وفي هذا تنبيهٌ للعصاة من العباد الذين يخالفون أمر الله ويعصونه؛ وقد خلقهم الله وأعطاهم السمع والبصر والعقول، ثم أمرهم فلم يطيعوه، بينما أطاعته الجمادات الكبيرة العظيمة مثل السموات والأراض.

ثم قال: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣﴾، ويأمر الله سبحانه وتعالى يوم القيامة الأرض أن تمتد حتى تتسع للخلق أجمعين، فإن هذه الأرض لو بقت كما هي عليه في خِلقَتها الآن لن تسِعَ الخلق كلهم حين يُبعثون يوم القيامة من آدم إلى آخرهم؛ ففيها جبالٌ وأودية ومُنعطفاتٌ، وفيها مياهٌ وبحارٌ، أما أرض يوم القيامة

(١) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٥/ ٤٥٦).

فتمد، **كما في قوله:** ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾[طه:١٠٧]، فتكون كما جاء في الحديث: "**يُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها علم لأحد**"[(١)]، وقُرصة النقي؛ هو قرص خبز البر، **أي:** دائرية مُستوية ليس فيها مكانٌ مرتفعٌ ولا منخفضٌ، **وهذا المد يكون على وجهين:** مد المكور فينبسط، ثم يأمرها الله أمرًا آخر فتزداد اتساعًا وامتدادًا لتكون أرض المحشر، وتكون دائريةً لا عِوج فيها ولا أمتا؛ فلا يوجد فيها مكانٌ للاختباء.!!

وقوله: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾، ومن آثار الامتداد إخراج ما في بطن الأرض وإلقاؤه، وهو أمران: إما الأموات كما في قوله ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار:٤]، **وإما إخراج الكنوز** التي في باطنها، **كما في قوله:** ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[الزلزلة:٢]، فإنها أيضًا تُلقي بها ويراها الناس؛ فيستغربون منها كيف تقاتلوا على شيءٍ ثم لم يصلوا إليه، وإذا به يُنثرُ يوم القيامة بين أيديهم!! وسواء قلنا: الأموات أو الكنوز أو هما معًا، فلا تعارض بينهما، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾، **أي:** استمعت وأطاعت ربها، وحُق لها أن تسمع وتُطيع ولا تُخالف أمر الله.

وجوابُ الشرط، محذوف يُفهم من السياق، **وتقديرُه:** أن البعث والنشور كائنٌ لا محالة، **وقيل:** بل مذكورٌ في قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، بعد أن تنشق السماء وتمتد الأرض، **وأن قوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾، جملةٌ

---

(١) رواه البخاري (٨/ ١٠٩)، برقم (٦٥٢١)، ومسلم (٤/ ٢١٥٠)، برقم (٢٧٩٠)، عن سهل بن سعد.

اعتراضيةٌ للبيان(١)، وعلى كلا القولين فإن جواب القسم يتعلق بالبعث والنشور، ولا تعارض بينهما، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾، **المقصود بالإنسان** هنا جنس الإنسان، الكافر والمؤمن، والذكر والأنثى، وكادحٌ: معناه كادحٌ في عمله وباذلٌ جهده ونشاطَه فيه، أو أنت أيها الإنسان مُعد للكدح، وهو العمل والنشاط مُطلقًا، في باب الخير أو في باب الشر، **قال** ﷺ: **"كل الناس يغدو فبائعٌ نفسه فمُعتقها أو مُوبقها"**(٢)، فهذا كادحٌ في الخير، وذاك كادحٌ في الشر، **وفي الحديث**: **"أصدق الأسماء حارثٌ وهمامٌ"**(٣)؛ لأنهما صفتان موجودتان في تركيبة الإنسان وينطبقان على حاله، فهو يعمل، ويهِم.

وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾، فيها بيان الغاية والنهاية وتوكيدٌ للعمل، **أي**: أنه مستمرٌ في الكدح طيلة حياته، والفاء تعقيبيةٌ، **والمعنى**: فملاقي الله؛ فيُحاسبَه، أو ملاقي عمله في صحائفه، **والراجح**: الأول؛ لأن الضمير يعود إلى أقرب مذكورٍ، وهو لفظ الجلالة، وسيلاقي عمله تبعًا لذلك، كما سيأتي في الآيات التي بعدها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧﴾، هذا تقسيمٌ للعموم الأول، وبيانٌ لأصناف الناس في الآخرة؛ بناءً على ثمرة كدحهم وأعمالهم في الدنيا؛ فمن

(١) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤/ ٤١٩).

(٢) رواه مسلم: (١/ ٢٠٣)، برقم (٢٢٣)، عن أبي مالك الأشعري.

(٣) رواه الطبراني في العجم الأوسط برقم (٦٩٤)، (١/ ٢١٤) وإسناده صحيح.

كان عملُه في الخير والطاعة؛ فسيُعطى صحيفتُه في يمينه، ومن كان عملُه في الشر والمعصية؛ فسيُعطى صحيفتُه في شماله أو من وراء ظهره، **فبدأ بالقسم الأول**: وهو الذي يُعطى صحيفتُه وكتابُه فيقبضُها بيمينه، وهي علامةٌ على البشرى.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾، **أي**: سيكون حسابُه يسيرًا، **والحساب اليسير**: هو العرض فقط، كما جاء في حديث عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لمّا سألت النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، عن ذلك، فقال: **"إنما هو العرض، فمن نُوقِش الحساب عُذّب"**[١]، حيث يُدني الربُ سبحانه وتعالى عبدَه المؤمن، فيقول: عبدي عملت كذا وكذا، حتى إذا ظن أنه هالكٌ، قال: **"سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم"**[٢]، فهذا هو الحساب اليسير، يعني: السهل، الذي ليس فيه أي مناقشة.

وقوله: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾، **أي**: بعد أن يكمل الحساب ينطلق إلى أهله في الجنة سريعًا، يرافقه السرور والفرح بهذا الجزاء، وقد أعطى الله سبحانه وتعالى المؤمن أهلاً في الجنة، يكونون في انتظاره، ومستعدين لاستقباله، **وفي الحديث**: **"ولأحدُكم أعرفُ بقصره في الجنة منه ببيته في الدنيا"**[٣].

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾، **هذا هو الصنف الثاني من الناس**، وهو الذي يُعطى كتابُه من وراء ظهره، وهي علامةٌ على الشقاء، **قيل**: إن الكتاب

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٢)، برقم (١٠٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٤) برقم (٢٨٧٦).

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٢٨)، برقم (٢٤٤١)، ومسلم (٤/ ٢١٢٠)، برقم (٢٧٦٨)، عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري، (٢/ ١٢٨)، برقم (٢٤٤٠)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُؤتى به إلى شماله، ولكن شماله تُعطف إلى خلفه، احتقارًا وأذيةً له[١]، **وقيل:** بعض الناس يُعطى كتابُه بشماله، وبعض الناس يُرمى كتابُه وراء ظهره[٢]، ولا تعارض بين تلك الأقوال، فكلها علاماتٌ تدل على شقائه، وأنه كان كادحًا في الدنيا في عمل الشر والباطل.

وقوله: ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ١١﴾، هذا وصفٌ لحاله عند استلامه لكتاب أعماله، الممتلئ بالسيئات والمعاصي التي ستقوده إلى النار، والعياذ بالله، فعندما يراها يصيح ويدعو على نفسه بالثبور والهلاك، **فيقال له ولأمثاله:** ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾[الفرقان:١٤]، فلا فائدة من ذلك، ثم بيّن الله مصيره **فقال:** ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ١٢﴾، **أي:** ويدخل نار السعير في جهنم، فيهلك فيها ويحترق.

ثم بيّن الله سبب ذلك فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣﴾، **أي:** كان في أهله في الدنيا مسرورًا بفعل الكفر والقبائح، وكان يستخدم نعم الله في معصيته ويفرح بذلك، ولا يمكن أن يجتمع السرور بالمعاصي والتلذذ بها في الدنيا، والسرور في الآخرة، بل ينقلب حاله يوم القيامة غمًا وهمًا وثبورًا، وهذا السبب الأول لثبوره.

ثم ذكر السبب الثاني، فقال: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾، **أي:** وكان في الدنيا أيضًا مكذبًا بالبعث والنشور، وشاكًا أنه لن يرجع إلى الله؛ فيُحاسبه، فرد الله عليه هذا الظن الباطل بقوله: ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ١٥﴾، بلى سترجع، وستُبعث

---

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٤/ ٣١٥)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٣٠/ ٢٢٣).

(٢) ينظر: تفسير السمعاني، (٥/ ٢٦٦).

وتُحاسب، فلم يخلقك الله عبثًا، ولن يتركك سدىً، والعبارة تفيد التهديد والوعيد، فالله تعالى يراقِب حاله ويرصُد أفعاله من بلوغه إلى موته، ولم يغب عن بصر الله لحظةً، فكل شيءٍ مرصودٌ عليه؛ ويوم القيامة يُجازى عليه، فالله سبحانه بصيرٌ به في حياته، وبعد بعثته ورجوعه إليه.

ثم خُتمت السورة بقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾﴾ **قال بعضُهم:** (لا) هنا، بمعنى: بل، وهي حرفُ إضرابٍ عن ما سبق، كأنه يقول: ليس صحيحًا ما ظنه ذلك الإنسان من أنه لن يُبعث، بل أُقسمُ بكذا[1].

وقال آخرون: لا، هنا للتوكيد[2]، وليست زائدة، **كما يقول البعض**[3]: فلا يوجد في القرآن حرفٌ زائدٌ، **والمعنى:** أُقسمُ بالشفق، **والشفق:** هو الحُمرة التي تكون عند غروب الشمس، وبها يدخل المغرب، وينتهي وقته بانتهاء الشفق الأحمر، **وقيل:** أقسم بالليل كله الذي الشفق أوله، من باب ذكر الجزء وإرادة الكل[4]، والصحيح الأول[5]، وهو قول جمهور المفسرين، لأنه أقسم بالليل في الآية التي بعدها.

فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾، **فأقسم الله هنا بشيئين:** بالليل؛ وهو دخول

---

(١) ينظر: تفسير السمعاني (٥/ ٣٥٨).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٢٧/ ٣٣٠).

(٣) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (٥/ ٤٥٨).

(٤) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٤/ ٣١٨).

(٥) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤/ ٤٢١).

ظلمة الليل كاملة، وهي التي تأتي بعد الشفق مباشرةً، وما جمع الليل واحتواه من كل من يعيش فيه من الحيوانات وسائر المخلوقات، فإنه إذا جاء الليل فكل مخلوقٍ يأوي إلى مكانه، ويتهيأ لظلمة الليل ويسكن خلاله عن الحركة، فهو قسمٌ بالليل وبكل المخلوقات التي يحتويها الليل.

ثم قال: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾، أقسم بالقمر إذا اجتمع واكتمل نورُه، وهو الكوكب الذي يظهر في السماء هلالًا صغيرًا في أول الشهر ثم يكبر حتى يكتمل نوره ليلة أربعة عشر أو ليلة خمسة عشر.

ثم بعد جاء جوابُ القسم في قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾، واختلف المفسرون **في معناها على أقوالٍ:**

الأول(١): **أي**: لتعيشُن أيها الناس حالًا بعد حالٍ، فأحوالكم متعددةٌ، تبدأ نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً ثم بعد ذلك يصيرون خلقًا كاملًا، ثم يولد الجنين ثم يكون طفلًا ثم يشب ثم يكبُر ثم يشيب، ثم يضعُف ثم يموت، فهذه أطوارُ حياة الخلق، وكذلك الحال في تقلب الأزمان، وتنوع الأماكن التي يعيش فيها الخلق، بل حتى قلوب الخلق وجوارحهم تتقلب من حالٍ إلى حالٍ؛ فتُقبِل على الله وتُدبر عنه، وتطيع الله وتعصيه، وتقترب منه وتبتعد عنه، فكل هذه المعاني داخلة في معنى الآية.

والقول الثاني(٢): لتتبعُن سنن من كان قبلكم، فما فعله اليهود والنصارى

---

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري (٢٤/ ٣٢٢).

(٢) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤/ ٤٢٢).

ستفعلونه، حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه، كما في الحديث[١].

والقول الثالث[٢]: أن هذه إشارةٌ للنبي ﷺ بأنه سيركب طبقًا عن طبقٍ عند العروج به إلى السماء فيمر بطبقاتها السبع، والراجح هو القول الأول؛ لأنه عامٌ، فيشمل كل ما يتعلق بالخلق، والحياة التي يعيشها الإنسان حتى يموت.!!

ثم قال الله سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾، السؤال استنكاريٌ، وهو مُوجهٌ للكفار، والمعنى: ما الذي منعهم من الإيمان بمحمدٍ ﷺ، وما جاء به من الحق، وقد اتضحت لهم البراهين والحُجج بأن الله هو الخالق القادر الموجِد الذي يستحق وحده العبادة؟!، والجواب: منعهم من الإيمان الكِبر والحسد واتباع عادات الآباء والأجداد، مع اعترافهم بأن القرآن حقٌ، وأن محمدًا ﷺ صادقٌ، وفي قصة أبي جهلٍ تبيانٌ لسبب كفرهم، حيث قال: كنا نحنُ وبنو عبد منافٍ في تنافسٍ، حتى إذا كنا كفرسي رهانٍ، قالوا: منا نبيٌ، ومن أين لنا نبيٌ، والله لا نؤمن به[٣]، فالسبب هنا واضحٌ وهو التنافس على الصدارة، فإما أن يكون لنا نبيٌ مثلهم، وإلا فلا نؤمن به.!!

ثم قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١﴾، وهذا استكمالٌ للسؤال السابق، فلماذا لم يؤمنوا بمحمدٍ ﷺ، وما جاء به من الحق، ولماذا لا يسجدون إذا سمعوا القرآن؟!! وهم أهل الفصاحة وأرباب البلاغة، وقد

---

(١) رواه البخاري: (٤/ ١٦٩) برقم (٣٤٥٦)، ومسلم: (٤/ ٢٠٥٤)، برقم (٢٦٦٩).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (١٩/ ٢٧٨).

(٣) ينظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣١٦).

أعجزهم القرآن ببلاغته وفصاحته، فالسؤال استنكاريٌ تعجبيٌ من حالهم، والواجب عليهم عند استماعهم إلى آياته أن يخضعوا لبلاغته، وأن يؤمنوا به!!، والسجود، **هنا له معنيان**(١): **إما السجود الحسي**: وهو سجود الأعضاء، **وإما السجود المعنوي**: وهو الاستسلام والخضوع لأمر الله والإيمان بالقرآن الذي فيه الحجج والبراهين والإعجاز، وكلاهما مرادٌ من لفظ الآية.!

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾، لكن الكفار طبعهم التكذيب والجحود، مهما جاءتهم الحُجج والبراهين؛ لأن الله لم يُرد أن يهديهم وطبع على قلوبهم فهم لا يؤمنون.!

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾، والله سبحانه وتعالى، مُطلعٌ على ما يجمعونه في قلوبِهم من الأفكار والخواطِر السيئة، فالقلب مثل الوعاء، والكافر يجمع في قلبه الظنون والخواطر الباطلة، والله مُطلعٌ عليها وعالمٌ بها.

ثم ختم قصتهم بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾، البشرى في الأصل: تكون في الخير، ولكنها جاءت هنا على سبيل التوبيخ والتأنيب لهم، فالعذاب الأليم ينتظرهم، وهو عذاب جهنم، وهو خاصٌ بالكفار، لأن الله سبحانه وتعالى استثنى منه المؤمنين.

فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونِۭ ﴿٢٥﴾﴾، فمَن هذه صفاته فليس مبشرًا بالعذاب الأليم، بل مُبشرٌ بالأجر غير الممنون، وهو الجنة،

---

(١) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (٤/ ٤٢٢).

وغير ممنون معناه: الذي لا ينقطع وليس فيه نقصٌ ولا أذيةٌ، وهذا لا شك وصف الجنة وما فيها، مما أعده الله جزاءً للمؤمنين فلا انقطاع فيه ولا نقصٌ، ولا أذية فيه مطلقًا، فكل ما يُتأذى منه، فلا يوجد منه شيءٌ في الجنة، فلا يوجد في الجنة مُخاطٌ ولا بولٌ ولا غائطٌ، ولا شيءٌ من الروائح الكريهة؛ لأنها مما يتأذى منه الإنسان في الدنيا، وما يأكله أو يشربه أهل الجنة يخرج منهم رشحًا كرشح المسك!! كما في الحديث[1]، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة.

فوائد وهدايات من السورة:

١- خضوع الكون لله، ومنه السماء والأرض، فمن باب أولى أن يخضع ويسمع الإنسان المكلف ولا يعصي ربه.

٢- طبيعة الإنسان أن الله خلقه كادحًا، يعمل ويسعى في كل حياته، إما في خيرٍ وإما في شرٍ، فانظر ما الذي تكدح فيه وتسعى فيه، فالنتيجة ستجدها عند البعث والنشور.

٣- من علامات السعادة يوم القيامة أن تأخذ كتابك بيمينك، ومن علامة الشقاوة أن تأخذه بالشمال أو من وراء الظهر.

٤- بعض الفرق المنحرفة مأثورٌ عنهم أنهم إذا مات فيهم الميت؛ يكسرون يده اليُسرى عند الدفن؛ لأجل أن يقوم يوم القيامة وهي مكسورةٌ فيُمسك كتابه

(١) رواه البخاري: (٤/ ١٣٢) برقم (٣٣٢٧)، ومسلم: (٤/ ٢١٧٩)، برقم (٢٨٣٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

باليمين! مغالطةٌ حتى مع رب العالمين!!، ولا يعرفون أن هذه اليد المكسورة أو السليمة ستأكلها الدود، ويُبعث من جديدٍ، ولكن هكذا الاعتقاد الباطل.

٥- بعض العوام لمّا يدفن الميت يفتح يده، ويضع فيها بعض التراب؛ من أجل أن يُقابل الله بهذا التراب! بمعنى أنه خرج من هذه الدنيا ولم يأخذ منها شيئًا، وهذه اليد أيضًا ستأكلها الدود ولا يُمسك ترابًا ولا هم يحزنون.!!

تفسير سورة البروج

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ
٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧ وَمَا
نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ
وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ
ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤
ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾.

شخصية السورة:

سورة البروج؛ سورةٌ مكيةٌ بالاتفاق[(١)]، **ومقصد السورة**، التركيز على إظهار قوة الله تعالى وإحاطته بالخلق وتوعُّده للمتربصين بالمؤمنين بالعذاب الشديد[(٢)].

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٢٣٦).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢١/ ٣٥٣).

قوله سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١﴾، أقسم الله بالسماء صاحبة البروج، **أي**: المنازل[١]، وهي منازل الشمس والقمر، فالله سبحانه وتعالى قدّر للشمس والقمر منازل، وجعلها تجري في المنازل بحسابٍ مُعينٍ؛ ولذلك يجيء الليل والنهار، وتجيء الفصول الأربعة، وتعود السنوات، وتذهب الليالي والأيام بناءً على تلك المنازل.

ثم قال: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢﴾، أقسم باليوم الموعود، وهو يوم القيامة، وسُمي بهذا الاسم؛ لأن الله وعد أن يجمع الناس إليه، ويحاسبوا فيه.

ثم قال: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣﴾، وأقسم **بالشاهد** وهو اسمُ جنسٍ لكل شاهدٍ ولكل مشهودٍ، لأنه ما من شيءٍ إلا يكونُ فيه شاهدٌ ومشهودٌ، وما من قضيةٍ تُثار إلا يكون عليها شاهدٌ ومشهودٌ، وقد اختلف المفسرون في ذلك، فقيل: الشاهد يوم الجمعة، **والمشهود**: يوم عرفة[٢]، **وقيل**: الشاهد محمد، والمشهود أمته[٣]، **وقيل** غير ذلك من الأقوال[٤]، والعموم والشمول أولى، فإن القسم بالشيء إشارةٌ إلى تعظيمه، وعندما يكونُ مطلقًا فالعظمة فيه أبلغ، فيدخل في ذلك كلُ من ذُكر.

وجوابُ القسم محذوفٌ ويُستفادُ من السياق، وتقديره، ليُعاقِبن الله من فعل ذلك بالمؤمنين، أو إنكم مُعاقَبون يا أهل مكة، كما عُوقب غيرُكم من المكذبين[٥].

---

(١) ينظر: جمهرة اللغة (١/ ٢٦٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٣٣٣).

(٣) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٧٢٩).

(٤) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٢٣).

(٥) ينظر: تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥/ ٣٠٠).

ثم قال الله سبحانه: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤﴾، هذا اللفظ يصلح أن يكون خبرًا، أو يكون دعاءً، فعلى الخبر، **فمعناه:** أن الله أخبر عن موت أصحاب الأخدود، وهم المؤمنون الذين وُضعوا داخل الأخاديد واحترقوا فيها، ونُسبوا إليها لأنهم ماتوا فيها، وعلى سبيل الدعاء، **فيكون المعنى:** لُعن وطُرد من رحمة الله الذين شقّوا الأخاديد وهم الكفار، فالكفار يُسمون أصحاب الأخدود؛ لحفرها وشقها، والمؤمنون يُسمون أصحاب الأخدود؛ لأنهم ماتوا بداخلها، فالمعنى يختلف بحسب الأسلوب.

ثم قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥﴾، هذه الجملة بدل من التي قبلها، فكأن المعنى: قُتل الناس في الأخاديد التي هي النار، ففسّر الأخدود هنا بالنار، والأخدود في أصل اللغة، هو المكان المحفور المشقوق[1]، ثم في هذا المكان المحفور المشقوق وُضعَ الحطب وأُشعل فيه النار، فصار أسفل المكان المحفور نارًا مشتعلة، ولا تُسمى النار بذات الوقود إلا إذا كانت مشتعلة، فالوقود هو ما يشتعل، **كقوله:** ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[البقرة:٢٤] **أي:** سبب اشتعالها أو المادة المشتعلة فيها، هي الناس والحجارة[2]، فأُوقِدت النار أولًا بالحطب الذي جمعه الكفار حتى إذا صارت نارًا مُشتعلة؛ قذفوا فيها المؤمنين، فاشتعلت أيضًا بأجسادهم.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦﴾، هذه العبارة، يُمكن أن

---

(١) ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها (٢/ ٤٥٣).

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١١٠).

تُفسر أن المقصود بها المؤمنون، ويُمكن أن تفسر أن المقصود بها الكافرون بناءً على ما سبق من تفسير لفظ (قُتل)، هل هو خبرٌ أم دُعاءٌ.

فإن قلت: خبر عن المؤمنين، **فيكون المعنى:** إذ المؤمنون جالسين على هذه الأخاديد، حيث أجلسهم الكفار على النار، فاشتعلت بهم حينما قُذفوا فيها[(١)].

وإن قلت: دعاء على الكفار، **فيكون المعنى:** أن الكفار جالسين حول الأخاديد يتفرجون على اشتعال النار بالمؤمنين داخل الأخاديد، والراجح هذا، وهو قول أكثر المفسرين؛ لأن السياق يقتضي ذلك.

وقوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾، الضمير هنا عائدٌ إلى الكفار، فلا بد أن يكون الضمير الأول للكفار؛ فتتحد مراجع الضمائر، وتكون متتالية ومتناسقة، **فيكون معنى الآية على الوجه الأرجح:** لُعن وطُرد الذين شقوا الأخاديد وأوقدوا فيها النيران وجلسوا على شُرُفاتها ينظرون في المؤمنين وهم يحترقون في تلك الأخاديد الموقدة بالنار، وفي هذا إشارةٌ إلى قُبح وفساد وقساوة قلوب هؤلاء الكفار، وأن الرحمة والشفقة ذهبت من قلوبهم، فكيف يُلقون بطفلٍ أو امرأةٍ أو رجلٍ، ثم يقعدون ينظُرون إليه وهو يحترق، وهم يستمتعون بذلك المنظر المؤلم؟!!، مما يدل على أنهم قد بلغوا في القساوة أعلاها، ولم يعد لديهم رحمةٌ ولا شفقةٌ، ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى هذا المستوى من القسوة إلا بعد أن يقع في الفجور والكفر والمعاصي التي تُذهب

(١) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٨/ ٤٨٥).

عنه الشعور بالرحمة والشفقة، **كما قال:** ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[البقرة:٧٤]، فالكافر من كثرة إجرامه يُصبح قلبُه قاسيًا بل أشد قسوةً من الحجارة.!!

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾، بيّن هنا السبب الذي من أجله حفروا الأخاديد وأوقدوا فيها النيران وألقوا فيها المؤمنين، وهو أن هؤلاء المؤمنين لم يلحقُوا بدين أولئك الكافرين، بل آمنوا بالله العزيز الحميد؛ فالخلاف بينهم عقدي، وهنا أمرٌ لا بد أن يُنتبه له، وهو أن أي خلافٍ بين فريقين أصله عقدي، فإن الحرب ستكون مُشتعلة وقوية وشديدة بين أهله؛ لأن الدافع عقيدة ودين، بخلاف الخلافات التي يكون منشأها دنيويًا، أو مصلحيًا، أو سياسيًا، فهذه تنتهي بانتهاء المشكلة، لكن أن تختلف مع غيرك بسبب الدين فهنا سيكون الخلاف كبيرًا وعميقًا ومُستمرًا حتى يترك أحدٌ منكما مخالفته للآخر ويلحق بدينه، وهؤلاء ما انتقموا من المؤمنين وعذَّبوهم هذا التعذيب، وفعلوا بهم هذا التنكيل إلا بسبب أنهم آمنوا بربهم سبحانه وتعالى ووحدوا الله العزيز الحميد، وأولئك القوم المجرمون المكذبون كانوا يعبدون غير الله.

واختلف في تحديد دين أصحاب الأخدود، والصحيح أنهم كانوا من النصارى المؤمنين الموحدين على دين عيسى(١)، وأن الملك الذي أمر بقتلهم هو ذو نواس الحميري(٢)، وكان على الكفر والشرك، وقد جاء تفاصيل قصة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١١٠).

(٢) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٦٢)، وغيره.

أصحاب الأخدود من حديث صهيب، **أن رسول الله ﷺ، قال:** "كان ملك فيمن كان قبلكم له ساحر، فلما كبر، قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إلي غلامًا أعلمه السحر، فبعث له غلامًا يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه وأعجبه، فكان إذا أتى الساحر ضربه، وإذا رجع من عند الساحر قعد إلى الراهب وسمع كلامه، فإذا أتى أهله ضربوه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال له: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابةٍ عظيمةٍ قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم: الراهب أفضل أم الساحر؟ فأخذ حجرًا ثم قال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بُني، أنت اليوم أفضل مني وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ، فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي سائر الأدواء، فسمع جليس للملك، وكان قد عمي، فأتى الغلام بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجمع؛ إن أنت شفيتني، قال: إني لا أشفي أحدًا إنما يشفي الله، إن آمنت بالله؛ دعوت الله فشفاك، فآمن بالله، فشفاه الله، فأتى الملك يمشي، وجلس إليه كما كان يجلس، فقال الملك: فلانٌ من رد عليك بصرك؟، قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟، قال: ربي وربك واحد، فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل، وتفعل؟، قال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فأخذه، فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في

مفرق رأسه، فشق به حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك، فقيل: ارجع عن دينك، فأبي، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبي، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟، قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى قوم من أصحابه، فقال: اذهبوا به، فاحملوه في قرقور، فوسطوا به البحر، فلججوا به، فإن رجع عن دينه، وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟، قال: كفانيهم الله، وقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟، قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتك، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، ثم صلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد قوسه، ثم، قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، ثلاثـًا، فأتي الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخُدْت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال

لها الغلام: يا أمه اصبري، فإنك على الحق"[١].

وجمع بين اسميه العزيز والحميد لحكمة؛ وهي: أن معنى العزيز يُشعر بالقوة والعزة وأنه سيقتص منهم ويُعذبهم وينصر أولياءه عليهم، وقرنه بالحميد؛ الذي يشعر بأن فعله بخلقه محمود دائمًا، ومن الفعل المحمود هنا، أنه يُمهلُ العصاة والكفار لعلهم أن يتوبوا.

ثم قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩﴾، فالله العزيز الحميد هو صاحب الملك والتصرف في السموات وفي الأرض، وهو شهيدٌ حاضرٌ مُطّلعٌ لا تخفى عليه خافيةٌ، وفيه تطمين للمظلومين الموجوعين، بأن الله شاهدٌ ومُطّلعٌ على ما حلّ بهم، ولن يضيعَ حقهم عنده سبحانه، بل سيقتص لهم من عدوهم، ويُعطيهم الجزاء الذي يستحقون.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠﴾، والآية عامة، يدخل فيها الذين فتنوا هؤلاء المؤمنين والمؤمنات في الأخاديد من أصحاب هذا الملك الكافر، ويدخل فيها كل من يفتِن مؤمنًا ومؤمنةً في أي وقتٍ وفي أي زمانٍ، ككفار مكة الذين كانوا يفتنون المؤمنين الأوائل ويحاولون ردهم عن دينهم، كما حصل لبلال وعمار بن ياسر وغيرهم من المستضعفين، **وكان النبي ﷺ** يمر على عمار وأهله وهم يعذبون **ويقول لهم: "صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة"**[٢]، **والمقصود بالفتنة** عموم

(١) رواه مسلم، (٤/ ٢٢٩٩) برقم (٣٠٠٥).

(٢) ينظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ١٤٠)، وصحيح السيرة ص١٥٤.

الابتلاء لإخراجهم من دينهم، **وإن كان أصل الفتنة في اللغة:** عرض الذهب على النار ليحترق فيخرج منه الخبيث ويبقى الطّيب(١)، فيكون معنى فتنوا في قصة أصحاب الأخدود: أحرقوا المؤمنين بالنار، وفي غيرهم مطلق الفتنة وهي: محاولة إخراجهم من دينهم بالقتل والتعذيب والأذية ونحوها، وقيّد عقوبتهم بعدم التوبة، وفي ذلك بيانٌ لسعة رحمة الله تعالى بهؤلاء المجرمين الكفرة الذين آذوا عباد الله وفتنوهم، حيث فتح لهم باب التوبة، وأعطاهم الأمل في فضله، مع ما فعلوه من الإجرام، فإن تابوا تاب الله عليهم، وقد حصل ذلك لعددٍ غير قليلٍ من المشركين، **مثل:** خالد بن الوليد وأبي سفيان وغيرهم من المشركين الذين فتنوا المؤمنين وعذّبوهم، ثم بعد ذلك أسلموا وحسن إسلامهم، فهؤلاء غير داخلين في هذا الوعيد، ولا تنطبق عليهم الآية، وأما من لم يتب ومات على الكفر؛ فالوعيد مُستمرٌ في حقهم وعذابُ الحريق في جهنم ينتظرهم، وقد ذُكر هنا عذاب الحريق من باب المشاكلة، **وقيل:** إن الله سبحانه وتعالى أذاقهم شيئًا من الحريق في الدنيا، فقد كانوا شهودًا على ضفاف وشُرُفات الأخدود التي اشتعلت بها النار، فاشتعلت النار بهم فأحرقت ثيابَهم ووجوههم، والأول أرجح؛ لأن التهديد بعذاب الآخرة أشد وأنكى(٢).

ولما حدثنا عن حال الكفار والمجرمين في الآخرة، لا بُدّ أن يُلفت نظرنا إلى حال المؤمنين، وهذا من أساليب القرآن؛ أن يقارن حال الكفار والمجرمين ومصيرهم بحال ومصير المؤمنين، ليتضح للسامع الفرق.

---

(١) ينظر: مختار الصحاح (ص: ٥١٧).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٣٤٠- ٣٤٢).

فقـــال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، الجنات هي الحدائق والبساتين الملتفة[1]، ومن تحت أشجارها تجري الأنهار المتنوعة، وهذا يدل على عظم النعيم الذي فيه أهل الجنة، وسمّى هذا النعيم بالفوز بالكبير؛ لنجاتهم من النار، **كما قال:** ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾[آل عمران:١٨٥].

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن قوته وسُنته في أخذ الظالمين ومُعاقبة المكذبين، وإن أمهلهم بعض الوقت، **فقال سبحانه:** ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾ **البطش معناه:** الأخذ بقوة[2]، **كما قال:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾[هود:١٠٢]، **والمعنى:** أن أخذ ربك قويٌ للظالم المكذب، فالله يُمهله ولكنه لا يُهمله، فإذا أخذه أخذه أخذ عزيزٍ مُقتدر.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣﴾، فهو سبحانه يخلقُ ابتداءً من العدم ويُعيدُ الخلق مرةً أخرى فيبعثهم، وفي هذا ردٌ على من يُكذب بالبعث والنشور واليوم الآخر، وقيل: كلما انتهى شعور الكافر وإحساسه بالألم بسبب موت جلده، أعاد الله جلده من جديد من أجل أن يذوق العذاب[3]، **كما قال:** ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾[النساء:٥٦]، والقول الأول أولى، وهو قول جمهور المفسرين[4].

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (٢/ ٣٧).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (١/ ٢٦٢).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١١٤)، وهو عن ابن عباس.

(٤) ينظر: تفسير الطبري، ت شاكر (٢٤/ ٣٤٥)، زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٢٧).

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ١٤﴾، وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه كثير المغفرة لمن تاب وأناب ورجع إليه، ووصف نفسه بأنه الودود، **والودود من الوِد، وهو**: خالص الحب[1]، **والمعنى**: المُحب لأوليائه، والمحبوب من أوليائه، **كما قال**: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة:٥٤].

وقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ١٥﴾، **أي**: صاحبُ العرش، والعرش خلْقٌ عظيمٌ، **وفي الحديث**: **"ما السموات السبع في الكرسي، إلا كحلقة في أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة"**[2]، **أي**: كخاتمٍ مرميٍ في الصحراء، فكم نسبة هذا الخاتم المرمي في الصحراء إلى الصحراء؟!!، لا شيء، **والمجيد، فيها قراءتان**[3]، **بالضم**؛ اسمٌ من أسماء الله، **ومعناه**: ذو السعة في العظمة والمجد سبحانه، **وبالكسر**؛ صفةٌ للعرش، **أي**: ذو سِعةٍ وعظمةٍ كبيرة.

وقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾، هذا وصفٌ لله تعالى، فما أراده فعله، **كما قال**: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢]، فلا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

ما فائدة ذكر هذه الأوصاف المتعلقة بالذات الإلهية ما بين مغفرةٍ وودٍ ومجدٍ ومشيئةٍ مُطلقةٍ؟

الجواب: في ذلك إشعارٌ للكفار بعظمة الله وبطشه؛ حتى يهابوه ويرجعوا

---

(١) ينظر: لسان العرب (٣/ ٤٥٣).

(٢) رواه ابن حبان برقم ٣٦١، عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ، وصححه الالباني في السلسلة الصحيحة: ١٠٩.

(٣) تفسير الطبري، ت شاكر (٢٤/ ٣٤٦).

إليه، وإشعارٌ للمؤمنين أنه وليهم وناصرهم، فاركنوا إليه وتوكّلوا عليه.!!

ثم قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾، هل بلغك يا محمد خبر الجنود، والمقصود هنا الذين جنّدوا أنفسهم مع الباطل لمحاربة الحق، ثم بيّن من هم.

فقال: ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾، وهما نُموذجان للجنود الذين حاربوا الحق، وكفروا بالله وكذبوا الرسل، أحدهم متقدمٌ، وهم: ثمود، وقوم صالح، ومعروفٌ عنهم أنهم كانوا أصحاب قوةٍ وشأنٍ، والآخر متأخرٌ، وهم: فرعون وقومه، ولم يفصّل في قصتهما هنا، بل أشار إليها إشارة، وقد فصّل طريقة هلاكهما في سورٍ أخرى[(١)].

ثم قال سبحانه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾﴾، **أي:** ومهما يكن من تذكير؛ إلا أن الكافرين الذين طُمس على قلوبِهم، ولم يُرد الله تعالى لهم الهداية؛ مُستمرون في التكذيب، بعد أن سمعوا الحقائق والبراهين والحُجج، ويظنوا أن الله يعلم بحالهم ولا يقدر عليهم؛ **فرد الله عليهم هذا الظن، بقوله:** ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾﴾ **الإحاطة معناها:** الرصد والاطلاع على الشيء والقهر والسيطرة، فالله تعالى مُطّلِعٌ على الكافرين وراصدٌ لأعمالهم، وقادرٌ على إهلاكهم، **كما قال:** ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾[الفتح:٢١]، **أي:** أحاط بهم بقوته وقهره وقدرته وجبروته[(٢)]، وهو نوعٌ من التهديد للكفار المكذبين، وتسليةٌ واطمئنانٌ للمؤمنين بالله سبحانه وتعالى.

---

(١) وقد ذكرت قصة ثمود مفصلة في عدد من السور مثل: المائدة، الأعراف، وهود، الشعراء، وذكرت قصة فرعون مفصلة في: الأعراف، يونس، الإسراء، طه، وغيرها.

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١١٦).

ثم ختم الله سبحانه وتعالى السورة بالحديث عن القرآن، فقال: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١﴾ وصف القرآن بأنه مجيدٌ، **أي**: الممجّد ذو السعة في العظمة والمجد، وقد جاء هذا الوصف في حق الله سبحانه وتعالى، وجاء وصفًا للعرش، وهو أحد مخلوقاته العظيمة، ووصفًا للقرآن الكريم، كلام الله، **والمعنى** أن فيه من العظمة وسعة المجد والمعاني ما لا تحيط به العقول، فليس شعرًا ولا سجعًا ولا قول كاهنٍ، بل هو قولٌ مجيدٌ من الله العزيز الحميد، وهو مسطرٌ ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾، فالقرآن حُفظ في اللوح المحفوظ، وهو الكتاب الذي كتبت وحُفظت فيه مقادير السموات والأرض قبل أن يخلقهما، ومحفوظٌ من الخطأ والزلل، **كما قال عنه**: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾[فصلت:٤٢]، وحفِظَه اللهُ في صدور الخلق بعد أن أنزله على رسوله، ﷺ، فهو محفوظٌ من التبديل والتحريف، ومحفوظٌ من الزيادة والنقص، **كما قال**: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، وقد حاول أعداء الإسلام مرارًا وتكرارًا منذ نزوله إلى اليوم أن يُحرّفوه، فلم يتمكنوا من ذلك، وبقى كتابُ الله محفوظًا مصونًا.!!

فوائد وهدايات من السورة:

١- أن الابتلاء للمؤمن يكون على قدر إيمانه، وأن إيثار سلامة الإيمان على سلامة الأبدان من عزائم الأمور.

٢- أنه يجوز لمن أكره أن يقول كلمة الكفر حتى ينجو من الهلاك، ويبقى الإيمان في قلبه، ولا إشكال في ذلك، وإنما تكمن الخطورة في أن يرتد ظاهرًا وباطنًا من أجل الدنيا؛ فيخسر -والعياذ بالله- الدنيا والآخرة.

٣- أن التوبة مقبولةٌ بشروطها، فمهما فعل الإنسان من الذنوب ثم تاب توبةً نصوحًا قبل الموت؛ فإن الله سبحانه وتعالى يقبل توبته ويُبدّل سيئاته إلى حسنات.

٤- أن الله حفظ القرآن الكريم في صدور الخلق منذ أن أنزله على رسوله، ﷺ، فهو محفوظٌ من التبديل والتحريف، ومحفوظٌ من الزيادة والنقص، رغم محاولة أعداء الإسلام مرارًا وتكرارًا تحريفه، فلم يتمكنوا من ذلك، وبقى كتابُ الله محفوظًا مصونًا.!!

تفسير سورة الطارق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤
فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ
لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ
۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ
أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾.

شخصية السورة:

سورة الطارق: سورةٌ مكية، بلا خلاف بين المفسرين في ذلك[١]، والمقصد الذي دارت حوله السورة، هو إظهار رقابة الله سبحانه وتعالى النافذة، وقدرته البالغة في الخلق[٢].

وابتدأت بالقسم، حيث أقسم الله، سبحانه وتعالى، **فقال**: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾، السماء معروفة، وهي الجرم الذي نشاهده واضحًا بيِّنًا فوقنا، وأما الطارق فالمقصود به ما جاء بيانه في الآية الثالثة وهو النجم، وإنما أبهم تفسيره هنا لتعظيمه.

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٦٤).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢١/ ٣٧٠).

وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾، وهو أُسلوبٌ من أساليب التعظيم للشيء الغائب عنك، والمعنى: وما أعلمَك يا محمد ما هو الطارق، وكل شيءٍ قال الله فيه لنبيه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾، فقد أعلمه به، **مثل قوله:** ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾[الحاقة:٣]، **وقوله:** ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾[القارعة: ٣]، فهذه الأسئلةٌ التي بلفظ: ما أدراك، يأتي بعدها الجواب عنها، **وإذا جاء السؤال له بلفظ:** ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾، فالغالب أن لا يُخبره بجوابه(١)، كما جاء السؤال به في أكثر من آية عن موعد الساعة.

ثم فسّره له بقوله: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾، **فالطارق:** هو النجم الثاقب، وسُمي بالطارق؛ لأنه لا يظهر إلا ليلًا، **ومنه الحديث:** **"لا يطرقُ أحدُكم أهله ليلًا"**(٢)، **يعني:** لا يدخل عليهم في الليل، لأن الطُّروق معناه الظهور المفاجئ في الليل(٣)، **وسُمي بالثاقب؛** لشدة قوة ضوئه، فالثاقب: هو الذي يثقُب الظلام(٤)، **بل قال بعضُ أهل العلم** أنه خارج الأجرام السماوية ولذلك ضوؤه يثقُب السموات السبع حتى يصل إلى الأرض، فيظهر نيرًّا قويًا واضحً(٥)، **ثم اختُلف فيه،** هل هو الزهرة أم زُحل أم غيرهما من النجوم، وما دام أقسم الله به، فالقسم به دليلٌ على عظمته، فجعْلُه اسم جنس لكل النجوم أولى، فيشمل كل النجوم شديدة الضوء.

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٠٤).

(٢) رواه أحمد في مسنده: (٢٣/ ٣٧٧)، برقم (١٥٢٠٣) وإسناده صحيح.

(٣) ينظر: تاج العروس (٢٦/ ٦٦).

(٤) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١١٧).

(٥) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٢٨)، وتفسير السعدي (ص: ٩٢٠)، وتفسير الألوسي = روح المعاني (١٢/ ١٠٣).

وقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤﴾، هذا جوابُ القسم، **و(إن) هنا بمعنى:** ما النافية[(١)]، **و(لمّا) بمعنى:** إلا[(٢)]، **والمعنى:** ما من نفسٍ منفوسة إلا وعليها حافظٌ يحفظها، وهل الحفظ يشمل جميع الأنفس؟ ويدخل في ذلك أنفس البشر، وغيرهم من الحيوان، أم هو خاص بالمكلفين فقط؟ قولان للمفسرين، فإن قنا: إن الحافظ هنا هو الله؛ فيشمل معنى النفس جميع المخلوقات الحية.

وإن قلنا: إن المقصود بالحافظ هنا الملائكة؛ فالمقصود بالأنفس هي أنفس المكلفين فقط[(٣)]، والحفظ من الملائكة لها على نوعين: حفظٌ للأجساد من أن تُؤذى، **كما قال الله:** ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[الرعد:١١]، وحفظ للأعمال.

وقوله: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾[الأنعام:٦١]، **أي:** الملائكة التي تحفظ أعمالكم وتكتبها في الصحائف، وهل الحافظ فيهما واحد، أو اثنان؟ الصواب أنهم اثنان، مُكلّفون بحفظ الأعمال، ويُسمون ملائكة ترقُب وتكتب، **كما في قوله:** ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾[ق:١٨]، وملائكة مُكلّفون بحفظ هذا المكلف من أن تُؤذيه سائر المخلوقات الأخرى، وهل هناك ملائكة تحفظ غير المكلفين، مثل الحيوان، فتوجد ملائكة تحفظ -مثلًا- البقر أو الغنم من الأذية، أم إن الحفظ خاص بالبشر؟! هذا سؤال يحتاج إلى بحث، ولم يرد دليل في ذلك، ولم يمنع العقل منه، والذي ورد فيه النص الشرعي هو حفظ الملائكة

---

(١) ينظر: إعراب القرآن وبيانه (١٠/ ٤٤٢).

(٢) ينظر: إعراب القرآن للنحاس (٢/ ١٨٦).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١١٩).

للمكلفين بنوعين من الحفظ: حفظ أعماله بتسجيلها، وحفظ جسده بحمايته من أن يُؤذى.!

ثم قال سبحانه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾، أمر الله، سبحانه وتعالى، الإنسان أن ينظر في كيفية خلقه، والأمر موجّه إلى كل إنسان متكبر متغطرس نسي أصله وتكبر على ربه فلا يُؤمن به، أو تكبر على غيره، والمقصود بالنظر هنا ليس نظر العين المجرد، بل نظر التأمل والتفكّر في النطفة التي خُلقت منها، ما هي مكوناتها؟! من أين تخرج؟! كيف يتم خروجُها؟! وأين تستقر؟! وكيف تتحول إلى بشر سويًا؟! كل هذا التأمل والتفكر يجعلك تعرف من أنت من ناحية، فلا تتكبر، ومن ناحية أخرى، تجعلك تعرف أن الذي خلقك وأوجدك من هذه النطفة، قادر على أن يُعيدك ويبعثك ويُحاسبَك، ففيه توجيه للإنسان إلى أن يتعرف على خالقه، ثم يُؤمن به.

ثم قال سبحانه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦﴾، **أي:** خلقه الله، وحُذف الفاعل هنا تعظيمًا، والمعنى: خلق الله هذا الإنسان من ماء المني، الذي يخرج من الإنسان بقوة، ويُقذفُ قذفًا، ومن يُصابون بعدم القدرة على الإنجاب من أسباب ذلك أن الماء لا يُقذفُ منهم قذفًا، بل يسيلُ سيلًا ضعيفًا؛ فيموت قبل أن يصل، ولو تنظر في البحوث العلمية المصورة للحيوان المنوي وهو يمشي بسرعة معينة في الرحم وكيف أنه يلتقي ببويضة المرأة، وكيف يتعلق بها حتى يتم الحمل، فستقول: سبحان الله الخالق العظيم الذي هو على كل شيءٍ قدير، وهذا الماء الدافق، هو منيُّ الرجل، **وهو الذي** ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾، **والصلب:**

هو العمود الفقري[١]، **وصلب الرجل أي**: عموده الفقري، **وهو**: من الرقبة إلى نهاية العصعص، وهو يتشابك مع باقي الهيكل العظمي للجسم، وبداخله ما يسمى بالحبل الشوكي، وماء الرجل يخرج من داخل هذا المكان.

ويقول بعض العلماء: إن جزءًا منه يتكون في الحبل الشوكي، ثم ينزل ليكتمل تكوينه في الخصية، ولذلك لو دُقّت الخصيتان؛ لذهب مصنع الحيوانات المنوية، وهذا يدلك على عظمة الله سبحانه وتعالى في خلقه، ولذلك بعض الأطباء المتخصصين في هذا من الكفار يُؤمنون لما يقرأون مثل هذه النصوص، ويصلون إلى نتائج توافقها بعد عشرات السنوات من البحث.

وقوله: ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ ۞٧﴾، **الترائب هي**: الصدور[٢]، وهي أماكن الثديين، بمعنى أنه أيضًا جزء من ماء الرجل يتكون فيها، **وهذا على قول كثير من المفسرين الذين يقولون**: أن المقصود بالماء الدافق ماء الرجل فقط، فهو يتكون في منطقة الصلب ومنطقة الترائب ثم يخرج إلى الخصية ثم يتدفق، **وهناك من المفسرين من قال: إن المقصود بالصلب هنا**:صلب الرجل، **والمقصود بالترائب هنا**:ترائب المرأة، فيكون مصدر نطفة المرأة التي هي البويضة هو أماكن الثديين وهو الصدر وما حوله، وتتلقح بماء الرجل الحيوان المنوي الذي مصدره الصلب، **فيكون المعنى**: يخرج ماء الرجل وماء المرأة من بين الصلب والترائب[٣]، ومن خلالهما يتكوّن الجنين،

---

(١) ينظر: لسان العرب (١/ ٥٢٦).

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/ ٩١).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٢٠).

وقد جاء في السنة[١] أن المرأة عندها ماءٌ مثل ما عند الرجل ماء، وأنه لا يتم الحمل إلا بتزاوج البويضة مع الحيوان المنوي، فيكون القول الثاني هو الأرجح.

ثم قال الله سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨﴾، **إنه**: الضمير فيه عائد إلى الله، ولم يسبق ذكره، ولكن سبق معنا فعل الخلْق، فلا بد للخلق من خالق، وهو الله، وقد دل عليه السياق[٢].

والضمير في ﴿رَجۡعِهِۦ﴾، **فيه قولان: الأول**: أنه يعود على الإنسان، **والمعنى**: أن الله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان بهذه الطريقة، ثم هو يُميته، وهو القادر على بعثه حيًا بعد الموت، والخطاب موجّه للإنسان الذي ينكر البعث والنشور، **والمعنى**: أن الله الذي خلقك بهذه الطريقة، قادرٌ على إرجاعك وبعثك وإحيائك بين يديه للحساب.

والقول الثاني: أن الضمير يعود على الماء الدافق؛ لأن الإنسان لم يُذكر، وإنما ذُكر الماء، فيعود الضمير على أقرب مذكور، **والمعنى**: أن الله قادر على أن يُرجع الماء الدافق إلى مصدره[٣]، وهذا من المستحيل عند الخلق، ولكن الله لا مستحيل عنده، كقولهم: إذا رجع الحليب في الضرع سيكون كذا، وهذا الكلام مثله، فإن إرجاع المني إلى مكانه الذي خرج منه مستحيل عند الخلق، فخاطبهم

---

(١) ينظر: سنن ابن ماجه (١/ ١٩٧)، برقم (٦٠٠)، وصححه الألباني.

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٢١).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٣٥٨).

الله هنا على وفق هذا القول، وأخبرهم أن الله قادر على أن يُعيد هذا المني إلى مكانه، فلا مستحيل على الله سبحانه وتعالى، ولكن القول الأول أقوى وأرجح، ويدل عليه السياق؛ لأن الحديث عن القيامة، ومع قوم يُنكرون البعث والنشور، وجاء باللام المؤكدة، وقد سبقتها إنَّ المؤكدة، كل ذلك ليُثبت قدرة الله سبحانه وتعالى على تنفيذ ما وعد، وأنه قادر على البعث والنشور، والقادر اسمٌ من أسماء الله سبحانه وتعالى، ومعناه الذي لا يُعجزه شيء.

ثم قال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾، يوم القيامة تُختبر السرائر، **وهي**: إما الضمائر[1]، أو الأعمال التي عملتها الضمائر وكانت سرًا لم تكتشف في الدنيا، فينكشف ما كانت تُضمره وتخفيه وتُخبيه؛ فيظهر ما كان منها صالحًا، ويظهر ما كان منها فاسدًا، ويجازى الإنسان على عمله.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾، الضمير يعود إلى الإنسان، فوصف حاله حين يقف بين يدي الله، فليس له من قوة ولا ناصر، فقواه الشخصية الذاتية تنهار، والأشخاص الذين كان يعتمد عليهم في الدنيا غير موجودين معه؛ بخلاف حاله في الحياة الدنيا، فقد كان يتخلص من بعض المواقف بأحد هذين الأمرين أو بهما معًا: إما أنه قوي وشديد بنفسه، أو معه ناصر ينصره من الناس الذين حوله، فيفقد هذين الأمرين يوم القيامة، فيبقى ضعيفًا بين يدي الله بلا قوة يدفع بها، ولا ناصر ينصره أو يُعينه؛ فكل إنسانٍ يوم القيامة مشغولٌ بنفسه، **كما قال:** ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾[عبس: ٣٧]،

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٥/ ١٥٠).

والفائدة من ذكر القوة والناصر هنا؛ أن هذا الإنسان لما كان على باطل؛ فهو مُعرّض للعقوبة والإهانة، فيحتاج إلى القوة ويحتاج إلى الناصر، ليدفع بهما عذاب الله عنه، بعد أن انكشف أمره، وظهر ما في سرائره من باطل، ولو كان مستقيمًا صالحًا لكُرّم وعُظِّم بين يدي الله سبحانه وتعالى، ولم يحتاج إلى قوة ولا ناصر.!!

وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١﴾، أقسم الله بالسماء صاحبة الأمطار، وسُمي المطر رجعًا؛ لأنه يعود كل سنة، ففيه معنى التكرار، فمطرة بعد مطرة[1]، وما فوقك يُسمى في اللغة سماء[2]، فالسحاب تُسمى سماء، وكل ما ارتفع يُسمى سماء، والمقصود أن المطر ينزل من جهة السماء، ومعروف كيف يتكون المطر، فإن البخار يصعد من الأرض ثم يتكثف في طبقات الجو ليكون ماءً، ثم تسوقه الرياح، ثم ينزل مرة أخرى، وهكذا، ففيه معنى التكرار وفيه معنى الرجوع مرةً أخرى إلى الأرض، والصعود إلى السماء، ثم أقسم الله بالأرض، **فقال**: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾ **أي**: صاحبة الصدع، **والصدع المقصود به هنا**: التشقق، أي الأرض التي من طبيعتها التصدع والتشقق، حتى ينبُت النبات فيها، فلو كانت صماء صامتة؛ لما نبت فيها شيءٌ، فأخبر الله أن السماء سببٌ لوجود المطر، والأرض سببٌ لوجود النبات، وهنا لطيفة من لطائف النظم القرآني، وهي: لما تحدث عن صلب الرجل وترائب المرأة، وهما سببان لوجود الإنسان، تحدث

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٢٢)، نقله عن الزجاج.

(٢) ينظر: مختار الصحاح (ص: ١٥٥).

عن مطر السماء واستقبال الأرض له، ليخرج بعد ذلك النبات، فكأن الأرض أمٌّ له والسماء أبٌ له!!، وهذا من أدلة القرآن العقلية التي نبه الله الناس إليها، لإقامة الحجة عليهم، وكأنه يقول لك: انظر إلى مراحل حياة الزرع وتدبر فيها؛ فإنها تشبه مراحل وأطوار حياتك.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾، هذا جوابُ القسم، والضمير يعود إلى القرآن، حيث أقسم الله بالسماء والأرض على أن القرآن الكريم قولٌ فصْل، يفصل بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، **أي**: يفرق بينهما، حتى يتضح للناس طريق الحق من طريق الضلال.

وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾، **الهزل** هو اللعب، فنفى عنه الهزل، ليثبت له الجِد والجِدِّية، فالقرآن أحكامه كلها جِد وحيوية وجدية؛ أُنزل للعمل به، والتحاكم إليه، ولكي تتخلق البشرية بأخلاقه، وتعمل بأحكامه، وتُنفذ ما فيه، فهو صدقٌ وليس بالكذب، وجد ليس فيه هزل ولا لعب.!! وهذه قضية من ضمن ثلاث قضايا اهتم بها القرآن المكي مع أصحاب مكة، وهي: الرد على تكذيبهم بالبعث والنشور، والرد على تكذيبهم بمحمد ﷺ، والرد على تكذيبهم بالقرآن، الذي هو أثر من آثار تكذيبهم بمحمد ﷺ، فأخبرهم هنا أن القرآن الكريم ليس بشعرٍ ولا نثرٍ ولا هزلٍ ولا لعبٍ ولا باطل، بل هو قولٌ فصل!!

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن هؤلاء المكذبين، فقال: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥﴾، **الكيد هو**: المحاربة للحق والتحذير منه[1]، وكان الكفار يُنفقون أموالهم، ويسهرون

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٢٣).

ليلهم ويقدمون دماءهم من أجل ألا ينتصر الإسلام، ولا ينتشر القرآن، وقد جاءت كلمة (كيدًا) هنا توكيدًا، لتدل على كثرة كيدهم، وإشغالهم أنفسهم ليل نهار بالكيد للإسلام وأهله، فرد الله على كيدهم وشغلهم الشاغل في محاربة الحق وأهله؟! **بقوله:** ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦﴾ الله أكبر!!، ما مقدار كيد المخلوق وأنشطته وبرامجه وخططه وأمواله في مُقابِل كيد الخالق سبحانه، فكيد هؤلاء الخلق قُوبل بكيد الخالق العظيم، الذي يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة:١١٧]، فيبطِلُ كيدهم بكلمة، وقد تعدد كيدهم لرسوله ﷺ، ولكنه فشل ولم ينجح، ومن ذلك كيدهم في محاولة قتل النبي ﷺ، وكيدُهم في غزوة بدر، وكيدُهم في غزوة الأحزاب، وغيرها، وكان الله سبحانه وتعالى، يرد كيدَهم ويبطله.

والكيد والمكر والخداع، ليست أسماءً لله ولا صفات له؛ لأن أسماء الله حسنى وصفاتِه عُليا، والكيد والمكر والخداع ليست بذلك الوصف من الجمال والحسن، فلا تطلق على الله مجردة، بل تطلق على سبيل المقابلة، كما وردت في القرآن مقيدة، ويطلق عليها صفات المقابلة، وليست صفات مُطلقة لله، والمعنى: أنه يمكُر بمن يستحق المكر، ويكيد بمن يستحق الكيد، ويخدع من يستحق الخديعة، فهي داخلة ضمن معاني اسمه العدل، وهو اسمٌ من أسمائه الحسنى.

ثم قال سبحانه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ١٧﴾، **أي:** لا تستعجل على عاقبة كيدِهم، ولا تستعجل على هلاكهم، بل اتركهم وأمهلهم، وليكن هذا الإمهال وقتًا قليلًا، بحيث يترك لهم فرصة للتوبة، وهذا من عدل الله ولطفه وكرمه بالخلق، حتى الكفار يُعطيهم فرصة لعلهم يتوبوا، وقد استفاد أناس منهم من

هـذا الإمهـال؛ فتـابوا، رغـم أنهـم شـاركوا في بـدر وقـاتلوا المـسلمين في أُحـد والأحزاب، ولكن الله منّ عليهم بهذا الإمهال فتابوا، مثل أبي سفيان وخالـد بـن الوليد وغيرهم ممن ماتوا على الإسلام، وهناك أناس لـم يستفيدوا من هـذا الإمهال، بل ماتوا على الكفر، والعياذ بالله، وفي هذا الخطاب تسلية للنبي ﷺ، وهو خطاب تهديد ووعيد لهؤلاء الكفار الذين يكيدون لرسوله ﷺ، ولدعوتـه، فقـد أتـم الله نورَهـا وانتـشرت وانتـصر رسـولُه، ﷺ، وهلـك هـؤلاء الكائـدون، وبقي الحق، واندحر الباطل، والحمد لله.

فوائد وهدايات من السورة:

١ – أن الله سبحانه وتعالى يحفظُ هذا الإنسان بالملائكة، فيحفظُوا جسده ويحفظوا أعماله، أما أعماله فلأجل أن يُحاسب عليها يوم القيامة، وأما جسده فلأجل أن يعيش سليمًا في هذا العالم المليء بالأجسام الكبيرة والعظيمة.

٢ – أن القرآن الكريم ليس بشعرٍ ولا نثرٍ ولا هزلٍ ولا لعبٍ ولا باطلٍ، بل هو قولٌ فصلٌ وما هو بالهزل.!!

٣ – ضعف كيد الكفار؛ إذا قُوبِل بكيد الله سبحانه وتعالى.

٤ – أن الكيد والمكر والخداع، ليست أسماءً لله ولا صفات له؛ لأن أسماء الله حسنى وصفاتِه عُليا، والكيد والمكر والخداع ليست بذلك الوصف من الجمال والحسن، فلا تطلق على الله مجردة، بل تطلق على سبيل المقابلة، كما وردت في القرآن مقيدة.

تفسير سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ
۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧
وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١
الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ
فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ
الْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾.

شخصية السورة:

سورة الأعلى؛ سورةٌ مكية(١)، نزلت قبل الهجرة، **والمقصد الأسمى لهذه السورة،** هو تذكير النفوس بمنة الله سبحانه وتعالى عليها(٢)، وربطها بالدار الآخرة، ودعوتها إلى تزكية النفس من كل ما يُبعدُها عن الآخرة ويُعلقها بالدنيا.

وقد ورد في فضلها أن النبي، ﷺ، كان يقرأ بها في الجمعة وفي العيدين(٣)،

(١) ينظر: تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (٥/ ٥٧٧).
(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢١/ ٣٨٧).
(٣) ينظر: صحيح مسلم (٢/ ٥٩٨)، برقم (٦٢).

وذلك لما فيها من التذكير والأمر بالتزكية ونحوها.

وقد افتُتحت بالأمر بالتسبيح: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾، الخطاب للنبي ﷺ(١) عند نزول الوحي، وأصبح خطابًا لكل من قرأه بعده من أمته، والتسبيحُ معناه: التنزيه عن النقائص.

وقوله: ﴿ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾، قيل المقصود به: جنس الاسم الحسن لله سبحانه وتعالى، فتُنزّه لفظ كل اسم لله مثل: الله، الرحمن، الرحيم، العزيز، الغفور،...إلخ، عن كل عيب ونقصٍ وخلل، وعما لا يليقُ به، **وقيل:** سبِّح ربك وذكر لفظ (اسم) من باب التعظيم للذات الإلهية، **والمعنى:** سبّح الذات الإلهية، ونزهها من كل عيب ونقص، **والمعنى:** أيها العبد، نزّه الله سبحانه وتعالى عن الشريك والمثيل والصاحبة والولد وسائر النقائص التي يتَّصفْ بها الخلق، فإن الله تعالى مُنزّهٌ عن كل هذه النقائص، وله الكمال المطلق في ذاته جلّ وعلا وأسمائه وأوصافه وأفعاله، سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ نعت للرب، فهو الأعلى ذاتًا، أو نعت للاسم، فهو الأعلى اسمًا، فله الأسماء الحسنى والصفات العلى، ولا مانع أن يكون لهما معًا، **فيشمل معنى الأعلى هنا:** علو الاسم، وعُلو الشأن، وعلو المكانة، وعلو القدر، وعلو المكان، فإن الله استوى على عرشه، **كما قال:** ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، **واستوى بمعنى:** علا وارتفع(٢). **وقال:** ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، فالله في

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢١/ ٣٨٧).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٩/ ٢٨٧).

جهة العلو، وهو بائنٌ من خلقه، لا يحويه شيء من خلقه، ولا هو مختلط بشيء من مخلوقاته، والفطرة السليمة للخلق تقتضي أن الله في جهة العلو، ولذلك لما حاول بعض الفلاسفة والمتكلمين أن ينفي جهة العلو عن الله سبحانه وتعالى، وكان في مجلس ذلك العالم المتكلِّم، شابٌ ذكيٌ، من بينِ الحاضرين، يُقال له: الهمذاني، فلما انتهى الشيخ من ذكر نفي علو الله على خلقه، قال له: يا شيخ عندي سؤال، لو لم يكن الله في جهة العلوّ فلماذا يرفعُ الداعي يديه إلى السماء؟!! قال: فقام ذلك الشيخ ينفض ثوبَه وهو يقول: حيّرني الهمذاني!! حيّرني الهمذاني[1]!! نعم إنها الفطرة السليمة التي تثبت علو الله فوق خلقه.!

وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾، إن هذا الخالق الذي أُمرت بتسبيحه وتنزيهه وتقديسه هو الذي أوجد الخلق من العدم، وهي نعمة عظيمة خاصة بالله سبحانه وتعالى، فالخلق لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له، فالله هو الخالق وحده، ولا يُوجد خالق سواه، وقد خلق الخلق خلقًا سويًا، مكتمل الأعضاء، معتدل القامة، حسن الصورة، **والمعنى:** أوجد خلقًا كاملًا، ليس فيه نقص ولا عيب، سواءً كان ذلك في الحيوانات أو في الجمادات، لقد خلق سبحانه وتعالى خلقًا سويًا مكتملًا.!!

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾، **أي:** قدّر أجناس الخلائق وأنواعها وأوصافها، فلو زاد شيء على شيء لفسد ذلك الخلق، واليوم جاء العلم

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء ط الحديث (١٤/ ٢٠)، وشرح الطحاوية ت الأرناؤوط (٢/ ٣٩٠)، **والشيخ هو** أبو المعالي الجويني، والطالب هو المحدث أبو جعفر الهمذاني.

الحديث ليكشف لنا صورًا من هذا التقدير العجيب لنسب مكونات تلك المخلوقات، **فالماء مثلًا:** يتكون من الأكسجين والهيدروجين، بنسبة ٢:١، وهكذا باقي المخلوقات، فقد خلقت بنسب محددة، ولذلك لما يتدخل الإنسان في مُحاولة التعديل على هذا التقدير الإلهي؛ فإنه يُفسُده!!، ولو بحثنا عن سبب فساد البيئة اليوم؛ لوجدنا أن السبب الرئيس لذلك هو تدخُّل الإنسان في تعديل هذه النسب المقدرة التي خلق الله الخلق منها، ومن أمثلة ذلك: ما يحصل في هذا العصر من التعديل في الجينات الوراثية للنباتات، أو الجينات الوراثية في البشر أو الحيوانات، مما أدى إلى فساد عظيم في الحياة، والله سبحانه وتعالى قد قدّر أنواع الحيوانات وعددها وأجناسها بما يُؤدي إلى التوازن البيئي، وقد نشرت بعض المجلات العلمية قديمًا بحثًا حول آثار تدخل الإنسان في التوازن البيئي للحيوانات، فذكر البحث أن الوزَغ كثُر في مقاطعة من المقاطعات الزراعية في أمريكا؛ فاستخدموا له سُمًا وتخلصوا منه، ولكنهم فوجئوا بكثرة عدد الفراش، الذي آذاهم وأكل المزروعات عليهم، والسر أن الوزغ كانت هي التي تأكل الفراش الزائد، فلما تم قتل الوزغ تكاثر الفراش، فهذه صورة من صور التوازن البيئي في خلق الله، واليوم يحاول الناس الاستفادة من هذا التقدير في أفعال الخلق، في ضبط الصناعات، **أو ما يُسمونه بـ:** "ضبط الجودة، أو المواصفات والمقاييس"، والتي على ضوئها يُصرّح للمنتج أن يُباع أو لا، وإذا زاد أو نقص شيء منها، **قيل عنها:** هذا مخالف "للمواصفات والمقاييس"، وهو مُحاولة للاستفادة من فعل الخالق في مخلوقاتِه سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿فَهَدَىٰ﴾ هذا موضوع آخر، فالهداية غير التقدير، فالتقدير شيء، والهداية شيء آخر، **فالمقصود بالهداية هنا:** هدى كلّ مخلوقٍ إلى ما خُلِق له، فهداه إلى طعامه، وهداه إلى شرابه، وهداه إلى ما ينفعُه، فالطير مثلًا كيف هداها الله إلى أرزاقها؟ وكيف هداها إلى أن تطير؟!، وكيف هداها إلى أن تحفظ أولادَها وتقوم برعاية بيضها حتى يفقِس؟!! ... إلخ.

فكل مخلوق هداه إلى الغاية من خلقه، فالحيوان له غاية وقد هداه إليها، والإنسان هداه إلى الغاية التي خلق لها، وهي العبادة، فأرسل له الرسل، وأنزل له الكتب، وجعل له السمع والبصر والعقل من أجل أن يعرف طريق الهداية من طريق الضلال، والآية تشمل الخلق كلهم، إلا أن الإنسان هو مِحور هذا الكون، فالسموات والأرض والحيوانات والنعم كلها خُلقت من أجله، وسُخِّرت من أجله؛ ليقوم بعمارة الأرض بالإيمان والعمل الصالح.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤﴾ الذي أخرج المرعى هو الله سبحانه وتعالى، والمرعى كل ما ترعاه الحيوانات من الزرع، وأخرجه بإنزال المطر وشق الأرض.

ثم قال: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥﴾، **أي:** صَّير هذا المرعى بعد أن كان أخضر يابسًا، **والغثاء هو:** اليابِس[١]، **والأحوى هو:** المتغير لونُه[٢]، فالأخضر إذا يبِس تغيّر لونه ومال إلى السواد، وهو لون الطبقة التي ظهرت عليه بسبب اليُبوسة

(١) ينظر: تهذيب اللغة (٨/ ١٥٩).

(٢) ينظر: مختار الصحاح (ص: ٨٥).

وتعرضه للريح ونحوها، وفي هذا إشارة إلى أنك أيها الإنسان الجميل الطيب الذي خلقك الله وصورك فأحسن صورتك؛ ستتحول يومًا بعد يوم إلى ما يُشبهُ المرعى الأخضر الذي ييبس ثم يصبح أحوى، فمصيرك مثله تصبح بعد الشباب شيبة هرمًا، ثم تموت، ثم تُصبِح بعد ذلك عظامًا نخرة!!، فحياتك تشبه حياة الزرع!!، فلا تظن أنك مُخلد، بل حياتُك تمر بأطوار مثل ما تمر حياة النبات بأطوار، والفرق بينك وبين النبات؛ أن النبات غير مُكلّف ولا يُسأل، أما أنت فمُكلّف وسوف تُبعث وتُسأل.

ولو أنا إذا مُتنا تُركنا لكان الموت غاية كلِ حيٍّ

ولكنا إذا مُتنا بُعثنا ونُسأل بعد ذا عن كل شيءٍ[(١)]

ثم قال الله لنبيه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾، سنُعلّمُك يا محمد القرآن، ونجمعه لك في صدرِك فلا تنساه، **وقد كان النبي** ﷺ من شدة حرصه على حفظ القرآن، حين كان جبريل يأتيه بالوحي، أنه كان يستعجل في قراءة الآيات بعد جبريل حتى لا ينساها، **فقال الله له:** ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾[طه:١١٤]، **وقال له:** ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾[القيامة:١٦-١٧]، فانتظر إتمام جبريل القراءة واستمع له، ثم وعد الله نبيه ﷺ أن يجمع له ما أوحاه إليه عن طريق جبريل في صدره فلا يضيع منه شيء ولا ينسى منه شيئًا، **ثم قال:** ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، وهذا الاستثناء المقصود به **قولان عند المفسرين:**

---

(١) ينظر: ديوان علي بن أبي طالب (ص: ١٨٥).

الأول: الآيات التي أذن الله بنسخها، فإننا سنُنسيك إياها[(١)].

والقول الثاني: الحال الذي يطرأ عليه كبشر، فإنه كان أحيانًا يقرأ آية فينسى، فيُفتح عليه[(٢)]، كما قرأ على أُبيّ آية، فسأله أنُسخت؟ قال: "بل أُنسيتُها"[(٣)]، والأول أرجح[(٤)].

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧﴾، هل هذا تعليل لنسخ ما شاء الله أن يُنسخ؟ أو تعليلٌ لارتفاع صوتِك وانخفاضه؟ أو إخبارٌ عن علم الله المطلق بمعرفة المسرور والمجهور؟ كله ممكن[(٥)]، وإن كان الأخير هو الأولى؛ لأنه جاء على سبيل الإطلاق، فهو وصفٌ لإحاطة علم الله بالسر والعلن.

ثم قال الله لرسوله: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨﴾، ما أجمل وأفضل هذه البِشارة!! بشارة عظيمة مِن الله لرسوله ﷺ؛ فادُعوا الله أن يُعطيَكم مثلها؛ لأن الله إذا منحكم هذه النعمة؛ عشتم في سعادةٍ واطمئنانٍ؛ لا تجدُون عسرًا في حياتِكم كلها!!، والتعبير بنون العظمة، والمتكلم الله سبحانه، حتى يشعرك بعظمة ما سيمنحُك من هذه النعمة وعظمة آثارِها في حياتِك كلها!!، فلا تمُارس أي عمل إلا تجده مُيسّرًا، تُريد أن تتزوج؟! فييسّر الله لك الزواج!!، تُريد أن تُصلي وتُقوم

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٣٧١).
(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٣٢).
(٣) رواه أحمد في مسنده، ط الرسالة: (٣٥/ ٧٧) برقم (٢١١٤٠)، وإسناده صحيح.
(٤) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٣٧١).
(٥) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٣١٩).

الليل؟ فييسّر الله لك قيام الليل!!، تُريد أن تطلب العلم؟! فييسّر الله لك طلب العلم!!، تُريد أن تتصدق؟! فتنطلق يدُك بالصدقة!، تُريد أن تذكر الله؟! فينطلق لسانك بالذكر!!، وهكذا ... فهذه النعمة والبِشارة العظيمة التي أعطاها الله لرسوله، جعلت رسول الله، ﷺ، أيسر الناس خُلقًا، وأيسرُهم عملًا، وأيسرهم تعاملًا، وأحسنُهم تصرفًا.

وقوله: ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾، **تكلّم المُفسرون** حول المقصود باليسرى، **فقال بعضُهم:** نُيسر لك أعمالًا تُوصلك إلى الجنة، فاليُسرى هي الجنة(١)، **وقال بعضهم:** اليُسرى هي الدين اليسر الذي لا عسر فيه(٢)، **وقال بعضُهم:** اليُسرى هي: الأعمال الصالحة مطلقًا(٣)، **والصحيح** العموم، فيشمل كل عمل صالح من أعمال الدنيا والآخرة، فإن أردت التيسير لليُسرى؛ فعليك باقتفاء أثر رسول الله، ﷺ، واتباع سنته، فإذا أخذت العلم والهدي النبوي والأخلاق والشمائل النبوية، وسرت عليها واقتديت بها، فانتظر البشرى التي حصلت لرسول الله أن تحصل لك، وهي أن يُيسّرك الله لليسرى!!.

ثم قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ۝٩﴾، أمر الله سبحانه وتعالى، رسوله ﷺ، أن يستمر بالتذكير ودعوة الناس للتوحيد، وهنا جعل شرط استمرار الذكرى أن يحصل منها نفع، والمقصود: إن أدّت الذكرى إلى مفسدة؛ فتوقف

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٣٢).

(٢) ينظر: تفسير الماوردي = النكت والعيون (٦/ ٢٥٤).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٣١).

عنها، وإلا الأصل في الذكرى أنها تنفع، **والناس أمام الذكرى على ثلاثة أقسام**[(١)]: **الأول**: المتهيئ المستعِد المقبِل، فهذا لا تحرمْه من الذكرى، بل امنحه إياها.

الثاني: المعاند المعرض، وهذا الذي لا يُريد الذكرى ويبتعد عنها، فلا تشغل بنفسك به.

الثالث: المتوقف، فلا هو حريص ولا هو معاند، فهذا لو أتيته بأسلوبٍ طيبٍ مناسبٍ يدخل إلى قلبه ويُقنعه؛ **فربما يتحول إلى القسم الأول**، ولو أتيته بأسلوب سيء ومُنفر؛ **ربما يتحول للقسم الثاني**، فانتبه له جيدًا، ولا تكن سببًا في هروبِه عن الخير؛ فينطبق عليك الحديث: **"إن منكم مُنفِّرين"**[(٢)].

وقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾، **هذا من القسم الأول**: المتهيئ المقبل المحب، فسيقبل الذكرى ويستفيد منها، وعبّر عنه بالخشية، ولم يُعبر عنه بالخوف؛ لأن الخشية خوفٌ مع تعظيم لله، وهو الأمر اللائق بالله.

وقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١﴾ **وهذا من القسم الثاني**: المعرض المعاند البعيد، والأشقى صيغة اسم فاعل من شقى، **والمعنى**: الذي أُصيبَ بالشقاوة، وصار أشقى بهذا الفعل، فيتجنب الذكرى بسبب ما غَطى على قلبِه من طبقة الكفر والمعاصي، حتى صار قلبُه قاسيًا، فصار بذلك شقيًا لا يفهم شيئًا ينفعه،

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٣٤).

(٢) رواه البخاري: (١/ ١٤٢)، برقم (٧٠٢).

بل يمشي وراء هواه؛ فلذلك يتجنب الذكرى، **أي**: إن الذكرى تكون في جنب وهو يمشي في الجنب الثاني؛ هروبًا من أن يستمع إليها، وتجنّب بمعنى ابتعد وهرب، وهي أبلغ من أعرض مع حصول السماع وعدم الفائدة، بل لا يريدها ويبتعد عنها ويجتنبها، وذلك بسبب شقاوته التي بلغ الرتبة العليا منها!!، وما هو حال القسم الثالث، الذي لا هو مُحب ولا كارِه، مُتوقِف؟!، هذا سيكون تأثُره بناءً على قدرتك في إقناعِهِ بأسلوبك الحسن، أو على سوء تصرفك في تنفيره، ولذا طُلب من المسلم، وهو يدعو إلى الله ويُعلم خلق الله، أن يقول القول اللين وأن يستخدم الأسلوب الأمثل، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يُجادل بالتي هي أحسن، كل ذلك من أجل أن يتأثر به هذا الفريق الكبير الذي يحتاج إلى من يُقنعُه فيقبل الذكرى.!!

ثم وصف الله حال هذا الأشقى في الآخرة، فقال: ﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢﴾ هذا الأشقى الذي تجنب الذكرى ولم ينتفع بها؛ كان مصيره إلى النار الكبرى، **والمقصود بالنار الكبرى هي**: نار جهنم، **والنار الصغرى هي**: نار الدنيا، كما **جاء في الحديث**: **"ما نارُكم إلى نار الآخرة إلا جزء من سبعين جزءًا"**[(١)]، **والمعني**: أن نار الآخرة تضاعف على نار الدنيا سبعين ضعفًا، **وقيل**: إن النار دركات، وكلما نزلت كلما كانت الحرارة والعذاب فيها أشد[(٢)]، فتكونه النار الكبرى هي التي في أسفل النار، وهي أكثر النار وقودًا وحرارة، والنار التي في

(١) رواه البخاري (٤/ ١٢١)، برقم (٣٢٦٥)، بنحوه.

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٣٤).

الأعلى تكون أخف منها، وهذا مشاهد في نار الدنيا، فكلما اقتربت من عمقها كانت أشد حرًا.!!، ولا تعارض بين القولين.

ثم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ **أي:** أن هذا الأشقى الكافر البعيد عن الله سيكون حاله في النار أنه لا يموت فيها فيرتاح بموته، ولا يحيا فيها حياةً كريمة، ولذلك فإن أهل النار لما يزداد عذابُهم؛ يطلبون أن يُميتهم الله **كما قال عنهم:** ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾[الزخرف:٧٧]، فهذا الأشقى سيبقى في النار، فلا هو سيموت بسبب احتراقه، ولا هو سيُخرج من النار فيحيا حياةً كريمة، بل كلما احترق وذهب الإحساس من جلده أُعيد إليه، **كما قال:** ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[النساء:٥٦].

وعبّر هنا بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيد التراخي، **والمعنى:** أن هذا الأشقى يصلى النار، وبعد فترة من احتراقه بالنار يطلب الموت أو يطلب الخروج، فيقال له: لا موت لك فترتاح، ولا خروج منها فتحيا.!!

ثم قال الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾، ولما ذكر الله حال الأشقى الذي لم يتذكر ولم يخش، وبيّن لنا مصيره في النار؛ انتقل الحديث لبيان مصير المؤمن الذي يخشى الله، وزكّى نفسه، **أي:** طهرها من الشرك بالتوحيد، وطهرها من المعاصي بالطاعات، وطهرها من الرياء بالإخلاص، وزكاها من الجهل بالعلم، ومن الكذب بالصدق، وهكذا...، فتحقق له بذلك الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.

ومصطلح: الفلاح والفوز متكرر في ألفاظ القرآن، ولم يرد مصطلح "النجاح"، فهو مصطلح معاصر، وهو من حيث اللغة صحيح، لكن تعبير القرآن أبلغ **كما قال**: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾[آل عمران:١٨٥]، **وهنا قال**: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، **وقال**: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[المؤمنون:١]، فالفلاح والفوز أبلغ من النجاح.

ثم قال سبحانه: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾، **أي**: أن هذا الذي طهّر نفسه من المعاصي بالابتعاد عنها؛ شغل نفسه بذكر الله وعبادته!!، وكلما تطهرت النفس أصبح اللسان رطْبًا بذكر الله، وفي الحديث: **"لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله"**(١)، فالنفس الزكية الطاهرة لا ترتاح إلا بذكر الله وطاعته؛ والنفس السيئة الدّرنة المليئة بالأوساخ لا ترتاح إلا بذكر الدنيا ومشاغلها، ولذا ترى أصحاب الدنيا تبقى الدنيا على لسانهم طوال اليوم، وأصحاب الآخرة؛ تبقى الآخرة على لسانهم دائمًا.

وقوله: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾ **أي**: بالتسبيح، والتهليل، والحمد والثناء لله تعالى، وتعظيمه مطلقًا.

وقوله: ﴿فَصَلَّىٰ﴾، ممكن تكون صلى هنا بمعنى: دعا، أو تكون بمعنى: أتى بالصلوات المشروعة.

فإن قلت: صلى بمعنى دعا، **فالمعنى**: أنك تذكر الله وتحمده وتُثني عليه، ثم

---

(١) رواه الترمذي، ت شاكر: (٥/ ٤٥٧)، برقم (٣٣٧٥)، قال الألباني: صحيح.

تدعوه، فإن الله سبحانه وتعالى يُعجبُه الحمد والثناء، ولذلك من السنة أن الإنسان إذا دعا أن يبدأ أولًا بالحمد والثناء على الله ثم يسأل ربه المسألة.

وأما إذا كان صلى بمعنى الصلاة المشروعة، فيكون **المعنى**: عظّم الله في نفسه ثم وقف بين يديه، فصلى ما فُرض عليه من الصلوات.

وقال بعضُ أهل العلم: إن هذه الآية نزلت في زكاة الفطر وصلاة العيد، واستُبعد هذا القول[١]؛ لأن الآية مكية، وزكاة الفطر وصلاة العيد لم تُشرع إلا في المدينة[٢].

وقال آخرون: حتى لو لم تكن قد شُرعت فإن هذه الآية تشير إليها، ففي القرآن المكي إشارة إلى بعض الأحكام التي نزلت في المدينة، وليس بالضرورة أن تُفعل في الحال[٣].

قلت: وحملُها على الذكر المطلق والصلاة المطلقة والتزكية المطلقة أولى، والله أعلم.

ثم قال سبحانه: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦﴾ **بل**: حرف إضراب عما سبق ذكره، **والمعنى**: أن حالكم أيها الناس خلاف ما وصف لكم، فإن من طبيعة البشر الاشتغال بهذه الدنيا الحقيرة عن ذكر الله وتزكية النفوس وفعل الطاعات!!، والحقيقة أن من اشتغل بالدنيا فهو يُقدمها على الآخرة، **والمعنى**: تُقدمون حُب

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٣٧٤).
(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٣٣).
(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٣٦).

العمل للدنيا على حب العمل للآخرة، ولو كُنتم تعقلون لما فعلتم ذلك، لأن الله قال: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ١٧﴾، بمعنى أن الآخرة أفضل وأدوم، فالواجب أن تُقدموا حبها على حب الدنيا، لأن الدنيا أقل في الرتبة وسريعة في الزوال، والآخرة أكبر في الرتبة وباقية لا تزول.!!

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ١٨﴾ الضمير يعود على ما ذكر في الآيات التي قبلها[1]، فالتزكية وذكرُ الله والصلاة والعناية بالآخرة وترك العناية بالدنيا هذا مما اتفقت عليه الشرائع كلها، فهو موجود في صحف موسى، وموجود في صحف إبراهيم، وموجود في الكتب السماوية كلها، فليس هذا من خصائص دين محمد، ﷺ، بل جميع الأنبياء دعوا إلى ذلك كله، والصحف الأولى هي صحف كل الأنبياء، ومنها صحف إبراهيم وموسى، أو أن **المقصود بالصحف الأولى هي**: صحف إبراهيم وصحف موسى فقط[2]، والفرق بين المعنيين أن تكون صحف إبراهيم وموسى، هي المكتوب فيها فقط، أو أن تكون صحف إبراهيم وموسى من الصحف الأولى، وجيء بها هنا على سبيل التمثيل، ويظهر، والله أعلم، أن الثاني أولى؛ لأنه يشمل بقايا ما عند الأنبياء من نوح وعيسى وهود وغيرهم من الأنبياء، وخاصة أولي العزم، فقد كان عندهم الكثير من هذه الأمور التي لم تكن عند غيرهم.

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس (٥/ ١٢٩).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٣٧).

فوائد وهدايات من السورة:

١- أهمية الخشية عند الإنسان وأنها تبعثُه على الاتعاظ وعلى قبول الذكرى وعلى الاستفادة من الموعظة.

٢- أهمية التزكية وتطهير النفس من الخبائث الظاهرة والباطنة.

تفسير سورة الغاشية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣ تَصۡلَىٰ نَارًا
حَامِيَةٗ ٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ
٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ١٠ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ١١ فِيهَا
عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ١٢ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ١٣ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ١٤ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ١٦
أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ
نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم
بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥
ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾.

شخصية السورة:

سورة الغاشية؛ سورةٌ مكية[1]، **والمقصد الذي دارت حوله السورة هو:** تذكير النفوس بمشاهدة القدرة الإلهية في العذاب والنعيم، وفي الخلق والإيجاد[2].

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٥).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ١).

وافتُتحت بقوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾، **الخطاب** موجّه لرسول الله، ﷺ، هل أتاك يا محمد خبر الغاشية[1] وقصتها، **والغاشية:** اسمٌ من أسماء يوم القيامة، وسُميت بهذا الاسم لأنها تغشى الناس جميعًا بأهوالها، أو لأنها تأتي فجأة وبغتة، **وقيل:** إنها النار التي تغشى وجوه الكافرين، والأول أولى لسياق الآيات[2]؛ فقد ذكر بعدها حال الناس أجمعين، **والمعنى:** إذا جاءت القيامة، وبُعث الناس بين يدي الله سبحانه وتعالى، فإنهم ينقسمون إلى فريقين: أهل الإيمان والطاعة، وهذا سيأتي الحديث عنه، وأهل الكفر والشقاء، وقد بدأ في الحديث عنه، **فقال:** ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢﴾، وهي وجوه الكافرين الذين كانوا في الدنيا كافرين بالله وشرعه، والإيمان بكتبه ورسله، حيث يبعثون يوم القيامة بين يدي الله سبحانه ذليلين محتقرين؛ لأن الذي منعهم من الإيمان هو الكبر، فيُعاقَبون بنقيضه، وعبّر هنا بالوجوه؛ لأن أشرف ما في الإنسان هو وجهه، فإذا أهين هذا الوجه بالذل والخوف وغشيان السواد له، وظهور القترة عليه؛ دلّ ذلك على الحال السيئة لصاحبه.!!

ثم قال: ﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣﴾ **قيل:** مُتعبة بالعمل والنصب في الآخرة بالنار[3]، لأنها تكبرت عن العمل الصالح في الدنيا؛ فعاقبها الله بالعمل الشاق في النار، فإنها تُسلسل بالسلاسل، وتُربط وتُوضع في أيديها وأرجلها الأغلال، وتضربها

---

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٣٨١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٣٨٢).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٣٨٢).

الملائكة، **وقيل**: متعبة بالعمل بالدنيا ولا أجر لها إلا النصب والتعب، لأنها كانت تعمل على خلاف شريعته أو بدون إخلاص، ثم في الآخرة تدخل النار[١]، ويمكن الجمع بين القولين، فأهل النار ينصبون ويتعبون فيها بالأعمال الشاقة، وهم في الحقيقة من كانوا يعملون أعمالًا غير صالحة في الدنيا، فلم يؤجروا عليها بل عوقبوا بسببها.

ثم قال: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ٤﴾ **أي**: هذه الوجوه والمقصود أصحابُها يدخلون النار ويحرقون فيها، ووصفَ النار بأنها حامية **أي**: شديدة الحرارة، فإذا دخلت النار أصابها العطش من شدة الحرارة، فتبحث عن الماء ليرويَ ظمأها، فـ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥﴾، **أي**: شديدة الحرارة، قد بلغت في الشدة أعلاه، وهم في هذه الحالة من شدة الحرارة، وشدة العطش؛ فإذا أرادوا الشرب واقترب الماء الحار من وجوههم؛ سقط لحمُ وجوههم من شدة حره، **كما قال**: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾[الكهف:٢٩] **أي**: يُشوى وجه الشارب بحرارة الهواء الذي يتصاعد من فورة الماء أثناء غليانه، فكيف بالماء نفسه؟!، والعياذ بالله.

ثم قال سبحانه: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦﴾ **يعني**: إن عطشوا شربوا من الماء الحار الذي يشوي الوجوه ويُقطِّع الأمعاء، وإن جاعوا لم يجدوا طعامًا إلا الضريع، وهو نوع من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطبًا، فإذا يبس تحامته، وهو سم قاتل[٢].

---

(١) ينظر: تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل (٤/ ٤٢٠).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٤٠).

ثم وصفه بقوله: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾، لا ينفع الجسد، فلا يوجد فيه مادة غذائية، بل يُؤذي بسمّه القاتل وشوكه الشديد، وقد كانت العرب آنذاك تمنع إبلها أن ترعى هذا النوع من الشجر؛ لأنه يُؤذيها وهو أخضر، فإذا يبس صار سامًا، فجعله الله نموذجًا لطعام أهل النار، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نموذجًا آخر لطعامهم في آية أخرى وهو شجرة الزقوم، وهي شجرة خبيثة، **كما قال:** ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾[الصافات:٦٤-٦٦].

وقد يقول القائل: كيف يُوجد في النار نباتات وأشجار؟! **الجواب:** الذي أبقى جسد الكافر في النار لا يموت ولا يحيا، ويظل يحترق فيها؛ هو الذي جعل الشجرة تنبت في النار وتبقى ولا تحترق، فقدرة الله عظيمة، وإنما يستبعد ذلك الإنسان الذي لا يؤمن بعظمة الله ولا بقدرته، بسبب قياسه بعقله الأشياء في الدنيا على الأشياء في الآخرة، وهو قياس فاسد؛ لاختلاف الدارين والحياتين، فالحياة في الآخرة تختلف عن الحياة في الدنيا، فالواجب هو الإيمان بما أخبر الله عنه، والإيمان بأنه لا يقف أمام قدرة الله شيء، ولا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.!!

ثم انتقل إلى الحديث عن الفريق الثاني، وهم المؤمنون، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾، **أي:** متنعمة يظهر عليها النعيم **بعلامتين: الأولى:** إضاءة الوجه وإسفاره وضحكه واستبشاره، **والثانية:** نضرته وجماله، فالنضِرَة الجميلة الناعمة أثرٌ من آثار النعيم للجسد، وخص الوجوه بالذكر؛ لأن الوجه أشرف ما في الإنسان،

وهي وجوه المؤمنين الصادقين في الدنيا، فربما تعبوا في الدنيا، وأصابهم ذل الفقر، وذل الحاجة، وذل المرض، وذل الظلم من الظلمة والمجرمين، وربما استهزأ بهم الناس، وربما كانوا ضعفاء غير مُعتنى بهم، ولكن الله عوضهم في الآخرة عن ذلك كله، بنعيم عظيم يظهر أثره في وجوههم؛ لأن الله كريم عدل رحيم، لا يجمع على عبده ذُل الدنيا وذل الآخرة، وفقر الدنيا وفقر الآخرة، وخوف الدنيا وخوف الآخرة، فليطمئن من يشعر بهذا في الدنيا من الفقراء والمرضى والمظلومين ومن عليه أذية من غيره، أنه سيأتي يوم يُنصف الله الخلق، ويعوضهم ما فاتهم أو أصابهم في الدنيا بنعيم مقيم في جنات النعيم.

ثم وصف هذه الوجوه بقوله: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾، فهذه الوجوه الناعمة المشرقة الفرحة المسرورة بلقاء الله والفوز بجناته، لما ترى جزاء عملها الصالح الذي عملته في الدنيا؛ ترضى به، والمقصود بالسعي هنا جزاء العمل وثوابه، فالعمل كان في الدنيا، والذي يأتيك في الآخرة هو أجر السعي وثوابُ العمل، فعندما تُشاهد في صحائفك أجر العمل وثوابه؛ تشعر بالرضى، لأن الله أعطاك وزادك، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف!!، فيحصل الرضى للمؤمن عندما يجد ثواب أعماله؛ لأنها من كريم وجواد وعظيم منحه فوق ما يستحق بأضعافٍ مُضاعفة.!!

ثم بيّن منزلة هذا المؤمن ومكان نزوله في الآخرة، فقال: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾، **أي:** يسكن في جنة عالية المكان، عالية المكانة، فالجنة درجات ما بين الدرجة والدرجة مسافة خمسمائة عام، **وجاء في الحديث:** **"أن أهل الجنة ينظرون إلى**

من فوقهم، كما ينظر أحدُكم الكوكب الغابر في السماء"(١)، فبين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض، فالذي يعلوك بدرجة يكون فوقك بمقدار عُلو السماء من الأرض وتشاهده كما تُشاهد النجم الغابر في السماء، فهذا العُلو في الجنة؛ فيمنحه الله سبحانه وتعالى للمؤمنين، لعلوّ إيمانهم وعلوّ مكانتهم عند الله سبحانه وتعالى.!!

ثم ذكر الله لنا بعض أوصاف هذه الجنة، فقال: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾﴾، لا تسمع فيها لسانًا تلغو، **واللغو هو:** الكلام الباطل(٢)، **فيشمل** الكذب والسب والشتم وقول الزور والكلام الذي لا فائدة منه، فكلام أهل الجنة كله طيب، فالجنة ومن فيها وما فيها كله طيب، فلا تسمع فيها إلا التسبيح والذكر والسلام والكلام الطيب.!!

ثم قال: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾، (عينٌ) هنا اسمُ جنس، **أي:** أعين، **وهي:** عُيون الماء التي تجري بدون أخاديد ولو أردت في الجنة عينًا في مكان معيّنٍ؛ لظهر لك ذلك على حسب طلبك، فالجنة كل ما فيها خاضع لأوامرك وتوجيهاتِك، فأي شيء تطلبه تجده على حسب طلبك بمواصفاتك التي تريد، وهذا من فضل الله وكرمه عليك، فقارن أيها العبد بين نعم الدنيا التي تتعب في تحصيلها ولا تكون على وفق ما تريد، وبين نعم الجنة التي تحقق لك حسب رغبتك بدون تعب على وجه التمام والكمال، **كما قال الله:** ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾[الزخرف:٧١]، **وفي**

---

(١) رواه البخاري: (٤/ ١١٩)، برقم (٣٢٥٤) بنحوه.

(٢) ينظر: لسان العرب (١٥/ ٢٥١).

الحديث: **"أعددت لعبادي في الجنة ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"**[١]، فهل من مُشمرٍ إليها من الآن؟! فإذا ذُكرت الجنة فشمر لها ونافس غيرك عليها، وابتعد عن المعاصي والمنكرات، واعمل الطاعات، وأكثر من الاستغفار والتوبة، واستعد، فالجنة لا تدخلها إلا نفسٌ مؤمنة، والتنافس على درجاتها يكون بالأعمال الصالحة، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الفردوس الأعلى.

ثم قال: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾، **السرر** جمعُ سرير، **والسرير هو**: المكان الذي يُعد للنوم عليه، ومرفوعة **أي**: مُرتفعة، فإذا أراد الشخص أن يجلس عليها نزلت له، وارتفاع الأسرة حتى يكون الجالس عليها في مكانٍ مرتفع يرى فيها نعيم الجنة بوضوح، وإنما رُفع له السرير لمكانته عند الله، وحتى يأتي عليه الحشم والخدم والوِلدان فيُناولونه ما يرغب فيه إلى تلك الأسرة وهو مُعزز ومُكرّم.!!

ثم قال: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾، **الأكواب** جمع كوب وهو: الكأس الذي لا عُروة له، ولا أذن له[٢].

و﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ إما مُخصصة لصاحبها، فهذا كأس فلان، وهذا كوب فلان، وإما موضوعة بين يديه وضعها الغلمان، فلا يحتاج إلى أن يطلبها فهي جاهزة، وإما موضوعة **أي**: مُقتدِرة في الحجم، بحسب رغبة الشارب، يوفر طلبه بطريقة

(١) رواه البخاري (٤/ ١١٨)، برقم (٣٢٤٤).

(٢) ينظر: العين (٥/ ٤١٧).

جمالية مُشوِّقة، لأن الشرب فيها نوع من النعيم وليس للحاجة أو بسبب العطش، فكل ما في الجنة للتمتع؛ تتمتع بالشرب، وتتمتع بالكأس، وتتمتع بالجلوس، وتتمتع بالنوم، وتتمتع بالنظر، وتتمتع بكل شيء، فالجنة دار التمتع، ولا تشبه متعة الدنيا إلا في بعض الأسماء فقط.!!

ثم قال: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾، **النمارق:** هي الوسائد التي تضعها عند ظهرك أو تتكئ عليها[(١)]، وهي وسائد مرتبة بطريقة جمالية عجيبة تراها الأعين فترتاح لرؤيتها، فكيف لو اتكأت عليها أو لمستها؟!

ثم قال: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾، **الزرابي:** البُسط التي تُفرَش بين يديك، ومبثوثة، **أي:** منتشرة في قصرك كله، فليست واحدة أو اثنتين، بل بالمئات، وهذا يدلُّ على عمق النعمة وسعتها، وكرم الله في منحها لعباده، وعُد بخيالك إلى قبل ألف وأربعمائة سنة حينما سمع هذا الخطاب العربي الذي كان يجلس على الحجر، أو على التراب أو الحصباء، فقد كان مسجد رسول الله ﷺ مفروشًا بالحصباء، وأحسن شخص من كبار القوم كان عنده حصير من سِعف النخل يجلس عليه، وربما فيه بعض الشوك، فهذا الحديث لأولئك القوم بوصف الزرابي والوسائد والفُرُش والأرائك والأسرّة، يجعل نفوسهم تطير إلى الجنة وتشتاق لها، ومهما شاهدت اليوم من أنواع النعيم الذي يُوجد الآن في الفلل والفنادق والأماكن الراقية، فإنه لا يُساوي شيئًا مما أعدّه الله لعباده في الجنة!!

وبهذا يكون الله قد وصف لنا حال أهل النار، وحال أهل الجنة، ليقول لنا

(١) ينظر: تاج العروس (٢٦/ ٤٣٩).

هذا طريق أهل النار، وهذا الطريق أهل الجنة، وأنتم اختاروا أي الطريقين تسلكون، فالعاقل سيختار طريق الجنة، ومن طُبع على قلبه وأغواه الشيطان سيختار طريق النار، والعياذ بالله!!

ثم قال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾، ما وجه التناسب بين المقطع الأول والثاني من السورة؟! **الجواب: في المقطع الأول** حدثنا بكلام غيبي لا تراه العيون، وإنما نسمعه، والكلام الغيبي لا يُصدِّقُه إلا من يؤمن بالله ويعتقد بقدرة الله وعظمته؛ **فدلهم في المقطع الثاني** على مخلوقاته التي يرونها بأعينهم؛ ليتعرفوا من خلالها على قدرة الله وعظمته، فالذي خلقها وأوجدها بهذه العظمة، وبهذه الصفات؛ فهو كذلك خالق وموجد الجنة والنار التي سمعت وصفها ولم ترها عينك بالدنيا وهي حق لا شك فيه.!!

وسؤال آخر، يقول: ما هي العلاقة بين الأشياء الأربعة التي ذُكرت في هذا المقطع، وهي: الإبل والسماء والجبال والأرض، ولماذا جمعهم؟! **الجواب:** قيل: إن (الإبِلّ) بتشديد اللام هو: السّحاب الذي يحمل الماء[1]، وبهذا التفسير يظهر التناسق بين السحاب والسماء والأرض والجبال، **وقيل:** الإبل، هي الإبل المعروفة، وهي الجمال[2]، وإنما وُصفت بالسحاب في بعض الأشعار، على سبيل التعظيم لها، والعلاقة بينها: أن الأعرابي يركب جمله ويمشي في الصحراء، فلا يرى فوقه إلا سماءً، ولا يرى حوله إلا جبالًا، ولا يرى تحته إلا أرضًا، فلو

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٣٦).

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٧٤).

أعمل فكره في هذه الأربعة؛ لدلّته على الخالق القادر سبحانه وتعالى.

قوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧﴾، طلب منهم أن يتفكّروا في الإبل؛ في خِلقتها، وطريقة عيشها، وطريقة مشيها وفي تحملها وصبرها، وفي تسخير الله سبحانه وتعالى لها.

ثم قال: ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨﴾، ويتأملوا في السماء، كيف رفعت بغير عمَد، وأن الله أتقن خلقها، فلا تجد فيها ثقبًا ولا خللًا.

ثم قال: ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩﴾، **أي:** ويتفكروا في الجبال، كيف نصبها الله في الأرض، وجعلها أوتادًا ثُبّت الأرض؛ فلا تميل ولا تضطرب.

ثم قال: ﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠﴾، ويتأملوا في الأرض كيف مُدت وجعلها مسطحة، وقد يقول قائل: كيف الجمع بين هذه الآية، وقوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[النازعات:٣٠]؟ **والجواب:** أن معنى دحاها، **أي:** جعلها مثل البيضة، فهي كرويةٌ مُسطّحة؛ ولا يتعارض التسطيح مع الكروية إلا عندما يكون حجم الكرة صغيرًا، أما الكرة الأرضية فحجمها كبير جدًا، فيظهر السطح فيها رغم كرويتها(١)، وقد أثبت العلم الحديث أن الأرض كُروية، فالحمد لله.

ثم ختم الله سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١﴾، **أي:** ذكِّر قومَك يا محمد فوظيفتُك هي التذكير، فذكر الناس، وأرشدهم ووجّههم إلى الحق.

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٩/ ٥).

و﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ وهــذه مثــل قولــه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق:٤٥]، فلست مسؤولًا أن تُسيطر عليهم حتى يُؤمنوا، أو أن تُجبرهم على الإيمان وقبول دعوتك، بل وصّل لهم الحق، وبيّن لهم الطريق، ولست مسؤولاً عن إدخال الإيمان إلى قلوبهم بالقوة والإكراه.

فـ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[البقرة:٢٥٦] فالهداية بيد الله وحده، وعليك أنت الدلالة والإرشاد والتذكير فقط.!!

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣﴾، إلا، أداة استثناء، والاستثناء هنا مُنقطع[1]، بمعنى المُستثنى هنا ليس جزءًا من المُستثنى منه، ومعنى إلا هنا: لكن، فيلتحق اللفظ بالذي بعده وليس له علاقة بالذي قبله، فيكون المعنى: لست عليهم بمُصيطر، فمن آمن فله الجنة.

ومن أعرض وكفر ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤﴾، **أي**: فمصيرُه إلى العذاب الأكبر، وهو عذاب النار، **كما قال**: ﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢﴾[الأعلى:١٢]، **وقوله**: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾[السجدة:٢١]، فالعذاب الأكبر هو عذاب جهنم وهي دركات سُفلى، كلما نزلت أسفل؛ كلما كان العذاب أشد وأكبر، والعياذ بالله.

ثم ختم الله السورة بقوله: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥﴾، فهؤلاء الكفار المعرضون البعيدون عن الإيمان مرجعهم إلى الله وحده، لا إلى غيره، وهو عودتُهم بعد

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٣٩١).

الموت؛ فيحاسبهم.

كما قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾، فهو سبحانه من سيتولى حسابهم، لا أحد غيره جلّ وعلا، وهذا نوع من التهديد والوعيد لهم، والمعنى أين تذهب منا، فمصيركم إلينا وحسابكم عندنا؟!!

فوائد وهدايات من السورة:

١- وصف الله لنا حال أهل النار، وحال أهل الجنة، ليقول لنا: هذا طريق أهل النار، وهذا طريق أهل الجنة، وأنتم اختاروا أي الطريقين تسلكون. فالعاقل سيختار طريق الجنة، ومن طُبع على قلبه وأغواه الشيطان سيختار طريق النار، والعياذ بالله!!

٢- أرشدنا الله للنظر والتأمل في المخلوقات العظيمة لتدلنا على وجود الخالق وعظمته وقدرته.

٣- أن مهمة الأنبياء والدعاة إلى الله هي الدعوة والبلاغ، ولا سلطان لهم على قلوب الناس حتى يُدخلوا الإيمان إليها، فالهداية بيد الله يمنحها من يشاء.!

تفسير سورة الفجر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡفَجۡرِ (١) وَلَيَالٍ عَشۡرٖ (٢) وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ (٣) وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ (٤) هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي
حِجۡرٍ (٥) أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ (٧) ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ (٨)
وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ (٩) وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ (١٠) ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ (١١) فَأَكۡثَرُواْ
فِيهَا ٱلۡفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ (١٤) فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ
إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ (١٥) وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ
فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ (١٦) كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ
(١٨) وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا (١٩) وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا (٢٠) كَلَّآ إِذَا
دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا (٢١) وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا (٢٢) وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ
يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ
عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ (٢٦) يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ
مَّرۡضِيَّةٗ (٢٨) فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي (٢٩) وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾.

شخصية السورة:

سورة الفجر: سورة مكية(١)، ومقصدُها الأعظم التركيز على مشاهد العظمة

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٣٧).

والقدرة الإلهية في هذ الكون وفي أحوال الناس، وبيان عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين[١].

ابتدأها الله سبحانه وتعالى بالقسم بعدة أمور، فقال: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١﴾، **الواو** حرف قسم، والفجر، مُقسمٌ به، والمقصود بالفجر؛ زمن الفجر الصادق[٢]، **وسُمِّيَ** فجرًا؛ لأنه بظهوره يتفجّرُ النور ويظهر الضياء وتذهبُ الظلمة، **كما قال:** ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾[المدثر:٣٤]، **أي:** بان وظهر، **وقال آخرون:** بل أقسم الله تعالى بصلاة الفجر، وذلك لمكانتها وأهميتها وأنها موعدٌ لاجتماع الملائكة الذين يتناوبون في الخلق[٣]، والأول أرجح للسياق بعده.

وقوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢﴾ **أقسم بالليالي العشر، وفي تعيينها أقوال[٤]: قيل:** هي عشرُ ذي الحجة، **وقيل:** العشر الأواخر من رمضان، **وقيل:** إنها العشر الأولى من شهر محرم، ولُكل قولٍ أدلتُه، فمن قال هي ليالي العشر الأواخر من رمضان؛ فلأن فيها ليلة القدر، والله تعالى هنا أقسم بالليالي ولم يُقسم بالأيام، والمشهور عن عشر ذي الحجة أنها أيام، فيقال: أيام عشر ذي الحجة، **وفي رمضان يُقال:** ليالي العشر الأواخر، ولا شك أن كل واحدة من العشر لها مكانة وعظمة عند الله سبحانه وتعالى، ففي عشر ذي الحجة يوجد يوم عرفة ويوم

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٢١-٢٢).
(٢) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٣٣٤).
(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٤٨).
(٤) ينظر: تفسير الطبري، ت شاكر (٢٤/ ٣٩٦)، وتفسير ابن عطية (٥/ ٤٧٦)، وتفسير الألوسي (١٥/ ٣٣٤).

النحر وهما أفضل الأيام على الإطلاق، **ومن قال**: المقصود بها العشر الأواخر من رمضان، ففيها ليلة القدر، وقد جمع بعضُ أهل العلم في الأفضلية فقال: أفضل الليالي؛ ليالي العشر الأواخر من رمضان لوجود ليلة القدر فيها، وأفضل الأيام؛ أيام عشر ذي الحجة لوجود يوم عرفة ويوم النحر فيها[١]، فأقسم الله تعالى بهذه أو تلك، **وأضعف الأقوال من قال**: إنها العشر الأولى من شهر محرم قبل أن يُفرض صيام رمضان؛ لأن الناس كانوا يصومون فيها اليوم العاشر من شهر محرم الذي نجَّى الله فيه موسى، وقد هاجر النبي ﷺ إلى المدينة فوجدهم يصومون؛ فأمر بصيامه[٢]، فكان واجبًا في بداية الإسلام، فلما فُرض رمضان أصبح صوم عاشوراء مُستحبًا[٣]، والقول الأول هو الراجح[٤].

وقوله: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣﴾، وأقسم الله تعالى بالشفع والوتر، **والوَتْر والوِتْر**، بمعنى واحد، وهما قراءتان[٥]، وقد ذكر بعضُ المفسرين في المقصود بهما عشرين قولًا[٦]، **والصحيح** أن المقصود بالشفع والوَتر: الزوجُ والفرد من الخلق مطلقًا[٧]، فيشمل جميع مخلوقات الله سبحانه وتعالى، وما ذكر من

(١) ينظر: الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/ ٤٧٧).

(٢) رواه البخاري: (٣/ ٤٤) برقم: (٢٠٠٤).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٣/ ٤١٩).

(٤) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٣٩٧).

(٥) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٠٠).

(٦) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٣٩).

(٧) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٠٠).

الأقوال فيهما إنما هي على سبيل التمثيل، وأن الشفع المقصود به الزوج من كل شيء، والوتر المقصود به الفرد من كل شيء، **وفي الحديث**: **"إن الله وِتْرٌ يُحب الوِتْر"**[(١)].

وقولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤﴾ وقسمٌ أيضًا بالليل حال سريانه وسيره، **مثل قوله**: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾[التكوير:١٧]، **أي**: أقبل وأدبر، فأقسم الله تعالى بالليل إذا جاء واستمر أو أدبر وذهب، فهذه الأقسام الأربعة، وجوابُ القسم لها، قيل: محذوف، ولكنه يُفهم من السياق، **وتقديره**: لتُبعثُّن أيها الكفار المُكذبون ثم لتُحاسَبُن على ذلك التكذيب يوم القيامة، كما عُذِب فرعون وثمود وعاد؛ لأنه ذكر بعد هذا القسم قصة ثمود وعاد وفرعون وما جرى لهم[(٢)]، **وقيل**: إن جواب القسم هو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾، فأقسم الله سبحانه وتعالى على أنه يرصُدُ ويرقُبُ أفعال الكافرين المُكذبين ليُعاقبهم متى شاء، وما بين نهاية القسم وجوابُه جُمل اعتراضية ذُكرت للتوضيح[(٣)]، وهو قولٌ وجيه.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥﴾، هل في ذلك القسم الذي سبق كفاية وحجة لصاحب العقل، وسُمي العقل حِجرًا؛ لأنه يحجُر صاحبه عن القبائح[(٤)]، ولذلك فالمجنون يفعل كل قبيح، والأبله يفعل أشياء

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٦٢)، برقم (٥).

(٢) ينظر: تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (٢/ ٤٧٨).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٣٩).

(٤) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ١٣٨).

غير لائقة، ومثله السكران إذا سكِر وذهب عقلُه، فإنه يفعل أشياء غير لائقة، أما من كان عاقلًا متزنًا فإن عقله يحجرُه عن القبائح، وعما لا يليق أن يفعله، والمعنى: أن من أعمل عقله وتفكر في هذا القسم وغيره؛ كان ذلك مقنعًا وكافيًا له لمعرفة الحق، أما من كان في عقله خلل أو خبل، أو لم يستخدم عقله في التفكر والفهم والاستيعاب؛ فلا يكفيه ولا يغنيه ذلك القسم ولا غيره!!

ثم قال الله سبحانه وتعالى مخاطبًا نبيه محمدًا ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾، وهذا السؤال هل هو سؤال استفهام أم تعجُّب؟!

وما الفرق بين سؤال التعجب والاستفهام؟! سؤال التعجب أن تسأل عن شيء وأنت تعرفُ إجابته من قبل، بينما سؤال الاستفهام تحتاج إلى جواب له، وليس المقصود بالرؤية هنا البصرية، فإن محمدًا ﷺ لم ير ما جرى لعاد ولا لثمود ولا لفرعون؛ لأنهم كانوا في أزمان مُتقدمة، بل المعنى: ألم يأتِكَ علم وخبر هلاك هؤلاء القوم؟! وقد كان عند العرب بعض أخبار يسيرة عن الأمم السابقة، وفيها بعض الأساطير والزيادات والنقصان، فجاء القرآن الكريم بالخبر اليقين عن الأمم السابقة وعن رسلها وعن أقوامها وما جرى لهم في الحال والمآل، فأخبر الله رسوله ﷺ بالوحي عن تفاصيل تلك الأقوام، وهذا يدل على أن السؤال استفهامي، **كما في قوله:** ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾[الفيل:١]، وعاد هم قوم هود، وكانوا يعيشون في جنوب الجزيرة العربية بين صحراء حضرموت وعُمان، وهي المنطقة التي تُسمى بالأحقاف، وقد ذكر هنا شيئًا من أخبار عاد بإيجاز.

وقد جاءت في سُور أخرى بالتفصيل(١)، فذكر هنا أن عادًا هي: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾، و(**إِرَم**) هي قبيلة عاد، وسُميت بهذا الاسم نسبةً إلى جد عاد الثالث، **فإن عاد اسمه**: عاد بن عَوْصٍ بنِ إرَمٍ بن سامٍ بن نوح(٢)، فعاد رجل وهؤلاء من ذريَّتِه، **فإذا قيل**: عاد، فهو الشخص وذريتُه، **وإذا قِيلَ**: إرَم فالمقصود جدُّه الذي هو اسم للقبيلة التي ينتسب إليها عاد، ووصفها بأنها ذات الأعمدة الطويلة التي تُنصب عليها الخيام، وذلك لطول وكُبر أجسامهم، أو أن تكون العِماد المقصود بها الأعمدة التي بُنيت عليها بيوتهم، كما هو مشاهد من بقايا بُيوتِهم التي ما زال موجوداً بعض آثارها(٣).

ثم وصفها بقوله: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾، **أي**: لم يُوجد مثل بيوتهم أو مثل قوتهم أو مثل أجسادهم في البلاد، فهم أصحاب قوة وأصحاب أجساد عظيمة، وأصحاب بُيوت واسعة، وأعمدة مُرتفعة، فهم قد امتازوا عن غيرهم بهذه الصفات، ولم يخلق الله تعالى شبيهًا لهم في ذلك المكان.!! وقد أهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية، لما كذبوا رسولهم هود.

ثم قال سبحانه: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ ألم تعلم كيف فعل ربُك بثمود؟!، وهم قوم صالح، وموضعها الآن في منطقة العُلا بين تبوك والمدينة المنورة، فهم أيضًا ضمن سكان جزيرة العرب، وقد وصفهم الله

---

(١) كالأعراف وهود والشعراء والأحقاف.

(٢) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (ص: ٣٢٨).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٤٠).

سبحانه وتعالى بشدة بأسهم في بناء البُيوت، ومدائن صالح ما زالت موجودة إلى الآن، وهي من الآثار العظيمة، فبيوتهم منحوتة في داخل الصخر، فقد كانوا يقطعون الصخر، ويصنعون من هذا الصخر بيوتًا، فبُيوتُهم منقورة ومحفورة داخل الصخور، وذلك من شدة قوتهم وبأسهم، **والواد** هنا هو وادي القُرى المعروف الآن في تلك المنطقة[(١)]، **والمعنى**: عمروا بيوتًا في داخل الصخور في وادي القُرى المعروف للعرب آنذاك، وقصتُهم معروفة، وهم الذين عقروا الناقة وكذّبوا رسولهم صالح، فأهلكهم الله بالصيحة، **كما قال**: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾[هود:٦٥].

ثم أخبر سبحانه عن المجموعة الثالثة من الكفار، فقال: ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠﴾

ألم تعلم كيف فعل ربك بفرعون ذي الأوتاد؟!، وهو الملك الذي كان يحكم مِصر أثناء حياة مُوسى، وإن كان فرعون لقب يُطلق على كل من يملِك مِصرًا، وقد وصف الله عظمة هذا الكافر بأنه صاحب الأوتاد، والمقصود بالأوتاد عدة أقوال، منها: أنها الأهرامات الموجودة الآن في مصر[(٢)]، وهي من بقايا الفراعنة، وسُمِّيت أوتادًا؛ تشبيهًا لها بالجبال التي هي أوتاد الأرض، **وقيل**: إن المقصود بالأوتاد: الأماكن التي يُعذب فيها بنوا إسرائيل، فكان يربطُهم إلى أوتاد ويُعذبهم بها حتى الموت، **وقيل**: أن الأوتاد المقصود بها الجنود الذين يُثبتون مُلكه، كما تُثبت أوتاد الحديد الخيام، أو كما ثبت الجبال الأرض، وما كان لفرعون أن

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٣٣٩).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن (٥/ ٣٠١٤).

يثبُت مُلكه لولا جنوده الشداد الكثير(١)، **ويُمكن أن يُقال** إنها كلها تصلح أن تكون داخلة في معنى الآية، فلا تعارض بينها، وكلها كانت متوفرة عند فرعون، فقد كان يبني الأهرام، وكان معه الجنود، وكان يُعذب الناس بالأوتاد، وكل واحد من المفسرين ذكر نوعًا من أنواعها.!!

ثم قال في وصفهم جميعًا: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١﴾، **أي:** تجاوزوا الحد، فإن الطاغية: هو المتجاوز للحد في الظلم والجبروت.

وقوله: ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢﴾، فهم جميعًا قد أكثروا في الأرض الفساد، وتجاوزوا حدودهم كمخلوقين، فمنهم من ادّعى الألوهية، **ومنهم من قال:** من أشد منَا قوة، وهذا كله من الطغيان وتجاوز الحد والفساد في الأرض، لأن الطغيان عادةً يُؤدي إلى الفساد، **كما قال:** ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾، [الحاقة:١١]، فطغى، **أي:** فاض على شكل طوفان يفسد ما يمر عليه من المزارع، ويغرق ما يمر عليه من البيوت، فكأن هؤلاء القوم لكفرهم، وكثرة تجاوزهم في الجبروت والظلم، وقع بسببهم الفساد الكثير في البلاد؛ كثمرة لطغيانهم، والفساد ضد الصلاح، سواءً كان ذلك في العقائد مثل الشرك والنفاق، أو كان ذلك في الأموال مثل أخذها ونهبها، أو كان في الأعراض مثل هتكها أو الطعن فيها، فهذا كله يُسمى فسادًا.!!

ثم قال الله سبحانه: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣﴾، **أي:** بسبب فسادهم وطغيانِهم أمهلهم الله فترةً، حتى إذا جاء موعد هلاكِهم؛ صبّ عليهم ربُك عذابًا

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٠٩-٤١٠).

شديدًا، فالله سبحانه وتعالى عذابُه شديد، وعذابُه أنواع، فهناك عذاب دُنيوي، وهناك عذاب أُخروي، وعبر هنا بسوط عذاب، ومعناه أن لله سياطًا كثيرة، والسوط هو الذي يُضرب به، فأعطاهم الله أحد هذه الأسواط التي أُعدت لعذابِهم، وهو إهلاكُهم إما بالريح، وإما بالصيحة، وإما بالإغراق، فهذا السوط الأول، وهو عذابهم وهلاكهم في الدنيا، وهو يسير بالنسبة لعذاب الآخرة، **كما قال:** ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾[السجدة:٢١]، فهذا سوط الله فيهم **أي:** عذابُه ونكالُه الدنيوي الذي حصل لهم بسبب كفرهم مع ما ينتظرهم من أسواطٍ شديدة وعذابٍ أليم في الآخرة.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾، الخطاب فيه لرسوله ﷺ، إن ربك يا محمد يرصُد ويُراقب ويرقُب هؤلاء الكفار، وهي عبارة تهديد ووعيد لمن يسمعها من الكفار وغيرهم، **والمعنى:** يا كفار قريش، يا مُكذبين رسول الله، يا مُؤذين عباد الله المؤمنين، فهل أنتم أقوى من عاد وثمود وفرعون؟! فكأنه يُشير إلى أن الله قد أهلك هؤلاء الجبابرة الأقوياء الكبار، بسبب تكذيبهم وكفرهم، فمن أنتم حتى لا يُهلككم كما أهلكهم؟!!، وفيه إشارة أيضًا إلى أن الله مُحيط بخلقه، وأنه يُمهل ولا يُهمل، لعلهم أن يتوبوا، وهو سبحانه يرصد أعمال الناس ويُراقِبها من أجل أن يُجازي كل واحد بما يستحق، فأهل الإيمان يُجازون بالجنة والنعيم، وأهل الكفر والضلال يُجازَون بالأخذ العزيز في الدنيا والنار في الآخرة.!!

ثم جاء الحديث بعد ذلك عن قضية جديدة، يذكرُ فيها الله سبحانه وتعالى الميزان

المتعارف عليه عند البشر، **فقال:** ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾، **وخلاصة** هذا الميزان، أن الله إذا أكرمَك بالمال والرزق والعيال والمنصب، فمعنى ذلك أنك عند الله كريم، وأن الله إذا قدر عليك الفقر والمرض والحاجة، فمعناه أنك عند الله مُهان وغير مكرم، فصار هذا المقياس الميزان عند الخلق في التكريم، هو العطاء، وفي الإهانة هو المنع، فمن أعطاه الله مالًا وجاهًا وأولادًا وسلطانًا فهو كريمٌ على الله، ومن لم يُعطِه ذلك وأُصيب بالفقر والحاجة ونحو ذلك، فهو مُهانٌ عند الله!!، وما زال هذا الميزان موجودًا عند كثير من الناس إلى اليوم!!، وهو ميزان باطل عند الله وفي شرعه، **ولذلك عقّب عليه بقوله:** ﴿كَلَّا﴾، **أي:** ما تقولونه غيرُ صحيح، فليس إعطاءُ الله الدنيا لأحدٍ من خلقِه، دليل على كرامتِه عند الله، وليس فقر العبد في الدنيا دليل على إهانته عند الله، فإن الله يُعطي الدنيا من أحب ومن لا يحب، ولا يُعطي الدين إلا من أحبّه، وأن العطاء والمنع ابتلاء، فإن الله يبتلي بالسراء كما يبتلي بالضراء وبالخير وبالشر، **كما قال:** ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾[الأنبياء:٣٥]، فالإهانة والإكرام ليست بمنع ولا عطاء، بل بالتقوى، **كما قال:** ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، فالعطاء والمنع اختبار للعبد، يختبره الله بالغِنى؛ لينظر هل يشكر، ويختبره الله بالفقر؛ لينظر هل يصبر، فكلاهما ابتلاء، كما نص عليه في الآيتين، **فقال:** ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥﴾، فالصنف الأول من الناس: اختبره بالنعمة فأعطاه منها وأظهرها عليه، سواءً

كانت نعمة المال أو الولد أو الجاه والسلطان وغيرها؛ فإذا به يغتر بها، ويقول لغيره: أعطاني الله ولم يُعطك، وأكرمني ولم يكرمك.!!.

وقوله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾، **والصنف الآخر من الناس:** اختبره الله بالمنع فقدَر، **وفي قراءة**[1]: قَدّر، بالتشديد، بمعنى ضيّق، **مثل قوله:** ﴿قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾[الطلاق:٧]، **أي:** ضيّق عليه في رزقه، فصار فقيرًا مُحتاجًا، فإذا هذا الإنسان الفقير يقول لغيره: لقد أهانني ربي؛ لأنه ما أعطاني رزقًا، ولو كان الله يُريد إكرامي لأعطاني رزقًا، وهذا دليل على جهله بالله، فإن الله حكيم، ومن حكمته أنه يُعطي من يشاء ويمنع من يشاء لحكمة، **وقد جاء في الأثر:** أن بعض الناس من لو أغناه الله لفسد، وبعض الناس لو أفقره الله لفسد[2]، فأحيانًا يكون الفقر سببًا للفساد، وأحيانًا يكون الغنى سببًا للفساد، والله عليم بحال العباد، حكيم في أفعاله بهم!!.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾، **أي:** إن واقعكم وحالكم حتى ولو أعطاكم الله مالًا، فأنتم لا تستخدمون هذا المال في وجوهه الصحيحة، بدليل أن سيرتكم مع اليتيم غير حميدة، فإذا كان لديكم يتيم مُستضعف مُحتاج لا تُكرمونه ولا تُعطونَه مما أعطاكم الله، ولا تُحافظون على ماله إن كان له مال لديكم، فإن إكرام اليتيم يكون بحفظ ماله، والتعامل معه برفق، وإعطائه مما أعطاك الله سبحانه وتعالى إن كان فقيرًا مُحتاجًا.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤١٣)

(٢) ينظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني: (٤/ ٢٥٦).

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨﴾، وكذلك سيرتكم غير حميدة مع المسكين، والمسكين هو الذي عنده شيء لكن لا يكفيه[1]، ومَن دونَه هو الفقير، وهو الذي ليس عنده شيء، فالفقير أقل رتبة من المسكين[2]؛ فلا يحث بعضُكم بعضًا على الإحسان إليهم بالطعام والشراب ونحوها، وهو ما يُسمى اليوم بالتكافل الاجتماعي، **بمعنى:** أنهم كانوا مجتمعًا متفككًا غير متعاون ولا متراحم.!!

ثم قال: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩﴾، ومن طمعكم أيضًا أنكم تأكلون الميراث، فلو كان عند هذا اليتيم ميراث؛ لأكلتموه عليه، وقسّمتموه فيما بينكم، ولم تحفظوه له حتى يبلُغ، بل تستغلون ضعفه وقلّة خبرته؛ فتبددون ماله بأي صورة، وأكد الفعل هنا ليدل على أنهم حريصون على أكل ماله بأي صورة.

وقوله: ﴿لَّمّٗا﴾ **أي:** أكلًا شديدًا، بحيث تلمُونه كله، ولا تتركون منه شيئًا، وهذا يدل على أنه ليس في قلوبِهم رحمة ولا شفقة، وأنهم إذا وصلوا إلى مال الضعيفِ أخذوه كله.!!

ثم قال: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾، والذي دفعكم إلى هذا كله هو حبُكم للمال، حبًا كبيرًا أو كثيرًا، حتى دخل إلى شِغاف قلوبكم، فلم يدع لكم مجالًا للرحمة ولا للشفقة، ومن كانت هذه صفاته فقد فسد ميزانه للأمور، وأصبح مشغولًا بالمال يبحث عنه من أي مصدر كان، من حلال أو من حرام،

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (١/ ٣٥٥).

(٢) ينظر: تاج العروس (١٣/ ٣٣٦).

فلا يرحم فقيرًا ولا يُطعم مسكينًا، ولا يقبل حقًا.!!

ثم قال: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ ،**كلا**، كلمة ردع وزجر لقبائح أعمالهم السابقة من أكل حقوق الأيتام، وعدم الحث على إطعام المساكين، وأكل المال بغير حق، وستجدون عاقبة هذا الفعل القبيح عند قيام الساعة التي من علاماتها: أن الأرض تُدك، وتتزلزل وتُبس الجبال بسًا فتُصبح هباءً مُنبثًا، فتصبح الأرض مستوية، **كما قال:** ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾[طه:١٠٧]، ثم يحُشر الناس كلهم إلى أرض المحشر.

وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾، **أي**: أن الله سبحانه وتعالى يجيء للفصل بين العباد، مجيئًا يليق به سبحانه وتعالى، لا نعرفُ كيفيته، ولا يجوز أن نكيِّف هذا المجيء، ولا أن نُنكره، لأن القرآن أثبته، بل نقول: يجيء الله سبحانه وتعالى للفصل بين العباد يوم القيامة مجيئًا يليقُ بجلاله لا يُشبه مجيء خلقِه، فليس كمثله شيء سبحانه، ويجيءُ مع الله سبحانه وتعالى إلى المحشر الملَك، يعني: الملائكة، فالملَك اسم جنس يعم كل الملائكة، والمقصود به ملائكة كل سماء، فيصيرون صفوفًا، بحيث يحجزون ساحة المحشر، فلا يهرب منها أحد، **كما قال:** ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟﴾[الرحمن:٣٣]، **أي**: أن تهربوا، فلا تستطيعون لأن وراءهم صفوفًا عظيمة وكبيرة من الملائكة التي تحرسهم.

ثم قال: ﴿وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾، ثم في هذا الجو العظيم الرهيب يُؤتى بجهنم، **وقد جاء في الحديث: "يُؤتى بجهنم**

يوم القيامة لها سبعون ألف زمام في كل زمام سبعون ألف ملَك يجرونها"(١)، فتكون ظاهرة للناس، **كما قال:** ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦﴾[النازعات: ٣٦]، فإذا بالناس يسمعون شهيقها وزفيرها، ويرون لهيبها، وفي هذا الوقت العصيب يبدأ الإنسان يُراجِع حساباته ويتعظ، ويقر بالبعث والنشور، ويتذكر ما كان يقوله الخطباء والواعظون عن الجنة والنار، ولكن لا فائدة من هذا الاتعاظ؛ لأن الآخرة ليست دار عمل، بل دار جزاء فقط، فلا تنفعه التذكرة ولا التوبة الآن!!.

فيتندم ويتحسر، ويقول: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤﴾، حين يرى الحياة الجديدة، ويرى المؤمنين ذاهبين إلى الجنة بسبب أعمالهم الصالحة، وهو مُفلِس ليس عنده شيء من أعمال الخير والصلاح، فيندم على حياته التي ضيعها بالكفر والإعراض عن الله، ويتمنى لو أنه اتّعظ في الدنيا وعمل أعمالًا صالحة يقدمُها لحياته الجديدة في الآخرة، فلما يقول هذا ويعترف؛ يُؤمرُ بتعذيبه وتوثيقِه **كما قال:** ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾، فتُربط يديه إلى رجليه، ويُربَط بالسلاسل والأغلال، ثم يُرمى في النار، وهذا العذاب وهذا الوِثاق لا يُوجد مثلُه؛ لأنه لا يُعذِب مثل عذاب الله أحد، ولا يُوثِق مثل وِثاق الله أحد، فعذابُ الخلق لا يُساوي شيئًا أمام عذاب الخالق!.

ثم ذكر الله حال المؤمنين، فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾، والمقصود بها جنس الأنفس الموجودة في الحشر التي كانت آمنة مطمئنة بسبب إيمانها وصلاحِ أعمالها في الدنيا.

---

(١) أُخرج نحوُه في صحيح مسلم (٤/ ٢١٨٤)، رقم (٢٩).

فيقول لها: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾، والمقصود هنا رجوع خاص بهذا الصنف من الناس، فنفوسهم راضية، ومرضي عنها، راضية عن حالها وعن ثوابها وجزائها، وعن المكان الذي تسير إليه، ومرضيٌّ عنها من قِبل الله، فحصل لها الرضى **من جهتين:** من جهتها نحو ربها فقد رضيت بما أعطاها، ومن جهة الرب سبحانه فقد رضي عنهم.

ثم يقول لها: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩﴾، يأمرها الله أن تدخل ضمن عباد الله الصالحين، وهم الذين سبقوها من الأنبياء والمرسلين وغيرهم.

ثم يأمرها فيقول: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾، **أي:** ادخلي معهم جنتي، وهنا أضاف الجنة إليه للتعظيم، وأنها مِنة وفضل وكرم يمنحه الله سبحانه وتعالى النفوس المؤمنة المطمئنة بالعمل الصالح، الراضية بالله وبقضاء الله وقدره في الدنيا.!!

فوائد وهدايات من السورة:

١- فضل وأهمية العشر الأولى من شهر ذي الحجة.

٢- في هذه السورة بيان الميزان الصحيح في مفهوم الرزق، فليس العطاء لأنك كريم عند الله، وليس المنع لأنك مُهان عند الله، وإنما الدنيا تُعطى للإنسان سواءً أحبه الله أو كرهه على سبيل الابتلاء.

٣- بيان أهمية التكافل الاجتماعي بين الناس.

٤- لا ينفع الإنسان التذكر بعد فوات الأوان.

٥- لا أحد أشد عذابًا من الله.

٦- الجنة مِنّة وفضل وكرم، يمنحها الله سبحانه وتعالى النفوس المؤمنة المطمئنة بالعمل الصالح، الراضية بالله وبقضاء الله وقدره في الدنيا.

تفسير سورة البلد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾.

شخصية السورة:

سورة البلد؛ سورة مكية[(١)]، **ومقصدُها العام:** التركيز على الإنسان وبيان أنه يعيشُ بين كبدِ الكفر والعذاب، وبين الصعودِ لسلم الرحمة والإيمان في الدارين[(٢)].

ابتدأت السورة بالقسم، فقال سبحانه: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾، **لا، هنا**

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير، ت: سلامة (٨/ ٤٠٢).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٠٨).

للتوكيد، ويكون ما بعدها قسمٌ مُؤكد، **قال سبحانه:** ﴿أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، وهذه أحد الأوجُه التي صُرّح بها بفعل القسم، وإلا غالبًا كما مر معنا يُذكر أداة القسم والمُقسم به، **مثل:** والشمس، والليل، والعصر، بدون أن يقول أُقسِمُ، وهنا جاء بلفظ أُقسمُ بكذا، فتكون الباء هي حرف القسم وأداته، والمُقسَم به ما بعدها، وجواب القسم سيأتي، فأقسم الله سبحانه وتعالى بالبلد الحرام، وهو مكة.

ثم قال: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٢﴾ وهذه جملة اعتراضية، وليست ضمن القسم، لأن البعض يخلِط بين واو القسم وواو العطف، فكأنه يظن أن الله تعالى أقسم بمكة، **ثم أقسم بقوله:** ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، لا، هذه واوٌ عاطفة، وأنت مُبتدأ، وما بعدَها خبرُه، وتعريف البلد في الآية الثانية دليل على أن البلد واحد، وهي مكة، ولو كان يقصِد بلدًا آخر لنكّر لفظ البلد الثانية، لأن التنكير يدل على التعدد، **والخطاب في قوله:** ﴿وَأَنتَ﴾ لرسول الله محمد ﷺ، **وحلٌ، للمفسرين فيها أقوال**(١): **الأول:** أنها من حللتُ بالبلد إذا سكنتُ فيه، **والمعنى:** وأنت ساكنٌ بالبلد، **أي:** بمكة، **أي:** حالٌ فيه.

والثاني: حِلٌ بمعنى أنك مُحلٌّ دمَك وأذيتك للكفار وهم في مكة، وهذا من غرائب التصرفات في أنهم يحرمون قتل الصيد في الحرم ويُحللون دمَك، فآذوه وطردوه وقتلوا أصحابَه.

والثالث: حل، بمعنى: أن مكة حلالٌ لك تدخلها وتُقاتل أهلها فيها، فإن الله

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٨٣).

يُحلُّها لك[١]، وقد حرّمها على لسان إبراهيم وحرّمها يوم خلق السموات والأرض، لكنه أحلها لرسوله محمد ﷺ، **كما جاء في الحديث**: **"وإنما أُحلت لي ساعة من نهار"**[٢]، **والمقصود بذلك** في فتحِ مكة، فقد دخل النبي ﷺ، فعفى عن عموم كفار قريش الذين آذوه، واستثنى من العفو نفرًا منهم، فقال: **"اقتُلوهم ولو وجدتموهم مُتعلقين بأستار الكعبة"**[٣]، **فهذه الثلاثة الأقوال** في معنى الآية، **والقول الأول والثاني** لا إشكال فيهما، والإشكال على القول الثالث، فإن السورة مكية، **والتفسير الثالث** يقصد به فتحُ مكة، وكان في السنة الثامنة من الهجرة، فتكون الآية مدنية، **والجواب**: لا إشكال، فقد تأتي إِشارة في القرآن المكي إلى حُكمٍ سيكون في الفترة المدنية، وهذا موجود في القرآن، **كما في قوله**: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[القمر:٤٥]، فهذه نزلت في مكة، وما حصلت الهزيمة إلا في بدر، ولو كان هناك طالب علم جاد من طلاب الدراسات القرآنية، يتتبع مثل هذه الآيات، ويجمعها ويفسرها سيخرج طيب، يستفيد منه، ويُقدّم خيرًا للأمة.!!

وقوله: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾ **الواو** هنا حرفُ قسمٍ، والمُقسَم به كل والد وكل ولد، يعني: جنس الوالد وجنس الولد، ويشمل ذلك جميع الخلق، سواءً كان

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٦٤).

(٢) أُخرج نحوُه في صحيح البخاري (٣/ ١٤)، برقم (١٨٣٢).

(٣) أُخرج النسائي (٧/ ١٠٥)، برقم (٤٠٦٧) نحوه، **وقال الألباني**: صحيح، **والنفر هم**: "عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ خَطَلٍ وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ".

من الإنسان أو من الجن أو من الحيوان، ويستثنى منه الملائكة والجمادات؛ لعدم وجود خاصية التزاوج والولادة لديها، ويدخل في ذلك من يبيض من الحيوان؛ لأن العصفور يسمى ولد لأبيه، فهو ولد رغم أنه خرج من البيضة ولم يخرج بالولادة، والقول بهذا العموم هو الراجح[(١)]، ويدل على عظمة المُقسَم به، فإنه يشمل هذه الأنواع كلها، **وقيل**: إن الوالد آدم، والولد أولاده، **وقيل**: إن الوالد إبراهيم[(٢)]، والولد إسماعيل.

قلت: وهذا من التفسير بالمث،ال ولا يتعارض مع القول بالعموم، وقيل: الوالد المقصود به الذي يلِد، وما هنا نافية، فيكون القسم بكل من يلِد وبكل مَن لا يلِد[(٣)]، وهذا له وجه ويكون التفسير به من العموم.

ثم ذكر جواب القسم، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ فأقسم الله بهذا البلد الذي هو مكة شرّفها الله، وأقسَم بكل والدٍ وولدِه، أن الله خلق هذا الإنسان في كَبد، **والإنسان**: اسمُ جنس، يشمل كل إنسان: المؤمن والكافر، والذكر والأنثى، **ومعنى كَبد، أي**: مشقة، أو تعب، **قالوا**: وأصل كَبد من المُكابدة، والمُكابدة هي مُدافعة الشيء ودفعِه لمشقته[(٤)]، فالإنسان يُكابد في هذه الحياة، فيُكابد الفقر، ويُكابد المرض، **وقيل**: المُكابدة أصلها مأخوذة من

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٦٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٣٣).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٦٥).

(٤) ينظر: جمهرة اللغة (١/ ٣٠٠).

وجع الكبد[١]، فإذا أُصيبَ الكبِد بألم ومرض، وهو أخطر أنواع الأمراض التي تُصيب الإنسان؛ لأن الكبد مُجمع السموم في جسم الإنسان، فإذا تألم الكبد ومرض يحس الإنسان بالتعب والمشقة، ثم ما المقصود بالمُكابدة؟ في أي شيءٍ؟ هل المُكابدة في حياته المعيشية بين فقرٍ وألمٍ وصحةٍ واغترابٍ وخوفٍ؟! يمكن أن يعيش هذا النوع من المكابدة، أم المُكابدة في تنقُّله في الأطوار بين أن يكون جنينًا ثم يخرج من بَطن أمه، ثم ينتقل ليأكل، ليتحرك، ليمشي، ليعمل، ليكبُر في السن ثم يُصاب بالهرم والتعب والمشقة والضعف؟! وهذا أيضًا وارد، وتفصيل هذا يعود إلى علم الأجنة هو علمٌ مستقل جدًا، فيه ما فيه من العجائب، ولكن هذه المرحلة العجيبة من عمر الإنسان لا يتذكرها، فالنسيان يستمر فيه إلى أن يبدأ يتذكر من سن أربع أو خمس سنين من عمره، ولو استطاع أن يتذكر حاله وعُمره شهر أو شهران، لعلم مقدار كم كابد حتى أسك ضرع أمِه، وبدأ يمصه ليخرج منه الحليب؟!!، ولو تذكر وعمره أقل من سنة، كم كابد حتى بدأ يقف ويخطو الخطوة الأولى؟!!، لوجد في ذلك عجائب المكابدة، وقس على ذلك أنواع الكبد التي تمر بالإنسان في حياته كلها؟!!، سواءً في حركته في طفولته، فضلًا عن ما يتعرض له من المشاق، ومن الفقر والمرض والحاجة والخوف والألم والتنقل، فهذه كلها نوع من مكابدة الدنيا، فإذا أضفت إليها مُكابدة الآخرة: القبر وما فيه، والحشر وما فيه، لوجدت كمًا كبير جدًا من المكابدة والألم، فهذا يدلُ على عظم القسم الذي أقسم الله تعالى به؛ ليُبين لنا

(١) ينظر: جمهرة اللغة (١/ ٣٠٠).

أن المكابدة نوع من الابتلاء والاختبار للعبد، حتى يصبر عليها ويتجاوزها، ولا يوجد أحد من الخلق إلا وقد مرَّ بها، حتى الأغنياء والأثرياء والمُنعمون عندهم مُكابدة، فالغني لديه مُكابدة الحفاظ على النعمة، والفقير لديه مكابدة الحصول على القِرش، فالجميع يعيش في كبد.!!

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾، **أي:** أيظن هذا الإنسان، الذي عاش هذه المُكابدة وخرج منها وتخلّص منها وصار يكفر بالله ويتعرض لخلق الله، وصار جبّارًا هل يظن أن لن يقدر عليه أحد؟! وهذا سؤال إنكاري، وإلا فالله قادرٌ على كل أحد، فهذا الإنسان الذي يظن أن الله غير قادرٍ عليه.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾، **أي:** يفتخر بأنه أولًا جمع مالًا حتى صار كثيرًا، ثم صرَفه وقضى عليه في نفقاته، والمال هنا هو ما يتموّله الإنسان، وقد يكون ذهبًا أو فضة أو كل ما يُسمى مالًا، مما يُتمول به الإنسان ويتحرك به، ويقوم مقامه اليوم الدولار والريال وغيره.

و﴿لُّبَدًا﴾، **أي:** كثير، الأصل في اللُبد هو الطبقة فوق الطبقة[(١)]، **ومنه حديث:** **"كان إذا أحرم لبّد شعره"**[(٢)]، **قوله:** ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾[الجن:١٩]، **أي:** أن الجن من كثرة تجمعهم واجتماعهم كأن بعضهم فوق بعض، والمعنى: من كثرة المال عنده، صار مُتراكمًا بعضه فوق بعض؛ فأهلكه كله.

(١) ينظر: تهذيب اللغة (١٤/ ٩٢).

(٢) رواه أحمد في مسند ط الرسالة (١٠/ ٢٤٦)، برقم (٦٠٦٨)، وإسناده صحيح.

ثم قال الله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾، **أي**: أيظن أنه لا يراه أحد؟!!، وهذا كله إنكار لقدرة الله، وإنكار لرُؤية الله واطلاعه وعلمه بالخلق، وهذا مُنتهى الكفر والجحود لعظمة الله سبحانه!!، فردّ الله على هذا الإنسان المتكبر المتغطرس الذي ادعى أنه أنفق مالًا كثيرًا، وظن أنه لا يراه أحد، ولا يقدر عليه أحد، فمن الذي خلقه وأوجده؟!

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾، ألم نخلق له عينين ليرى بهما؟!، وفي هذا توبيخ له، فكيف تظن أنه لا يراك أحد، هل لأن خاصية الرؤيا لك وحدك؟! ألم يخلقك الله مثل غيرك من الخلق؟!! فالذي خلق حاسة الإبصار فيك قادر على خلقها في غيرك، وقادر على رؤيتك.

ثم قال: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾، وخلقنا له لسانًا وشفتين ليتكلم بهما، ويعبر عما في نفسه ويتواصل مع غيره.

وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾، **أي**: بيّنا له **الطريقين**: طريق الخير وطريق الشر، **والنجدُ**، هو: المكان المرتفع، أو الطريق على مكانٍ مُرتفع[(١)]، **والمعنى**: أن وضوح الحق ووضوح الباطل كوضوح الطريق المُرتفع في نجدٍ مُرتفع ليس فيه غموض ولا خفاء، فدل ذلك على عدل الله وكرمه في إيضاح الحق والباطل للناس، **كما جاء في الحديث**: **"إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن"**[(٢)]، وهداية الله للخلق: تتم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وخلق السمع والبصر والعقل، فهذه أدوات تلقي

(١) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٥٤٢).

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٢١٩)، برقم (١٥٩٩).

العلم، ومعرفة الحق، **كما قال:** ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[النحل:٧٨].

ثم قال الله: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١﴾، الخطاب لهذا الإنسان الذي ظن هذا الظن بربه وأعرض عن طريق الحق الذي هداه الله إليه؛ بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولكنه أعرض فلم يحصل منه اقتحام العقبة، **فهذا هو المعنى إذا قلنا:** إن (لا) نافية لما بعدها، **أما إذا قلنا:** إن (لا) بمعنى: هلّا، فهو حضٌّ وإرشاد، والمعنى: فهلّا اقتحم هذا الإنسان المعرض عن الله العقبة، أو هل لك أن تقتحم العقبة بالإيمان والعمل الصالح، وتجاوزت موانع الإيمان وصوارفه، يصلُح هذا أو هذا، والاقتحام: الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة[(١)]، وهل العقبة حقيقية، أم مثالٌ ضربه الله؟! **قيل:** هي عقبة حقيقية بين الجنة والنار، لا بد أن تقتحمها حتى تدخل الجنة[(٢)]، **وقيل:** هو مثلٌ ضربه الله تعالى لما يُوصلك إلى الجنة، وما يبعدك عن النار[(٣)]، فكل ما يقف بينك وبين طريق الجنة فهو عقبة، والجمع عقبات، **ولذا نقول:** عقبات في طريق العلم، وعقبات في طريق الدعوة إلى الله، فهل نقصد عقبة حسية، يعني جبل نصعده، أم نقصد بالعقبة الصعوبة المعنوية؟!، الثاني هو المقصود، وهو الراجح بدليل السياق الذي بعده.

ثم جاء تفسير العقبة بعد أن قال الله لنبيه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢﴾، هذا

---

(١) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٧٥٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٤٠).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٦٨).

الأسلوب من باب التعظيم والتشويق لمعرفة الجواب، ثم بين له كيف يكون اقتحام العقبة.

فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣﴾، فذكر هنا الوسيلة الأولى لاقتحام العقبة: وهي فك رقبة، **والمقصود بالرقبة:** العبد الرقيق، فالعبدُ يكون كالمُقيد عند سيده، فإذا أطلقته وحررته؛ فقد فككت رقبته، **ويدخل في فك الرقبة:** فك المسلم المأسور عند الكفار، **والفّكُّ** أعم من العِتق، فالعِتق أن تنفرد بعتقها، بينما الفك أن تشارك بما تيسّر من قيمتها، وقد أطلق هنا الرقبة ولم يقيدها، وقد جاء في آيات أخرى تقييد الرقبة بالإيمان، **فذهب الجمهور** إلى أن المُطلق يُحمل على المُقيد، فخصصوا هذه الرقبة بأن تكون مؤمنة، وقد ذُكر تحرير الرقبة في أحكام الكفارات[1]، **مثل:** كفارة القتل الخطأ، وفي كفارة الظهار، وفي كفارة اليمين، وفي كفارة من أتى أهله في نهار رمضان وغيرها، وهذا نوع من التحضيض على إنهاء الرق، والحث على تحريرُهم منه؛ لينطلقوا في خدمة دين الله سبحانه وتعالى.

ثم ذكر هنا الوسيلة الثانية من وسائل اقتحام العقبة، فقال: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤﴾، **وهي:** إطعام الطعام، سواءً كان ذلك الطعام مطبوخًا، أو كان الطعام هو: مكوناته من الحبوب وما يتعلق به، وبين أن أفضل أنواع الإطعام الذي يكون عند شدة الحاجة والفقر، **فقال:** ﴿فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾، **والمسغبة هي:** شدة الجوع والحاجة إلى الطعام[2]، فكلما كان إطعام الطعام في وقت الشدة

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٦/ ٢٨٨).

(٢) ينظر: مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٤٦٢).

كان أجره أعظم، فإذا آثرت غيرك على نفسك به، فذلك دليل على كمال الإيمان، كما فعل ذلك الصحابي الذي أطعم ضيف رسول الله ﷺ، طعام أهله، وولده وباتوا جائعين[1]، **فقال الله عنهم**: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر:٩].

ثم ذكر الأصناف التي تستحق الإطعام، فقال: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾، هذا هو الصنف الأول، وهو اليتيم، وهو من فقد والده وهو صغير لم يبلغ الحلم، واختار اليتيم لضعفه وقلة حيلته، ويُفضل أن تبدأ بإطعام القريب من الضعفاء الذين من أسرتك وأرحامك، فالأقربون أولى بالمعروف، فإذا لم يوجد من أسرتك فأعط الأيتام من غيرهم؛ لأن اليتيم ذا المقربة **له حقان: حق** اليُتم، **وحق** القرابة.

ثم ذكر الصنف الثاني، فقال: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾، وهو المسكين الذي من شدة فقره وحاجته، ليس معه مال إلا التراب، أو قد التصقت يداه بالتراب من شدة الفقر، أو ينام على التراب من شدة الحاجة، وفي إطعام من هذا حاله أجر عظيم عند الله.

وقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الضمير يعود إلى المتصدق، المُقتحِم للعقبة، الذي فكَّ الرقبة بماله، وأطعم اليتيم والمسكين، فلا بد أن يكونَ مؤمنًا بالله واليوم الآخر ومحققاً لشروط الإيمان المعروفة، من أجل أن يدخل الجنة؛ لأنه لو فعل ذلك وهو كافر بالله، فلا فائدة له من صدقته في الآخرة، وقد يعُطيه

(١) ينظر: القصة في صحيح البخاري (٥/ ٣٤) برقم: (٣٧٩٨).

الله ثوابها في الدنيا السمعة الحسنة والراحة النفسية ونحوها، ثم أضاف إلى الإيمان صفتين، **فقال:** ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾[البلد: ١٧]، والتواصي **بالصبر، يعني:** أن يُوصي نفسه وغيره بالصبر على الحق، والثبات عليه، والبقاء على المبادئ والقيم الصحيحة، فلا يتركها لابتلاءٍ أو إغراء ونحوه، وكذلك يوصي نفسه وغيرهُ بالمرحمة، وهي: الشفقة والرحمة بالخلق، **وهذان أصلان يقوم عليهما دينُ الإسلام:** الثبات على الحق، والشفقة والرحمة بالخلق، فإن وُجد عندك الأول ولم يُوجد الثاني فاستقامتُك ناقصة، وإن وُجد الثاني ولم يُوجد الأول فاستقامتُك باطلة.

ويبقى هنا سؤال: لماذا أخّر صفة الإيمان مع أنها شرط، وابتدأ بصفة الإطعام؟!!، الجواب: أن الإطعام وفكّ الرقبة وفعل الخيرات؛ لا فائدة منه إن لم يُختم لك بالإيمان، حتى لو كنت مؤمنًا عند فعلها، فلا بد أن يستمر إيمانك وأن يُختم لك بالموت على الإيمان، ولذلك ختم بها الآية.

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨﴾، أي من تحققت فيه تلك الصفات السابقة استحق أن يكون من أصحاب الميمنة، وهم أصحاب اليمين المذكورون في قوله: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾[الواقعة: ٢٧]، وما بعدها من الآيات، ولم يذكر هنا جزاءهم، واكتفى بما ذكره عنهم في سورة الواقعة، وهم في الرتبة الثانية من أهل الجنة بعد رتبة السابقين، **كما في قوله:** ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١﴾[الواقعة: ١٠-١١]، بمعنى أن هذه الأعمال تجعل صاحبها في الرتبة الثانية، ولو أراد الرتبة الأولى؛ فلا بد له من الجد والاجتهاد أكثر.

ثم لما ذكر الله صفات أصحاب الميمنة؛ أخبرنا عن صفات أصحاب المشأمة ممن لم يقتحم العقبة، ولم يؤمن بالله ولم يُطعِم يتيمًا ولا مسكينًا، ولم يصبر على الحق ولم يرحم الخلق، بل فعل ضد ذلك، **فقال**: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩﴾[البلد: ١٩]، **وأصحاب المشئمة**، هم أصحاب الشمال، وهم من أهل النار المذكور جزاؤهم في سورة الواقعة، كما في قوله: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١﴾[الواقعة:٤١]، وما بعدها من الآيات، **فأصحاب المشأمة**، هم الذين كفروا بآيات الله فصاروا من أصحاب الشمال، وهم الذين يُعطَون كتابهم بشمائلهم ثم يدخلون النار، ثم ذكر هنا حالهم فيها.

فقال: ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾، **أي**: بعد أن يدخلوا النار تُغلق عليهم أبوابها، لأنه لو لم تُغلق عليهم الأبواب لهربوا منها!!، فأبواب الجنة الثمانية، تكون مُغلقة قبل الدخول إليها، فلا يدخلها أحد إلا بعد أن يستأذن، كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ يأتي فيستفتح باب الجنة، فيُقال له: من أنت؟ فأقول: محمد، فيُقال لي: أُمرنا ألا نفتح لأحد قبلك[(١)].

ثم والذي يظهر لي أن الباب بعد ذلك يترك مفتوحًا؛ لعدم الحاجة إلى غلقه وحراسته، فلا أحد يريد أن يغادر الجنة!!، **كما قال**: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ٥٠﴾[ص: ٥٠]، بخلاف النار فأبوابها السبعة مفتوحة على مصراعيها قبل الدخول إليها، فالجميع يهرب منها، وأهلها يسحبون إليها سحبًا ويجرون جرًا، فإذا رُموا في داخلها؛ أغلقت عليهم الأبواب حتى لا يهربوا منها!!، **ولذا قال هنا**:

(١) رواه مسلم (١/ ١٨٨)، برقم (٣٣٣)، بنحوه.

﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ أي: مُغلقة الأبواب، وفي سورة الهمزة بيَّن وسيلة الإغلاق، بقوله: ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾[الهمزة:٩]، أي: مغلقة بعمود كبير جدًا يوضع خلف الباب، ممدودًا بين طرفي الباب من العتبة إلى العتبة، وفيه إشارة لصُناع الأبواب، إذا أردت أن تصنع بابًا قويًا لا يفتح بسهوله، فأغلقه من الخلف بعمود حديدي يمتد وراءه من العتبة إلى العتبة، بحيث يمنع من أي محاولة لفتحه بسهولة!!.

فوائد وهدايات من السورة:

١ – أن المكابدة نوع من الابتلاء والاختبار للعبد، حتى يصبر عليها ويتجاوزها، ولا يوجد أحد من الخلق إلا وقد مرَّ بها، فالجميع يعيش في كبد.!!

٢ – من عدل الله ورحمته بالخلق؛ بيان الحق والباطل للناس، بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

٣– عتقُ الرقاب وإطعامُ المحتاجين في وقت الشدة، من أهم وسائل اقتحام العقبات وإزالة العوائق من طريق المؤمن في الدنيا والآخرة.

٤ – التواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة، أصلان يقوم عليهما دينُ الإسلام، فالأول: يتعلق بالثبات على الحق، والثاني: يتعلق بالتعامل مع المخلوقين.

تفسير سورة الشمس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤
وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا
٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ إِذِ
ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا
فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥﴾.

شخصية السورة:

سورة الشمس؛ سورة مكية[(١)]، **وتُركّز هذه السورة في محورها العام** على إظهار آيات الله في الآفاق والأنفُس وأحوالِها، وتُبيّن أهمية تزكية النفس وزجرها عن العصيان[(٢)].

بدأها الله سبحانه وتعالى بالقسم، وهو أطولُ قسمٍ في القرآن، فإن الله تعالى أقسم بأحد عشر قسمًا، ثم جاء بعدها بجواب قسم واحد، **فقال الله سبحانه**: ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾، أقسم الله بالشمس؛ وهي هذه الآية العظيمة البيّنة، التي خلقها الله

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٣٥٧).

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٥٩٥).

سبحانه وتعالى بهذا الوصف وبهذا القدر، تنبيهًا لعظمتها، وقد وصل العلم الحديث اليوم إلى تفاصيل دقيقة عن حجم الشمس وشدة حرارتها وقوة أشعتها، ومعرفة فلكِها الذي تسير فيه، فاكتشفوا مقدار عظمتها.

ثم قال: ﴿وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، وهو وقتُ ارتفاع الشمس بعد طلوعها من مشرقها إلى أن تصل قابَ قوسين من زوالها إلى كبِد السماء؛ حين يشتد حرها وضوؤها، **وفي الحديث:** **"صلاة الضحى حين ترمض الفِصال"**[(١)]، **والفصال** المقصود بها أولاد النوق[(٢)]، يعني من شدة الحر تبحث لها عن ظلٍ لتختبئ فيه.

ثم قال: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾، **والقمر؛** هو الآية الأخرى في المجموعة الشمسية، وهو آية عظيمة من آيات الله تعالى، أقسم الله تعالى به؛ حين يتبع أثر الشمس في نصف الشهر الأوّل، وتتلوه في النصف الآخر[(٣)]، **وهذا يدل على** أن القمر تابعٌ للشمس، وهو الذي اكتُشفَ حديثًا أنه لا ضوء له، وإنما ضوؤه انعكاسٌ لضوء الشمس، فإذا جاءت الأرض بينه وبين الشمس؛ حدث ما يسمى خُسوف القمر.

ثم قال: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾، فأقسم بالنهار؛ حين يكشف بضوئه وجه الأرض، فإن وجه الأرض يكون مظلمًا أثناء الليل، فإذا جاء النهار؛ تبدد ظلام هذه الأرض بمجيئه، ولا شك أن النهار لا يأتي إلا بعد أن تُشرق الشمس،

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥١٥)، برقم (١٤٣بنحوه.

(٢) ينظر: جمهرة اللغة (٢/ ٧٦٩).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٥٢).

فمجيءُ النهار تبعًا لشروق الشمس.

ثم فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾، فأقسم بالليل؛ حين يغشى بظلامه الأرض، ولا يتمُ غشيان الليل للأرض إلا بغروب الشمس، فمجيءُ الليل تبعًا لغروب الشمس.

ثم قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ فأقسم بالسماء؛ وهي بلا شك آية عظيمة من آيات الله سبحانه وتعالى، **و "ما" هنا للعلماء فيها قولان: إما** أن تكون مصدرية **أو** موصولة، **فإن كانت مصدرية؛** فإن الله أقسم بالسماء وبُنيانها، وبنيانها آية من آيات الله العظيمة، **وإن كانت موصولة؛** فإن الله أقسم بالسماء وبالذي بناها، وهو الله سبحانه[1].

ثم قال: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾، والقول في "ما" هنا كالقول في قبلها، **والمعنى:** وطحوها، **أو:** والذي طحاها، وهو الله سبحانه. **وطحاها أي:** بسطها ومهّدها وجعلها صالحة للحياة.

ثم قال: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾، أقسم بكل نفسٍ منفوسة خلقها الله، والمقصود بها هنا نفْس المُكلّفين بدلالة السياق الذي بعدها، لأن المُكلّف هو المُلزم بتزكية نفسه، ومنعها من الفساد، والقول في ما هنا كالقول في التي قبلها، والمعنى: والذي جعلها نفسًا سوية، أو وتسويتِها.

ثم قال: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾ وهذا ليس جوابَ القسم، كما قد

---

(١) ينظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٢٦).

يُتوهم، وإنما هي جُملة اعتراضية؛ لبيان حال النفس، وأن من خصائصها: أنها قابلة للتقوى، وقابلة للفجور، **والمعنى**: أن الله أعطاها قدرة على أن تفهم الخير من الشر، والحق من الباطل، وما ينفعُها وما يضرها حتى ولو لم تتعلم، فالعلم سبب لزيادة الفهم، فالإنسان كلما تعلّم كلما ازداد فهمًا، ولكن هناك حد أدنى من الفهم منحه الله للنفس البشرية، فالعامي يستوعب الخطاب ويستوعب الحكم الشرعي العام، ويعرف الخير من الشر؛ ولو لم يكن متعلمًا، وهذه من مُميزات النفس البشرية، وهي من خصائص التكليف، وبه تفترق نفس الإنسان عن نفس الحيوان، فالحيوان لديه نفس، ولكنها ليست مُكلّفة؛ لعدم وجود خصيصة فهم الخير وفهم الشر فيها، ويوجد عند الحيوان شيء من الفهم الخاص بما يُصلح حياتَه فقط، فالنحلة تفهم كيف تصنع العسل، والنمل يفهم كيف يبني مدائنه، والعصفور يفهم كيف يبني عشه، وكل حيوان يفهم كيف يبتعد عن الشيء الذي يُهلكه، فلا يُلقي بنفسه من شاهق!!.

ثم قال: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩﴾، هذا جواب القسم، الذي مضى بأحد عشر مُقسمًا به، وهي أشياء مُتنوعة وعظيمة، **وكان جوابُ القسم فيها**: أن الفلاح والنجاح في تزكية النفس، وأن الهلاك والضلال في عدمِ تزكيتها، وفي هذا إشارة إلى أهمية تزكية النفس، وهنا يأتي دور العناية بالنفس، والبحث عن أسباب صلاحها واستقامتها، وتجنيبها ما يُفسدُها ويُغويها، فلا بد من العناية بذلك؛ فالمفلح من زكّى نفسه، فالفلاح في الدنيا في تزكية النفس؛ فتشعر بالسعادة والاطمئنان والحياة الطيبة السعيدة، ويأتيك من آثارها ما وعد الله به

عباده المؤمنين من الحياة الطيبة والسعادة والاطمئنان، والفلاح في الآخرة؛ بأن يُنجيك الله سبحانه وتعالى من النار.

ثم قال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾، **خاب:** من الخيبة، **وهي:** النتيجة المؤسفة التي تُصدَم بها حينما تجد أثر ذلك الفساد على نفسك في الدنيا وفي الآخرة، **ودساها، بمعنى:** أخفى هذه النفس، فإن الله سبحانه وتعالى يظهر النفس ويرفعها بالطاعة والعبادة والاستقامة، فتظهر وتكون مشهورة، معلومة، فإذا فعل الإنسان المعصية؛ سقطت هذه النفس، وهبطت من المستوى الممدوح إلى المستوى المذموم(١)، **كما قال:** ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾[التين:٤-٥]، فالنفس ترتفع بالطاعة وتهبط بالمعصية، والنفس تظهر بالإيمان، ويكون له آثار عظيمة عليها في الحياة وبعد الممات، فيكون لها لسان صدقٍ في الآخرين، ويكون لها السمعة الحسنة بعد موتها، ويذكرها الناس بخير، بينما من يسعى في إفساد نفسه وانحرافها؛ فإنه يُسقط قيمة ومكانة هذه النفس من الناحية الحسية، وينقطع ذكرُه ويضيع من الناحية المعنوية، فكم من ظَلَمةٍ وجبابرة ومجرمين وفُساق؛ كانت لهم صولات وجولات في حياتهم، فلما ماتوا وانتهوا؛ انتهى ذكرهم، فالمعاصي تغمرُ هذه النفس فتجعلها لا مكانة لها، لا حسًا ولا معنى، ويعيش صاحبها مكبوتًا ذليلًا، **كما قال سبحانه:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾[المجادلة:٢٠]، **يعني:** لا أثر له، ولا ثمرة، ولا مكانة في الحياة، ولا مقام له ولا فلاح ولا عزة في الآخرة.!!

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٥١).

ثم بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن أهمية تزكية النفس، وخطورة تدنيسها بالمعاصي والمنكرات، فذكر لنا أُنموذجًا لمن دسُّوا أنفسهم ولم يُزكوها، بالرغم من أن الله قد مَنح الناس أسباب التزكية، وهي: السمع والبصر والعقل، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأعطاهم فرصة للتذكر والمعرفة، إلا أن هذا النموذج لم يقبل هذه الوسائل، ولم يستخدمها في إصلاح نفسه واستقامتها، **فقال سبحانه:** ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ١١﴾، **ثمود:** هم قومُ صالح، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومساكنُهم تعرف اليوم بمنطقة العُلا بين تبوك والمدينة، وفيها إلى اليوم مدائن صالح التي هي قصورُها وبيوتها التي أهلكهم الله تعالى فيها، وهذه القبيلة كذَّبت رسولها ولم تُؤمن به، **وطغواها، لها معنيان: الأول،** وهو المشهور عند المُفسرين: أن طغيانها سببٌ لتكذيبها[١]، **أي:** كذّبت ثمود بسبب طغيانها، **فطغواها بمعنى:** طغيانها، والطغيان والطغوى مصدر للفعل طغى، **أي:** تجاوز الحد في الكفر والفساد والانحراف، رغم أن الله قد أعطاهم من الآيات والمعجزات ما يجعلهم يُؤمنوا به، ولكنهم كذبوا بسبب طغيانهم.

والقول الثاني: أن الطغوى هنا: بمعنى العذاب الذي وُعدوا به من رسولهم صالح، فكذّبوا، وقالوا: إن كان عندك عذاب فأتنا به، فلما كذّبوا به؛ نزل بهم، **كما قال:** ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾[هود:٦٥]، فحصل لهم ذلك العذاب بسبب تكذيبهم[٢].

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٨٨).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٥٨).

وقوله: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢﴾، **انبعث** من الانبعاث، وهو فعل مُطاوَعة، يدل على الاجتهاد والبذل[1] والحركة بنشاط وحيوية، **والمعنى:** قام نشيطًا يبحث عن الوسيلة ويُخطط للجريمة، ويجتهد في تنفيذها، فليس كسلانًا أو متهاونًا، وإنما فعل فعله القبيح، وهو عقر الناقة بنشاط وحيوية وتخطيط، وهو أشقى القبيلة، **أي:** كان أكثرُهم شقاءً، **وهو:** قُدار بن سالِف، ويُطلق عليه أُحَيمِر ثمود، تصغير حمار، وكان رئيسًا لعصابة مكونة من تسعة رهط[2]، **كما قال:** ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[النمل:٤٨].

وقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣﴾، هذه جملة اعتراضية، قيلت لهم قبل أن ينبعث الأشقى، **والمعنى:** فانبعث هذا الشقي لعقر الناقة، وقد سبق أن حذّرهم رسولهم صالح، **فقال لهم:** احذروا أن تُؤذوا ناقة الله، وأضافها إلى الله تشريفًا لها باعتبارها معجزة، **مثل:** بيت الله، واحذروا أن تعتدوا على سقياها، فقد كان لهم عينٌ يشربون منها، فلما أعطى الله سبحانه وتعالى الناقة معجزة لصالح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، **قال لهم:** اتركوا الناقة تشربُ من العين يومًا، وتشربون أنتم يومًا، فلا أنتم تشربون في يومِها، ولا هي تشرب في يومكم، وفي يوم شرب الناقة تُعطيكم الناقة لبنًا يكفيكم ويُغنيكم عن الماء الذي تشربونه في ذلك اليوم؛ فاعتدوا على الأمرين، ولم يمتنعوا من التحذيرين.

وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾، **أي:** كذبوا صالحًا ولم يؤمنوا به، ورفضوا

---

(١) ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١/ ٥٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٥٩).

توجيهاته، وخالفوا أمره، فعقروا الناقة، **أي:** قتلها ذلك الاشقى بضربها أو نحرها، وقد نسب هذا الفعل للجميع مع أن القاتل هو: قدار بن سالف؛ لأن الراضي كالفاعل، فإنهم رضوا بفعله، **وقد قيل:** إن هذا الأشقى قال لهم: أنا سأعقرها، ولكن عاهدوني واحدًا واحدًا أنكم راضوان لي بهذا الفعل وموافقون لي على قتلها، فعاهدوه جميعًا(١).

وهذا يدلنا على خطورة الرضى بالمنكر، فمن رأيته يفعل منكرًا، ولم تُنكر عليه بيدك إن استطعت، ولا بلسانك إن استطعت، ولا بقلبك؛ فإنك مُؤاخذ بمثل عقوبته؛ لأنك رضيت بفعله، وقد أعطاك الله رتبة إنكار المنكر بالقلب للتخلص من الرضى به، فإذا كرهته خرجت من الموافقة له، وأمنت من العقوبة النازلة بفاعله.

وقوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾، **أي:** فأطبَق عليهم ربُهم العذاب من جميع الجهات بسبب ذنبهم، وهو الكفر وقتل الناقة، **والتسوية، لها معنيان: إما** أن يكون أصابَهم العذاب جميعًا ولم يُفلِت منهم أحد لا صغير ولا كبير، فتكون التسوية هنا تسوية الأخذ على جميع القبيلة، فكل واحد حصل له مثلما حصل لغيره، **فهنا التسوية بمعنى:** تساووا كلهم في تعرضهم للعذاب ونوعه، **وإما** أن يكون المقصود بالتسوية هنا تسوية الأرض عليهم، بمعنى: دفنهم كلهم تحت الأرض، وصارت الأرض مُستوية عليهم بعد أن أهلكهم الله بهذا العذاب، ويمكن الجمع بين المعنيين معًا، ولا تعارض بينهما.

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٠/ ١١٣).

وقوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾، **إما** أن يكون الضمير عائد إلى الله، فهو الذي دمدم عليهم، ولا يخاف الله نتيجة أو ثمرة أو آثار العقوبة التي حلّت بهؤلاء القوم بعد أن كفروا برسولهم، وإما أن يكون الضمير عائداً إلى الأشقى، ويكون ما بعده جُملًا اعتراضية، **فيكون المعنى**: أن الأشقى لو كان خائفًا من عاقبة قتلِ الناقة لما أقدم عليه، وهناك قول ثالث ذكره بعضُ المفسرين أن الضمير في يخاف، عائدٌ إلى صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما حذّرهم وهددهم بالعذاب، لم يكن خائفًا من مُعاقبة القبيلة له، لأنه يأوي إلى رُكنٍ شديد، وهو الله سبحانه وتعالى، والمشهور عند أكثر المفسرين أنه يعود إلى الله، بحسب السياق وبحسب قاعدة: أن الضمير يعود لأقرب مذكور، وهو أقرب مذكور(١).

فوائد وهدايات من السورة:

١- أهمية تزكية النفس، وضرورة أن نتنبه لنفوسنا، ونسعى في تزكيتها وطهارتها بالأعمال الصالحة، والبُعد عن أسباب فسادها، كالرفقة السيئة، وارتكاب المحرمات، والتقصير في الطاعات، فكل هذه تؤدي إلى فساد النفس، والعياذ بالله، فإذا فسدت هلكت.!!

٢- خطورة الرضى بالمنكر؛ فإن الراضي بالمعصية شريك في الإثم، فمن عقر الناقة إنما هو الأشقى، ولكن كانت العقوبة عامة لقومه جميعًا، لأنهم سكتوا عنه وشجعوه على ذلك الفعل.

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٣٦٣).

تفسير سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١﴾.

شخصية السورة:

سورة الليل؛ سورة مكية[(١)]، **وموضوعها العام:** بيان الاختلاف بين الآيات والأنفس وأعمالها، إظهارًا للتفاضل بين المؤمنين والكافرين[(٢)].

قال سبحانه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ **الواو هنا** حرف من حروف القسَم، **والليلُ** مُقسمٌ به، وسيأتي جواب القسم في آيات أُخرى، فأقسم الله بالليل؛ وهو أحد

(١) ينظر: تفسير ابن كثير، ت: سلامة (٨/ ٤١٦).

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٥٩٥).

مخلوقاته العظيمة، وقد سبق معنا مِرارًا التنبيه إلى أن الله سبحانه وتعالى له أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته؛ لأن قسَمه نوعٌ من الإشارة إلى عظمة المخلوق الدال على الخالق سبحانه، بينما المخلوق لا يجوز له أن يُقسم إلا بالله، سبحانه وتعالى، فلا يأتي أحد فيقول: ما دام أن الله أقسم بالشمس أو غيرها من المخلوقات، فلماذا أنا لا أُقسم بها؟! هناك فرقٌ بين الخالق والمخلوق، فالمخلوق حينما يقسِم بشيء فهو تُعظِّيم له، والتعظيمُ يجب أن يكون لله وحده، كما أنه قد ورد النهي عن ذلك، **قال رسول الله ﷺ: "إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم"**[(١)]**، وقال ﷺ: "من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمُت"**[(٢)]**، وقال ﷺ: "من حلف بغير الله فقد أشرك أو كفر"**[(٣)]**، وقال ﷺ: "من حلف بالأمانة فليس منّا"**[(٤)]، وغيرها من الأحاديث التي تُعطينا حُكمًا شرعيًا واضحًا، وهو تحريم الحلف بغير الله، فالحلِف بغير الله شرك لفظي لا يخرِج من الملة، ولكن يجب على من حلف بغير الله أن يقول: لا إله إلا الله، ويستغفر الله ويتوب إليه من ذلك.

أما الله تعالى فله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، ولا يُسأل عما يفعل، والحكمة من ذلك، هو: تنبيه المخلوقين على عظمة ذلك الشيء الذي أقسم به.

فأقسم الله هنا بالليل ﴿إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ **أي**: حال كونه يغشى، **أي**: يُغطي

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٢٧)، برقم (٦١٠٨).

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٨٠)، برقم (٢٦٧٩).

(٣) رواه الترمذي، ت: شاكر (٤/ ١١٠)، برقم (١٥٣٥)، بنحوه، **وقال الألباني**: صحيح.

(٤) رواه أبو داود (٣/ ٢٢٣)، برقم (٣٢٥٣)، وقال الألباني: صحيح.

الأرض بظلامه في النصف الأول من الأرض، ويتبعه في الثاني.

وقوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾، **الواو هنا** حرف قسم آخر، والنهار من طلوع الشمس إلى غروبها، وتجلى، **أي**: ظهر بعد أن كان مخفيًا، **والمعنى**: ظهر ضوء النهار بسبب إزالة الظلام.

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾، **الواو** حرف قسم، **و(ما)**، **إما** أن تكون مصدرية، وما بعدها يُؤول بمصدر، **بمعنى**: وخلْقِ الذكر والأنثى، فأقسم الله بخلق الذكر والأنثى، **أو** موصولة فيصير **المعنى**: والذي خلق الذكر والأنثى، فيكون القسم بالله الذي خلق، والمعنى الأول أولى، من أجل اتحاد أنواع القسَم وتناسقه، وما علاقة خلْق الذكر والأنثى بالليل والنهار؟ من حيث الترتيب، فهذه الأربعة جاءت مُرتبة في الإيجاد، فالليل خُلق قبل النهار، ثم النهار بعده، ثم الذكر خُلق قبل الأنثى، ثم الأنثى خُلقت بعده، فهذا على التناسق في الوجود، والأصل في الأرض أنها كانت ظلمة، ثم جاء النهار، وخلق الله آدم وخلق منه حواء، فأقسم الله سبحانه وتعالى بهذه الأربعة الأشياء، اثنان منهما فيهما تجديد للحياة وهما: الليل والنهار، واثنان منهما فيهما تجديد للخلق وهما: الذكر والأنثى، اللذان يتناسل منهما الخلق، فهذا وجه لاجتماعها في هذا القسَم، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾، هذا جوابُ القسم، والمقصود عملكم وما تفعله جوارحكم، سواءً كان دينيًا أو دُنيويًا، والكاف ضمير يعود إلى المخاطبين، وهم المُكلفون فيدخل الجن معهم، لقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[الذاريات:٥٦]، فهذان الصنفان الموجودان على وجه

الأرض هما المكلّفان بأداء التكاليف كما أمر الله، وبقي معنا صنف موجود، لكنه غير مُكلّف بالأعمال الشرعية اختيارًا وإنما مخلوق عليها فطرةً، وهم الملائكة، ولكنهم غير مُكلّفين اختيارًا، **كما قال تعالى**: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾[التحريم:٦]، فإنهم يُلهمون التسبيح كما تُلهمون النفس، فطاعتهم ليست اختيارية وإنما بطبيعة فطرتهم.

﴿لَشَتَّىٰ﴾، **أي**: لمختلف، مأخوذ من الشتات، وهو التباعد والاختلاف، وأطلق اللفظ؛ ليشمل الاختلاف في أعمال الدنيا والآخرة، فالخلق في أمور الدنيا مختلفون في أعمالهم وحرفهم، فهذا نجار وهذا طباخ وهذا مُدرس وهذا مزارع، وكل واحد عنده حرفة أو مهنة، والله خلقهم على فِطر واهتمامات مختلفة، وهذا من كمال علمه وإحاطته بما ينفع الخلق، ومن كمال تدبيره سبحانه وتعالى لعمارة الأرض، فلو كان الناس على اهتمامٍ واحد؛ لفسدت الحياة، ولكن الله سبحانه وتعالى نوّع الاهتمامات حتى يظل الترابط بين الخلق، ويحتاج كل منهم للآخر، فمهما كان لديك مهنة كبيرة شريفة عظيمة، فأنت مُحتاج لغيرك، وهنا تظهر عظمة الخالق، ونقص المخلوق، فالله لا يحتاج إلى أحد من خلقه لكمال ربوبيته وقيُّوميّته، وكمال صفاته، فهو الذي تصمُد إليه الخلائق كلها، ويظهر في هذا حاجة المخلوق إلى غيره مهما كان ثريًا أو عالمًا أو مسؤولًا، فهو محتاج إلى غيره، وهذا في باب الدنيا، فهذا التنوع والاختلاف في أعمال الدنيا؛ أعطى الناس مراتب في الدنيا، فهذا وزير وهذا أمير، وهذا خادم وهذا مخدوم.!! أما في باب الآخرة؛ فهناك أناسٌ مؤمنون وهناك أناس كافرون، وهناك أناس مخلصون وهناك

أناسٌ مراؤون، وهناك أناسٌ جادّون في الطاعة وهناك أناس كُسالى فيها، وهناك أناس يقومون الليل ويصومون النهار وهناك أناسٌ مُقصرون، وهناك أناسٌ يُنفقون وهناك أناسٌ بخلاء، وهكذا..، وكذلك يكون الحال في الآخرة، فهذا في درجة عِليين في الفردوس، وهذا في أسفل سافلين في النار، فبسبب اختلاف أعمالهم في الدنيا؛ اختلفت مراتبهم في الآخرة.

وبسبب جد ونشاط كل شخص في عمله؛ اختلفت أحوال الناس، فلا تظن أن الغني جاءه المال فجأة، بل غالبًا تعب في جمعه وتحصيله، ولا تظن أن العالم وُلد عالمًا، فما وصل إلى مراحل العلم إلا بطلبه والاجتهاد فيه، وقُلْ مثل ذلك في باقي الأعمال، فهذه الآيات تشير إلى ضرورة العناية بعملك، سواءً من حيث الاهتمام أو من حيث النوع، أما من حيث الاهتمام؛ فالكسلان لا ثمرة له، وأما من حيث النوع؛ فيجب أن يكون عملًا صالحًا ينفعك في الدنيا وفي الآخرة، فمن يزرع الشوك لا يحصد العنب.!.

ثم قسّم الله الخلق إلى فريقين، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾، فهذا هو الفريق الأول، **وأعطى، فيها تفسيران: أحدهما**: خاص، **والآخر**: عام.

فالخاص: قصرها على المال والزكاة، **والعام**: يشمل كل ما يملك الإنسان من نعم موجودة عنده ويستطيع أن يُعطي منها لغيره، والراجح العموم؛ ليشمل أي عطاء حسي أو معنوي، وتشمل كل الخلق، فما من أحدٍ إلا وله قدرة على العطاء مما يملك، من وقته، من جاهه، من ماله، من أخلاقه، من عفوه، من ابتسامته، من أي شيء يملك، أما إذا فسّرتها بعطاء الزكاة والمال؛ فهذا خاص

بالأغنياء فقط.!!

وقوله: ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾، بيان أنه لا ينفع عطاء بدون تقوى، والتقوى معناها هنا عدم الأذى، **أي**: اتقاء ما يُفسد ذلك العطاء، **كما قال تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾[البقرة:٢٦٤] إذًا فالعطاء لا بد أن يكون معه تقوى، والتقوى معناها: أن تحذر وتبتعد عما يُفسد عطاءك.

ثم ذكر شرطًا ثالثًا، فقال: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦﴾، **اختلف المفسرون في معنى الحسنى على أقوال**[١]:

الأول: أن المقصود بالحسنى هنا: لا إله إلا الله، يعني أن تكون مؤمنًا، فإنك إن أعطيت وكانت أخلاقُك حسنة مع من أعطيت ولكنك بدون إيمان، فلن ينفعَك ذلك في الآخرة، **كما قال عن الكافرين**: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾[الفرقان:٢٣].

والقول الثاني: أن المقصود بالحسنى هنا الثواب والأجر المُترتب على العطاء.

والقول الثالث: أن المقصود بالحسنى هنا الخَلَف من الله، **كما قال تعالى**: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾[سبأ: ٣٩]، **وكما في الحديث**: **"ما نقص مالٌ من صدقة**[٢]**"** فتُعطي الناس وأنت واثق أن الله سيُعوضك.

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٥٤).

(٢) أخرجه أحمد ط الرسالة: (٣/ ٢٠٨)، برقم: (١٦٧٤)، وإسناده حسن لغيره.

والقول الرابع: أن المقصود بالحسنى الجنة، **كما في قوله تعالى**: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس:٢٦]، فهذه أربعة أقوال، ولكن أقواها الأول، ولا مانع أن تكون الأربعة مقصودة من اللفظ ومطلوبة كلها من العبد، فيصدّق بالله ربًا ومعبوداً، ويصدّق بالثواب منه، ويصدّق بالخلف من الله، ويصدّق بالجنة جزاءً على عمله، ولا تعارض بينها.

فإذا توفرت هذه الشروط الثلاثة في العبد؛ حصل على ثمرتها من الله، **وهي قوله**: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ **الفاء** للتعقيب، **والسين** للتنفيس أو للتسويف، فتكون ثمرة هذه الأعمال الثلاثة الصالحة أن يُيسرك الله سبحانه وتعالى لليُسرى، وقد تكلم المفسرون عن معنى اليُسرى، **فمنهم من قال**: العمل الصالح[(١)]، **ومنهم من قال**: تيسير الأمور[(٢)]، **ومنهم من قال**: الجنة[(٣)]، ولكن الآية تشمل كل تيسير، فيُيسر حياتَك الدنيا كلها؛ فييسر أخلاقك، ويُيسر أعمالك، ويُيسر معاملاتك، كما أنه يُيسر حالك في الآخرة؛ فيُيسر حالك في القبر، وييسر حالك في المحشر، ويُيسر سيرك على الصراط، ولذلك جاءت اليسرى بالألف واللام للاستغراق، حتى تعم كل يُسر وكل خير في الدنيا والآخرة، وفي السين التي تفيد التسويف إشارة إلى سنة التدرج، وحتى لا يصاب بالإحباط من قام بما أمره الله به إذا تأخر ما وعده به الله، فيقول: أنا تصدقت واتقيت ولا شيء حصل لي!!، اتقيت كم، وتصدقت كم؟!!، لا تستعجل فالله يُعطيك فرصة من الوقت ليمتحن إخلاصك، وصدق عملك، ثم

---

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٧١).

(٢) ينظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٥٣).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٥٤).

يمنحك بعد ذلك الثمرة.!!

والإعطاء يُمثل معاملة الإنسان مع الخلق، والتصديق بالحسنى يُمثل معاملة الإنسان مع الخالق، واجتناب ما يُفسد هذا وذاك، هو التقوى، فمن فعل ذلك فقد استكمل شروط تيسير الله له لليسرى، من أراد أن ييسر الله أمره وأن ييسره لكل يسرى ولكل خير؛ فعليه بتحقيق هذه الثلاثة الأمور، وليس الأمر فيها صعبًا، فأحسن علاقتك بالمخلوقين، وأعطهم مما أعطاك الله، وأحسن علاقتك بالخالق بالإيمان به مع مقتضياته، واجتنب ما يُفسد هذا وذاك؛ تكن قد أتيت بهذه الشروط فيحصل لك التيسير لليسرى بإذن الله في الدنيا والآخرة.!

وهنا لفتة تربوية مهمة جدًا ننبه عليها في أمرين، وهما:

الأمر الأول: إذا تعسّرت أمورُك فربما يكون عندك نقص في واحد من تلك الثلاثة، فراجع هذه الثلاثة الجوانب، وانظر هل تتصدق أم لا، وهل أخلاقك طيبة مع الناس أم لا، وهل عندك تقوى أم لا.

الأمر الثاني: فيها إشارة إلى الحل والعلاج لمن حصلت له مُشكلة ويريد أن تتيسر أموره فيها، فعليه بالصدقة، بنية التسهيل والتيسير، وكذلك من عنده كُربة؛ فيُخرج مالًا بنية تفريجها، لأن الله تعالى يُبادل العبد بنفس العمل، **كما في الحديث:** **"ومن فرّج عن مؤمنٍ كربة فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة"**[(١)]، وهناك قصص حقيقية وليست خيالية لعدد من الناس الذين طبّقوا هذه القاعدة، ووجدوا

---

(١) رواه ابن حبان،كما في الإحسان(٢/ ٢٩٣)، برقم(٥٣٤)، وإسناده صحيح على شرط مسلم.

أثرها عاجلًا، **منها:** أن رجلًا أُصيب بالسرطان، فسافر إلى مستشفيات العالم، وكان من الأثرياء، فقالوا له: انتهى الأمر، ولم يبق لك إلا زمن قليل، فودّع أهلك ولا تُتعب حالك، فرجع، وبينما هو ذاهبٌ إلى بيتِهِ كان عليه دين للجزار، فقال: نذهب نُسدد الديون، ونستعد لاستقبال الموت، بينما هو يُسدد الدين للجزار إذْ به يرى شخصًا يجمعُ العظم الذي خارج الملحمة؛ فاستغرب، ماذا يفعل هذا؟! فقال له الجزار: هذا رجل عنده أيتام فقراء ومحتاجون، وكل يوم يأتي يجمع ما طار من اللحم مع باقي العظم، وأحيانًا أُعطيه قطعة لأجل يُطعم من معه من الأيتام، فرقّ لحاله ثم نوى أن يكون ذلك العمل شفاء له، فقال له: كل يوم اعطه كذا كيلو من اللحم على حسابي، وهذا المبلغ مُقدّم، وكان الرجل يأتي ويأخذ ذلك اللحم، ويأكله مع الأيتام، سبحان الله!! مرّ الأسبوع الأول وتحسّنت حالة المتصدق وكذلك الأسبوع الثاني ثم الثالث وإذا به صحيح معافى، فقال: لا بد أن أذهب وأُعيد الفحص؛ فذهب فأعاد الفحص فتفاجأ الأطباء، وقالوا: صاحب هذ الملف لا بد أن يكون قد مات، فقال لهم أنا صاحبه، فتفاجأوا منه، فجلسوا معه يسألونه ماذا عمل؟!، فقال لهم: ما عملت شيئًا غير هذا العمل، وأخبرهم به!! فعلموا أن الله سبحانه وتعالى قادرٌ على كل شيء، وأن من أحسن إلى الخلق؛ أحسن الله إليه، وأن ما يعجز عنه البشر، فهو سهل على الله سبحانه.!!

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى الصنف الثاني، وهو نقيض الأول، وهم من يسّرهم الله للعسرى، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩﴾، فـ﴿بَخِلَ﴾ في مُقابل ﴿أَعۡطَىٰ﴾، **فالأول:** أعطى مما أعطاه الله، وأحسن علاقتَه بالخلق، **والثاني:** بخل بكل شيءٍ مما أعطاه الله، ولم ينفع به الخلق، فهذا هو البخيل، وإن كان البُخل

يُطلق على البخل بالمال، وهو الشح به وعدم إنفاقه، والحرص عليه واكتنازه، لكنه كما قلنا في الأول: أن لفظ الإعطاء عام في كل ما ينفع المخلوق، فكذلك لفظ البُخل عام وهو المنع لكل ما ينفع المخلوق من نعمٍ موجودة لديه.

وأما قولُه: ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾، **فهو مقابل:** ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾، **أي:** استغنى عن الله، وهذا الفعل قبيحٌ في حق المخلوق، فمن أنت حتى تستغني عن الله، **والله يقول:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾[فاطر:١٥]، واستغناؤك عن الله يتنافى مع التقوى؛ لأنك تتشبّه بالخالق العظيم الحي القيوم الذي لا يحتاج إلى أحد، ففعلُك هذا قبيح، وذنبٌ عظيم، وهو الكفر بعينه!!، أو تكون بمعنى: استغنى عن تقديم الخير لخلق الله، فهذا ذنب وهو أخف من الأول إن وقع من المؤمن، وغالبًا أن الاستغناء يكون بالمال، فمن أُعطيَ المال، ظن أنه غنيٌ عن غيره، وهو في الحقيقة ليس بغنيٍّ عن غيره، انظر مثلًا إلى رجلٍ ثريٍّ ولكنه أُصيبَ بالمرض، فهل سيستغني عن الأطباء؟! الجواب: لا لن يستغنيَ عنهم، بل سيتلطّف بهم ليُعالجوه، وقل مثل ذلك في باقي حاجاته، فإذًا وجودُ المال مع الشخص وغناه بالمال والثروة لا يعني أنه لا يحتاج إلى غيره، فهو ما زال مخلوقًا فقيرًا مُحتاجًا إلى غيره، وهكذا، فالغني يحتاج إلى من يُؤمنه ويمشي معه ويسير بجواره، ويحتاج إلى من يطبخ له ويُطعمه ويُقدم له ما يحتاج إليه، فإذًا الغنى وحده لا يكفي أو المال وحده لا يجعل الإنسان مستغنيًا عن غيره، ولكن الله سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بالغني، فهو غنيٌ حقيقةً، فهو الذي تصمُد إليه الخلائق في حاجاتِها كلها، وهو لا يحتاج إلى أحد سبحانه وتعالى!!

وقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩﴾، **إذا قلنا:** أن الحسنى لا إله إلا الله، فهو مُكذب بالتوحيد، ومُكذب بالإيمان، ويكفيه هذا الذنب في قبحه، فكيف إذا أضاف إلى ذلك البُخل والاستغناء عن الهداية، والاستغناء عن الخلق فيما يزعم، فلا شك ولا ريب أنه في خطرٍ عظيم.

ومن توفّرت فيه هذه الصفات الثلاث؛ فلينتظر ثمرتَها، في قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾، **يعني:** فسنجعل حياته كلها عسيرة؛ فنجعل أخلاقَه عسيرة، ونجعل حاله عسيرة، ولا شك أن التعسير في أخلاق الإنسان أو في حالِه أو في سائر أموره صفة قبيحة تدل على أن الله لم يُرد به خيرًا، ولو تأملت قليلًا في سؤال موسى لربه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۝٢٦﴾[طه:٢٥-٢٦]، وتأملت قليلًا في نعمة الله على عبده ورسوله محمد: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢﴾[الشرح:١-٢]، لوجدت أن هذا مطلب من أهم مطالب الأنبياء أن تُشرح صدورُهم وتتيسّر أمورُهم.

وكان من دعائه ﷺ: "رب يسّر لي أمري"(١)، فإذا يسّر الله لك أمرك، ويسّرك لليُسرى؛ فتلك نعمة عظيمة، وإذا يسّرك للعسرى؛ فتلك نقمة عظيمة، **ولذلك قال ﷺ:** **"إن من الناس من جعله الله مفتاحًا للخير مِغلاقًا للشر، وإن من الناس من جعله الله مفتاحًا للشر مِغلاقًا للخير"**(٢)، فهذا مُيسّر للعسرى وذاك مُيسّر

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنف (٣/ ٣٨٢)، برقم (١٥١٣٥)، بنحوه وضَعفه ابن الملقن في البدر المنير (٦/ ٢٢٧).

(٢) رواه ابن ماجه (١/ ٨٧)، برقم (٢٣٧)، وقال الألباني: حسن.

لليُسرى، **وفي الحديث: "اعملوا فكلٌ مُيسّرٌ لما خُلق لـه"**[(١)]، ولا بـد ننتبـه لـشيء مهم جدًا، وهو أن الله عدلٌ فلا يظلم أحدًا من خلقه، وهو حكيمٌ في أفعاله، وإنما يجعل النتيجة بسببٍ ما يفعله العبد، فمن يسّره الله لليُسرى فبسبب عمل صالحٍ عمله، ومن يسّره الله للعسرى، فبسبب فعلٍ قبيحٍ فعله، والله يمنح فضلًا وكرمًا التوفيق من يشاء من خلقه، ويحرم ويمنع من يشاء التوفيق بعدله.!!

ثم أخبر الله عن حال هذا الإنسان في الآخرة فقال: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾، **كما في قوله:** ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩﴾[الحاقة:٢٨-٢٩]، فهذا المال الذي كان سببًا في استغنائه عن الله وعن الإحسان إلى خلقه؛ قاده في الآخرة إلى التردي في النار، والتردي هو: السقوط من شاهق، **كما قال الله:** ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾[المائدة:٣]، وهو: الحيوان الذي سقط من شاهق ولم يذّكى، فالكافر الغني لا ينفعه ماله إذا سقط من شفير جهنم إلى قعرها، وهو بعيد المسافة، وتقدّر بسبعين سنة، **كما في الحديث أن النبي ﷺ**: سمع ذات يومٍ وجبة **أي**: صوتًا شديدًا، وهو في المدينة، فقال: **"أسمعتم ما أسمع؟"** قالوا: نعم، قال: **"أتدرون ما هذا الصوت؟"** قالوا: الله ورسولُه أعلم، قال: **"هذا حجرٌ أُلقيَ من شفير جهنم، فما زال يتجلجلُ سبعين خريفًا حتى وصل قعرها الآن"**[(٢)]، وفي هذا تحذير وتنبيه لمن أعطاه الله مالًا بأن يستفيد منه قبل أن لا يُغني عنه المال، فالمال الذي يُنقذ صاحبه من النار، هو الذي أنفقه صاحبه في الخير وفي نشر

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١٧١)، برقم (٤٩٤٧).

(٢) رواه أحمد في مسند، ط الرسالة (١٤/ ٤٣٣)، برقم (٨٨٣٩)، بنحوه، وإسناده على شرط مسلم.

الحق، وسيُسأل صاحبُ المال بين يدي الله عن المال سؤالين: من أين اكتسبه؟!، وفيما أنفقه؟!، فنعم المال الصالح للرجل الصالح، يُنفقُه في الخير ويعمل فيه مشاريع الخير، ويُعطي منه المُحتاجين، وينتبه لزكاته فيُخرجها في موعدها ولا يُغالط فيها من أجل أن ينفعه ذلك المال يوم القيامة.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾ وعد الله سبحانه وتعالى خلقه ألا يدعهم هملًا، ولا يخلقهم سدًى، بل خلقهم وبيّن لهم ما المطلوب منهم، وما الغاية من وُجودِهم، فأنزل إليهم الكُتب وأرسل إليهم الرسل، ليُبينوا لهم طريق الهدى من طريق الضلال، ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيى من حيّ عن بيّنة، **فقوله:** ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾ أي أن الله سبحانه وتعالى لا يُعذب حتى يبعث رسولًا، **كما قال:** ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾[الرعد:٧]، **وقال:** ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾[البلد:١٠] **أي:** بيّنا له الطريقين طريق الخير وطريق الشر، فالله سبحانه وتعالى عليه أن يُبيّن للخلق طريق الحق من الباطل؛ حتى لا تكون لهم حُجة عند الله ولا يقولون له: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤﴾[طه:١٣٤]، فالله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب وبيّن طريق الحق من طريق الضلال، فمن اهتدى فبفضل الله، ومن ضلّ فبعدل الله سبحانه.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣﴾، قدّم الآخرة على الأولى لأهميتها ومكانتها وعظمتها، وإلا فالدنيا من حيث الوجود قبل الآخرة، وهما مُترابطتان، فمن لم يُنصَف في الدنيا؛ فلينتظر إنصافه في الآخرة، ومن ظَلَم في الدنيا ولم يُعاقَب؛ فلينتظر عقوبتَه في الآخرة، فلا انفكاك بينهما، والدنيا دارُ عمل والآخرة دار حساب، وهي كلها ملك لله سبحانه وتعالى، ومُلكُ الله في الآخرة واضحٌ، فلا أحد

يملك من الخلق منها شيئًا ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾[غافر:١٦]، فلا أحد يملِك شيئًا في الآخرة، فالملك كله لله فهو الحَكَمُ الفصْل، بخلاف الدنيا، فقد جعل الله فيها المُلك لبعض خلْقِه، والله تعالى يطّلع ويُراقِب ويُمهل ولكنه لا يُهمل، كل ذلك فتنةً واختبارًا للناس.

ثم قال الله: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤﴾، فأحذركم نارًا تكون مصير من لم يسلُك طريق الهدى الذي بيّناه للناس، فمن كان غافلًا فلينتبه، ويستعد بالأعمال الصالحة لينقذ نفسه من هذه النار، ونكّر النار للتعظيم.

وقال في وصفها: ﴿تَلَظَّىٰ﴾، **أي:** تتوهّج وتشتعل، فليست كامنة، بل تحترق، واللهب فيها مستمر بالاشتعال، وهذا يدل على قوة حرارتها وشدتها، وأنها تنتظر من يأتي إليها.

ثم قال: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥﴾ **الأشقى:** صيغة اسم فاعل من شقى، **والمعنى:** الذي أُصيبَ بالشقاوة، وصار أشقى بهذا الفعل، وهو الذي بلغ الرُتبة في الفجور والكفر والفسوق، ويصلاها، أي يدخلها ويحترق فيها، ولكن هناك معنى أعمق من مُجرد الدخول، وغالبًا ما يأتي فعل (يصلى) ومُشتقاته في حق الكافر وليس حق العاصي، فالعصاة قد يدخلون النار ولكن لا يخلدون فيها، فدلّ ذلك على أن المقصود بـ﴿يَصۡلَىٰهَآ﴾ **أي:** يلزمُها، ويستمر فيها خالدًا مُخلّدًا.

ثم وصف الأشقى بأنه: ﴿ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾، **أي:** كذّب بالحق لما جاءه وأعرض عنه، وأطلق التكذيب والتولي هنا؛ ليشمل كل أنواعهما، فكذب بالرسل والقرآن والإيمان، وتولى عن الحق والهدى والخير، وتولى عن الطاعة والموعظة

والإرشاد، وتولى عمن يدله على الله، وابتعد عنه وأعرض عن ذلك كله.!!

ثم قال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧﴾، **أي:** وسيُبعد عن هذه النار، واستُخدم الفعل جنَّب يُجنِّب تجنيبًا بمعنى أن يكون هو في جانب والنار في جانب آخر، فدلّ ذلك على بُعده عنها مطلقًا، وأنه لن يكون قريبًا منها، بل سيكون بعيدًا عنها، والأتقى: صيغة اسم فاعل من اتقى، **والمعنى:** الذي بلغ في التقوى أعلى رُتبة، وقد وصف الله تعالى أصحاب الجنة بأنهم المتقون، وأن الجنّة أُعدّت للمتقين، **وقد جاء في سبب نزول هذه الآيات** أنها نزلت في أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[١]، **واسمه** عبد الله بن أبي قحافة، فقد بلغ في التقوى مرتبة كبرى، وقد كان ثريًا من أغنياء مكة، وكان يُنفِق ماله في شراء العبيد الضعفاء الذين تُعذبُهم قريش، فاشترى بلالًا وأعتقه، وأعتق غيره من ضعفاء وعبيد مكة، وكان له رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مالٌ يُنفقُه في هذا الباب، وفي يومٍ من الأيام أراد عمر أن يُنافس أبا بكر، لما طلب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ من الناس أن يتصدقوا على المحتاجين الفقراء الذين أتوا إليه، فقال عمر: أما اليوم فسأسبق أبا بكر، فذهب إلى بيته وقسم المال الموجود عنده نصفين، ووضع نصفًا لأهله، وأتى بالنصف الآخر لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فقال له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: "**ماذا تركت لأهلك؟**" قال: النصف يا رسول الله، ثم أتى أبو بكر بماله، فوضعه بين يدي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فقال: "**يا أبا بكر ماذا تركت لأهلك؟**" قال: تركت لهم الله ورسوله، فقال عمر: لا أُنافسُك بعد اليوم"[٢]، فنزلت فيه هذه الآيات.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٤٠٧).

(٢) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/ ٦١٥)، برقم (٣٦٧٥)، **وقال الألباني:** حسن.

ثم وصفه بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾، **يتزكى، فيها معنيان: الأول:** يُنفق ماله من أجل أن يُطهر نفسه[١]؛ لأن إنفاق المال في سبيل الله يطهر النفس، **كما قال الله تعالى:** ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة:١٠٣]، فإنفاق المال فيه تطهير للنفس من الشح والبخل والطمع وحب الدنيا، فكلما أنفقت مالًا؛ كلما طهُرت نفسُك، ولذلك من دروس هذه الآية وعِبرها: أن من وجد في نفسِه كدرًا أو ضنكًا أو تعبًا في بعض الأوقات؛ فعليه بالصدقة، نعم، أخرج مبلغًا من المال لوجه الله، وأعطه لمن يستحق وانتظر لحظات وستشعر بانشراح الصدر وطهارة النفس، فالعطاء طُهرة، فقد وصف زكاة الفطر في الحديث بأنها: "**طُهرة للصائم**"[٢].

والمعنى الثاني: يتزكى **أي:** المال، بمعنى ينمو[٣]، فإن العطاء من المال يزيده وينميه.

والزكاة في اللغة تأتي بمعنيين: النمو والطهارة[٤]، فمن أخرج زكاة ماله، فقد طهر المال وطهر النفس، ويطرح الله فيه البركة فينمو ويزداد، ولا تعارض بينهما.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩﴾ **والمعنى:** أنه لا يُعطي أحدًا بسبب أنه له عليه فضل أو نعمة أو مُقابل خدمة قدمها له، وإنما يُعطيه لله،

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٩٥).

(٢) رواه ماجه (١/ ٥٨٥)، برقم (١٨٢٧)، **وقال الألباني:** حسن.

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٤٠٩).

(٤) ينظر: العين (٥/ ٣٩٤).

وهذه الصفة تصدق في حق أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فإن النبي ﷺ ذكر في أوصافه وفضائله فقال: **"ما من أحدٍ أمنّ عليّ من أبي بكر"**[١]، لأنه أنفق عليه وأعطاه وبذل له ماله، وضُرب من أجله، وفعل كثيرًا من أجل الله سبحانه وتعالى، وقد قيل أن قريشًا كانت تتهم أبا بكر أنه اشترى بلالًا لأنه له نعمة عنده، فردت عليهم هذه الآية، فليس لأحد عليه نعمة، وإنما اشتراه لوجه الله[٢].

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾ فكان يفعل ذلك قاصدا وجه الله، مُخلصًا لله في فعله، لا يريد جزاءً ولا شكورًا من أحد، **كما قال الله:** ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ٩﴾[الإنسان:٩]، وقد استدل بعضُ أهل العلم بهذه الآية على كراهية أن يقول المتصدقُ للفقير: هذا المال لك وادعُ الله لي، قالوا: لأنك طلبت منه جزاءً على صدقتك، فالدعاء جزاء، لقول النبي ﷺ: **"من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا الله له، فإن دعاءكم مكافأة له"**[٣]، فلذلك يستحب أن تعطي الفقير الصدقة ولا تطلب منه شيئًا، واترك الأمر لله، فهو الذي يكتب لك الأجر والثواب.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ فمن فعل ذلك من أجل الله فإن الله سيُكافئه وسيُعطيه حتى يرضى بما أعطاه الله، **كما قال:** ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾[الضحى:٥]، **وهنا قال:** ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾، هل المقصود ولسوف

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٠١)، برقم (٤٦٧) بنحوه.

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٨٨).

(٣) رواه أبو داود (٢/ ١٢٨)، برقم (١٦٧٢)، **وقال الألباني:** صحيح.

يرضى الله عنه، أو ولسوف يرضى هو عن الله؟! الأفضل والأكمل أن تجتمع الاثنتان معًا، كما قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[البينة:٨]، فيحصل رضى العبد عن الله بما يُعطيه، ويرضى الله عن العبد، فلا يسخط عنه أبدًا، فيمنحه الفوز والسعادة التامة في الدنيا والآخرة. لا إله إلا الله ما أعظم كرم الله!، منحك المال، وهيأ نفسك للصدقة، وأبعد عنك البخل، وقال لك: تصدّق بجزء من هذا المال، فتصدّقت به لوجه الله، فأكرمك الله بالقبول ومنحك السعادة، وزكّى نفسك، ورضي عنك وأرضاك، فكل النعم هذه من الله، وهذا من توفيقه للعبد، ومن حرمانه للتوفيق أن يمنح العبد مالًا فيبخل به ويقول: أنما أُوتيته على علم، فيحرمه الأجر، ويصيب نفسه بالشقاء والضيق والتعاسة، وييسّرها للعُسرى، ثم لم يُغن عنه ماله حال سقوطه في النار، ثم حرمه الله الرضى عنه في الدنيا والآخرة، نسأل الله السلامة والعافية.

فوائد وهدايات من السورة:

١- أهمية تزكية النفس وتطهيرها.

٢- أن المتعاونين على المعصية شُركاء في الإثم.

٣- أهمية السعي في أسباب تيسير العبد لليُسرى، وخطورة السعي في تيسير العبدِ للعُسرى.

٤- أهمية أن يُنفق الإنسان من ماله خالصًا لوجه الله حتى يرضى الله عنه ويُرضيَه.

تفسير سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة الضحى؛ سورةٌ مكية[(١)]، **والمقصد العام لهذه السورة هو:** بيانُ عناية الله سبحانه وتعالى بنبيه وصفيه وخليلِه محمد ﷺ، والامتنان عليه بنعمٍ عظيمة[(٢)]، كل ذلك تسليةً له وتأنيسًا لحاله؛ حينما شكك بعضُ المشركين في حب الله وعنايته ورعايته له.

وكان بعضُ السلف يُسميها سورة محمد، **أو سورة** رسول الله، وكان يُطلق على السورة التي قبلها سورة الصديق، وهي سورة الليل[(٣)]، وقد نزل آخرها في أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٢٣).

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٥٩٦).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٩١).

وقد ذكر بعضُ المفسرين: أن سرّ العلاقة بين هاتين السورتين، كسر العلاقة بين أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ورسول الله ﷺ، فقد كان صاحبه في الغار وخليفتُه من بعده، **وكان** أول الصحابة قربًا ومكانةً وخُلةً مع رسول الله ﷺ(١)!!

وأما سببُ نزولها فقد انقطع عن النبي ﷺ الوحي فترةً من الزمن، فلما رأى ذلك منه المشركون شمتوا به، وذهبت إليه أمُ جميل زوجة أبي لهب، حمالة الحطب، التي ذُكرت في سورة المسد، فقالت له: يا محمد، ما أرى ربّك إلا قد قلاك وتركك، وما أرى شيطانَك الذي كان يأتي إليك إلا قد ذهب عنك، وتقصد بالشيطان هنا جبريل عليه السلام، الذي كان يأتيه بالوحي، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه السورة تكذيبًا لقول أم جميل ودفاعًا عن رسوله ﷺ(٢).

وقد اختلف المفسرون في سبب تأخر الوحي أو انقطاعه لفترة -حتى قيل: إنها أربعين ليلة، **وقيل:** أقل من ذلك- **على قولين:**

القول الأول: أن المشركين سألوا النبي ﷺ بعض المسائل فوعدهم أن يُجيبَهم عنها في الغد، ولم يقل: إن شاء الله، فتأخر الوحي عنه، ونزل عليه قولُه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الكهف:٢٣-٢٤](٣).

والقول الثاني: أن كلبًا صغيراً دخل تحت سرير النبي ﷺ، ولم ينتبه له، فامتنع جبريل عن الدخول، لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلبٌ ولا صورة

(١) ينظر: المرجع السابق.

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٩٣).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٥٦).

مُعظمة[١]، **والقول الأول هو الراجح**، وهو قول جمهور المفسّرين[٢]، وكانت فترة انقطاع الوحي نوعـًا من تربية الله لرسول الله ﷺ، ليزداد شوقـًا إلى جبريل، وكان منتظراً له بشوق كبير بعد هذا الانقطاع.

قوله: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١﴾، **الواو** حرفُ القسَم، **والضُّحى** مُقسَمٌ به، **والمقصود بالضحى:** هو وقت الضحى، وهو من بعد طلوع الشمس إلى قبل زوالها، **وفيه تُشرع** صلاة الضحى أو سنة الضحى، **وقد جاء في الحديث:** "**صلاة الضحى حين ترمض الفصال**"[٣]، وهي أولاد البهائم الصغيرة حينما تشتد الشمس عليها تبحث لها عن مكان فيه شيء من الظل وتبتعد عن الحرارة لترتاح.

وقال بعض أهل العلم: المقصود بالضحى: النهار كله، وليس وقت الضحى فقط، بل سُمي اليوم كله بالضحى لأنه جزء منه، وهو أحسنُه وأفضله[٤].

ثم قال: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾، أقسم الله تعالى بالليل عندما يغطي الأرض بظلامه، وتأتي سجى بمعنى سكن[٥]، ولا تعارض بينهما، فالليلُ إذا أقبل، فإنه يُغطي الأرض بظلامه، وإذا جاء الظلام سكنت المخلوقات، وهدأت!.

وقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، هذا جواب القسم، **ودّعَ:** من التوديع، ويكون غالبًا

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٩٣).

(٢) ينظر: تفسير البغوي - إحياء التراث (٥/ ٢٦٥).

(٣)رواه مسلم (١/ ٥١٥)، برقم (١٤٣بنحوه.

(٤) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٤٥١).

(٥) ينظر: مقاييس اللغة (٣/ ١٣٧).

عند المفارقة، **ومن ذلك حجة الوداع** التي ودّع فيها النبي ﷺ مَن حج معه، **والمعنى**: ما تركك ربك على سبيل المفارقة لك وعدم عودة الوحي إليك مرة أخرى.

وفي التعبير بـ﴿رَبُّكَ﴾، إشارة إلى أن الذي ربّاك ورعاك واعتنى بك في طفولتك؛ لن يدعَك في هذا السن وفي هذه المرحلة، كما أن إضافة الرب إلى كاف المخاطب، فيه إشعار بالاختصاص.

ثم قال: ﴿وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ **قلى، بمعنى**: أبغض، **ولم يقل**: وما قلاك، ولم يأت بكاف الخطاب، إما لأنه قد سبق ما يدل عليها، وإما أن المقصود به البغض المُطلق، أو من أجل تناسُق الفاصلة في النظم القرآني، لأن الضحى تنتهي بالألف المقصورة وسجى كذلك.

ما هي العلاقة بين المقسم به وجواب القسم؟!، الجواب: قال بعض أهل العلم: وإنما أقسم الله بالضحى لأنه أول النهار، وفيه شروقُ الشمس ومجيءُ النور وذهاب الظلام وتبديد الظلمة، فتناسق أن يكون هذا القسَم بذلك لإثبات استمرار الوحي، فإن الوحي نور معنوي، كما أن الضحى نورٌ حسي، فأقسم بالنور الحسي على بقاء واستمرار النور المعنوي، وهو الوحي الذي يُرسل به جبريل إلى رسول الله ﷺ، وهنا يتم التناسُب[1]، فكما تحتاج الأرض إلى النور من أجل الحياة؛ فإن القلوب والنفوس البشرية أشد حاجةً إلى نور الوحي من حاجة الأرض إلى نور الشمس.

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٣٧٢).

ثم قال الله لنبيه: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾، **أي:** أن ما سيمنحك الله ووعدك به من الخير في الدار الآخرة؛ خير مما حصلت عليه في الدنيا، فهذا الفضل الذي منّ الله عليك في الدنيا ومنحك إياه لا يعني أنه نهاية المطاف، بل الآخرة فيها فضلٌ أكبر ومنحٌ أعظم، ما زالت مُخبأة لك حتى تلقى الله سبحانه وتعالى، وسُميت الدنيا بالأولى؛ لأنها قبل الآخرة في الترتيب، وسُميت بالدنيا؛ لأنها دُونَ الآخرة في المرتبة، **وسُمِّيت الآخرة آخرة؛** لأنه لا حياة بعدها، وقد أطلق الله عليها الحيوان، **كما في قوله:** ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[العنكبوت:٦٤].

ثم قال الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾، ولسوف يُعطيك ربك من الثواب الجزيل لك ولأمتك حتى ترضى، فقد وعده الله أن لا يُحزنه في أمته، وقد منحه الشفاعة العُظمى التي لم يُعطها أحدًا من الخلق، وهي المقام المحمود المذكور في قوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾[الإسراء:٧٩]، **وفي الحديث:** **"إذا سمعتم المؤذن فقولوا كما يقول ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة"**[1].

ثم بدأت الآيات تتحدث عن نعم الله سبحانه وتعالى على رسوله على سبيل التذكير والامتنان، **فقال الله له:** ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾﴾ **الجواب:** بلى، فإن النبي ﷺ كان يتيم الأب ثم يتيم الأم، فقد مات أبوه وأمُه حاملٌ به، وماتت أمه وهو

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢٨٨)، برقم:(٣٨٤).

في سن السادسة من عمره، فصار يتيم الأب والأم، ولكن الله سبحانه وتعالى آواه وأخرجه من حالة اليُتم بترقيق قلبِ جدِّه عبد المطّلب عليه، فكفله جده، ثم بعد أن مات جده، أوكله إلى عمه أبي طالب، فكان يُقدمه على أولاده، فخرج من حالة اليُتم إلى حالة الرعاية والعناية، فجدُه كان يعتني به كثيرًا، وكان عمه يعتني به ويُقدمُه على أولاده، واستمر يُدافع عنه حتى بلغ عمره خمسين سنة، والحكمة في جعله يتيم الأب والأم؛ من أجل أن يستشعر ما تمر به هذه الفئة من الناس من الضعف والحاجة، ولذلك كان يعتني بهم ويُوصي بهم خيرًا، ويهتم لشأنهم.

ثم قال الله سبحانه له: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾، فلما انتهت مرحلة اليُتم، وصار النبي ﷺ شابًا، ولم يكن يدري ما الإيمان ولا الكتاب، منحه الله سبحانه وتعالى أولًا العصمة من أن يقع في الشرك كما وقع به قومُه، ومنحه أيضًا الحفظ من أن يقع في قبائح الذنوب كما وقع بها الشباب الذين من حوله، ومنحه أيضًا الحماية والرعاية من أن يَحصل منه ما يخدش مروءته، فإنه لم يُشرك ولم يرتكب محرمًا ولم يقع منه ما يقدح في مروءته طيلة فترة الشباب، بل ظل على الطهارة والصفاء ونقاء الفطرة، فهذه من صور الهداية له قبل البعثة، فلما بُعث ونزل عليه الوحي؛ حصلت له الهداية الكاملة، **فيكون معنى:** ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ **أي:** غير مدرك للحق الكامل.

نعم، كان هناك بقايا من دين إبراهيم الخليل في مكة، ولكن التشويش والحيرة كانت مطبقة على الناس، وهذا هو المقصود بالضلال هنا، فإذا خرج الإنسان من هذه الحيرة إلى الحق وابتعد عن الباطل، فقد اهتدى!! وقد اختلف

المفسرون في معنى الضلال هنا على أقوال كثيرة، **وذكر الرازي عشرين قولًا** في معناها، بعضها مُتكلّف وبعضها يُسميه العلماء من التفسير بالمثال، **ومن ذلك قال**: أنه ضلّ الطريق لما خرج مع عمه إلى الشام ثم وجدوه وأتوا به إليه، **ومنها**: أنه ضلّ على حليمة السعدية لما أرادت أن ترده إلى مكة، وضاع في الطريق ثم رأوه وأتوا به إلى جده، ولم يصح في ذلك خبر، وهي تعني ضلال الطريق وغيره[(١)]، ولكن النص القرآني هنا يتحدث عن الضلال عن الحق، كحقيقة شرعية، فلا بد أن نبدأ بإعماله وِفقًا لهذا الترتيب: إذا جاءك لفظ فأعْمِل فيه الحقيقة الشرعية، فإن لم يُمكن؛ فأعْمِل فيه الحقيقة اللغوية، فإن لم يُمكن؛ فأعْمِل فيه الحقيقة العُرفية، فإن لم يُمكن؛ فانقله إلى المجاز، فهذه أربع مراحل للتعامل مع اللفظ القرآني، فهنا نبدأ فنُعْمِل الحقيقة الشرعية في معنى: الضلال، فإن أمكن، فلا داعي لنقلها إلى الحقيقة اللغوية أو إلى غيرها.

فهل كان النبي ﷺ ضالًا بمعنى مشركًا؟!! الجواب: لا، فإن الله حماه من أن يقع في الشرك، بل وحماه من أن يقع في الكبائر منذ نُعومة أظفاره، وحماه من أن يقع فيما يخرم مروءته، كما جاء في السيرة النبوية أنه كان مع عمه العباس ينقلون الحجارة إلى الكعبة، وكان له إزار يستر عورته، فقال له: يا ابن أخي لقد أوجع الحجر كتفك، فخذ الإزار وضعه تحت الحجر، فما أن خلع الإزار حتى أُغشيَ عليه، وغطى عورته بالأرض[(٢)]، فقد كان شديد الحياء، وجاء في قصة

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٩٧).

(٢) ينظر: فقه السيرة للغزالي (ص: ٨٤).

أخرى أيضًا، أنه كان يرعى مع فتيان لقريش، فقالوا له: إنه ثمة عرس هنا، فتعال واستمع معنا، وكان فيه نوع من لهو الجاهلية آنذاك، فما إن اقترب منهم؛ حتى ألقى الله عليه النوم، فلم يُوقظه إلا حر الشمس اليوم الثاني(١)، كل هذه العناية والرعاية برسول الله ﷺ حتى يُهيأ للنبوة والرسالة.

إذًا فما معنى الضلال هنا؟!، الجواب: يمكن أن نحصره بالحيرة التي كانت عليها الجاهلية في معرفة الحق المطلق، وهي ما تُسمى بمرحلة الفترة، **كما قال:** ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[المائدة:١٩]، **فمن مات أثناء الفترة؛** فلا يُحكم عليه بالشرك ولا بالتوحيد، بل يقال عنه من أهل الفترة، **وحكمه:** أن يُختَبر ويُمتحن بين يدي الله، فيرى مصيره إلى الجنة أو إلى النار، أما معنى الهداية هنا فهي إعطاؤه النبوة والرسالة وإنزال الكتاب عليه، فصار خاتم الأنبياء والرسل، ولا يقبل الله أحدًا أن يدخل الجنة إلا من طريق دين نبيه ﷺ.

ثم قال له: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾، **العائل،** هو الفقير، إما من كثرة العيال وعدم وجود ما يكفيهم من الأكل والشرب، ولا شك أن النبي ﷺ كان فقيرًا، فقد كان أكبر أولاده بنات، وأولاده الذكور ماتوا في الصِّغر، والغالب عند العرب أن الذي يأتي بالمال ويبحث عنه ويقوم بواجب أبيه وأمه هو الذكر، وكان أيضًا فقيرًا في صغره، لما كان في أسرة أبي طالب، فرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، فأغنى في معناها أقول(٢)، **قيل:** حينما تاجر في مال خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا،

(١) ينظر: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (١/ ١٢٥).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ١٩٩).

وربح من تجارتها، **والمعنى**: فأغناك بأن هيأ لك هذه المرأة فوثقت فيك وأعطتك مالها تتاجر به فصرت غنيًا.

وقيل: أغناك الغنى المُطلق بعد أن بعثك بالرسالة، وأذن لك بحِل الغنائم، وصار المال يجيء إليك من الغنائم والفيء وما أخرجته الأرض.

وقيل: أغناك بمعنى: منحك غنى النفس، وهذا لا شك أنه مُهم، فإن الله تعالى إذا أعطى العبد مالًا وكان فقيرًا ثم لم يمنحه غنى النفس، وهي القناعة، فإنه لا يشبع منه، ومن منحه الله غنى النفس، فإنه يقنع بالقليل ويعيش بالقليل، ويشعر بالغنى ولو كانت يدُه فارغة، **كما في الحديث، قال** ﷺ: **"ليس الغنى عن كثرة العرَض، ولكن الغنى غنى النفس"**[١].

قلت: والأقوال الثلاثة لا تعارض بينها، بل هي متسقة المعنى؛ فما المانع أن يكون الله منح رسوله غنى النفس، وهيأ له خديجة قبل أن يتزوجها، لتثق فيه وتمنحه مالها، فيصير المال في يده متناولًا، ثم بعد ذلك منحه الغنى بعد البعثة، بأن جاءته كنوز الدنيا بين يديه من خلال الفتوحات والغزوات والحروب التي كان ينتصر فيها على الأعداء، وأُحلت له الغنائم وكانت على الرسل قبله مُحرمة.

وهذه الثلاث النعم التي ذكّر الله بها نبيه ﷺ، بعد نفيه لتوديعه وبغضه؛ وكأنه يقول له: لقد مررت في هذه المراحل الضعيفة، فكيف كانت عناية الله بك فيها؟!، **فهل من اعتنى بك في هذه المراحل الضعيفة** قبل أن يكرمك بإنزال الوحي عليك؛ سيتركك الآن ويبغضك؟! **الجواب** لا.

(١) رواه البخاري (٨/ ٩٥)، برقم (٦٤٤٦).

ثم وجهه بثلاثة توجيهات، مقابل تلك النعم الثلاث السابقة:

فالتوجيه الأول، في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩﴾، **أي**: لا تظلمه ولا تذله ولا تعبس في وجهه؛ ولكن أكرمه وأحسن إليه وتلطف به، وتذكر يتمك حاله وانتبه للتعامل معه، فكما تعامل الله معك وأنت يتيم، فتعامل مع اليتيم بالحسنى، ولا تشعره بالقهر والألم، فإن الشخص الضعيف، إذا حصل له معاملة سيئة من غيره من الأقوياء؛ يتألم ويشعر بالقهر ممن ظلمه، فأمر الله بحسن المعاملة معه بسبب ضعفه، **واليتيم من الإنسان**: من فقد أباه، **ومن الحيوان**: من فقد أمه، لأن الأم في الحيوان هي المسؤولة عن رعاية الصغير، بخلاف الإنسان فالأب هو المسؤول على نفقته، ويزداد اليُتم خطورة عندما يفقد الإنسان أباه وأمه معًا، فإذًا اليتيم شخصية ضعيفة تحتاج إلى عناية ورعاية ورحمة، فأمره أن يتعامل معه بإحسان، ونهاه عن قهره.

ثم ذكر له التوجيه الثاني، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠﴾، **أي**: رد السائل برحمة ولين، **وفي تفسير السائل، قولان**[1]:

الأول: أنه طالب العلم الذي يأتي يسأل العالم عن مسألة، فإذا جاءك شخصٌ يسألك فأجبه أيها العالم، ولا تنهره، **والمعنى**: لا تنهر كل من سألك، بل رحّب به وأجب على سؤاله بكل لطف، وبيّن بالجواب حتى يفهم ويتعلم.

القول الثاني: أنه السائل الذي يأتي محتاجًا يطلب نوالًا من الدنيا، فلا تنهره، وبإمكانك أن ترده بأي شيء ولو كان قليلاً، أو بالكلمة الطيبة، ويُمكن أن تأخذه

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣١/ ٢٠١).

على انفراد وتنصحه بطريقة مُهذبة إذا كان غير مُحتاج، وقد جاءت أحكام مُفصلة للمسألة في الإسلام، متى تجوز ومتى لا تجوز، ليس هنا محل تفصيلها، ولكن من حيث العموم لا تنهر سائلًا سواءً كان طالب علم سألك عن جواب مسألة، أو محتاج سألك شيئًا من الدنيا، فإن لم تُعطه شيئًا، فرده بالكلمة الطيبة، **وفي الحديث**: **"ردوا السائل ولو بظلف مُحرّق"**[1]، **والظلف المُحرق** هو آخر شيء في قدم الشاة.!! ولا مانع من إرادة المعنيين، فلا تعارض بين القولين لاختلاف تعدد الأحوال.

ثم ختم الله، سبحانه وتعالى، السورة بذكر التوجيه الثالث، فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾، **النعمة هنا قيل**: هي النبوة[2]، **وقيل** عموم النعم[3]، وهو الراجح، **والمعنى**: اذكر نعم الله سبحانه وتعالى عليك على سبيل الشكر، ولا تذكرها للآخرين على سبيل العُجب والمن والارتفاع عليهم، فلا تقل على سبيل الكبر والعُجب والغطرسة: أنا منّ الله علي بكذا، أنا أحسن صوتًا، أنا أكثر جمالًا، أنا أكثر مالًا، أنا أعزُّ نفرًا، فهذا لا يجوز، ولكن اذكر النعم التي منحك الله إياها على سبيل الشكر لها، فقل: أعطاني الله كذا فالحمد لله، من باب إظهار النعمة وشكرها، واستخدامها في طاعة الله، **وفي الحديث**: **"إن الله يُحب أن يرى أثر نعمته على عبده"**[4]، فإذا أعطاك الله مالًا أظهر هذه النعمة على نفسك، فالبس

(١) رواه النسائي (٥/ ٨١)، برقم (٢٥٦٥)، **وقال الألباني**: صحيح.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٢٨).

(٣) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٣٨٤).

(٤) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/ ١٢٣)، برقم (٢٨١٩)، **وقال الألباني**: حسن صحيح.

لبسًا جميلًا، وكُلْ أكلًا طيبًا، وإياك أن تُظهر الفقر والحاجة، وأنت في خير ونعمة، وإياك أن تكون أشرًا بطرًا مُتكبرًا بهذه النعمة.!!

فوائد وهدايات من السورة:

١- بيانُ عناية الله سبحانه وتعالى، بنبيه وصفيه وخليلِه محمدٍ ﷺ، والامتنان عليه بنعمٍ عظيمة، كل ذلك تسليةً له وتأنيسًا لحاله.

٢- أن اليتيم شخصية ضعيفة؛ تحتاج إلى عناية ورعاية ورحمة، فأمرنا الله أن نتعامل معه بإحسان، ونهانا عن قهره وظلمه واحتقاره.

٣- مشروعية رد السائل برحمة ولين، سواء كان سائلاً عن مسألة علمية، أو محتاجًا يطلب نوالاً من الدنيا.

٤- مشروعية إظهار أثر النعمة عليك على سبيل الشكر لا على سبيل الفخر والخيلاء بها.

تفسير سورة الشرح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾.

شخصية السورة:

تسمى بسورة الشرح، **وسورة** الانشراح، **وسورة** ألم نشرح لك، وهذه السورة من السور التي نزلت مُبكرًا على رسول الله ﷺ وهو في مكة، وترتيبُها في المصحف بعد سورة الضحى.

وبعض السلف يرى أن سورة الضحى وسورة الشرح سورة واحدة؛ للتشابه في موضوعاتها، ولكن الراجح أنهما سورتان مستقلتان(١)، فكل سورة منفصلة عن الأخرى، حتى لو تشابهت في الموضوعات، ولكنها تختلف في الحال الذي نزلت فيه كل سورة، فسورة الضحى نزلت على رسول الله ﷺ في حالةٍ كان يشعر فيها بالألم والأسى فنزلت لتسليته ﷺ، وردّ كلام المشركين عنه، الذين قالوا أن الله قد قلاه وتركه، وبها عاد الوحي بعد فترة انقطاع.

أما هذه السورة؛ فإنها نزلت والنبي ﷺ مرتاح البال، مطمئن النفس، منشرح

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٣٨٥).

الصدر، فجاءت لمزيد من الامتنان عليه بتلك النعم،، وقد تشابهت السورتان في المقصد، فسورة الضحى تحدثت عن نعم الله تعالى الحسية التي منحها الله لرسوله ﷺ، وسورة الانشراح تحدثت عن نعم الله تعالى المعنوية التي منحها الله لرسوله ﷺ، وهذا يُعطينا مُؤشرًا مهمـًا جدًا على أن ترتيب سور القرآن الكريم ليس اجتهادًا، وإنما هو توقيفي، وأن الإنسان قد يُدرك الحكمة من الترتيب وقد لا يُدركها، ولذلك اجتهد العلماء كثيرًا في ما يُسمى بعلم التناسب في القرآن الكريم، سواءً كان تناسب الآيات، أو كان تناسب السور، وهو علمٌ عظيم أبدع فيه الإمام البِقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، ثم جاء بعده عددٌ لا بأس به من أهل العلم من المفسرين، وهو ذو بُعد اجتهادي تدبُري، وفيه لطائف وحِكم، وأحيانًا شطحات، فعلى طالب العلم أن يقرأ ويتأنى ويبحث عن الصواب، حتى يستفيد من هذا العلم.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾، **الهمزة** للاستفهام، وبعدها (لم) للنفي، والجواب في الاستفهام المنفي يكون بقولك: بلى، **ولو قلت**: نعم لكانت الإجابة: بالنفي، **وهل هذا السؤال حقيقي يحتاج إلى جواب؟** أم هو أم تقريري؟! **الجواب**: تقريري، **بمعنى**: قد شرحنا لك صدرك.

والنون في ﴿نَشۡرَحۡ﴾، نون العظمة، فإن عظمة الفاعل يدل على عظمة ثمرة الفعل، أو نون الجمع، **والمعنى**: أن الله سبحانه وتعالى قد هيأ كل الأسباب لشرح صدره، وكان من ضمن من يُشارك في شرح صدر النبي ﷺ الملائكة،

---

(١) في كتابه: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور.

فتكون نون الجمع على أصلها، **لتشمل**: فعل الله وفعل ملائكته، وما هو المقصود بالشرح؟! هل هو شرح حسي أم معنوي؟ أو هما معًا؟، **الجواب**: هما معًا، فالشرح مأخوذ من التشريح، وهو أن يُؤتى إلى الحيوان فيُقطَع جسده ويُنظر ممّ يتكون، **فهذا الشرح الحسي**.

والشرح المعنوي هو التوسعة والانفتاح، **كما قال**: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[الزمر:٢٢]، **فشرح هنا بمعنى**: وسّعه، وأدخل عليه الهداية والنور فحصل عنده الاتساع والطمأنينة والراحة، وابتعد عن الضيق، **وقد حصل للنبي محمد ﷺ الأمران: الشرح الحسي، والشرح المعنوي.**

فالشرح الحسي قد ثبت للنبي ﷺ في حالتين:

الأولى: في بني سعدٍ عند مُرضعته حليمة، وهو ابنُ ست سنوات، فجاءه جبريل فصرعه من بين الأطفال، فشقّ صدرَه وأخرج قلبَه وغسله وطيّبه ونظفه، ثم أعاده وخاطه، حتى كان يُرى أثر الخيط على صدره ﷺ(١)، والقصة مشهورة في كتب السيرة.

الحادثة الثانية: قبل أن يصعد في رحلة الإسراء والمعراج، في السنة العاشرة من البعثة، شُقّ صدره مرة أخرى، وغُسّل قلبُه ونُظف ثم أعيد إلى مكانه(٢)، وكأن هذه حادثة لتهيئة هذا القلب وهذا الجسد لرحلة الملكوت الأعلى، فليس من السهولة أن يصعد جسم بشر بجسده وحالته الراهنة، ويسْلم، فلا بد من

(١) رواه مسلم: (١/ ١٠١)، برقم (٢٦١).

(٢) رواه البخاري (٩/ ١٤٩)، برقم (٧٥١٧).

إجراء بعض التعديلات عليه.!!

والشرح المعنوي أوسع في المعنى، فيدخل فيه إزالة أي ضيق أو ضنكٍ أو تعبٍ في الصدر لقبول الحق، والنبي ﷺ كان يُهيأ ليكون حاملًا للرسالة العظيمة، المحتوية على الأحكام، وفيها القول الثقيل من التكاليف، **كما في قوله:** ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[المزمل:٥]، فيحتاج إلى صدرٍ واسع مُنشرح لذلك، إضافة إلى مهمة البلاغ الشاقة.

فهو ﷺ سيقوم بالبلاغ لهذه الرسالة ولهذا الدين الجديد الذي كان يتعجب منه الكفار، **كما في قوله:** ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾[ص:٥]، ويقفون سدًا منيعًا أمام تبليغه، فيحتاج إلى أن يكون صدرُه منشرحًا، ليتحمل الأذى والتكذيب والسب والشتم والذم من قومه ويصبر على محاولات قريش كي ترده عن دينه، والتي وردت في سيرته ﷺ، وخاصةً في الفترة المكية، فإذًا هو يحتاج إلى صدرٍ واسع يتحمل هذا وذاك.

وينشرح بالإيمان والهداية والذكر والطاعة، كما قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝٢٨﴾[الرعد:٢٨].

وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[الزمر:٢٢].

وقوله: ﴿لَكَ صَدْرَكَ﴾، قدّم الجار والمجرور للاختصاص، فما كل البشر حصل لهم ذلك، وإنما هذا لك لما لك عندنا من المكانة والخصوصية

والمنزلة، وعبّر هنا بالصدر لأن الصدر يحتوي على القلب والفؤاد واللُّب، وهي الثلاثة الأعضاء هي مِحور التفكير والهداية والفَهم والاستيعاب، وكلها في الصدر، فشرح الله الصدر لينشرح معه ما بداخله من هذه المكونات الثلاثة، فهذه النعمة الأولى التي امتنّ الله بها على نبينا محمد ﷺ.

ثم قال له: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾، **وضع:** بمعنى أسقط أو مسحَ وأزال، **والوزر:** بمعنى الذنب أو الهمّ أو المشقة والتعب، فالله تعالى منّ على عبده ورسوله محمد ﷺ بوضع هذه الأمور عنه، فإن كان بمعنى الذنب فالمقصود به ما سُمي ذنبًا وحصل منه في الجاهلية، **أي:** حططنا عنك الذي سلف منك في الجاهلية، **وهو كقوله:** ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[الفتح: ٢]، **وقيل:** الخطأ والسهو، **وقيل:** ذنوب أمته فأضافها إليه لاشتغال قلبه بهم[(١)].

والصحيح أن النبي ﷺ حماه الله من الذنوب الكبيرة والمعاصي قبل البعثة وبعدها، وأن الذنب بالنسبة له قد يكون مخالفة الأولى، كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، **يعني:** حسنتك التي تتقرب بها هي بالنسبة لمن هو أعلى شأنًا ومنزلةً منك عند الله يعتبرها سيئة، وذلك لأن هؤلاء القوم قد منحهم الله من الحرص على العبادة وشفافية القلوب وصلاحِها ورقّتها ما يجعلهم يتأثرون بمُجرد التوقف عن العبادة، فيسمي ذلك ذنبًا، بينما غيره يتأثر قلبُه فقط بالمعصية، والفرق واضح، فالنبي ﷺ قلبه مثل الثوب الأبيض الناصع، يظهر

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٠٧).

فيه أثر الغبار، بينما غيره يختلف درجة بياض قلبه، ودرجة تأثير الذنب عليه، وهذا هو معنى قوله ﷺ: **"إنه ليُران على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم أكثر من مائة مرة"**(١).

فالران والذنب والوِزر معناها متقارب، وقد غفر الله له الذنب ووضع عنه الوزر، وأزال عن قلبه الران، وهو أثر من آثار توقفه عن الذكر، أو بسبب انشغاله بقضاء الحاجة فيعتبر ذلك تقصيرًا وانقطاعًا عن العبادة، فيستغفر منه، ولذلك كان إذا عاد من الخلاء، يقول: **"غفرانك"**(٢)، لماذا يستغفر؟! لأنه توقف عن الذكر بمكان لا يجوز ذكرُ الله فيه!!، فكم من أوقات تضيع علينا ونُضيّع فيها ذكر الله ونحن خارج الحمّام؟!!، وكم نحتاج إلى استغفار عن هذا؟!!.

أما إذا فسّرنا الوزر، بمعنى الهموم المُلقاة على عاتقه من همّ الدعوة وهمّ تكذيب قومِه، وهمّ نصرة الإسلام، وهمّ أمته، وغيرها من الهموم، فكل هذه الهموم كانت على ظهر رسول الله ﷺ وكانت تُؤلمه، فوعده الله تعالى أن يضعها عنه، **كما قال**: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ٥﴾[الضحى:٥]، **وفي قوله**: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ٣﴾ **النقض** هو الصوت الذي يصدُر من رحل البعير إذا ثقُلت الحمولة عليه(٣)، وهو الأطيط، **والمعنى**: أثقل ظهرك فأوهنه حتى سمع له نقيض، **أي**: صوت، فشبّه الهمّ الذي يحمله الرسول ﷺ في دماغه وفي عقله

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥)، برقم (٤١) بنحوه.

(٢) رواه الترمذي، ت شاكر (١/ ١٢)، برقم (٧)، وقال الألباني: صحيح.

(٣) ينظر: مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٨٨٢).

بشيء ثقيل على ظهره، فالظهر هو مكان الحمل وأقوى منطقة للحمل، ومن ثقل هذا الحمل على الظهر، صدر من مفاصله صوت كصوت رحل البعير حينما يشتد عليه الثُّقل، وفي هذا بيان لمقدار الألم الذي كان يتعرض له رسول الله ﷺ من تكذيب قومه له، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾[الكهف:٦]، أي قاتل نفسَك، بسبب ألمك من تكذيب قومك لك، وهذا همّ عجيب، ومن ذهب من أهل العلم إلى تفسير الوزر بهذا له وجاهة قوية؛ لأن الرسول ﷺ من كان معصوماً من الذنب والمعصية، فلا وزر عليه.

ثم وضع الله عنه هذا الوزر، وأزال عنه ذلك الهمّ، فصار في خفّة وراحة!!، وهذه هي النعمة الثانية التي امتنّ الله بها على نبينا محمد ﷺ.

ثم ذكّره بالنعمة الثالثة، فقال: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾، قبل أن ندخل في معنى رفع الذكر؛ لابد أن ننبه لشيء مهم، وهو: أن رأس مال الإنسان هو سمعته، فإذا طُعِنَ في سمعتك انتهى رأس مالك كله!!، وهذا ليس فقط بالبشر، بل حتى الشركات والمؤسسات فالسمعة عندهم مُهمة جدًا؛ ولذلك يُنفقون ملايين من أجل الإعلانات التي من خلالها تنتشر السمعة الطيبة عنهم، ما علاقة هذا الموضوع بقوله: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾؟! علاقتُه واضحة، فالنبي ﷺ حاولت قريش أن تطعن في سمعته، مع أنه عاش معهم أربعين سنة قبل البعثة، وهو المعروف عندهم بالصدق والوفاء والأمانة، وقصة بناء الكعبة ورفع الحجر مشهورة[1]،

(١) ينظر: سيرة ابن هشام ت السقا (١/ ١٩٧).

حيث قالوا: مرحبًا بالصادق الأمين، رضينا به، رضينا به، ولكن لما بُعث محمد ﷺ، حاولوا أن يضربوا سمعته، فقالوا: ساحر، كذّاب، شاعر، كاهن، مجنون، أفّاك، وغيرها من هذه الألفاظ السيئة القبيحة التي سُلطت عليه من كل أعدائه من اليهود والنصارى والمنافقين في المدينة ومن قُريش ومن أقرب الناس إليه، فهذا أبو لهب كان يمشي وراءه في الأسواق، ويقول: لا تصدقوا هذا الكذاب، فيقولون: من أنت؟ فيقول: أنا عمُّه، فيقولون: صاحبُ الدار أدرى بما فيه، وينفضون عنه، فإذًا هذه قضية خطيرة جدًا، وكان النبي ﷺ يتعرّض لها، وكان يخشى أن تُؤثر فيمن حوله من الناس، فلا يُصدّقوه ولا يقبلوا دعوته، فجاءته البشارة: لا تهتم لهذا، ولا تنظر إلى آثاره السيئة المتوقعة، فالله قد وعدك بأن يرفع لك ذكرك، وهذه الألفاظ السيئة التي حاولوا بها أن يضعوا من مكانتك وقدرك؛ لن تُؤثر عليك، بل ستزيدك مكانةً عند الله أولًا وعند الناس ثانيًا.

وكان من ثمار هذا الوعد أنه إذا ذُكر الله ذُكر معه رسوله ﷺ، كما في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[المائدة:٩٢]، **وفي الأذان، يُقال:** أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، وهذا أحد أنواع رفع ذكره عند الخلق.

وأما رفع ذكره في السماء فكذلك، ففي رحلة الإسراء والمعراج يطرق جبريل باب السماء، فيقال: من؟! فيقول: جبريل، فيقولون: ومن معك؟! فيقول: معي محمد، فيقولون: أُمرنا أن لا نفتح إلا له، حتى بعضُهم كان يسأل: أو قد بُعث إليه؟! أو قد أُرسل إليه؟!، فيُفتح له(١)، وهو الذي يطرق باب الجنة

(١) رواه البخاري (١/ ٧٨)، برقم (٣٤٩).

فيُفتح له وهو أول مَن يدخلها[١].

وهو الشافع المُشفّع، وهو صاحب المقام المحمود بين يدي الله، **كما قال:** ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾[الإسراء:٧٩]، وغيرها كثير، فمهما حاول أعداؤه أن يُسقطوه إلا أنهم لم يستطيعوا، فهذا أحد الغربيين كتب عن أعظم مائة شخصية في العالم، فبدأهم بمحمد ﷺ، وهو كافر مُلحد بعيد عن الإسلام، لكنه قرأ سيرته فلم يتجاوزه إلى غيره، **وهذا كله ثمرة من ثمار** ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾، وانتهت كلمة ساحر وكاهن وغيرها من الألفاظ وذهبت أدراج الرياح!!، وتحقق وعد الله لرسوله ﷺ، وهذه هي النعمة الثالثة التي امتنّ الله بها على نبينا محمد ﷺ.

ثم قال الله لرسوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦﴾، **ما علاقة هذا بما سبق؟! الجواب:** أن ما حصل لك من النعم التي أزلنا بها عنك آثار النقم الثلاث: نقمة ضيق الصدر، نقمة الوِزر، نقمة مُحاولة تشويه سمعتك، فهذه كلها كانت من العُسر الذي يُواجهك وتخشى منه، **فجاءك اليُسر:** بوضع الوزر، وانشراح الصدر، ورفع الذكر، وهذا من فضل الله ولطفه بعبده ورسوله، وفيه إشارة إلى أن في كل محنة تقع للعبد في باطنها منحة، فابحث عن أماكن المنح داخل المحن وستجدها، **وفي الأثر:** **"لن يغلب عسرٌ يُسرين"**[٢]، **لماذا جعل العسر واحدًا، واليُسر اثنين؟ الجواب:** أن العُسر جاء معرّفًا بالألف واللام، بينما

(١) رواه مسلم (١/ ١٨٨)، برقم (٣٣٣).

(٢) رواه البخاري (٦/ ١٧٢)، في تفسير سورة ألم نشرح، من قول سفيان بن عيينة.

اليُسر جاء مُنكرًا، فالمُعرّف إذا تكرر مُعرفًا فهو واحد، فالعُسر الأول هو العسر الثاني، واليُسر الأول ليس هو اليُسر الثاني؛ لأن كل منهما نكرة، عندنا يسران، ولن يغلِب عسرٌ يسرين، وهذا وعد من الله سبحانه وتعالى، ونكّر اليُسر ليكون أشمل وأكثر وأعظم، فرُبما يأتيك اليُسر من حيثُ لا تدري، فابحث عنه وخذ بالأسباب الموصلة إليه، وقد سبق معنا في تفسير قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الليل:٧]، إشارة إلى تلك الأسباب، وسيأتي غيرها.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧﴾، **الفراغ هنا بمعنى:** قضيت ما أنت مشغولٌ به، **وانصب بمعنى:** اجتهد، من النَّصَب وهو التعب، **والمعنى:** إذا انتهيت من عمل فاشغل نفسك بعمل آخر غيره، ولا تبقَ فارغًا من العمل والنشاط، واختلف المفسرون في معنى الآية على عدة أقوال، فقيل: إذا فرغت من الصلاة، فانصب إلى الذكر أو الدعاء، **وقيل:** إذا فرغت من الجهاد، فانصب إلى العبادة، **وقيل:** إذا فرغت من أعمال الدنيا، فانصب إلى أعمال الآخرة والعبادة(١)، وكل الأقوال لا تعارض بينها، وإنما هي من تفسير الشيء بذكر مثال له، **كما قال:** ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[الجمعة:١٠]، **وقوله:** ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾[البقرة:٢٠٠]، **بمعنى:** أنت شخصٌ لك وظيفة وعمل، ولست إنسانًا فارغًا بل خلقت لغاية وحكمة، **كما قال:** ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا﴾ [المؤمنون:١١٥]، **وقوله:** ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦﴾[القيامة:٣٦]، **والسدى**

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٩٧).

هو الماء الذي يذهب دون سقيٍ ولا شُرب، فالإنسان لم يُخلق عبثًا ولا لعبًا، ولن يُترك فارغًا من دون تكليف، وفيه إشارة إلى خطورة الفراغ، بحيث يعيش العبد فارغًا عن العمل، لا هو في عمل الآخرة، ولا هو في عمل الدنيا، ولا يعني ذلك أن تحرم نفسك من الراحة، بل اجعل راحتك ونومك كلها لله، وانوِ بها التقوّي على طاعة الله.!!

وقوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾، **الرغبة الحقيقية** هي في السير إلى الله، ولذلك قدّم حرف الجر، في قوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾، الذي يفيد الحصر، **والمعنى**: لا ترغب في غير الله، ولا يشغلُك شيء عن الله، ولا تُضيّع وقتَك فيما يُبعدُك عن الله، بل وجّه جهدك ووقتك ورغبَتك إلى الله، والرغبة: أن تأتي طَواعية ولا تأتي رهبة، والرغبة مُتعلقة برجائك في الله، فأنت طامع فيما عند الله، والرهبة: مجيء الخائف، وهناك فرق بين أن تأتي راغبًا في الشيء مقتنعًا محُبًا؛ فتكونُ أكثر إخلاصًا وأحسن أداءً له، وبين أن تأتي بالقوة مُكرهًا خائفًا بسبب الرهبة، فلا تذهب إلى طاعة الله إلا على سبيل الكراهة وعدم الحب، بل اذهب إلى العمل الذي يُقربك من الله على سبيل الرغبة والحب له والفرح بفعله.

وهاتان الآيتان هما في الحقيقة إجابة لسؤال مقدر، كأن سائلًا يقول: هذا الفضل وهذه النعمة وهذه المنة من الله لرسوله، حيث شرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، ونحن ماذا لنا؟!!، **فكان الجواب**: أن هذا الطريق للجميع، فإذا كان الله قد منّ على رسوله بهذا، لمنزلته ومكانته وكثرة عبادته وقُربه، وطُلب منه أن يستمر على العبادة والقُرب من الله، حتى تستمر له هذه

النعم، فنحن من باب أولى، فإذا أردنا أن نحصل على تلك النعم، فالطريق إليها في قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾، فإن فعلنا هذا بجدٍ واستمرار؛ فسيشرح الله لنا صدورنا، ويرفع لنا ذكرنا، ويضع عنا أوزارنا، فكأن هذه السورة لخصت ملامح المشروع التربوي الناجح للفرد، وبناءً عليه؛ فالمقصّر في الطاعة والعبادة الكسلان المشغول المرهوب الذي يتعبّد متى يشاء ويترك متى يشاء، فهذا قلّ أن يصل إلى الأهداف الثلاثة الأولى في بداية السورة، والتي يفصلها عن الوسيلة خط في الوسط هو ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾، فإذا تريد اليُسر، فخذ بأسبابه وستحصل عليه، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾[الليل:٧].

فوائد وهدايات من السورة:

١ – أن الله شرح صدر النبي ﷺ حساً ومعنىً، لكي يحمل الرسالة ويصبر على مشقة البلاغ.

٢ – أن الله وضع عن نبينا محمد ﷺ الوزر، وأزال عنه الهمّ، فصار في خفّة وراحة!!.

٣– أن الله رفع ذكر نبينا محمد ﷺ في السماء وفي الأرض، ولم تفلح أساليب الكفار في تشويه سمعته.

٤ – **أن خاتمة هذه السورة** لخصت ملامح المشروع التربوي الناجح للفرد، فمن أراد أن يصل إلى شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر؛ فعليه بأن يشغل نفسه بالطاعة والعبادة، وكلما فرغ من عمل صالح أقبل على غيره حتى يلقى الله!!

تفسير سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾.

شخصية السورة:

سورة التين؛ سورةٌ مكية[1]، نزلت قبل الهجرة، وعدد آياتِها ثمان آيات، وترتيبُها في المصحف الشريف رقم خمسٍ وتسعين، بعد سورة الانشراح وقبل سورة العلق، **ومقصدها العام**: بيان قيمة الإنسان وشرفه بدينه، وسفوله وهوانه بتخليه عنه؛ لذا أقسم بأماكن نزول الوحي[2].

وقد أقسم الله سبحانه وتعالى في أولها بأربعة أشياء، فقال: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾، أقسم بالتين والزيتون، ثم أقسم بطور سينين، ثم أقسم بالبلد الأمين، فهذه أربعة أشياء جاء بها القسم في هذه السورة، فالقسم الأول بالتين وهو الشجرة

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٣٤).

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٥٩٧).

المعروفة، والقسم الثاني بالزيتون وهو الشجرة المعروفة أيضًا، **وهل القسَم بالشجرة أم بالثمرة؟! الجواب على قولين: القول الأول:** أن المقصود بالشجرة والثمرة حقيقة، شجرة التين وثمرة التين حقيقةً[(١)]، واخُتيرت هاتان الثمرتان للقسم بهما وذلك لما يتناسق مع موضوع السورة، وسبق أن أشرنا إلى أن تسمية سور القرآن ليس اجتهاديًا بل هو توقيفي، فالله تعالى أقسم بثمرة التين؛ لأنها ثمرةٌ طازجة لذيذة ليس فيها نوى، ولها فوائد عظيمة جدًا من الناحية الطبية، ولكن الخطورة في أنها لا تبقى كثيرًا على حالتها الطازجة، وإنما تخرب وتفسُد بسرعة، وأقسم بالزيتون وهي أيضًا ثمرة طيبة، إلا أن من خصائصها أنها لا تفسد بسرعة، وأنها تبقى طويلًا طازجةً لا تفسُد، وفي هذا إشارة إلى الموضوع العام الذي جاءت السورة تتحدث عنه وهو فطرة الإنسان، وأن الله تعالى خلق هذا الإنسان على فطرة سليمة نظيفة طاهرة **كما قال:** ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾[الروم:٣٠]، والدين القيّم هو دين الإسلام، **وكما جاء في الحديث: "كل مولود يولد على الفطرة"**[(٢)]، وإنما يحصل التغيير في الفطرة بسبب العوامل الداخلة عليها، فمن اهتم بفطرته وحافظ عليها؛ فله شبهٌ بثمرة الزيتون، ومن أهمل العناية بفطرته؛ فله شبهٌ بثمرة التين من حيث سرعة التغير والفساد، وهذا هو السر في هذه التسمية للسورة من جهة، وفيها سبب القسم بهاتين الثمرتين.

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢١٠).

(٢) رواه البخاري (٢/ ١٠٠)، برقم (١٣٨٥).

والقول الثاني: أنه أقسَم بموطنهما وهو بيتُ المقدس، فهو أكثر مكان يُزرع فيه التين والزيتون، **والسر في ذلك:** لأنه موطن أحد الرسل من أولي العزم، وهو عيسى عليه السلام، ثم أقسم بطور سيناء، وهو موطِن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو المكان الذي لموسى به علاقة وطيدة، ثم أقسم بالبلد الأمين، وهو موطن محمد ﷺ[(١)]، وهذا التأويل له وجاهته، باعتبار أن الإشكال فقط في القسمين الأولين الذي هو التين والزيتون، أما طور سيناء والبلد الأمين فهما موضعان، فكان من وجاهة هذا القول أن يُفسّر التين والزيتون، بموطِنِهما وليس بثمرتهما، حتى يتناسق القسم بالثلاثة الأماكن، والقول الأول أكثر وجاهة؛ إذا ما عللناه بما سبق ذكره، وهو علاقة تسمية السورة بالموضوع الذي تتكلم عنه وهو الفطرة وكيف يُحافظ المسلم على فطرته الصالحة السليمة، وأن لا يُدنسها ولا يُفسدها بشيء.

والتين هو الفاكهة المعروفة طيبة الظاهر والباطن، **ويقال عنه** إنه غذاء وفاكهة ودواء، ولم يذكر في القرآن إلا مرة واحدة فقط، والزيتون شجرةٌ مباركة، ذُكرت في القرآن مع زيتها في سبعة مواطن[(٢)]، **ووصفها الله بالشجرة المباركة، كما في قوله:** ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾[النور:٣٥]، **وجاء في الحديث:** أن النبي ﷺ قال: **"كلوا الزيت وادّهنوا به فإنه من شجرةٍ مُباركة"[(٣)]**، **وقد ورد**

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢١١).

(٢) **ذُكر الزيتون في سورة** الأنعام مرتين، وذكر في سورة النحل، والنور، والمؤمنون، وعبس، والتين.

(٣) رواه الترمذي، ت شاكر (٤/ ٢٨٥)، برقم (١٨٥١)، وقال الألباني: صحيح.

النص ببركة موطنها، فإنها تُزرع في الشام أو حول المسجد الأقصى وهو الموطن الذي **قال الله عنه**: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[الإسراء:١]، وللزيتون فوائد كثيرة جدًا سواءً من الناحية الطبية أو من الناحية الغذائية، تكلم عنه علماء التغذية والطب مما يدلك على مغزى القسَم به، وهو الإشارة إلى عظمته ومكانته.!

وأما قولُه: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾، **الطور** اسم الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى، و﴿سِينِينَ﴾، **المقصود به** سيناء، وهو الوادي، وأضيف الجبل إليه للتعريف، وفي سيناء ثلاث لُغات: بالفتْح سَيْناء، وسِيناء بالكسر، وسينين على أنه لُغة[(١)]، وأخطأ من قال أن سينين جمع لسيناء، فليس جمعًا وإنما هو لغة من لغات العرب في نطقها، وفائدة ذكرها هنا بهذا اللفظ لتتناسق الفواصل، فأقسم الله تعالى بطور سيناء وهو الجبل الذي كلم الله فيه موسى، والمذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ١٤٣]، فهذا هو جبل الطور، وستكون في آخر الزمان حوله بعض الملاحم.!!

وأقسم كذلك بالبلد الأمين، ولذلك قال: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ وهذا يدل على أن السورة مكية، بدلالة اسم الإشارة ﴿وَهَٰذَا﴾ الذي يفيد القرب، والمقصود به مكة، ووُصِف بأنه الأمين؛ لأن من دخله صار آمنًا، وذلك ما اتفق عليه العرب في

(١) ينظر: مختار الصحاح (ص: ١٥٩).

جاهليتهم، أن الحرم يأمنُه من دخله، حتى الصيد لا يُصاد فيه، فالوحوش كانت تأتي إليه، ولا أحد يصطادها ولا يُؤذيها ولا يُنفّرها، وكان القاتل يقتل ويهرب إلى الحرم، وكان أهل الحرم إذا أرادوا أن يخرجوا في التجارة وغيرها في أيام الحروب بين قبائل العرب يضعون على رؤوسهم شجرة من أشجار الحرم؛ **فيعرفهم الناس فيقولون:** هؤلاء من أهل الحرم فلا يُعتدى عليهم، وقد ذكر الله هذا من نعمه على قريش ونبههم إليها، وطلب منهم أن يُؤمنوا برسوله فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[العنكبوت:٦٧].

وجوابُ القسَم لهذه الأقسام الأربعة، جاء في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ **والمقصود بالإنسان هنا:** جنس الإنسان، فيشمل كل إنسان من ذرية آدم عليه السلام وسمي إنسانًا؛ لأنه يأنس ويُؤنس، وخلقه الله في أحسن تقويم، **أي:** في أحسن قوام، وأحسن صورة، وأحسن هيئة، فجمّل صورته وجعله أحسن المخلوقات صورة، وقد ذكر بعض الفقهاء أن أحد أمراء إحدى الممالك دخل على زوجته فرآها جميلة فقال لها: إن لم تكوني أجمل من القمر في ليلة البدر؛ فأنت طالق، ثم ندم، فجمع الفقهاء في مملكته، طلب منهم الفتوى، فقالوا: ما نراها إلا قد طلُقت منك، لأنه لا يوجد أجمل من القمر في ليلة البدر، ويظهر أنها كانت الطلقة الثالثة، ولو كانت الأولى أو الثانية، لراجعها، فكان شبه إجماع من الفقهاء الحاضرين بأنها قد طلُقت، إلا واحداً منهم، ويُسمى يحي بن أكثم القاضي، وكان من أصغرهم سنًا وكان مشايخه موجودين، وهو ساكت، وكأنه رأى عليه علامات الاستفهام، لأن الإنسان عندما يُورط يبحث له عن مخرج!!،

فسأله: وأنت ماذا تقول؟ قال: أنا أقول أنها لم تُطلَّق، ففرح الرجل، وقال له: كيف عرفت، ما دليلُك وقد خالفك جمهور الفقهاء؟! قال: لأن الله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ فلا أحد أحسن خلقًا من الإنسان بنص القرآن، لا قمر ولا غيره، فتراجع الفقهاء كلهم إلى فتواه، ورجعت زوجة الوالي وفرح بهذه الفتوى!!، فانظر إلى قوة الفهم وحسن الاستنباط من النص القرآني، وهو طالب علم بين مجموعة من شيوخه، وذلك يدلك على أن الله قد يُلهم من يشاء في فهم النص واستنباطه من كتاب الله أو من سنة رسول الله ﷺ.

فقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ **بمعنى:** خلقناه في صورةٍ حسنةٍ جميلة، فلا أحد من المخلوقات أحسن منه، سواء كان ذلك في صورته الظاهرة أو في صورته الباطنة، أو في تركيبه من خلال صفاته من العقل والعلم والفهم والذكاء، والاستنباط، وجمال الصورة الظاهرة وجمال الصورة الباطنة، وجمال الفطرة وجمال الهيئة، هكذا خلقك الله أيها الإنسان، والواجب عليك أن تحافظ على هذه الهيئة الحسنة، سواءً هيأتك التي خلقك الله عليها فلا تطع الشياطين في تبديلها؛ فإن الشيطان حريص أن يجعلك تُغير خلق الله، حتى قال بعض أهل العلم: أن حلق اللحى من تغيير خلق الله، فالله خلق لك لحية وأنت تحلقها، والله يريد أن يجعلك رجلًا وأنت تريد أن تتشبه بالجنس الآخر بحلقها، ولو نبتت لك لحية طويلة عريضة كبيرة فهذّبها لا بأس، لكن إذا كان الوضع عاديًا جدًا فلا تشمئز منها؛ لأن الفِطَر والطباع والأخلاق إذا تغيّرت نظرت إلى القبيح فرأته جميلًا، ونظرت إلى الجميل فرأته قبيحًا، كما قال ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ

عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾[فاطر:٨]، وهذا كله من تغيير الفطرة، والأصل أن ترى الشيء الجميل جميلًا، فالشياطين يحرصون كل الحرص على أن يُغيروا في الإنسان الهيئة الظاهرة والهيئة الباطنة، ولذلك نُهي عن التشبه سواءً بالكفار أو المنافقين أو الشياطين أو النساء أو الفُسّاق حتى تبقى على الهيئة الحسنة التي خلقك الله عليها.

وأيضًا لا تُغير فطرتك، فقد فُطرت على التوحيد والاستقامة والتدين فلا تجعلها تتغير وتقع في الشرك بالله سبحانه وتعالى، فهذا من معنى ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤﴾ فأنت إنسانٌ جميل في مظهرك ومخبَرِك، في صورتك وهيئتك، خلقك الله بهذه الصورة الجميلة، ولو قارنت صورتك وبين سائر صور الحيوانات لرأيت فضل الله عليك، سواءً في أنفك أو في فمك أو في أذنيك أو في سائر أعضائك، فقد خلقك خلقاً مُستقلاً أرادك الله أن تكون عليه، خلافًا لداروين الذي يقول إن أصل الإنسان قرد وأنه تطور وأنه بعدما كان قردًا تطور إلى شمبانزي، ثم تطور إلى إنسان، هذا ضحك على العقول، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهذا الإنسان الذي فضله وأكرمه، وخلقه وصوره فأحسن صورته، وأعطاه من الفطرة والهيئة الحسنة والمظهر الطيب ما لم يعطه مخلوقاً آخر، وهو من يُفسِد هذه الهيئة ويُفسِد هذه الفطرة، ويُفسد هذا الجمال للصورة بمخالفته لأمر الله وشرعه.!!

قال: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥﴾ كان في مكانة عالية، مُرتفعاً بأخلاقه وقيمه وصورته وهيئته فرجع إلى مكانٍ مُتدنٍ نازل فيه سفالة وسقوط، فالله يُريد

لك العلو، علو الأخلاق، علو القيم، علو المبادئ، علو الهيئة، وجمال الصورة، وأنت تأبى إلا أن تهبط وتنزل وتسقط إلى الأسفل، في كل جوانب حياتك: في الاعتقاد، والأخلاق، والتصور، والسلوك، والهيئة، وذلك بسبب انحرافك عن شرع الله وعدم إيمانك بالله، وعدم استقامتك على ما خلقك الله عليه من الفطرة الحسنة الطيبة، وتسليم زمام أمورك للشيطان الذي يقودك من أعلى إلى أسفل، فالإيمان يرفعُك، والطاعة ترفعُك، والمعصية والكفر والشيطان يسقطونك من مرتبتك شيئًا فشيئًا حتى تكون في أسفل سافلين.!!.

وقال بعض أهل العلم: إن المقصود بالآية تغير الجانب الجسدي للإنسان، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في صورةٍ جميلةٍ بهيّة، ثم إذا كبر سنُّه صار شيبة هرمًا مُخرّفًا، ضعيف البُنية، ضعيف الجسد، وأن معنى أسفل سافلين، هي: هيئة الشخص في آخر عمره وهو شيبة هرم مخرّف، ذهب عنه روح الشباب ونشاطه وعقله وحيويته[(١)]، وهذا القول مرجوح عندي، وإن رجحه بعض المفسرين[(٢)]، والراجح الأول[(٣)]، لأن الإنسان يمكن أن يكونُ شابًا قويًا لكنه في أخلاقه وقيمه وتصوراته وفطرته في أسفل سافلين، والعكس صحيح، وأيضا لسياق النص، فقد جاء الاستثناء بعده للمؤمنين، مما يدل على أن المقصود الجانب المعنوي وليس الجسدي.

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٦٤).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٤٢٠).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٥١٠)

وقال آخرون: إن المعنى أن أجساد وأرواح أهل النار في سِجين، **أي**: أسفل دركات السفال في النار والعياذ بالله بسبب كفرهم بالله تعالى[(١)]. وهذا القول هو ثمرة ونتيجة للقول الأول.

وفي قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، استثناء للمؤمنين من عموم الإنسان من أن يكون في أسفل سافلين، بأن تنحرف فطرتُه وأخلاقُه وقيمُه ودينُه إلى الفساد، ويكون في الآخرة من أهل النار، وأنه يمكن أن يبقى في مكانته ومرتبة الطيبة ويحافظ على الفطرة السليمة والهيئة الحسنة والصفة الجميلة التي خلقه الله تعالى عليها، بمجموعة من الوسائل للمحافظة، **وذكر منها هنا وسيلتين وهما:**

الأولى: الإيمان، فإن الإيمان يحفظُ لك فطرتك، والكفر يُفسِد عليك فطرتك، خلقك الله في فطرة سليمة، في خُلُقٍ حسن، في صورةٍ حسنة، في هيئةٍ جميلة فلا تُفسدها بالكفر، ولا تفسدها بالشرك، ولا تفسدها باتباع الشيطان والهوى وغيرها من وسائل التحريف، فحافظ على الإيمان فهو أهم سبب لثباتِ فطرتك على الحق، والإيمان هو قوة الاعتقاد والتصور الجازم بأن الله الخالق الرازق الإله المعبود سبحانه وتعالى.

الثانية: العمل الصالح، فالإيمان اعتقاد قلبي، والعمل الصالح ظاهر، وهو: ما تفعلُه الجوارح من كل ما يُقرّب إلى الله سبحانه وتعالى، والعمل الصالح

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٦٥).

يعني العمل الطيب سواءً من أمور الدين أو من أمور الدنيا، فأي شيء يُنتفع به، وليس فيه أذية وليس فيه شيء من الحرام؛ فيُعتبر من العمل الصالح، وأي شيء فيه كُفر أو مُحرم أو أذية للخلق؛ فهو عملٌ غير صالح، وبهذا يكون عندنا مفهوم العمل الصالح أوسع من مجرد صلاة وصيام، وطلب العلم، فالعمل صالح يشمل: التجارة الحلال، السعي على الأهل والأولاد، وعمارة الأرض بالخير، ونحوها، فكلها من الأعمال الصالحة، فهذا العمل الصالح أحد أسباب سلامة الفطرة وبقائها على ما هي عليه، فيبقى الإنسان في أحسن تقويم، في أحسن صورة، في أحسن مكانة عند الله.!!

وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾، **أي:** فمن اعتنى بالإيمان والعمل الصالح، بقت فطرتُه سليمة، وحُفظ له دينُه، ووعده الله تعالى بالأجر العظيم، وغير ممنون، **له معنيان: الأول:** أنه مُستمر غير مقطوع.

والثاني: أنه لا أذى فيه ولا مَنّ، فلا يمن عليه فيه أحد.

وهذا هو وصف نعيم الجنة، ومن أهم صفاتها أنها مُستمرة لا تنقطع، وليس فيها منٌ أو أذىً بل فيها الرضى والسعادة والاطمئنان، وهذا يدلنا على فضل الله وكرمه، وأنه يمنحُ العبد الأجر والثواب، ولا يُمن به عليه، ليجمع له بين النعيم الحسي والمعنوي، لأن الانقطاع حسي، والمنّ معنوي، فمنع عنه الأمرين حتى يكون في راحة وسعادة حسية ومعنوية.!!

ثم قال الله سبحانه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾ الخطاب للكافر السامع

لهذه الآيات، ما الذي يمنعُك أن تؤمن؟! أو ما الذي يدفعُك إلى التكذيب بالدين؟ والمقصود بالدين هنا إما الجزاء والحساب كما قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾[الفاتحة:٤]، وهذا واضح لأن أهل مكة المخاطبين بهذه الآية. كانوا يُنكرون البعث والنشور، ويُنكرون الجزاء والحساب في الآخرة، أو يكون المقصود به: دين الإسلام، الذي هو دينُ الفطرة، كما قال: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾[الروم:٣٠]، فالفطرة هي الدين القيّم، فلماذا تُكذب به، ولماذا لا تُؤمن به وهو يدعوك إلى التوحيد والأعمال الطيبة، ويدعوك إلى أن تبقى فطرتك سليمة، فهلاّ تفكّرت في الدلائل والبراهين والحُجج التي تدعوك إلى الإيمان!!، قبل التكذيب؟!! والأول أرجح، للسياق.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨﴾، سياق هذه الآية يُرجّحْ لنا أن المقصود بالدين هنا هو الجزاء؛ لأن الجزاء والحساب، هو ثمرة الحُكم بين الناس في الآخرة كما قال: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ١٧﴾[النبأ:١٧]، والذي يقوم بهذا الحساب هو الله الحَكم العدل، ولا يوجد أعدل من الله، ولا أحسن حُكمًا من الله، فهو أحكمُ الحاكمين، فهو يحكم، وحُكمُه يكون بالحِكمة، والحكمة: وضعُ الشيء في موضعه، فيُعطي كل شيءٍ حقه، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾[الكهف:٤٩]، ويُجازي كل إنسانٍ بعمله، فيُجازي المُحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

فوائد وهدايات من السورة:

١ - امتنان الله على هذا الإنسان بالخلق الحسن والفطرة الحسنة، ثم دلّه كيف يُحافظ عليها بالإيمان والعمل الصالح، وحذره من الانحراف عن هذه الفطرة؛ بالشرك والأعمال الفاسدة.

٢ - أن من سار في طريق الإيمان والعمل الصالح، وحافظ على الفطرة وبقي على تكريم الله له في خلقه وهيئته؛ فسيجد تكريمًا آخر أعظم منه في الآخرة، وهو الأجر الذي لا منة فيه ولا ينقطع في جنات عدن.

٣- أن من انحرف واتبع هواه وخالف الفطرة، وكفر وأشرك، فقد أسقط نفسَه من المكانة والتكريم الإلهي في الدنيا، وأسقط نفسه في الآخرة في النار، والعياذ بالله، لأنه من لم يُكرّم نفسَه فلن يُكرّمه غيره، كما قال: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾[الحج:١٨]، والله أعلم.

تفسير سورة العلق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩﴾.

شخصية السورة:

سورة العلق؛ هي أول سورة نزلت من القرآن على نبينا محمد ﷺ[(١)]، والمقصودُ صدرها، وهي الخمس الآيات الأولى من السورة، فهي أول ما نزل على نبينا محمد ﷺ من القرآن على الإطلاق، **وقد ثبت في الصحيح** من حديث عائشة[(٢)]، أن النبي ﷺ، كان يُحبب إليه أن يختليَ بنفسه، فكان يذهب إلى غار حراء ليتعبد، وكان يتزود لليالي ذوات العدد، وفي مرةٍ من إحدى ليالي رمضان؛ جاءه جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فأخذه وغطّه، **أي**: ضمّه بقوةٍ، ثم قال له: اقرأ، فأجابه

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٣٦).

(٢) رواه البخاري (١/ ٧)، برقم (٣) بنحوه.

النبي ﷺ: "**ما أنا بقارئ**" **أي**: لا أستطيع القراءة، فكرّر عليه الثانية ثم الثالثة، ثم قال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ ثم تركه فإذا فرائصُه ترتعد وقد أصابه الخوف، فرجَع إلى زوجه خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا، وقال لها: "**إني أخشى على نفسي**"، لأنه لا يدري ما الذي أصابه، فقالت: "والله لا يُخزيك الله أبدًا؛ إنك لتحمِل الكلّ، وتُقرئ الضيف، وتُعين على نوائب الدهر".

فهذه أعمال وأخلاق من فعلها فإن الله لا يُخزيه، ولا تقترب منه الشياطين، ولا تتلبّس به، ثم من حسن فهمها واستيعابِها وفقهها لما يدور؛ أخذته إلى عمها أو ابن عمٍ لها وهو ورقة بن نوفل، وكان رجلًا قد تنصّر في الجاهلية وقرأ التوراة والإنجيل، وعنده معلومات عن الأنبياء والرسُل والوحي، قد كان كبُر سنُّه، فذهبت به فقالت له: "**اسمع من ابنِ أخيك**"، فلما سرد عليه القصة، قال له: "**ذاك الناموس الذي كان يأتي إلى موسى**"، والناموس هو الرجل الطيب وصاحب الوحي والأخبار الحسنة، بمعنى: لا تخشى أن يكون شيطانًا، ثم قال له: "يا ليتني أكون حيًا حين يُخرجُك قومُك، قال: أو مُخرجيَّ هم؟ قال: ما أتى أحدٌ بمثل ما أتيت به إلا أُوذي"، فنبّهه إلى أن القوم لن يقبلوا دعوته وأنهم سيُؤذونه وسيُخرجونه من مكة، وتمنّى ورقة أن يكون حيًا؛ فينصرَه، ثم مات ورقة بعدها بفترة قليلة، ولذلك من كتب في تراجم الصحابة[1]، ذكر ورقة بن نوفل من ضمن الصحابة الذين آمنوا برسول الله ﷺ.!!

(١) ينظر: أسد الغابة لابن الأثير، ط العلمية (٥/ ٤١٦).

فالآيات الخمس التي أُوحيَ بها إلى رسول الله ﷺ، في بداية الوحي لها ميزة خاصة، فاختار الله سبحانه وتعالى أن يكون أول ما يقرع سمع رسول الله ﷺ من الوحي هو كلمة: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وهي دليل على أهمية العلم في هذا الدين، وفي هذه الرسالة، بل ودليل على أهمية العلم في الحياة كلها، وبيان خطورة الجهل.!

والمقصد الأعظم للسورة، هو: بيان كمال الإنسان بالعلم والوحي الباعث على تعلق العبد بربه وخضوعه له، ونقصه بمخالفة ذلك، فلذلك كان أول ما نزل الأمر بالقراءة، والقراءة لا تكون إلا بالكتابة، والقلم، **هو كما قيل**(١):

العلمُ صيدٌ والكتابةُ قيدُه قيّد صُيودَك بالحبال الواثقة

فمن الحماقة أن تصيد غزالةً وتتركها بين الخلائق طالقة

ومع أن الحفظ له قيمة ومُهمة، لكن أيضًا لا بد من تدوين العلم وكتابته؛ ولذلك أمر النبي ﷺ بكتابة القرآن في الصحف(٢)، ثم تم جمعُ القرآن وتوثيقُه في المصاحف، ثم أذن بعد ذلك لأصحابِه أن يكتبوا عنه الحديث، فكان ثمرة ذلك أن دُوِّنت الكتب، وحفظ العلم بالقراءة والكتابة والتدوين.!!

قول الله سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾، **الخطاب موجّه لمحمدٍ** ﷺ، والباء هنا للاستعانة **أي:** استعن باسمه العظيم الكريم، وعبّر هنا بالرب ولم يُعبر بالذات الإلهية التي هي الله مع أنه الاسم العلم على الذات الإلهية، ليُشعِر المُخاطَب بأن الذي تقرأ باسمه هو الذي ربّاك، وهو الذي أحسن إليك، فالربُ

(١) تُنسب للإمام الشافعي، وتُنسب لسحنون وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٤/ ٢٤)، برقم (٢٨٣١).

هنا بمعنى السيد الذي تحتاجُه الخلائق ثم وصفه بأنه هو الذي خلَقَ وأوجد الخلق، وهذا يُسميه العلماء بالاستدلال بتوحيد الربوبية على الألوهية؛ لأن الأُلوهية كان المشركون لا يعترفون بها، فأخبرهم بالشيء الذي يعرفونه، وهذا أيضًا وسيلة من وسائل الحوار والنقاش والتفاوض مع الذي يُخالفك، أن تبدأ معه من نقاط الاتفاق؛ حتى يقترب منك أكثر، وحتى تُقنعَه أكثر، وأطلق لفظ الخلق ولم يقيده ليشمل كل المخلوقات في هذا الكون.

ثم فصل في خلق الإنسان فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾، الإنسان اسمُ جنس، والمقصود به هنا المرحلة الثانية من خلق الإنسان، فإن المرحلة الأولى من خلق الإنسان كانت من طين، فإن الله خلق آدم من طين، ونفخ فيه الروح فصار آدم إنسانًا، ثم بعد ذلك صار الخلق من ذريته يتناسلون بهذه الطريقة، والعَلَق هنا جمع علقة، والعلقة مُضغةٌ من الدم الرطبة، وسُمِّيت علقة لأنها تعلق في جدار رحم المرأة[1] عند التكوين، وأشار إلى العلقة هنا لأنها في الحقيقة مُستقذرة عند الناس من حيث شكلها وهيئتها وما تحتويه من دم متجمد، وهذا كله إشارة إلى ما سيأتي في المقطع الثاني من السورة من حصول التكبر والتجبر والاستعلاء والاستغناء عند بعض الناس، فالله تعالى يُشير إلى هذه العلقة بهذا الأُسلوب حتى يُذكّر الإنسان بأصلِه الذي خُلق منه، فلماذا التكبُّر والاستغناء والطغيان.

ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾، كرر عليه الأمر بالقراءة، ففي الأولى قال له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، وهنا قال له: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ فالواو مع ما بعدها في

(١) ينظر: تفسير الماوردي = النكت والعيون (٦/ ٣٠٤).

محل نصب حال[1]، أي: اقرأ فإن الذي منحك القراءة وأعطاك الوحي، هو ربك الأكرم، فاطلب أنت العلم، فمانحُه الكريم.

وقوله: الأكرم، صيغة تفضيل لمعنى المبالغة، وأتى هنا بهذه الصيغة ليُشعر السامع أنه يمنح ويُعطي من طلبَه، وأنك ستتعرض لكرمه؛ كلما قرأت كتابَه، وكلما أقبلت عليه، وتدبّرت في آياتِه، وأن الله سيكون معك كريمًا في ذلك كله، وهذا على خلاف صفة البشر، الذين كلما اقتربت منهم، وأكثرت عليهم سقطت من أعينهم، حتى قيل: كثرت الخلطة تُذهب الأُلفة، أما الله سبحانه وتعالى الخالق العظيم، فكلما زدت في قراءة كتابه، كلما وفقك للفهم والاستنباط، ومنحك درر هذا الكتاب العظيم.!!

ثم وصف نفسَه جلّ وعلا بقوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾، الذي علّم بالقلم، فذكر وسيلة التعليم وهي القلم، وهي عام لكل البشر، لكن بعض الخلق ممن يصطفيهم الله ويمنحهم من فضله وكرمه، فلهم وسيلة أخرى للعلم، وهو العِلم اللدُنّي، كما قال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾[الكهف:٦٥]، فمحمد ﷺ، لم يقرأ ولم يكتب، لكنه صار أعلم أهل الأرض بالله وبكتابه وشرعه، فقد منحه من فضله، العلم اللدُّني، وهو علم يصل إلى الرسل مباشرةً من الله، خلافًا لبعض الصوفية الذين يقولون: نحن ممكن نحصل عليه من خلال الرياضة والسلوك، حتى أنهم يستهزئون ببعض المُحدّثين، ويقولون لهم: أنتم تقولون: حدّثنا فلان عن فلان، ميّت عن ميّت، ونحن نقول: حدّثني قلبي عن ربي، مباشرةً!!، وهذا

(١) ينظر: مشكل إعراب القرآن لمكي (٢/ ٨٢٧).

فهم خاطئ، فالعلم اللدُنّي خاص بالرسل عليهم السلام، وغيرهم يجب أن يتعلم وأن يأخذه من خلال وسائل العلم ومنها: تعلم القراءة والكتابة.

ثم قال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، انظر حديثه عن الإنسان في الآية الثانية، وانظر إلى حديثه عن الإنسان في الآية الخامسة، فهناك قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ليُبين ضعف الإنسان، وحقارة أصله، وهنا قال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾؛ ليُبين مكانة الإنسان، وقيمته عند الله، فارتفاع هذا الإنسان بالعلم والتقوى، وأصل التنافس ليس العلقة، فالجميع خُلق منها، فإذا أردت أن تُنافس غيرك، فكُن أكثر منه علمًا، وأكثر منه عملًا صالحًا، كما قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] والتقوى لا تأتي من الجهل، وإنما تأتي من العلم والعمل به، وخاصة العلم الشرعي، فلا تتنافس مع الناس في أصلك، ولا في سُلالتك، ولا تتحدث عن النطفة التي خُلقت منها، ولا القبيلة التي تنتمي إليها، ولا شيء من هذا كله، فالناس سواسية، **كما في الحديث: "الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب"**(١)**، وقوله ﷺ، أيضًا: "لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى"**(٢)، فإن أردت التنافس فميدانه العلم والتقوى؛ لأن خلقك أمر قدري كوني، لا رأي لك فيه ولا إرادة ولا اختيار، في أن تكون أسود أو أبيض، عربيًا أو أعجميًا، طويلًا أو قصيرًا، فهذا كله ليس لك فيه إرادة أو اختيار، أما في العلم والعمل فلك إرادة واختيار، وهنا يصح أن تتنافس فيه مع غيرك، تقول له: أنا يمكن أن

(١) رواه الترمذي، ت بشار (٦/ ٢٢٨)، برقم: (٣٩٥٥)، وإسناده حسن.

(٢) رواه أحمد في مسنده، ط الرسالة (٣٨/ ٤٧٤)، برقم (٢٣٤٨٩)، وإسناده صحيح.

أسابقك في العلم، أسابقك في العبادة، أسابقك في الطاعة، أُسابقك في درجات الرُّقي، أسابقك في الاستقامة، فهذا لا حرج فيه!!.

وفي قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾، بيان لشيء من خصائص النفس البشرية، وهي: أنه يُولد جاهلًا، وأن الله سبحانه وتعالى أعطاه خاصية التعلم، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾[النحل:٧٨]. وهذه وسائل للتعلم، فهذا أيضًا من تكريم الله للإنسان، وقد كرّم آدم بالعلم، كما قال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ﴾[البقرة:٣١]، والحديث عن العلم والتصاقِه بكرامة الإنسان أمرٌ يطول، وله أقسام وأنواع كثيرة ليس هذا مكان تفصيله.

وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾، يبدأ المقطع الثاني من السورة بكلمة: ﴿كَلَّآ﴾ وهي كلمة لا توجد إلا في النصف الثاني من القرآن، من سورة الكهف فما دونها، **وهي بمعنى:** الردع والزجر، **أي:** ليس الأمر كما تتوقعون، وتأتي بمعنى: حقًا، وتأتي بمعنى هلَّا التي للتحبيب، ويختار المعنى المناسب له بحسب السياق، **وهنا:** ﴿كَلَّآ﴾ بمعنى: حقًا، والمعنى: إن من طبيعة الإنسان أن يطغى ويتجاوز حده، ويستكبر على ربه، فيكفر به، إذا رأى نفسه قد استغنت، وفي هذا تقرير لطبيعة النفس البشرية، وعادة مُلتصقة بها، وهي: أن الطغيان سببُه الغنى، لأنه قلّ أن تجد فقيرًا يطغى، وهذه هي المرة الثالثة في هذه السورة التي يذكر فيها الإنسان، **فقد ذكر الله الإنسان في المرة الأولى:** وهو في حالة الدم المتعلق بجدار الرحم، وهي مرحلة الضعف.

وفي الثانيـة: وهـو حالـة الرقـي والعلـم والاسـتقامة، وهـي مرحلـة العلـو الممدوح.

وفي الثالثة: وهو في مرحلة الكِبر والغطرسة والاستغناء عن الله، وهي مرحلة السقوط المذموم، وأنه متى ما وصل إلى مرحلة الاستغناء عن الله، سواءً بالمال أو بالجاه أو بالسلطان أو بغيرها، وظهر منه الطغيان؛ فقد صار مذمومـًا معرضـًا للعقاب!!، **فإذًا الآية الأولى:** تذكّر الإنسان بأصله، **والثانية:** تتحدث عـن العلـم، وهو وسيلة لتهذيب النفوس من الكبر والطغيان ورفع مكانتها، **والثالثة:** تتحدث عن المال والغنى، وهو وسيلة إلى الكبر والطغيان.

ثم وعظ الله هذا الإنسان الطاغي المستغني عن ربه، بكلمه قصيرة، فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾، يعني سترجع إلينا ونُحاسبُك على طغيانك، وهذا الأُسلوب فيه تهديد ووعيد وتخويف للطغاة، **والمعنى:** لن تفلت من عقابنا، كما قال: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾[الغاشية:٢٥-٢٦]، فانتبه!! أيها الإنسان الطاغي، سترجع إلى الله، وستترك المال والجاه والمنصب ومَن حولَك ممن أشعرك بقوتك؛ فأدى ذلك إلى طغيانك، فستتركهم فجأة، وترجع إلينا وحيدًا فريدًا ضعيفًا خائفًا، لسان حالك يقول: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾[الحاقة:٢٨-٢٩].

نعم، إنها موعظة قصيرة كافية لمن ألقى لها السمع، بقلب حاضر، ونستفيد منها أنه يُستحبُ للواعظ ألا يُكثر من الكلام في الموعظة، ولا يتشعب فيه؛ فإن الكلام الكثير يُلغي بعضُه بعضًا.!!

ثم تحدثت السورة في مقطعها الثالث عن وصف عملٍ قبيح، وهو أثر من آثار الطغيان والانحراف، **فقال الله :** ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾، فعند وصول الإنسان إلى مرحلة الاستغناء بما عنده من مال وأولاد وحشم وخدم وجاه وسلطان، فالأصل أن يستخدم ذلك في إحقاق الحق وإبطال الباطل، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا أن يستخدم ذلك في النهي عن الخير، فهذا دليل على انتكاس الفطرة، وعلامة على الطغيان!!، والمقصود بالعبد هنا هو محمد ﷺ، والمقصود بالشخص الذي نهاه، هو أبو جهل بن هشام، وكان يُكنى بأبي الحَكَم، فلما حصلت منه هذه التصرفات السيئة؛ لُقِّبَ بأبي جهل، فلا يصلح أن يكون أبا الحكم، فأبو الحكم لا بدّ أن يكون إنسانًا عاقلاً أفعالَه كلها حكيمة، وقد ورد أن النبي ﷺ، كان يُصلي حول الكعبة، فبلغ أبا جهل ذلك، فنهاه، وقال: لئن عاد إلى الصلاة مرةً أخرى لأطأنَّ عُنقه، وهو ساجد، فبلغ النبي ﷺ ذلك فذهب إلى الصلاة، فلما رآه من رآه أخبروا أبا جهل، فذهب أبو جهلٍ متوجهًا إلى رسول الله ﷺ، ليُنفذ وعده وتهديده؛ فما كاد أن يقترب منه إلا وهو يمُد يديه، ويصيح ويرجِع القهقرى، والناس ينظرون إليه، ويضحكون ويقولون له: لماذا تفعل هكذا؟ فقال: رأيتُ أهوالًا وخنادق من نار أمامي أو بيني وبينه، فقال النبي ﷺ: **"لو اقترب مني لأخذته الملائكة عيانًا"**[(١)]، فأنزل الله هذه الآيات وما بعدها، وقد جاء الخطاب فيها بأسلوب التعجب، **والمعنى:** كيف يُمكن لإنسان عاقل أن يذهب وينهى شخصًا يُصلي؟!، فهذا لا يليق ولا

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٥٤)، برقم (٣٨) بنحوه.

يستقيم، ويدل على جهله وسوء تصرفه، ولو ذهب ينهى سارقًا إذا سرق، فهذا عمل مقبول وغير مستغرب؛ لأنه نهي عن منكر، ولكن أن ينهى شخصًا يُصلي، فالصلاة لا تُؤذي أحدًا، بل سلوك شخصي يهذب أخلاق الناس، قد جاء الإسلام بالنهي عن التعرض لأهل الأدِيرَة والصوامع من عُباد النصارى وغيرهم، حتى ولو كانوا على ضلالة، فلا تمنع يهوديًا يُصلي في بيعته، أو نصرانيًا يُصلي في صومعته، ولا تؤذي أحدًا من العباد، حتى لو كانت عبادتُه غلط، ولكن انصحه برفق وبيّن له الحق بالحجة.!!

ثم قال: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾، أرأيت إن كان هذا الذي يُصلي على الهدى، فكيف يجوز منعه؟!!، **والمعنى**: ما الداعي أن يمنع من كان على الطريق المستقيم؟!!، وكيف يمنع من يأمر بالتقوى؟!!، والتقوى هي معالي الأمور والأخلاق والقِيَم، والمعنى: أن من العمل القبيح؛ أن تنهى الصالحين عن عمل الخير، أو أن تنهى من يعبد الله ويُصلي له، أو أن تنهى من يأمر بالتقوى ويدعو إليها، وهو أسلوب تهديد ووعيد وزجر ومنع لهذا الفعل القبيح وتشنيع لمن ينهى عن الصلاة، فكيف بمن يقتل المصلين؟!! لا شك ولا ريب أن عمله قبيح، وأن جرمه كبير وعذابه عند الله سبحانه وتعالى أليم!!

ثم قال: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾، والخطاب في الآيات السابقة كان لمحمد ﷺ، **والمعنى**: أرأيت يا محمد، حال أبي جهل، وهو ينهى المصلي ويمنعه عن صلاته وعبادته، وهو يدعو ويأمر بالتقوى، أرأيت إن كذّب هذا الناهي بما جاء عن الله ورسوله، فأعرض عن دينه وكفر ولم يؤمن به، ثم هدده بقوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ

﴿ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾، **أي:** ألا يخشى هذا الإنسان من الله، وهذه الآية يجب أن تكون موعظة مُطلقة، تُحفظ في ذهن كل إنسانٍ حتى يصدُق في عبادته واستقامته مع الله، فكلما حدثته نفسُه أن تنحرف، قرأ عليها هذه الآية وقال لها: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾، ولو تذكّرنا هذه الآية في كل أحوالنا، سواءً كانت صالحة أو طالحة؛ لأثرت فينا، ففي الصلاح سنزداد إخلاصًا وتعبُدًا وتألُهًا وقربًا من الله، وعند المخالفة سنزداد خوفًا وابتعادًا عن فعل ما يقبُح بنا؛ لأننا نستحضر عظمة الله ورؤيته لنا، ولذلك كان الإحسان أعلى مراتب الدين وهو: **"أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"**[(١)]، لقد قالت امرأةٌ لأمها هذا الكلام، وهي تأمرها بالغش، فقد نهى عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يُخلط الماء باللبن، حتى لا يكون نوعًا من الغِش، فمر ذات يومٍ فسمعَ امرأةً وهي تقول لابنتها: اخلطي اللبن بالماء، فقالت: إن عمر قد نهى عن ذلك، قالت: فأين عمر الآن؟ قالت: فإن رب عمر يرى[(٢)]، انظر إلى الرقابة الذاتية، عند هذه البنت، فهذه ثمرة من ثمار الإيمان بأن الله يرى، ولو تقرأ في قصص التائبين المنيبين الراجعين إلى الله، لوجدت أن كثيرًا منهم تاب وأناب إلى الله حينما سمع مثل هذه الموعظة، كما جاء في قصة الثلاثة الذين حبسوا في الغار، فإن أحدهم قالت له ابنة عمه عندما أراد أن يفجر بها: **"اتق الله، ولا تفُض الخاتم إلا بحقه"!!**[(٣)]، فتركها وقام عنها، وآخر اختلى بامرأة ليفجر بها: فقالت: هل هناك من يرانا؟ قال: لا يرانا أحد إلا هذا الكوكب

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١١٥)، برقم (٤٧٧٧).

(٢) ينظر: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس (٢/ ٣١٥-٣١٦).

(٣) رواه البخاري (٣/ ٧٩)، برقم (٢٢١٥).

الذي في السماء، فقالت له: فأين مُكوكبُها[١]، وخالقُها ومُوجدُها، فارتجف وتركها؟!!، وهنا يأتي تأثير هذه الآية في النفس؛ فاجعلوها نصب أعينكم وإن شاء الله ستجدون أثرها في أنفسكم، في استقامتكم، وفي بُعدكم عن المُحرمات والمُلهيات، خاصةً في هذا العصر الذي من السهولة بمكان أن تُتابع فيه كل المحرمات على هاتفك في مكانٍ خالٍ لا يعلم بك إلا الله سبحانه وتعالى.!!

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾، فهذا الذي ينهى عبدًا إذا صلى، وكذّب وتولى، وليس عنده إحساس بعظمة الله، وأنه يراه ويُراقبُه، إذا لم ينته عن هذه الأفعال القبيحة؛ لنأخذنه بشدة من ناصيته، فالسفعُ: هو أخذ الشيء بقوة وبشدة[٢].

والناصية هي مُقدمة الرأس، ثم وصف هذه الناصية بقوله: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾، فناصيته كاذبة، والمقصود صاحبُها، فهو كذاب مُخطئ، متجاوز للحدود، وفي هذا إعجاز علمي؛ فقد اكتشف الطب الحديث أن الناصية وهي الفَص الأمامي من المخ، هو المسؤول عن الصدق والكذب لدى الإنسان، وهو مكان التخطيط للخير أو الشر، وأن أبا جهل لم يمتنع عن أذية محمد بل استمر في التحريض والتفكير في ذلك، حتى خرج إلى بدرٍ يُقاتل رسول الله ﷺ، فقُتل في بدر، فسقط مُضرَجًا بدمائه، وقتله معاذ ومُعوِّذ ابنا عفراء بمُساعدة ابن مسعود وحزّ رأسه ابنُ مسعود، فقال له: يا رويعي الغنم، لقد ارتقيت مُرتقًا صعبًا[٣]، ثم

---

(١) ينظر: شعب الإيمان (٢/ ٢٦٥).

(٢) ينظر: جمهرة اللغة (٢/ ٨٣٩).

(٣) ينظر: الروايات المتعارضة في غزوة بدر جمعـًا وتوثيقـًا (ص: ٣٩)، وإسناده حسن.

لما انتهى القتال أُمر بقتلى بدر فأُخذوا إلى القليب، وهو البئر الذي لا ماء فيها، فأُخذ أبو جهل برأسه، وشُد من ناصيته إلى القليب!!، قال بعضُ أهل العلم: إنما ذكر الله ناصيته هنا؛ لأنه كان حريصًا كل الحرص على مشطِها وتدهينِها وتُجمُله بها، فجاءه العذاب والنكال من المكان الذي اعتنى به.!!

ثم قال الله سبحانه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾، فقد جاء عن أبي جهل أنه لما انتهر محمدًا، وهو يصلي، قال له: إن لم تبتعد عن هذه الصلاة وتتركها؛ لآتيك بأصحابي ومن معي في النادي يمنعونك منها[1]، **والسياق يقول:** إن هذا الرجل لن ينفعه ناديَه في حالة أن تم سَفْعُه وضربه وأخذه في الدنيا أو في الآخرة، والنادي هو المكان الذي يجتمع فيه الناس، ولا يُسمى ناديًا حتى يكون فيه بشر[2].

فـ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾، **والزبانية** هم الملائكة الغِلاظُ الشداد، وسُموا زبانية لما يفعلونه من زبنٍ في الشخص، والزبن هو اللكم والضرب[3]، فهؤلاء زبانية العذاب من الملائكة الذين هدّد الله أبا جهل بهم.

ثم قال الله لرسوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾، **أي:** لا تُصدقه فيما يقول، ولا تمتنع عن صلاتك، بل استمر عليها، فإنك كلما استمريت في السجود والصلاة، كلما اقتربت من الله سبحانه وتعالى، وهذا الخطاب، وإن كان لرسول الله ﷺ، فهو خطابٌ لكل من أراد أن يقترب من الله في كل زمانٍ ومكان، فمن

---

(١) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/ ٤٤٤)، برقم (٣٣٤٩)، بنحوه، وقال الألباني: صحيح الإسناد.

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢٥٠٥).

(٣) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٥/ ٢١٣٠).

يريد أن يقترب من الله أكثر؛ فعليه بالصلاة وكثرة السجود، **وجاء في الحديث:** **"أقرب ما يكون العبد من الرب وهو ساجد"**[(١)]، **وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ** يطلب منه أن يكون رفيقه في الجنة، فقال له: **"أعني على نفسك بكثرة السجود"**[(٢)]، **والمقصود بالسجود** هو الصلاة؛ لأن أعظم شيء في الصلاة هو السجود، فأكثر من الصلوات، وأكثر من النوافل، وحافظ على الفرائض، وأكثر من إطالة السجود، ولا تنقر السجدة كنقر الغراب، فلا بد أن تسجد سجودًا فيه معنى الخضوع والذل والاستكانة بين يدي الله، فإن فعلت ذلك وأكثرت من التسبيح فيه، اقتربت من الله، وكلما اقتربت من الله، كلما كان الله مدافعًا عنك، ووليًا لك يرد عنك كيد الكائدين وحقد الحاقدين.

فوائد وهدايات من السورة:

١- كان أول ما قرع سمع رسول الله ﷺ من الوحي هو كلمة: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وهذا يدل على أهمية العلم في هذا الدين، وفي هذه الرسالة، بل ويدل على أهمية العلم في الحياة كلها، وبيان خطورة الجهل.!

٢- أن ارتفاع هذا الإنسان يكون بالعلم والتقوى، وأن أصل التنافس هو العلم والتقوى، وليس هو العلقة، فالجميع خُلق منها، فإذا أردت أن تُنافس غيرك، فكُن أكثر منه علمًا، وأكثر منه عملًا صالحا.!

---

(١) رواه النسائي (٢/ ٢٢٦)، برقم (١١٣٧)، **وقال الألباني:** صحيح.

(٢) رواه أبو داود (٢/ ٣٥)، برقم (١٣٢٠)، **وقال الألباني:** صحيح، والرجل هو ربيعة بن كعبٍ الأسلمي.

٣- أن من طبيعة الإنسان أن يطغى ويتجاوز حده، ويستكبر على ربه، فيكفر به إذا رأى نفسه قد استغنت عن غيره.!!

٤- أن من العمل القبيح؛ أن تنهى الصالحين عن عمل الخير، أو أن تنهى من يعبد الله ويُصلي له، أو أن تنهى من يأمر بالتقوى ويدعو إليها.!

٥- أن من أراد أن يقترب من الله كثيرًا في كل زمانٍ ومكان؛ فعليه بكثرة الصلاة، وكثرة السجود.!

تفسير سورة القَدْر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

شخصية السورة:

سورة القدر؛ سورة مكية في قول الجمهور[(١)]، **وبعضُهم قال**: إنها مدنية[(٢)]، وآياتُها خمس آيات، وترتيبُها في المُصحف سبعٌ وتسعون، **والمقصد الأسمى والأعلى للسورة، هو** إنزال القرآن، في ليلة هي أعظم الليالي على الإطلاق[(٣)].

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾، **النون** هنا نون العظَمة، **أي**: أن الله سبحانه وتعالى، عظَّم نفسَه ونسب الإنزال إليه، وليست هي نون الجمع، فإن الله واحدٌ فردٌ صمدٌ، والضمير يقصد به القرآن الكريم، وقد كان شُغلُ أهل مكة الشاغل لهم، فبين الله أنه هو الذي أنزله، وليس من قول محمد، كما تزعمون.

---

(١) ينظر: تفسير الماوردي = النكت والعيون (٦/ ٣١١).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٦٩).

(٣) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٧٨٠).

وقولُه: ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾، **أي:** أن الله سبحانه وتعالى، اختار ليلة من ليالي السنة ذاتِ قدرٍ وشرفٍ وعظمةٍ، لتكون ظرفًا لنزول القرآن فيها، **وهذا النزول على نوعين:**

الأول: أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم جُملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، كما رُوي ذلك عن ابن عباس(١)، ثم بعد ذلك كان ينزل على قلب رسول الله ﷺ مُنجّمًا **أي:** مُفرقًا حسب الأوقات والأحداث، واستمر نُزولُه ثلاثًا وعشرين عامًا.

الثاني: ابتداء نزولِه على رسول الله ﷺ في ليلة القدر في شهر رمضان، وكان أول ما نزل منه هي الخمس الآيات الأول من سورة العلق، كما مر معنا، فكانت أول آيات تصِل الأرض بالسماء من هذا القرآن العظيم، وكانت في ليلة ذات شرف ومكانة وقدرٍ عند الله.

فيكون المعنى: أنزلناه جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وابتدأنا إنزاله على قلب رسول الله ﷺ في ليلة القدر، وهذا يتوافق مع قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[البقرة:١٨٥]، وليلة القدر لا تكون إلا في شهر رمضان، ثم بعد ذلك نزل مُنجمًا على قلب رسول الله ﷺ على الأحداث والوقائع.

وقولُه: ﴿فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾، اختلف في سبب تسميتها بليلة القدر، **فقيل:** من

---

(١) ينظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٢٤٢)، برقم (٢٨٧٩)، **وقال الذهبي:** صحيح.

الشرف والعظَمة(١)، **وقيل**: سُميت بهذا الاسم من التقدير، وأن الله بهذه الليلة يُقدّر أعمال السنة كاملة، فتكون هذه الليلة هي الليلة التي تُقدّر فيها أعمال السنة من الأرزاق والأقوات والأمراض والأحياء والأموات المولودين والمعدومين وغيرهم(٢)، **وقيل**: أن ليلة القدر سُميت بهذا الاسم من التقدير، ومعناه التضييق، كما في قوله: ﴿قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾[الطلاق:٧] **أي**: ضُيِّق عليه رزقُه، قالوا: أن الأرض تضيق بالخلق بسبب كثرة الملائكة النازلين في هذه الليلة(٣)، كما سيأتي في آخر السورة.

وعلى كل الأحوال لا مانع من أن تكون المعاني كلها واردة، وإن كان الأول هو أرجح وأولى، فإن القدر هنا بمعنى الشرف والعظمة والمكانة، وهذا أليق بالقرآن، فإن الله اختار له أفضل الأوقات لنزوله، واختار له أفضل الأشخاص لحمله وإبلاغه، وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو أفضل الملائكة، واختار له أفضل الأنبياء والرسل، لينزل على قلبه، وهو محمد ﷺ، وهو أفضل البشر، واختار له من الأشهر، شهر رمضان وهو أفضل الشهور، واختار من الليالي ليلة القدر، وهي أفضل الليالي، واختار له من الأمم، أمة محمد ﷺ، فهذا فضل الله وكرمه، ولفظ الإنزال يدل على أن القرآن كلام الله، وأنه صفة من صفاته، وما يُقال في صفات الله من العظمة والكمال، خلافاً للمعتزلة الذين يقولون: إن

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٠٥).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ١٨١).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٦٩).

القرآن مخلوق مثل غيره من المخلوقات، فلا بد من أن يعطى القرآن المكانة اللائقة به من التقديس والتعظيم والتنزيه، فلا يمس إلا على طهارة، ولا يدخل به الأماكن النجسة، وغير ذلك من الأحكام التي تدل على تعظيم القرآن، كما يلزم من قولهم: إنه مخلوق، أن يعتريه ما يعتري المخلوقين من النقص، وهذه تهمة خطيرة جدًا؛ ولذلك لا تستغرب أن تسمع من بعض الفرق المُنحرفة من يقول: إن القرآن ناقص، أو القرآن مُحرّف، والسبب يعود إلى مُعتقدهم في القرآن، وأنه مخلوق.!!

ثم قال الله تعظيمًا وتفخيمًا لهذه الليلة: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢﴾، وهذا أسلوب من أساليب البلاغة عند العرب، إذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يُعظم الشيء عند السامع يذكر له الشيء ثم يقول له: ما أدراك، ما هو كما، قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢﴾[الطارق:١-٢]، ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢﴾ [الحاقة:١-٢]، ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣﴾[القارعة:١-٣]، **والمعنى**: هل تدري أيها النبي الكريم ماذا في ليلة القدر من الفضائل والمكانة والشرف؟!، فيبقى السامع منتظرًا ثمار هذا التعظيم.

ثم بدأ يُفصلُ مكانة ليلة القدر وما فيها من الخير والبركة والخصائص والفضائل، فقال: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾، فهذه أول فضيلة وخِصيصة لليلة القدر، طبعًا وردت بعضُ الأحاديث والآثار الضعيفة في سبب نزول هذه السورة، وليس بالضرورة أن يكون لكل سورة سبب نزول، أو لكل آية سبب نزول، بعض السور والآيات لها سبب نزول، والأكثر نزل ابتداءً بدون سبب نزول،

ومما قيل ويُمكن أن يكون هذا في التفسير العام، وليس سببًا للنزول: أن النبي ﷺ نظر في أعمار أمته، **وهو القائل** ﷺ: **"أعمار أمتي بين الستين والسبعين وقليل من يُجاوز"**(١)، فإذا كانت أعمار الأمة التي بُعث فيها ستين وسبعين سنة، فمهما تعبّد المتعبد، وأطاع الطائع، فما هي بالنسبة لأعمار قوم نوح، فقد كان الواحد منهم يعمّر ألف سنة، فلما نظر النبي ﷺ في ذلك، فكأنه تحسّر على أمته، فأعطاه الله ليلة القدر خيرا من ألف شهر(٢) **وهذه الخصيصة** التي لا تُساويها خِصّيصة، فعبادة في هذه الليلة تُساوي عبادة ثلاثة وثمانين سنة من ليالٍ ليست فيها ليلة القدر، فتخيّل معي الآن أنك تبلغ وعمرك خمسة عشر، وتعيش إلى سن خمسة وستين سنة، فيكون معك خمسون عامًا بعد التكليف، فاضربها في ثلاثٍ وثمانين سنة، يطلع المجموع: أربعة آلاف ومائة وخمسون سنة، فهذا فضل ليلة القدر إذا أدركتها كل سنة خلال خمسين سنة من عمرك، فكيف لو طال عمرك أكثر؟!!، فهذا تعويض لقلة العمر في هذه الأمة، وهذا من فضل الله وكرمه على عباده.

وهذه ليلة لا تكون إلا في شهر رمضان على القول الراجح من أقوال أهل العلم، وأنها تكون في العشر الأواخر منه، وعلى القول الراجح أنها تكون في ليالي الوِتر من العشر الأواخر من رمضان، **فبعضهم قال**: ليلة سبعٍ وعشرين، **وبعضهم قال**: ليلة واحد وعشرين، وبعضهم قال غيرها، والراجح أنها تتنقل بين

(١) رواه الترمذي، ت: شاكر (٥/ ٥٥٣)، برقم (٣٥٥٠)، وقال الألباني: حسن.

(٢) رواه مالك في الموطأ برواية الزهري برقم (٨٨٩) بلاغا، وانظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٤٥).

ليالي الوتر من سنة إلى أخرى، فمرة تكون ليلة واحد وعشرين ومرة ليلة ثلاثة وعشرين، وهكذا...، وهذه الليلة العظيمة القدر، أخفى الله سبحانه وتعالى وقتها لكي يتنافس الناسُ في العشر كلها، إذْ لو قُدّر لهم متى موعدُها بالضبط، لاشتغلوا في تلك الليلة، وضيّعوا العبادة في غيرها، فأخفاها الله سبحانه وتعالى لهذه العلة، وبعض العلماء يرى أنها تتنقّل في رمضان كله، وهو قول غريب، وأغرب منه من قال أنها تتنقل بين أيام السنة كلها؛ لأن النصوص الصحيحة دلّت على أنها في رمضان، وأنها في العشر الأواخر، وأنها في الوتر منها، وفي فضلها قال ﷺ: **"من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه"**[(١)].

ثم ذكر الأمر الثاني من خصائصها وصفاتها ومميزاتها، فقال: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾، **أي:** أن الملائكة تتنزل في هذه الليلة من السماء إلى الأرض، والتنزّل معناه النزول الذي يكون معه ارتفاع؛ لأن القول بنزولهم وبقائهم، فإن الأرض لا تسعُهم، فالسماء مع كبر حجمها وسعتها، وهي سبع سموات وحجم الأرض بالنسبة إلى السماء لا شيء، **ومع ذلك قال النبي** ﷺ: **"ما في موضع شبر في السماء إلا وفيه ملك راكع أو ساجد"**[(٢)]، وهذا يعني أنه ينزل عدد ضخم جدًا من الملائكة في تلك الليلة، **وقد سبق أن قلنا:** أن أحد معاني القدر: الضيق، **أي:** تضيق الأرض من كثرة نزول الملائكة، أو نقول أن المقصود بالملائكة هنا ليس كل الملائكة وإنما عدد مُعين ومُحدد من الملائكة، فقال بعضهم: هم

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٦)، برقم (١٩٠١).

(٢) رواه الترمذي ت شاكر (٤/ ٥٥٦)، برقم (٢٣١٢)، **وقال الألباني:** حسن دون قوله لوددت.

عظماء الملائكة وكبارهم، ومنهم الروح الأمين جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، في أصح أقوال المُفسرين، كما في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾[الشعراء:١٩٣]، وأفرد مع أنه من الملائكة تعظيمًا لشأنه، فكأنه في شِق والملائكة في شق آخر، فهؤلاء من يأذن الله سبحانه وتعالى لهم أن ينزلوا في هذه الليلة المباركة إلى الأرض.

وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ **بمعنى** أنه لا ينزل ملك من السماء إلى الأرض إلا بإذن الله سبحانه وتعالى، وفي هذا إشارةٌ إلى طاعة الملائكة وانضباطهم الكبير، وأنه لا يتحرك أحد منهم إلا بعد أن يستأذن ربه، وفيه إشارة أيضًا إلى عظَمة الله جلّ وعلا في نفوسهم، فمع عِظم خلق هذه الملائكة إلا أنها تُعظّم ربها وتخاف من مُخالفته، كما قال: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:٦]، فإذا حصل لهم الإذن من الله نزلوا، وقد يأذن الله لعدد معين من الملائكة فقط.

وقوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ إذا قلنا: أن ﴿مِّن﴾، بمعنى الباء **أي**: تتنزل الملائكة بكل أمر، فيكون نزول الملائكة بأوامر وأحكام متنوعة من اللوح المحفوظ إلى الأرض، فتكون هذه الأوامر هي تقديرات السنة، حيث تأخذها بإذن الله من اللوح المحفوظ، مثل: سيُولد كذا ويموت كذا، ويرتفع فلان، ويسقُط فُلان، ويصير كذا من الأمطار والزراعة والخير، وكذا من المصائب والابتلاءات، ونحوها، ولذلك يُستحب أن يدعو الإنسان في تلك الليالي، فيقول: اللهم ما أنزلت في هذه الليلة المباركة من رزقٍ وخيرٍ وصحةٍ وسلامةٍ وسعة رزقٍ؛ فاجعل لنا منه أوفر الحظ والنصيب، وما أنزلت فيها من شر وبلاء وفتنة؛ فاصرفه عنا وعن المسلمين، أو تكون ﴿مِّن﴾، بمعنى لام التعليل، **أي**: لكل أمر

أُمرت بإنزاله، فتنزل من أجل الأمر الذي أُمرت به وهو القدَر، وهو التقدير السنوي، وهو قريب من المعنى السابق، **وقيل**: إذا وقفت على قوله: ﴿رَبِّهِم﴾، ثم تستأنف فتقول: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ﴾، **فيكون المعنى**: أن الملائكة تنزل بكل شيءٍ فيه سلام في تلك الليلة[1]، والأول أرجح.

ثم ذكر الأمر الثالث من خصائصها وصفاتها ومميزاتها، فقال: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾، **وفي معنى**: ﴿سَلَٰمٌ﴾، **قولان**: **الأول**: أن الملائكة تسلّم على الخلق في تلك الليلة، وبسلامهم على الخلق، تحصل لهم السلامة من الشر؛ لأنه دعاء ودعاؤهم مستجاب، لأنه بسبب سلام الملائكة المباشر على إبراهيم الخليل، حفظ الله جسدَه من نار النمرود، كما في قوله: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾[الذاريات:٢٥]؛ لأن الملائكة دعاؤهم مُستجاب[2].

قلت: الذي يظهر أن تسليم الملائكة عليه كان بعد نجاته من النار بفترة وليس قبلها، وأن نجاته كان بأمر الله للنار أن تكون سلامًا عليه، كما في قوله: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾[الأنبياء:٦٩]، ومع هذا فتسليم الملائكة على الخلق في هذه الليلة المباركة، نعمة عظيمة لها آثارها في الأرض.

القول الثاني: أن هذه الليلة، ليلةٌ سالمة من المصائب الكونية القدرية[3]، وليست سالمة من المصائب التي هي بمعنى المعايب وهي الذنوب التي يفعلها

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٣٦).

(٢) ينظر: المرجع السابق.

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٣٦).

الخلق، مثل القتل والزنى وشرب الخمور والفساد، لأنه خلاف الواقع، فالناس يفسُدون في الأرض حتى في هذه الليلة، ولكن المقصود سلام من الزلازل والمصائب الكونية الأخرى، والراجح أن معنى السلام فيها أن تكون هذه الليلة سالمة لمن وُفق إليها، فيكون الإنسان قد حلّ به السلام إن وُفق إليها، فيسلم من العذاب، ويسلم من النار، ويسلم من سائر ما يخشى منه.

وقوله: ﴿هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾ **أي:** أن هذه الليلة ليلة مباركة، وسالمة، وفيها الخير كله، وتبدأ من غروب الشمس، وتنتهي مع طلوع الفجر.

فوائد وهدايات من السورة:

١- أن القدر والشرف إنما يلتصقُ بالخير والفضل والعمل الصالح، فإن أردت شرفًا ومكانةً وقدرًا عند الله فخذ بأسبابه، وأن الابتعاد عن طاعة الله والاستقامة على هديه يجعل الإنسان لا قيمة له عند الله، بل يكون من أشر المخلوقات.

٢- أن السلام؛ هو أن تسلم من الشرك والشكوك والنفاق، فالسلام هو الإسلام، وهو كمال الخضوع والطاعة لأمر الله سبحانه وتعالى، فمن أراد السلام، فليُسلم لله، وليخضع له، ولا يتمرد على الله ولا يكفر به فمن فعل ذلك فهو مُحارب لله تعالى.

٣- أن القرآن الكريم نزل ليُشعِر البشرية والعالم كله، أنه دين السلام، دين المحبة، دين الإخاء، إذا عرف كل واحد ما له وما عليه، فالحياة حقوق

وواجبات، فخذ ما لك، واعط ما عليك، وستعيش بسلام، وستعيش الأمة بسلام، وسيعيش العالم كله بسلام.

٤- أن الحروب التي قامت في الأرض أتت من البغي والعدوان والظلم، ولذلك صارت حياتُهم حياةً تعيسة مليئة بالقتال والحروب وسفك الدماء ولو أن كل إنسان أخذ حقه وأعطى ما عليه لما تقاتل الناس، ولعاشوا في سلام وأمن ووئام وراحةٍ وسعادة في الدنيا.

تفسير سورة البينة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾
رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا
مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ
جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ
هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ
ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة البينة: الجمهور على أنها مدنية[(١)]، **ومقصدها العام**: بيانُ كمال رسالة محمدٍ ﷺ ووضوحها[(٢)]، وأنها ناسخة لما قبلها من الرسالات، وكتابُها الذي هو القرآن مُهيمنٌ على ما سبق من الكتب، ومُصدقٌ لما فيها من الأحكام الإجمالية قبل التحريف.

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٧٥).

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٥٩٨).

وسُميت بالبينة؛ لذكر هذا اللفظ فيها في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١﴾، وأطلق عليها بعض المُفسرين في كتبهم اسم (لم يكن)[(١)]، لورود ذلك في الحديث، **فقد ورد في فضلها وفضل أُبيّ بن كعب** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ حديثًا، أن النبي ﷺ، قال لأُبيّ بن كعب: "**أُمرت أن أقرأ عليك سورة لم يكن**"، قال أُبيّ: وسمَّاني؟! قال: "وسمَّاك"، فبكى أُبيّ[(٢)]!!، لماذا بكى أُبيّ؟ بكى إما فرحًا بهذه الخصيصة والمِيزة، بأن يُذكر في الملكوت الأعلى، ويُقال لرسول الله ﷺ: اقرأ هذه السورة على فلان من أُمتك، وإما بكى خشية ألا يقوم بالواجب مقابل هذه الفضيلة والخصيصة، **وفي قول أُبيّ**: وسمَّاني هو نوعٌ من الاستيثاق والاستفصال لرسول الله ﷺ؛ لاحتمال أن يكون اختيار النبي ﷺ لأُبيّ اجتهادي، كأن يقول الله له: اقرأ هذه السورة على أحدٍ من أصحابك، فيختار من يُريد، فكان ممن اختارهم النبي ﷺ أُبيًّا، فأُبيّ يُريد أن ينظر هل هذا اختيار من النبي ﷺ أو اختيار من الله، فلما قال له: وسماني؟! فقال له: "نعم"؛ فبكى أُبي، والراجح بحسب سياق القصة أنه بكى فرحًا، كما حصل لأبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، لما أُذن للنبي ﷺ بالهجرة، واختاره صاحبًا له فيها، قالت عائشة: فبكى أبو بكر من الفرح[(٣)].!!

قال الله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ ذكر

---

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٥٣٧)

(٢) رواه البخاري (٥/ ٣٦)، برقم (٣٨٠٩)، بنحوه.

(٣) ينظر: أسد الغابة ط العلمية (٣/ ٣١٥).

الله هنا أصناف الذين كفروا، وحصرهم في صنفين، **وهم**: صنف أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، الذين أرسل الله إليهم رُسلاً، وأنزل عليهم كُتباً، فالتوراة لليهود، والإنجيل للنصارى، ولكنهم حرّفوها، وصنف المشركين وهم الذين لا كتاب لهم ولا رسول، وكانوا يعبدون الأصنام، ويدخل في ذلك عبَدة النار من المجوس والبوذية وغيرها من أديان الهند الكبرى، فهؤلاء كلهم في صنف المشركين، فبيّن سبحانه أن هؤلاء جميعًا باقون على الكفر غير تاركين له، أو غير تاركين ومُفارقين لدينهم، حتى ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ **أي**: يأتيهم البرهان الواضح، والحجة الواضحة، ثم بيّن الله ما هي البيّنة، فقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فالرسول هو البيّنة، وكان الناس في جزيرة العرب ومَن حولها في تلك المرحلة ينتظرون متى يُبعث هذا الرسول الخاتم، لوجود عدد من البشارات والأمارات في الكُتب السابقة التي تدل على قرب بعثته، والمقصود به محمد ﷺ، وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، بيان أن الله هو المرسل له، ولا يكون الرسول رسولًا إلا إذا أرسله الله، والمُرسِل هنا ليس اسمًا من أسماء الله، وإنما يجوز لنا أن نُخبِر عن فعل الله، فهذا من باب الخبر عن الله، وأنه المُرسِل الذي أرسل الرُسل.

ثم بيّن لنا صفة هذا الرسول، فقال: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾، فقد جاء بمعجزة عظيمة خالدة لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بمثلها، وهي القرآن، وسمّاه صُحُفًا؛ لأن القرآن كان في عهد النبي ﷺ يُكتب في صُحف، فلما تُوفي جُمع القرآن الجمع الأول في عهد أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من الصحف إلى مصاحف، ثم جاء عثمان

رضي الله عنه فجمع المصاحف في مُصحف واحد، ويُسمى المصحف بالرسم العثماني الذي نقرأ فيه اليوم.

وهذه الصُحف التي كُتب فيها القرآن، يلزم أن تكون طاهرة، كما يلزم تطهيرها بعد كتابة القرآن فيها من كل ما لا يليق به، فصارت هذه الصحف محترمة ومقدسة، بسبب القرآن المكتوب فيها، وصار يطلق عليه بعد ذلك المُصحف، وله أحكام خاصة به، فلا يجوز أن يمسه المُحدِث حدثًا أكبر بالاتفاق، فلا يمسه جنبٌ ولا حائض ولا نُفساء، ولا يمسه مشرك ولا يهودي ولا نصراني ولا كافر، وكذلك يرى الجُمهور أنه لا يجوز للمحدث حدثًا أصغرًا مسه(١)، ولا تدخل به مكانًا نجسًا كالحمام ونحوه.

ولو تعمّد شخصٌ أن يدوسَه بقدمه على سبيل الإهانة؛ فإنه يكفر بهذا الفعل، من أجل ذلك يطلب الساحر ممن يتعلم السحر عنده أن يهين القرآن، ولذلك تسمعون عن بعض الحوادث التي يُكتشَف فيها مصاحف ملقاة في الحمامات أو في أماكن القاذورات أو عليها الأذى، فمن يفعل ذلك غالبًا هم السحرة، فالشياطين لا يمنحون الإنسان القدرة على تعلُم السحر حتى يضع القرآن في مكان النجاسة أو يتأذى عليه بالبول والغائط، والعياذ بالله.

ثم قال: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ **أي:** هذه الصحف فيها أخبارٌ وأحكامٌ مكتوبة وهي مستقيمة لا اعوجاج فيها، ولا ظلم، ولا كذب، ولا خلل.

---

(١) ينظر: المغني لابن قدامة (١/ ١٠٨).

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝٤﴾، ذكر هنا التفرق عند أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، وهل البيّنة هنا هي البيّنة في الآية الأولى؟! **فإذا قلنا:** إن البيّنة هنا هو محمد ﷺ، **فالمعنى:** وما تفرّق اليهود والنصارى إلا من بعد ما بعث الله نبيه محمدًا ﷺ، فمنهم من صدّقه وأسلم، ومنهم من كفر به وبقي على كفره مع علمه بصدق رسالته، فأدى ذلك إلى افتراقهم، وقد كانوا على دينٍ واحد هو اليهودية أو النصرانية، فبهذا حصل بينهم الافتراق.

وقد كان اليهود يستفتحون على العرب ببعثة نبي آخر الزمان، كما قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٨٩﴾[البقرة: ٨٩]، وكانوا يظنون أن يأتي من أبناء إسحاق، فلما جاء من أبناء إسماعيل، وجاء من العرب، وبُعث في مكة؛ حسدُوهم وكفروا به، وقالوا: كيف يأتي نبيٌّ من العرب!، وقد كانوا يعتبرون أن العرب أُمة من الدرجة الثانية، كما قال الله عنهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾[آل عمران:٧٥]، **يعني:** نأخذ أموالهم ونسبي نساءهم ونقتل من نقتل منهم.

ثم قال الله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، لم يأمر الله اليهود والنصارى والمُشركين والناس أجمعين إلا بعبادته، وما أمروا في القرآن إلا بما أُمروا به في التوراة والإنجيل وعلى لسان موسى وعيسى وسائر الأنبياء، وهو التوحيد.

وقوله: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، **الإخلاص:** هو نبذ الشرك والرياء، وإفراد الله

بالعبادة، فإن عبادة الله هي الدين الذي بُعث الأنبياء جميعُهم للدعوة إليه، كما قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[الروم:٣٠].

وقوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾ **الحنيف هو:** المائل عن الشرك إلى التوحيد، والحنيف الذي لا اعوجاج فيه[١]، ولا تعارض بين القولين في المعنى، **فإذا قلنا:** مائل، **أي:** مال من الشرك إلى التوحيد، **وإذا قلنا:** لا اعوجاج فيه، فالمقصود به الاستقامة المُطلقة، وهو السليم من الشرك، **وفي الحديث:** **"بُعثت بالحنيفية السمحة"**[٢]، **والمعنى:** الملة المستقيمة التي لا انحراف فيها، كما في قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[آل عمران: ٦٧]، **أي:** مستقيمًا مستسلمًا لا اعوجاج لديه ولا شرك.

وقوله: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هذا من ضمن ما أُمروا به، فقد أمروا بالإخلاص، وأُمروا بإقامة الصلاة، وأمروا بإيتاء الزكاة، **وهذه الثلاث القضايا، وهي** تمثل أصول دين القيّمة، **فالتوحيد:** اعتقادي، **وأداء الصلاة:** عملي بدني، **وإيتاء الزكاة:** عملي مالي، وباقي الفرائض تلحق بها، فالصوم بدني يلحق بالصلاة، والحج بدني مالي يلحقُ بالصلاة والزكاة، فكأنه جمع أركان الإسلام الخمسة.

ثم قال: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾، **ذلك:** إشارة إلى ما سبق من فرائض الدين القيّم الذي لا اعوجاج فيه أبدًا.

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٤/ ٧١).

(٢) رواه أحمد، ط الرسالة: (٤١/ ٣٤٩)، برقم (٢٤٨٥٥)، بنحوه عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا بسند حسن.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ هؤلاء الثلاثة الأصناف: يهود ونصارى ومشركون، أُمروا بعبادة الله، وأُرسل إليهم رسول بالبينة بالبرهان الواضح والحجة الكاملة، فأعرضوا ولم يُؤمنوا به، فعاقِبَتُهم وخيمة عند الله، فإنهم مُتوعّدون إن ماتوا على الكفر والشرك بنار جهنم خالدين فيها، **أي:** لا يخرجون منها بسبب كفرهم وشركهم، فإن الذي لا يخرج من النار ويُخلّد فيها هو الكافر المشرك الذي مات على كفره وشركه، بخلاف المؤمن العاصي وإن دخل النار بسبب كثرة معاصيه وسيئاته إلا أنه موعودٌ بالخروج من النار بعد أن يُؤدب ويُطهّر من معاصيه التي زادت على حسناته، ويخرج بشفاعة الشافعين.

ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦﴾، **أي:** هؤلاء الذين اختاروا طريق الكفر والشرك، وعبدوا غير الله، وماتوا على غير التوحيد، هم شرُ الخليقة، ولك أن تتخيّل أي حيوان قبيح وشرير، **مثل:** الخنزير والكلب والحمار والدود والحشرات، والأوساخ، والجُعل الذي ينبت من الغائط وأماكن النجاسات، فالكافر والمشرك الذي يموت على الكفر والشرك شرٌ من هذه الحيوانات؛ لأن الحيوان غير مُكلّف، والإنسان مُكلّف، قد أعطاه الله سمعًا وبصرًا وعقلًا، وأرسل إليه رسلاً، وأنزل إليه كُتبًا، حتى يدلوه على الحق والهدى، فأبى إلا الكفر والضلال، والعياذ بالله.

ثم بيّن الله مكانة المؤمنين العاملين للصالحات، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾، هم خيرُ الخليقة، فأراد الله تعالى أن يُرشِدنا

في هاتين الآيتين إلى ميزان الخيرية عنده، فليست الخيرية عند الله أن تكون جميلًا أو غنيًا أو كبيرًا متبوعًا، لك حَشَم وخدم وأنت تكفر بالله وتعصي أمره وتُخالف طريقته، فمهما كان جمالُك ومالك ومنصبك وغناك في الدنيا، ومهما التفتت إليك الأعناق والأبصار، وعظَّمتك القلوب المخلوقة حولك؛ بسبب هذه النعم التي منحك الله إياها، وأنت مصرٌّ على الكفر والشرك، فأنت أقبح مخلوق عند الله، وأشر مخلوق عند الله، سواءً قلنا: الخنزير، أو الحشرات والدود، أو الكلاب، أو سائر ما تتصوره من مخلوقات قبيحة، فمن كفر بالله وأشرك به فهو عند الله بهذه المنزلة، وأما من آمن بالله وأطاع أمره وعمل الصالحات؛ مهما كان فقيرًا أو ضعيفًا أو صورته غير جميلة، أو ليس عنده مال ولا نسب ولا حسب ولا منصب ولا جاه ولا سلطان، وعنده الإيمان والتقوى، فهو عند الله خيرُ الخليقة بنص القرآن، **فالبرية**: هي الخليقة، مأخوذة من برأ النسمة، **أي**: خلقها، **ومن هنا قال العلماء**: إن المؤمن الصالح التقي أفضل من الملائكة عمومًا بنص هذه الآية[1]، واختلفوا في جبريل وحَمَلة العرش، وبهذا المعيار يُعرف به من هم شر الخليقة، ومن هم خير الخليقة.!!

ثم بيّن الله تعالى حالهم في الآخرة، فقال: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، **أي**: ثوابُهم، وفي الصنف الأول، لم يقل: عند ربهم، مع أن الجنة والنار كلاهما عند الله، ولكن ذكرها هنا تكريمًا لهم، بمعنى أن لهم القرب والمكانة عند الله، وأولئك مُبعدون عن الله وعن رحمته والقرب منه، **وقال آخرون**: إن النار في أسفل

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٤٣٩).

سافلين، بينما الجنة في أعلى عليين[١]، والله تعالى في جهة العُلو، وسقفُ الجنة عرشُ الرحمن، فاجتمع لهم القرب من ناحية المكان، ومن ناحية المكانة.

وقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾، **الجنات:** جمع جنة، وهي البساتين الكثيفة أشجارها، **وعدن:** تعني الإقامة في المكان، وعدم الزوال والتحول عنه[٢]، **والمعنى:** أن أهل الجنة ماكثون فيها، لا يتزحزحون عنها ولا يخرجون منها، ولا يموتون فيها، بل يبقون فيها على ما هم عليه من النعيم، شبابًا أبد الآبدين لا يهرمون، كما **جاء في الحديث:** **"أن أهل الجنة يدخلونها وهم في سن ثلاثة وثلاثين سنة"[٣]!**.

وقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾، **أي:** من تحت قصورها وأشجارها، فيستمتعون بالمكان من ناحية النظر ومن ناحية النعم المحيطة بهم، ويبقون فيها على التأبيد، لا يتزحزحون منها ولا تنتهي النعم عنهم ولا يموتون، والشعور بالخلود في الجنة مُهم جدًا؛ فالنفس البشرية إذا أتتها نعمة تخاف من **أمرين:**

الأول: ذهاب النعمة، فهذه النعمة يمكن أن تنتهي ويذهب أثرها، فالغني يُمكن أن يفتقر بانتهاء المال من يده، والصحيح يُمكن أن يمرض بذهاب العافية عنه.

والثاني: التعرض للموت، فحتى لو كنت غنيًا؛ فالموت يذهب بك وتترك

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٢/ ١٠٣).

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦/ ٢١٦٢).

(٣) رواه أحمد، ط الرسالة (١٣/ ٣١٥)، برقم (٧٩٣٣)، **وقال المحقق:** حديث حسن بطرقه وشواهده.

النعمة، ويأخذها غيرُك، فهذان الأمران جيء بهما هنا لتطمين أهل الجنة، بأنه لا موت، ولا زوال للنعمة، فيعيشوا مطمئنين البال.!!

ثم قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾، وهذه نعمة ثالثة، فمهما كنت في نعمة ونعيم وينقصُك رضى الله؛ فسعادتك ناقصة!!، والنعيم في الجنة نوعان: حسي ومعنوي، فالحسي دخول الجنة والتنعم بنعمها الحسية، ورضى الله من النعيم المعنوي، فراحة البال، والسعادة والاطمئنان لنفوسهم أثر من آثار رضى الله عنهم ورضاهم عنه؛ لما أعطاهم من الثواب، فلا يوجد أحد منهم غير راضٍ عن الله فيما أعطاه بل الكل قد رضي بدرجته ومكانه في الجنة، وقد ذهب منهم الطمع الذي طبعوا عليه في الدنيا وحل محله الرضى، فاليوم لو تُعطى مليونًا؛ تطمع في المليون الثاني، ولو تتزوج الأولى؛ تطمع تتزوج ثانية، ولو يُعطوك كذا وكذا؛ تُريد الذي بعده، أما في الجنة فهذا ليس موجودًا، بل يحصل الرضى التام بما يمنحك الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك يرضى أصحاب الجنة في الدرجات الدنيا بدرجاتهم، ولا يحسدون من فوقهم أبدًا!!

ثم قال الله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾، اسم الإشارة يعود إلى النعيم والجزاء والسعادة والفوز الحاصل لأهل الجنة، وقد مُنحوا ذلك الجزاء بسبب خشيتهم لله، فكل من يخشى الله في الدنيا سيجد ثواب تلك الخشية في الآخرة: الخلود في جنات عدن، ورضى الله سبحانه وتعالى عنه، ورضاه عن الله.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة، وأن يُوفقنا لما يُحب ويرضى.

فوائد وهدايات من السورة:

١ - أن الصُحف التي يُكتب فيها القرآن، يلزم أن تكون طاهرة، كما يلزم تطهيرها بعد كتابة القرآن فيها من كل ما لا يليق به، وصار يطلق عليها بعد ذلك المُصحف وله أحكام خاصة به.

٢ - أن الكافر بالله شر الخليقة، وأن المؤمن التقي خير الخليقة.

٣ - أن النعيم في الجنة نوعان: حسي ومعنوي، **فالحسي**: دخول الجنة والتنعم بنعمها الحسية، **والمعنوي**: راحة البال، والسعادة والاطمئنان لنفوسهم، وهو أثر من آثار رضى الله عنهم، ورضاهم عنه.

٤ - أن كل من يخشى الله في الدنيا؛ سيجد ثواب تلك الخشية في الآخرة: الخلود في جنات عدن، ورضى الله سبحانه وتعالى عنه، ورضاه عن الله.

تفسير سورة الزلزلة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا
٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ
أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن
يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾.

شخصية السورة:

سُميت هذه السورة بـ(سورة الزلزلة)، **وسُميت أيضًا** بـ(إذا زُلزلت)، **واختلف المفسرون** في مكِّيتها ومدنيتها[1]، **فمنهم من قال**: إنها مكية، **وقال آخرون**: إنها مدنية، **ورجّح الجمهور** أنها مدنية، وعلاقة السورة بما قبلها؛ في السورة السابقة ذكر أن الناس ينقسمون بحسب أعمالهم إلى صنفين: خير البرية، وشر البرية، ثم ذكر في هذه السورة جزاء أعمال الصنفين، حين يصدُرون يوم القيامة ويرون جزاء أعمالهم التي عملوها، والله أعلم[2].

وقد ورد في فضلها حديث: أنها تعدل ربع القرآن أو نصف القرآن، رواه

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٧٧)، تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٤٣٣).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٢٠٢).

الترمذي[١]، وصحّحه بعضهم، وضعَّفه آخرون، **والمقصد الأعظم لهذه السورة هو**: التذكير بأهوال يوم القيامة، وبيان دقة الحساب في ذلك اليوم العظيم[٢].

قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ **الزلزال هو**: الاضطراب الشديد، يُخبِر الله سبحانه وتعالى عن حال الأرض، بأنها تتحرك وتضطرب.

وقوله: ﴿زُلْزِلَتِ﴾، فعل لم يُسم فاعله، مع أن الفاعل معلوم، وهو الله الذي يأمرُها أن تتزلزل، **والتقدير**: إذا زلزل الله الأرض زِلزالها، وهذا الزلزال الذي يحصل لها: قد يكون قبل يوم القيامة، فيكون أحد علامات قيام الساعة، وبعده تتم النفخة الأولى؛ فيصعَق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، وقد يكون في يوم القيامة، وبعده تتم النفخة الثانية؛ فيخرج من في بطن الأرض من الأموات أحياءً ويُساقون إلى المحشر.

وقوله: ﴿زِلْزَالَهَا﴾، أضاف المصدر إلى فاعله، **وفائدته**: الاختصاص والتهويل والتعظيم، فكأنه يقول لك: إن هذه الأرض حصل لها زلزلة بقدر حجمها وجُرمها الكبير، وإن هذه الزلزلة شديدة وعظيمة وكبيرة.

ثم قال: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾، **والأثقال**: إما أن تكون ما في بطنها من كل من دُفن فيها أو مات على ظهرها، أو أن تكون الأثقال ما في بطنها من كنوزها وذهبها وفضتها وما كان مخبوءًا في باطنها من خير، **فإذا قُلنا**: إن إخراج ما في بطنها من أثقالها يعني: المعادن من ذهبٍ وفضة ونحوها، فتكون الزلزلة

(١) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/ ١٦٦)، برقم (٢٨٩٣) و(٢٨٩٤)، **وقال الترمذي**: حسن.

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٥٩٩).

قبل البعث، فقد ورد -كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة- أن الأرض تضطرب في نهاية الحياة الدنيا؛ فتُخرج (أكباد) ما في بطنها من الذهب والفضة والكنوز، فينظر إليها الناس فلا يحتاجونها؛ لأنهم يستعدون للرحيل، للموت، فينظرون إليها فيقولون: على هذا كُنا نُقتل، ونُقاتل، ونسرق، ونعصي الله، ونحو ذلك من أقوالهم[1]، **وإذا قلنا**: إن أثقالها **أي**: ما في بطنها من الموتى فيكون ذلك يوم النشر والحشر، كما قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾[يس:٥١] **أي**: يخرجون، فهي تُلقي ما في بطنها من كل من دُفن فيها أو مات على ظهرها؛ فيُحشر ويُحاسب ويُنظر مصيره إلى الجنة أو إلى النار، وسياق الآيات يدل على أن القول الثاني هو الراجح.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾، الإنسان هنا يُفسّر على قولين: إما جنس الإنسان المُؤمن والكافر، فالكل يتساءل: لماذا اضطربت الأرض في هذا الوقت؟!، **أي**: قبل يوم القيامة، أو يتساءل: ما الذي حصل لها؟! لماذا اضطربت، ولماذا خرجت هذه الأثقال المخفية في هذا الوقت؟!!

والقول الثاني: أن المقصود بالإنسان هنا: هو الكافر، بناءً على أن إخراج الأرض أثقالها يكون عند الحشر يوم القيامة، فيتساءل مالها، ما الذي حصل لها؟!، **وإنما قيل هنا**: الكافر؛ لأن المؤمن يعلم أن هناك بعث ونشور، فهو يعلم مصيرَه - من خلال نصوص القرآن والسنة التي آمن بها -، وكيف أن الأرض ستتغير، وأن ما فيها من الأموات سيُبعثون ويُنشرون، فسؤالُه غير وارد؛ لأن

---

(١) رواه مسلم (٢/ ٧٠١)، برقم (٦٢).

عنده علمٌ بذلك، وإنما يُمكن أن يكون هذا حال الكافر الذي كان يجحد ويُنكر البعث والنشور(١)، وهو الراجح للسياق.

وقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤﴾ **أي:** يوم القيامة، فهو اليوم الموعود الذي يأمر الله سبحانه وتعالى الأرض أن تُحدث الناس بأخبارها، **أي:** تُخرج أخبارَها، وتنشُر المعلومات المُخزنة فيها عن كل شخص سكن على ظهرها من الخلق، وتقول: هذا عمل كذا وهذا عمل كذا، من خيرٍ أو شر، فأنت اختبأت في المكان الفلاني، وعملت المعصية الفلانية، وظننت أن أحدًا لا يراك، فاللهُ يراك أولًا، والأرض سجّلت ما جرى على ظهرها من أحداث وحفظتها، وستأتي يوم القيامة تقول لك: أنت هنا فعلت طاعة أو فعلت معصية، فانتبه لهذا جيدًا، فمن يستشعر هذا الأمر لن يجدَ مكانًا يعصي الله فيه.

ومن مواعظ إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبعض العصاة، قال له: كيف تعصي الله وأنت تأكل من رزقه، وتعيش في أرضه، إن كنت تُريد أن تعصيه فكُلْ من رزقٍ غير رزقه، وعش على أرضٍ غير أرضه(٢).

فكانت موعظة بليغة له، فنحن نأكل من أرزاق الله، ونعصي الله الذي رزقنا، ونعيش على أرض الله، ونعصي الله على هذه الأرض التي سهلها ويسرها ومهدها من أجلنا، وفي هذا لفتة تربوية، لكي يُحاسِب الإنسانُ نفسَه، فعين الله تنظرُ إليه، وأن هذه الأرض التي يختبئ في زواياها أو يبتعد عن أنظار الخلق فيها ويُمارِس بعض

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥١٠).

(٢) ينظر: التوابين لابن قدامة (ص: ١٦٨).

المعاصي عليها، فإنها تشهدُ عليه.

وقد ذكر بعضُ أهل العلم في قول الله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[الدخان:٢٩]، أن السماء تستوحش وتحزن حينما يموت العبد الصالح؛ لأن أعماله كانت تصعد إليها، ويُذكر باسمه عندما تمر هذه الأعمال من سماء إلى سماء إلى أن يُكتب كتابُه في أعلى عِليين، فتحزن السماء عليه حينما يموت وينقطع عمله الصالح الذي كان يُرفع له كل يوم وكل لحظة، وأما الأرض فإنها تحزن وتبكي على ذلك العبد الصالح الذي كان يُقيم فيها العدل، ويعمل فيها الطاعات، ويذكر الله فيها، ويسجد ويتعبد لله فيها[1]، وسواء قلنا: البكاء حقيقةً أو مجازًا، إلا أنه يدل فعلًا على أن هذا الكون يتفاعل مع عبادة الله، يتفاعل تفاعلاً إيجابيًا مع الصالحين، وتفاعلاً سَلبيًا مع العاصين؛ لأنه كونٌ طائعٌ خاضعٌ لله سبحانه وتعالى، بخلافك أيها العبد العاصي الشاذ، فالحجر والشجر والريح والمطر والبحر خاضع لله طائع له، وأنت تستخدم هذه النعمة التي منحك الله وتعصي الله بها.

وقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ الباء هنا سببية، بمعنى: بسبب أن الله أوحى لها أن تُحدّث أخبارها، وهي ما كان لها أن تتكلم إلا بأمر الله كما قال: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[فصلت:٢١]، فالأرض جماد، لكنها يوم القيامة حينما يُوعِز إليها الله أو يُشير إليها الله أو يأمرُها الله أو يأذن لها أن تتكلم، فإنها تُخبر عن حالها وتتكلم بما جرى على ظهرها من أعمال بني آدم من خيرٍ أو

---

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٢/ ٣٤).

شر، حتى لا يتملص الإنسان ولا يقول: أنا لم أفعل، **فهناك شُهود كثيرون، منهم**: أعضاؤك ستشهد عليك، **ومنهم**: الملائكة ستشهد عليك، **ومنهم**: الكتب والصحف التي كُتبت ورُقمت، كما قال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾[ق:١٨]، ستشهد عليك، ومنهم: الأرض التي كنت على ظهرها تعمل العمل، ستشهد عليك بالخير أو بالشر، فأين المفر؟!، فهذه محكمة إلهية عادلة، قال الله عنها: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾[الأنبياء:٤٧]، فليس في الأمر أي مغالطة كما كانت تحصل في محاكم الدنيا.!!

ثم قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾، إذا حصل ذلك وزُلزلت الأرض وأخرجت ما فيها، وتحدثت عن أخبارها، **وستكون هذه الأخبار على صنفين**: صنفٌ عمل خيرًا وطاعة على ظهر هذه الأرض، فكان الحديث عنه حديث خير، وصنفٌ عمل شرًا ومعصية فكان الحديث عنه حديث شر، فانقسم الناس في المحشر تبعًا لذلك إلى فريقين: فريق أهل الجنة، وفريق أهل النار، وفريق أهل الجنة مُتفاوت المراتب والمنازل، وفريق أهل النار مُتفاوت المراتب والمنازل.

وقوله: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾، **أي**: يتفرق الناس بعد الحشر، كقوله: ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾[القصص:٢٣]، **أي**: يتفرقون عن البئر مع أغنامهم، وينصرفون من حوله.

وقوله: ﴿أَشْتَاتًا﴾ **أي**: فرقًا شتى مختلفي المراتب، سواء كانوا من أهل

الجنة، فهم درجات، والجنة مائة درجة، أو من أهل النار، والنار مائة دركة، فإذن سيكون هناك أنواع شتى من أصناف الناس يوم الحشر، سواءً من صنف أهل الجنة، تتفاوت درجاتُهم بحسب أعمالهم، أو في صنف أهل النار الذين تتفاوت دركاتُهم بحسب كبر ذنوبهم ومعاصيهم، ويخرجون من الحشر متفرقين، فالله يجمعُهم لأجل أن يُحاسبهم ثم يخرجون من ساحة المحشر أشتاتًا **أي: فِرقًا مُتنوعة ضمن قسمين: القسم الأول:** باتجاه اليمين، ومصيرهم إلى الجنة مع اختلاف درجاتهم، **والثاني:** باتجاه الشمال، ومصيرهم إلى النار مع اختلاف دركاتهم، كما قال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾[الواقعة:٢٧]، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾[الواقعة:٤١].

وقوله: ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾﴾، **أي:** ليُشاهدوا جزاء أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وهذا واضح، فيوم الحشر ينشُر الله الصحُف، وقد كتب فيها كل ما عمله الإنسان من الأعمال دون زيادة أو نقصان، كما قال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾[الكهف:٤٩]، فإذا أخذ صحيفته؛ رأى عمله بنفسِه، سواءً كانت تلك الرؤيا رؤيا بصرية حيث يرى حسناتِه وسيئاته مكتوبة أمام عينيه، أو كانت الرؤيا قلبية، بمعنى: صار عنده علم وإحاطة أنه من أهل الجنة في المرتبة الفلانية، أو من أهل النار في الدرك الفلاني، وهنا أطلق الأعمال؛ لتشمل أعمال الخير وأعمال الشر كلها، صغيرها وكبيرها!! فربما يتبادر إلى ذهن بعض الناس اليوم سؤال: ما هي الأعمال التي ستُكتب في الصحف والتي سيراها الإنسان في صحيفة

عمله يوم القيامة؟!، وبناءً على ذلك، يحدّث الطائع نفسه ويقول: أنا أهتم بالفرائض لأنها هي التي تُكتب وتأتي بالأجر، والسنن والمستحبات والأعمال الخفيفة لا داعي أن أهتم بها، وبنفس هذا المنطق يحدّث العاصي نفسه ويقول: أنا أبتعد عن المنكرات والكبائر من المعاصي فقط، أما الصغائر فإنها لا تضرّ!! والجواب: أن كل الأعمال تكتب صغيرها وكبيرها، كما في قوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[الكهف:٤٩]، وهذا الإحصاء للعمل عند فعله، فيكتب كل شيء عملته، ثم يُجازيك الله على كل شيء ولا يترك شيئًا من عملك من خير أو شر مهما كان صغيرًا إلا وجازاك عليه، **ولذا قال هنا:** ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾، ما هو مثقال الذرة؟ فسّر السلف قديمًا مثقال الذرة بالشيء الصغير الحقير[(١)]، فالذر هو النملة الصغيرة التي تمشي على الأرض، ومثقال الذرة هو: ما تحمله من طعام ويُثقل كاهلها، فكم مقدار ما تحمله الذرة الصغيرة؟!! **وقيل**: الذرة من الشيء أن تضع يدك على تراب الأرض ثم ترفعها، فما ألتصق بيدك فهو الذر، وتسمى ذرة من تراب، وقيل: مثاقيل الذر، هو ما تراه من الهباء على شعاع الشمس الذي يدخل إلى غرفتك، يعني لا تراه إلا بوجود شعاع الشمس، أو من خلال أشعة الشمس، حيث تكشف لك عن أشياء موجودة داخل الغرفة وهي جسيمات بسيطة ولو ذهب شعاع الشمس لا تراها، فهذا هو مثقال الذرة[(٢)]، وهذا كله بحسب ما وصل إليه علمهم آنذاك، أما الذرة الآن فهي: أحد الاكتشافات الحديثة في العلم، ولا تُرى بالعين المُجردة بل

(١) ينظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٣٢).

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٥١١).

تحتاج إلى مجهر يكبرها؛ لكي تراها، فإذا كان الله سيعطيك أجرًا على الخير بمقدار مثقال الذرة، وسيُحاسبك على الشر بمقدار مثقال الذر، وهذا يعني أن الحساب سيكون دقيقًا!!، فانتبه لنفسك أيها الكسلان!! واجتهد في العبادة والطاعة في الفرائض والواجبات، والسنن المستحبات والنوافل؛ وإلا فسيضيع عليك خير كثير!!، وانتبه أيها العاصي المقصر الذي تقول: هذه من الصغائر وهذه لا تضر!!، وهذه قضية ليست خطيرة، بل ستتجمع عليك هذه القضايا الصغيرة وتهلكك، **وقد جاء في الحديث**: **"إياكم ومُحقرات الذنوب فإنهن إذا اجتمعن على العبد أهلكنه، إنما مثل مُحقرات الذنوب كمثل قومٍ نزلوا واديًا وكل واحدٍ أتى منهم بعود صغير فاجتمع لهم من هذه الأعواد ما أنضج لحمهم وخبزهم"**(١)، اليوم تعمل معصية صغيرة وغدًا معصية صغيرة وهكذا...، فإذا اجتمعت هذه المعاصي عليك هلكت، والعياذ بالله، وتذكر كم من خير بسيط جدًا يجمع لك في صحائف أعمالك وأنت لا تنتبه له!! وتأتي يوم القيامة فتجده عظيمًا في الأجر والثواب عند الله سبحانه وتعالى، فجاءت هذه الآية لتكون عامة شاملة.

وقد جاء في الحديث: أن النبي ﷺ سُئل عن زكاة الحُمُر، فقال: **"لم يأتني فيها شيء غير أنه نزلت عليّ هذه الآية الفاذة الجامعة المانعة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾"**(٢)، **يعني**: أي شيء ستعمله من خير أو شر لن يضيع، بل سيُسجل لك أو عليك، وهذا

---

(١) رواه أحمد في مسنده، ط الرسالة (٦/ ٣٦٨)، برقم (٣٨١٨)، **قال المحقق**: حسن لغيره.

(٢) رواه البخاري (٣/ ١١٣)، برقم (٢٣٧١) بنحوه.

معناه أن الإنسان يجب أن ينتبه لنفسه سواءً في عمل الخير فلا يُفرط فيه ولو كان قليلًا، كما في الحديث: **"لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلق"**(١)، هذا في باب الخير، وفي باب الشر لا تستهن بالصغيرة فإنها رُبما تجتمع عليك هذه الصغائر فتُهلكك كما سبق في الحديث، فيحتاج الإنسان إلى الحيطة والحذر، ويعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يُظلم عنده أحد، وأن فضله عظيم، وأنه كريم سبحانه وتعالى، وأنه حكم عدل، فالمثقال من الخير يُضاعفه عشرة أضعاف؛ حتى يزداد ويكبُر لصاحبه، وهذا من كرمه وفضله وجوده مع العبد، وفي باب الشر يُجازي السيئة بمثلها فقط، وذلك من عدله سبحانه.

فوائد وهدايات من السورة:

أن الله سبحانه وتعالى يُقيم العدل في الآخرة، وأن الشهود الذين خُصصوا لإقامة الحجة مُتنوعون، فالأعضاء تشهد، والملائكة تشهد، والصحف تشهد ويُرقم ما فيها، والأرض تشهد، فشهادة الأرض على أعمال بني آدم هي خاتمة الشهداء سواءً في الخير أو في الشر، وقد جاء في حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ الأَنْصَارِيِّ ثُمَّ المَازِنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ، قَالَ لَهُ: "إِنِّي أَرَاكَ تُحِبُّ الغَنَمَ وَالبَادِيَةَ، فَإِذَا كُنْتَ فِي غَنَمِكَ، أَوْ بَادِيَتِكَ، فَأَذَّنْتَ بِالصَّلاَةِ فَارْفَعْ صَوْتَكَ بِالنِّدَاءِ، فَإِنَّهُ: «لاَ يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ المُؤَذِّنِ، جِنٌّ وَلاَ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ، إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: سَمِعْتُهُ

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٢٦)، برقم (١٤٤).

مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ"(١)، فالأرض تشهد أنك فعلت على ظهرها معصية أو طاعة؛ ولذلك استحب بعض السلف لأي إنسان يزور مكانًا من هذه الأرض أن يترك له فيه عملًا صالحًا ولو أن يذكر الله، فإذا زرت مكانًا فصلِّ فيه ركعتين واذكر الله، واقرأ شيئًا من القرآن، واستغفر في هذا المكان، في هذا الجبل، في هذا الوادي، لا تدع أي مكانٍ وصلتْ إليه قدمُك إلا واترك فيه أثرًا من آثار العمل الصالح، فضلًا عن أن تحذر من العمل السيء، فبعض الناس إذا أراد أن يعمل معصية؛ يختفي أو يذهب إلى جبل، أو مغارة أو مكان بعيد ويظن أنه اختفى عن عين الله!! ولم يعلم أن الله لا تخفى عليه خافية، وأن ذلك المكان ينتظرك إلى يوم القيامة؛ ليشهد عليك بما فعلته فيه من المعاصي، أما غرفتُك التي تسكن فيها وتعيش فيها وتنام فيها فاعمل حسابك معها، ففيها بطانيات وفيها فرُش وفيها جدار وفيها ستائر وكل شيء حولك اعمل حسابك منهم فهؤلاء كلهم شهود على ما تفعله داخلها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فاحذر، وكما تحذر اليوم من المكان الذي فيه (كاميرات) مراقبة، لاحتمال أن (الكاميرات) قد تلتقط لك صورة وأنت في وضع غير مناسب، وتخاف من الفضيحة أمام الناس، فكيف لا تخاف من الفضيحة أمام الله سبحانه وتعالى، وأمام الناس كلهم؟!!

(١) رواه البخاري (١/ ١٢٥)، برقم (٩٠٦).

تفسير سورة العاديات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤
فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ
لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨ ۞أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ
١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ١١﴾.

شخصية السورة:

سورة العاديات؛ آياتها إحدى عشرة آية، وترتيبها في المصحف رقم مائة، واختُلف في مكّيتها ومدنيتها، **فذهب بعضُ المفسرين** إلى أنها مدنية؛ بدليل أن الله أقسم بالخيل التي تغزو في سبيل الله، والغزو لم يكن إلا بعد أن شرع الله الجهاد في المدينة، **وقال آخرون:** بل هي مكية لمشابهتها للقرآن المكي، من حيث الموضوع و قِصَر الآيات، وهو الراجح(١)، **والمقصد الأسمى لهذه السورة هو:** تحذير الإنسان من الجحود والطمع، وتذكيره بأنه راحل إلى الله سبحانه وتعالى(٢)، **وقد احتوت السورة على ثلاثة موضوعات رئيسية:**

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥١٣).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٢١٠).

الأول: وهو الخيل وصفاتها، **والثاني**: الكشف عن بعض صفات الإنسان، **والثالث**: النهاية التي يصير إليها الناس ويرجعون فيها إلى ربهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ **الواو** أداة قسمٍ، والعاديات مُقسَمٌ به، والمقصود بالعاديات هنا الخيل التي تعدو وتمشي عدْوًا، حينما يركبُ عليها الفارس، ويخرُج بها غازيًا في سبيل الله تعالى.

وقوله: ﴿ضَبْحًا ١﴾ حال خروجِ صوت أنفاسِها عند الجري، وهو ما يُسمى الحمحمة، وهو صوت الخيل حينما تشتدُ في السير، فإن الضبح هو صوت النفَس الذي يخرجُ من الحُنجرة، **وقد قال بعضُ المفسرين**: إن المقصود بالعاديات هنا كل ما يعدو[1] **أي**: كل ما يجري، ومن ضمنها الإبل، لكن الراجح أنها في الخيل لتطابق هذه الصفات على الخيل أكثر منها على الإبل[2]، فعدْو الإبل أقل من عدْو الخيل، والإبل معها أخفاف، خُف، والخُف غير الحافر، والإبل في الغالب لا يحصل لجريانها ضبح ولا صوت ولا حمحمة، فكان الراجح أن المقصود بالقسَم هنا الفرس أو الخيل عمومًا، فأقسَم الله بالخيل حال عدوها وهو شدة جريانها مع سماعِ صوتٍ يخرج من حنجرتها وأنفاسها، وهذا من شدة النشاط والحيوية والجري.

ثم أقسم الله فقال: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ٢﴾، وهي الخيل حال كونها تقدح، لأن القدْح هو ضرب شيء بشيء، ومن أثره يخرج شرر النار، والمعنى: التي

---

(١) ينظر: المصدر السابق: (٢٢/ ٢١١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٥٥٩).

تجري وتصطكُ حوافرها بالحجارة في الطريق؛ فرُبما انقدَح منها النار، إما من اصطدام الحافر بالحجَر، فإذا انصدم الحافر بالحجر ظهر منه شرر النار، وإما أن تضرب بقدمها حجرًا فتصطك تلك الحجر بحجرٍ أخرى فيخرج منها شرر النار، **فالمقصود بالموريات:** إشعال النار التي تُضيء كما في قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١﴾[الواقعة:٧١]. وهذا يشير إلى أنها في الخيل لشدة جريانها، وليست في الإبل؛ إلا إذا قُلنا إن الإبل ممُكن أثناء جريها قد ترمي حجرًا إلى حجر فيصدر منهما شرر النار، لكن أن تصطك قدمُها بالحجر فتصدر شررًا، فهذا غير ممكن؛ لأنه لا حافر لها.

ثم قال: ﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣﴾، وهذا القسَم الثالث، أقسم بالمغيرات، وهي الخيل التي تُغير وقت الصباح، فقد كان من عادات العرب قديمًا أنهم إذا أرادوا أن يغزوا فإنهم يخرجون مع آخر الليل، حتى إذا اقتربوا من ديار عدوهم؛ أغاروا عليهم مع طلوع الصبح، فينقضون عليهم وهم نيام، غير مستعدين لهم.

أما قوله: ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤﴾، فليس قسَمًا، وإنما هو وصفٌ لما يحصل من الخيل المُقسَم بها عند العدْو، هو الجري الشديد أثناء الإغارة على العدو؛ من إثارة للغبار، فالنقع هو الغبار الشديد الذي يرتفع في ساحة المعركة من حركة الخيل، وهذا له آثارُه من الناحية الحربية، ففيه قذف الرعب من جهة، ومن جهة أخرى، فيه التضليل على العدو ومباغتته، من وراء الغبار، فلا يرى ولا يدري إلا وقد ضُرب بالسيف من فوق الفرس.!!

وقوله: ﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥﴾ وهذا ليس قسَمًا أيضًا، وإنما هو وصف

لحال الخيل المُقسَم بها حينما تتوسط جمع العدو مع فرسانها الراكبين عليها، وفيه إشارة إلى قوة وشجاعة الخيل ومن عليها، حيث اقتحمت الميدان ودخلت إلى وسط المعركة، وأثارت الغبار في وجوه العدو، وهذا كله يُصوّر لنا طبيعة المعركة التي يقودُها الفرسان على هذه الخيول التي أقسم الله سبحانه وتعالى بها، وهذا المقطع الأول من السورة؛ يعطيننا صورة حقيقية لمكانة الخيل في الجهاد، فيها معنى العزة والقوة والشجاعة، كما **قال النبي ﷺ عنها**: **"الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة"**[(١)].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦﴾، هذا جوابُ القسَم، فأقسم الله بالخيل وصفاتِها على أن هذا الإنسان لربه لكنود، وما علاقة جواب القسَم بالمُقسم به؟، **الجواب**: **لقد أقسم الله بثلاثة أمور**، وجاء جوابُ القسم في ثلاثة أمور أيضًا، **الأول**: جُحود الإنسان لربه، **والثاني**: إقراره بذلك الجحود، **والثالث**: حبه الشديد للمال، ثلاثة مُقابل ثلاثة، ويمكن بيان العلاقة، أن هذه الخيل ستذهبُ للغزو وفي هذا الغزو النصر والغنيمة، فالنصر نعمة عظيمة معنوية، والغنيمة نعمة حسية، وهذه النعم تستحِقُ الشكر، ولكن بعض الناس قد يجحدُ شكر نعمة الله عليه، فينسى أن الله هو من مدَّه بالمال بهذه الوسيلة، أو تلك، ثم ينسى طاعة الله سبحانه وتعالى؛ فيصرف هذا المال فيما حرَّم الله.!!

والألف واللام في الإنسان هل للاستغراق أم للعهد؟ الجمهور على أنها

---

(١) رواه مسلم (٣/ ١٤٩٣)، برقم (٩٧).

للاستغراق[(١)]، **والمقصود:** كل بني الإنسان يحصلُ عنده جُحود ولو لبعض نِعم الله، إلا من عصمه الله من الأنبياء والرسل، وقيل: المقصود بالإنسان هنا الكافر[(٢)]، والقول الثاني أرجح للسياق.

وقوله: ﴿لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾، **أي:** لجاحد، فينكر أن أصل النعمة من الله، أو يستخدمها في معصية الله، ويمنع صرفها في الخير، كما قال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾[إبراهيم:٢٨]، فالجحود بمعنى الإنكار، وقد وقع من قارون كما قال الله عنه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾[القصص:٧٨]، فهذا جُحود منه لمُبدئ النعمة وخالقها ومُعطيها، كما قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النحل:٥٣]، وإذا استُخدمت هذه النعمة في معصية الله فهو نوعٌ آخر من الجحود، **وقال بعض أهل العلم:** كنود هنا بمعنى: بخيل، أو مانع للخير[(٣)]، واللفظ يشمل المعاني الثلاثة كلها ولا تعارض بينها، **فالإنسان لا يخلو من هذه الثلاثة الأحوال:** إما منكر لِنعم ربه، أو مانعٌ لنعم ربه، أو مُستخدمٌ لنعم ربه في معصيته، وكلها جحود للنعمة.!

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧﴾، وهذا هو الأمر الثاني، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، والمعنى: أن الإنسان شاهد على جُحودِه، فشهيدٌ هنا بمعنى: شاهد، **والشاهد هنا بمعنى:** المُقر بذنبه ومعصيته، سواءً كان

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٤٣).

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٨١).

(٣) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٧٨٨).

ذلك الإقرار في الدنيا، حيثُ يحصل للنفس نوع من الاعتراف أحيانًا، حينما تقف مع نفسها وتتفكر في فعلها، أو كان ذلك الإقرار في الآخرة، حينما يقف بين يدي الله، ويرى الحقائق؛ فلا يستطيع أن يفر من الإنكار، فيعترف بجحوده ويقر به.!!

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾، وهذا هو الأمر الثالث، وهنا الجملة معطوفة على التي قبلها، والخير هنا بمعنى المال، **أي:** وإن الإنسان لحب المال لحريص، فقد فطر الناس على ذلك، وقذف الله في قلوبهم حُبَّ المال، وخاصةً النقد من ذهبٍ وفضة ونحوه، **وقيل:** شديد بمعنى بخيل[١]، يجمع المال ويبخل في إنفاقه وإخراجه، **وقيل:** شديد السعي في كسبه[٢]، فإنه يبذُل وقتًا وجهدًا ومشقةً يتحملُها من أجل أن يكسب المال، وإنما يتحمّل المشقة في الكسب، لدخول حب المال إلى قلبه، فإن من أحب شيئًا تحمّل في كسبه المشقة، وتخيّل طالب علم يتحمل المشقة في طلب العلم وطالب دنيا يتحمل المشقة في طلب الدنيا، ستجد فرقًا، لأن حب المال من الشهوات المقذوفة في النفس، وانظر مثلاً إلى العُمال الذين يشتغلون في الأعمال الشاقة، كلما شعر بالألم والتعب والمشقة؛ تذكر الأجرة والمال الذي سيحصل عليه، فيندفع للاستمرار والنشاط، بينما تجده في باب العبادة وفي باب الطاعة لديه كسل وخمول، فلماذا لا يتذكر الأجر والثواب من الله عند الكسل عن الطاعة؛

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٥٦٧).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٦٢).

فتشتد نفسُه وتجتهد؟!، ويقول لها: سأحصل على كذا حسنة؟!، ويكون العبد متيقنًا من الأجر والثواب، وسيجد نفسه تشتد وتنطلق للعبادة والطاعة.

وهنا لفتة تربوية؛ أن النفس إذا أحبت شيئًا؛ تحملت من أجله المشاق، فإذا أردت أن تجتهد في شيءٍ؛ فحببه إلى نفسك أولًا، ثم مارسه ثانيًا، وستجد نشاطًا في ذلك، **فمثلاً:** تريد حفظ القرآن؛ حبب حفظ القرآن إلى نفسك، ثم احفظ، تريد طلب العلم، تريد قيام الليل، فحببه إلى نفسك، فإذا أحببته كان ذلك دافعًا لأن تتحمل من أجله المشاق، فإن الحب للشيء يدفعُ إلى تحمُّل المشقة في تحصيله، كما يدفع إلى التمسُّك به وعدم التفريط به.

ثم جاءت الفقرة الثالثة من السورة تتحدث عن عودة الناس إلى الله فقال: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩﴾، فهل يعلمُ هذا الإنسان الكنود المُقر بجحودِه الحريص على كسب المال والبخيل في إنفاقه، فالجميع سيرجعون إلى الله، وبُعثر، **بمعنى:** أُخرج، **والبعثرة هي:** إخراج الشيء بدون ترتيب، ولذلك يُقال: لا تُبعثر الأوراق، أو أنت حياتُك مُبعثرة، مشتتة غير مُرتبة، والمعنى: حشرها وجمعها بين يدي الله.

ثم قال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾، **أي:** إذا جُمعت بين يدي الله وأُخرِج ما كان مخفيًا في صدورها من خير أو شر، إما بخروج الصُّحف وتوزيعها، وإما بنشر ما كان مخفيًا علنًا على الناس، كما في قوله: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[الطارق:٩]، وغالبًا ما تُذكرُ الصدور عند الشهوات والفتن والأهواء، وتُذكر القلوب عند العلم والعقل، فلو يُتتبع هذا في نصوص القرآن، لمعرفة السر في ذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾، الضمير يعود على أهل القبور، وهم كل الأحياء الذين ماتوا ودُفنوا، ويومئذ، **أي:** يوم القيامة، لخبير، **أي:** لا تخفى عليه خافية من أمورهم، لماذا علّق خبير بيوم القيامة؟! **الجواب:** **أن علم الله على نوعين: علم الإحاطة،** فلا يغيبُ عنه شيء، **وعلم الجزاء** المترتب على حدوث الشيء، فعلم الجزاء، كقوله: ﴿نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [محمد:٣١] هذا علم جزاء، ولا يعني ذلك أنه ما كان يعلمهم من قبل، **والمعنى هنا:** خبيرٌ بما يستحقونه من الجزاء، وأما أنه خبير بهم في الدنيا، فهو من العلم المطلق الذي هو له سبحانه في هذا الكون كله منذ أن خلقه في الأزل.

فوائد وهدايات من السورة:

هذه السورة في الحقيقة تُعطينا مجموعة مشاهد متسلسلة ومترابطة:

١- **المشهد الأول:** يتعلق بالخيل والفرسان والغُزاة وذهابهم للقتال والجهاد في سبيل الله، وأظهرت لنا تلك الصورة التي فيها الشجاعة والإقدام، وفيها الإقبال على نصرة دين الله سبحانه وتعالى، فهذا المشهد العظيم مؤثر في النفس، وهو يتوافق مع مشهد أهل الآخرة، فحرصُهم واضح في الجهاد والغزو والقتال وحُب معالي الأمور.

٢- **المشهد الثاني:** وهو مشهد الجحود وحُب الدنيا، والإقرار بذلك الجحود، هذا مشهد مُعاكس ومُناقض للمشهد الأول، وهو يلتصق بأهل الدنيا الحريصين عليها، فيتحدث عن وصفهم المرتبط بالمال والجحود واستخدام المال في المعصية، والشقاء في الكسب والتعب من أجله.

٣- المشهد الثالث: مشهد وعظي للطرفين، أنتم أيها المؤمنون الصالحون المجاهدون الذين تهتمون بمعالي الأمور وأعاليها، ستقفون بين يدي الله ويظهر ما في صدوركم، وعلى صحائف أعمالكم من الفضل والأجر والخير، وأنتم أيها الجاحدون الكافرون المهتمون بالدنيا وأشغالها؛ سيظهر أيضًا ما في صحائفكم وما في قلوبكم، والنتيجة أن كلا الفريقين راجع إلى الله ربهم، وهو خبيرٌ بحالهم، فيُعطي الجزاء لكل صنفٍ منهم على ما يستحقه، فهو أسلوب تشجيع لأصحاب المشهد الأول، وتحذير من أصحاب المشهد الثاني، ووعظٌ وتذكير بنهاية الصنفين، حينما يقفون بين يدي الله بعد بعثرتهم من قبورهم، وتحصيل ما في صدورهم من خير أو شرٍ.!!

تفسير سورة القارعة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ
كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ٥ فَأَمَّا
مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ
٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾.

شخصية السورة:

سورة القارعة: هي السورة رقم مائة وواحد في ترتيب المصحف، وآياتُها إحدى عشرة آية، وهي مكية[١]، وسميت بالقارعة لأن إسرافيل يقرعُ الصور؛ فيُحدثُ الصور صوتًا مُزعجًا مُخيفًا، يتبعثر منه من في القبور، ويخرجون من الأجداث إلى ربهم ينسلون[٢]، **ومقصدُ السورة العام هو:** الحديث عن يوم القيامة، وانقسام الناس فيه إلى مفلحين وخاسرين[٣]، والمناسبة بين العاديات والقارعة؛ أن العاديات خُتمت بالبعث، فذكر في هذه السورة صيحته، وهي القارعة[٤].

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٤٤٧).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٦٥).

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٢٢٠).

(٤) ينظر: المصدر السابق.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ١﴾، **القارعة هي**: التي تقرَعُ الأسماع بصوتِها الشديد فتوجل منها القلوب، وترتعش الأجساد خوفًا من آثار ذلك الصوت المرعب؛ والقرع معناه الضرب بشدة، **تقول**: قرعتُ الباب قرعًا؛ إذا ضربته بشدة، **والقارعةُ**: كما أنها الضرب الشديد مع الصوت المفزع، كذلك هي التأنيب المعنوي الذي يُؤلم النفس، ولذلك يطلق التقريع على التأنيب والتوبيخ بالكلام الشديد، فإذا وبّخت شخصًا لديه مُروءة وحياء، بكلمات شديدة بسبب مخالفة أو خطأ وقع فيه، فإنه يتألم منه ويتأثر، وأما النفوس التي ذهبت مروءتها، فمهما أنّبته وقرّعته فإنه لا يتأثر ولا يتأذى، والقارعة المقصود بها هنا يوم القيامة، أو قيامُ الساعة، وقد فخّم الله سبحانه وتعالى أمرها.

فقال: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ٢﴾ **ثم قال:** ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ٣﴾ **انظر إلى الترتيب في الألفاظ فقال:** ﴿ٱلْقَارِعَةُ ١﴾ لفظة واحدة، **ثم انتقل إلى قوله:** ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ٢﴾ لفظتان، ثم انتقل إلى الآية الثالثة، **فقال:** ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ٣﴾ أربعة ألفاظ، هذا الترتيب اللفظي هو ترتيبٌ بلاغي له أثر عند السامع، **فالله سبحانه وتعالى لما قال:** ﴿ٱلْقَارِعَةُ ١﴾، مبتدأ، **ثم قال:** ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ٢﴾ **ما**: هنا استفهامية، وهو سؤال حتى تستحضر نفسُك عظمةَ هذا الموقف وشدته، ثم كان الخطاب موجه إلى رسول الله ﷺ الذي يُوحى إليه، **فقال الله له:** ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ يا محمد، وهنا الإخفاء لتهويل وتعظيم الواقعة والوصف والحادثة، والإدراك معرفة الشيء والإحاطة بجميع جزئياته، أو العلم بالشيء من جميع وجوهه، وهو أبلغ من العلم، فالإدراك مرحلة متقدمة من مراحل العلم التفصيلي.

قال بعض المفسرين أن قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ المقصود به السؤال عن ماهية الشيء[١]، ما هي القارعة، وهذا تفخيم لأمر القيامة والساعة، لأنها تقرع قلوب الناس بعظم الأهوال فيها، وتقرع أسماع الناس فيُصابوا بالفزع والخوف وهي كذلك تقرع باقي مكونات هذا الكون، فتقرع السماء فتُكشَط، وتقرع النجوم فتندثر، وتقرع الجبال فتُبس، وقل نحو ذلك في باقي أجزاء الكون كما جاءت في ذلك آيات متعددة.

ثم ذكر ما يجري للناس في ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ٤﴾، **أي**: يبعث الناس، ومن شدة فزعهم وخوفهم وتصدع قلوبهم؛ يخرجون من قبورهم كالفراش المنتشر، لا يدرون إلى أين يسيرون، فيسيرون في كل اتجاه، كما تسير الفراشات في كل اتجاه حتى يتصادم بعضُها مع بعض، **والفراش**: حشرة طائرة، **قيل**: إنها لا ترى وإنما تستشعر حينما ترى النور، ومن ذلك، **قول النبي ﷺ عنها**: **"إن مثَلي ومثلكم كمثل رجلٍ أوقد نارًا، فإذا الفراش تتساقط فيها وهو يردها عنها، وإني لآخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمونها"**[٢]، فهنا شبّه الناس عند خروجهم من قبورهم مذعورين فزعين خائفين، بالفراش المبثوث لا يدرون في أي اتجاهٍ يسيرون من شدة الفزع والخوف والذعر، فيصدمُ بعضُهم بعضًا، وكلمة بثّ لها معنى، **البثُّ يعني**: المتطاير في كل اتجاه[٣]،

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢١/ ٣٠٨).

(٢) رواه البخاري (٨/ ١٠٢)، برقم (٦٤٨٣).

(٣) ينظر: جمهرة اللغة (١/ ٦٣).

والكلمة مختارة بعناية لتصف لك حال الناس في تلك الساعة، والتشبيه بليغ حيث شبّه خروج الناس من قبورهم بخروج الفراش المبثوث، ووجه الشبه: الفوضى والفزع وعدم الانتظام وشدة الهلع، فهم لا يدرون في أي اتجاه يذهبون!!، ولكن قد جاءت آية أخرى كما في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر:٧]، وانتشار الجراد يختلف تمامًا عن انتشار الفراش، فإن الجراد يُبصِر وله عينان يرى بهما الطريق فيسير في اتجاهات متّزنة، وفي جماعات متساوية، بينما الفراش يسيرُ في اتجاهات متضادة ومضطربة، فما وجهُ الجمع بين الآيتين؟ الجمع هو أن يُقال: إن خروج الناس وانتشارهم بعد القارعة من قبورهم كانتشار الفراش المبثوث؛ بأن ذلك يكون بعد الحشر مباشرة، فمن شدة الفزع والخوف والذعر؛ لا يدرون في أي اتجاهٍ يسيرون؛ فإذا عرفوا مكان الداعي اتجهوا إليه، **كما قال:** ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾[طه: ١٠٨]، فيتبعون الداعي؛ كأنهم جرادٌ منتشر، فيُجمعُ بين هاتين الآيتين أنهما مرحلتان: مرحلة بداية الحشر عند الفزع والخوف والذعر، يكونون كالفراش، ومرحلة الاتجاه نحو الداعي، فتبدأ الصفوف تتجه كما تتجه الجراد إلى مكان الحشر، والوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى.

ثم ذكر المشهد الثاني، فقال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ۝٥﴾، فذكر هنا كيف تصير الجبال عند القارعة لما تقرعها؛ فتكونُ كالعهن وهو الصوف، **والمنفوش أي:** المضروب بالحديد؛ حتى ينتفش ويتطاير، فالانتفاش يدل على أنه جاف وخفيف، وممزق الأوصال ولا ترابط بين أجزائه، **وتخيّل**

الصورتين: صورة الجبال وقد وصفها الله بالرواسي والأوتاد؛ لتماسكها وقوتها وأنها تثبت الأرض، كيف وصفها الله سبحانه في هذا الموطن وقد ذهبت هذه الصفات العظيمة منها، وتحولت في ضعفها وتفتتها وتطايرها إلى ما يُشبه الصوف المنفوش!!، وعندها يظهر لك الفرق بين الحالتين؛ بين جبال الدنيا الجامدة وبين وصفها وهي في الآخرة عند مجيء القارعة والساعة وأنها أصبحت كالصوف المتطاير، **وقارن بين قوله:** ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ **وقوله:** ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾، ما وجه التشابه بين هذين اللفظين: مبثوث ومنفوش؟ الأفراد صاروا كحشرات منثورة، والجبال بصلابتها القوية وعظم حجمها؛ صارت كجزيئات منفوشة يابسة، وعبّر هنا بالنفش لأنه فيه معنى اليُبوسة، لأن الصوف إذا كان فيه أدنى رطوبة، أو أُصيب بشيء من الماء؛ تلبد وتماسك ولا يتطاير، وكل ذلك من بلاغة القرآن وإعجازه؛ حتى يتصور الإنسان من خلال معرفته بمدلولات هذه الألفاظ ذلك الموقف العظيم حين يقوم الناس بين يدي الله سبحانه وتعالى.!

فهذان المشهدان: خروج الناس مبعثرين خائفين فزعين، كالفراش المبثوث المتطاير التي تمشي في كل اتجاه، وتحوّل الجبال الراسية القوية إلى ما يشبه الصوف المنفوش الضعيف المتطاير في الهواء، وفائدة ذلك: بيان شدة أهوال يوم القيامة، وأن الإنسان يصبح فيها كالفراش التائه، تأخذه الريح يمينًا وشمالًا، ولا يدري أين يذهب، إلا من أخذ بطريق السلامة في الدنيا واهتدى إليها!!، ولذلك أشارت الآيات التي تليها إلى المخرج من هذا الفزع، وإلى ضرورة

التحول الإيجابي في حياة هذا الإنسان في الدنيا، فقد صوّر الله له حال القيامة، وأطلعه على ما يجري فيها، من أجل أن يستعد لها.

ثم قال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ ٦﴾، **أي:** ثقلت الحسنات والأعمال الصالحة في كفة ميزانه الذي يُوزن به عملُه، وجمَع الموازين هنا مع أنه ميزان واحد؛ ليدل على تكثير أبواب الخير من الله تعالى للعبد باعتبار أن كل عمل يُوزَن بمفرده[(١)]، التوحيد، الصلاة، والصوم، والزكاة، وهكذا، فصار عندك عدة موازين، فإذا ثقُلت هذه الموازين وهذه الأعمال وثقُل أجرها وثوابها عند الله، فقد فاز وأفلح صاحبها، كما قال: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[المؤمنون:١٠٢]، **أي:** ثقُلت في باب الحسنات، فكان من الفائزين، وقد ثبت أن الوزن يوم القيامة يكون بميزان حقيقي له كفتان تُوزن فيه أعمال العباد[(٢)]، **وقيل:** يُوزن فيه العبد مع عمله[(٣)]، **والمقصود** ليس حجم العبد من دم وشحم ولحم، بل المقصود مكانته عند الله، كما قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات:١٣]، والذي يُوزن حقيقةً هو عملُه، كما في حديث البطاقة[(٤)]، **وحديث:** **"كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم"**[(٥)]، **أي:** يوم القيامة أجرها ثقيل، وكلها تدل على وزن العمل، فإذا

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٤/ ٢٠٣).

(٢) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/ ٢٤)، برقم (٢٦٣٩)، **وقال:** حسنٌ غريب.

(٣) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (٧/ ١٠٩).

(٤) رواه أحمد، ط الرسالة (٩/ ٤٠٣)، برقم (٥٥٦٩)، وإسناده صحيح.

(٥) رواه البخاري (٨/ ٨٦)، برقم (٦٤٠٦).

كان -الإنسان- عملُه صالحًا، ثقُل به جسدُه، **كما في الحديث**: أن النبي ﷺ كان مع بعض أصحابه في إحدى الغزوات وبينما هم يستظلون تحت شجرة الأراك خرج عبدُ الله بن مسعود، فصعد تلك الشجرة، فمالت به أغصانُها، وكانت الريح تأخذه مع الغصن يمينًا وشمالًا من شدة نحافته، والصحابة يضحكون، فقال النبي ﷺ: **"أتضحكون من دقة ساقيه؟!!، والله إنهما لتزنان يوم القيامة أثقل من جبل أُحد"**(١).

وقوله: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾، **أي**: فصاحبُها قد فاز وأفلح ودخل الجنة، وانتقلت الآيات مُباشرةً إلى وصف حاله بعد أن دخل الجنة، ولم تصفه هو، بل وصفت عيشته، فإذا كانت العيشة التي هو فيها راضية، فكيف بصاحبها؟! **والمقصود بالعِيشة هنا** المكان الذي يعيش به الإنسان، وهو الجنة، فصارت عيشتُه ومعاشُه وموطنُه كله رضا، فيشمل أن الله قد رضي عنه، وأن صاحبها قد رضي عنها وأن ما حوله كله رضا، كله سعادة.!!

ثم قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨﴾، فجمع لفظ ميزان، هنا أيضًا لكثرة هذه المعاصي وتنوعها وأنها تُوزن أيضًا بانفراد كالكفر والإجرام والزنا والسرقة، وغيرها، وهذا هو الصنف الثاني، فإن الناس يوم القيامة ينقسمون إلى صنفين: صنف المفلحين، وهم الذين لهم أعمال وحسنات كثيرة وطاعات عظيمة، تثقُل بها موازينُهم وترجُح بهذه الأعمال؛ فيكونون من أهل الجنة، ويعيشون فيها عيشة راضية مرضية، **كما قال**: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[البينة:٨]،

(١) رواه أحمد، ط الرسالة (٧/ ٩٨)، برقم (٣٩٩١)، بنحوه، **وقال المحقق**: صحيح لغيره.

وصنف الخاسرين، خسروا الفلاح بسبب كُفرهم وبعدُهم عن الله سبحانه وتعالى، فشغلتهم الدنيا عن الآخرة، حتى جاؤوا يوم القيامة بلا حسنات، وبكثير من السيئات؛ فلما وُزنت أعمالهم؛ طاشت كفة الحسنات، وثقُلت كفة السيئات، فترجَّح الميزان بالسيئات، فكان مصيرهم كما في قوله: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾، **وقد اختلف المفسرون في تفسيرها على أقوال،** وكلها تدل على النتيجة السيئة المُرعبة المخيفة لصاحبها يوم القيامة، والعياذ بالله، فقال بعضهم: أن جهنم تحتضنه كما تحتضن الأم أولادها[(١)]، وذلك لأن لفظ أُم، لا يُطلق إلا على شيءٍ يحتضن أفراده ويشملهم كلهم، **مثل لفظ:** أم القرآن، الذي سُميت به الفاتحة؛ لأنها تشمل مُفردات القرآن كله، **وسُميت مكة:** أم القرى؛ لأنها تشمل القرى التي حولها، فهنا سُميت جهنم بأمٍ للعُصاة والكفار؛ لأنها تحتضنهم وتستقبلُهم في قعرها، ولا يخرجون منها، **وقال آخرون:** المقصود بأمه هنا: أم رأسه[(٢)]، **أي:** أنه يسقُط على أم رأسه، والمقصود بأم الرأس الدماغ؛ لأنه يحتوي على كل أجهزة الجسم، فلو حصلت لك ضربة في دماغك، لذهب السمع أو الصوت أو العين أو أي شيء من أجهزتك، أو صار عندك شلل في الأطراف، لأن محل أجهزة جميع الجسد موجودة في الدماغ، **والمعنى:** أنه سيسقط على أم رأسه، أي على دماغه في جهنم، والأول أرجح[(٣)]، ولا مانع من الجمع بينهما،

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥١٧).
(٢) المرجع السابق.
(٣) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٥٥٣).

فجهنم أم للكفار تحتضن أجسادهم بعذابها، وسيهوي كل واحد منهم فيها على أم رأسه.!! **ووصفت جهنم بأنها:** هاوية، لبعد المسافة بين فوهتها وقعرها، فقد جاء في الحديث: أن النبي ﷺ سمع وجبةً، أي صوتًا قويًا، فقال: **"أتدرون ما هذا؟"**، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **"هذا صوتُ حجرٍ أُلقي من شفير جهنم فما زال يتجلجل فيها سبعين خريفًا حتى وصل قعرها الآن"**(١)، وهذا يعني أن المسافة بين شفير النار إلى قعرها سبعين سنة، ولفظ هاوية هنا مُناسبٌ لحال الشخص؛ لأن كل متبع لهواه سيوصله للهاوية!! فالمؤمن في الدنيا كان يمشي وفق أمر الله ورسوله، فقاده ذلك إلى عيشةٍ راضية في الآخرة، والكافر كان يمشي في الدنيا تبعًا لهواه، فأهوى به في قعر النار على أم رأسه، والعياذ بالله.!!

ثم جاء السؤال لرسول الله، وهو لكل سامع بعده، عن وصفها، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠﴾ **والمعنى:** حتى لو وصفنا لك النار وما فيها؛ فلن تُدرك تفاصيلها؛ لشدة ما فيها من العذاب والسعير والألم، وأتى هنا بالهاء ويُسمونها هاء السكت؛ لكي تُظهر ما قبلها، وهو الياء، **مثل قوله:** ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾[الحاقة:٢٩]، وهي تفيد مزيداً من البيان والوضوح والفخامة والتهويل للأمر الذي يُتحدث عنه، ثم بيّن له تفاصيلها، وأنها: ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾، **قالوا:** إن النار في أصلها لابد أن تكون حارة، فما فائدة أن أضاف عليها هنا لفظ: ﴿حَامِيَةُۢ﴾؟! **والجواب:** لتوكيد شدة حرارتها(٢)، حتى لا يتبادر إلى ذهن السامع أنها نار مثل نار الدنيا، فقد جاء

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٨٤)، برقم (٢٨٤٤).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٦٨).

وصفها في **قوله** ﷺ: **"ما نارُكم التي توقدون إلى نار الآخرة، إلا كجزءٍ إلى سبعين جزءًا"**(١)، فنار الآخرة تزيد على نار الدنيا بتسع وستين مرة، مما يدل على عظمتها وشدتها وحرها، نسأل الله السلامة والعافية منها.

فوائد وهدايات من السورة:

١- هذه السورة، بتعبيراتها البليغة وألفاظها القصيرة؛ أعطتنا صورةً واضحة عن الدار الآخرة، وعن فزع الناس يوم القيامة، وانتشارهم كالفراش من شدة خوفهم وذعرهم، وعن ذوبان الجبال الراسية وتمزقها وأنها تصبح كالصوف المنفوش.

٢- أن الله سبحانه وتعالى يقيم الموازين القسط يوم القيامة، فينقسم الناس **إلى صنفين: صنف** ثقلت موازينه بالحسنات وهم أهل الجنة، راضون مرضيون في عيشهم في الآخرة، **وصنف** خفت موازينهم من الحسنات، وهم أهل الكفر والفساد والإجرام، تتلقفهم النار بحرها وسعيرها، وتحتضنهم كما تحتضن الأم ولدها.!!

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٨٤)، برقم (٢٨٤٣) بنحوه.

تفسير سورة التكاثر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

شخصية السورة:

سورة التكاثر: سورةٌ مكية[(١)]، ترتيبُها في المصحف مائة واثنان، وآياتُها ثمان آيات، **والمقصد الأعظم لهذه السورة هو:** وعظُ الناس وتذكيرهم بالاهتمام بالآخرة، والاستعداد لها، وترك التنافس على الأموال والأولاد في الدنيا[(٢)]، وقد ذكر بعض المفسرين أن السورة نزلت في قبيلتين من الأنصار تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور للتفاخر بعدد الأموات[(٣)]، وهو ضعيف.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾، **ألهى**، فعل ماض من اللهو، وغالبًا ما يُطلق اللهو على ما يتعلق بالقلب والنفس، ويطلق اللعب على ما

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير، ت سلامة (٨/ ٤٧٢).

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٦٠٠).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٤٥١).

يتعلق بالجوارح، وكاف الخطاب يدخل فيه كل من سمع الخطاب من مؤمن وكافر، وذلك لأن من طبيعة الإنسان حُب التكاثر، فقد غُرس في فطرته الاستكثار من كل شيء يرغب فيه!!، **كما جاء في الحديث**: **"فلو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى الثالث، ولا يُشبع جوفه إلا التراب"**(١)، فحب الإكثار من الخير صفة مُلتصقة بكل الناس، إلا أن المؤمن تتهذب لديه هذه الصفة وتعتدل؛ باعتبار أن الدين يُذكره بالآخرة، ويرشده إلى التقليل من الدنيا، والتكاثر من المُكاثرة، وهو صيغة تفاعل، ولا يكونُ التفاعل إلا بين اثنين وأكثر، **مثل**: تقاتُل، وتضارُب، ونحوها من صيغ التفاعل، **والمعنى**: يُكاثِرُ بعضُكم بعضًا، ويحاول بعضكم أن يكون لديه أكثر من غيره، أو يحاول الحصول على الكثير من الشيء، والألف واللام في التكاثر تُفيدُ الاستغراق **أي**: جنس التكاثر، والأصل في صفات الكفار أنهم يُعجبُهم التفاخر، ويُعجبهم التكاثر، كما جاء في قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف، حين قال لصاحبه: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ [الكهف:٣٤]، فهذه صورة من صور التكاثر، حينما تقول: أنا أكثر منك، سواءً قلت: أنا أكثر منك علمـًا، أو أكثر منك مالًا، أو أكثر منك جاهًا أو سلطانا أو عددًا أو قبيلةً، كله داخل في معنى التكاثُر.

وفي هذه الآية أخبر عن التكاثر الذي هو صفة الفعل الذي يحصل بين طرفين، ولم يُخبِر عن المُكاثَر به، بل أطلقه ولم يعيّنه، فلم يقل: ألهاكم التكاثر بالمال، أو ألهاكم التكاثر بالولد، أو ألهاكم التكاثر بكذا، بل تركه مُطلقًا، وفائدة

(١) رواه الترمذي، ت شاكر (٤/ ٥٦٩)، برقم (٢٣٣٧)، وقال الألباني: صحيح.

ذلك الإطلاق: ليعُم كل ما يُمكن التكاثر به قديماً وحديثًا، فقديمًا كانوا يتكاثرون بالأنعام ونحوها، واليوم يتكاثرون بناطحات السحاب والبنايات والسيارات، ونحوها.!!

وفي قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ في معناها قولان: الأول: أنهم من تكاثرهم بأعدادهم وأفرادهم وحصروا الموجودين وذهبوا لزيارة القبور لكي يحصروا الذين في المقبرة من أصحابهم!!، وقد سبق الإشارة إليه.

والثاني: أنه عامٌّ، **بمعنى:** أن التكاثُر بالدنيا مُستمرٌ بينكم ومُلهٍ لكم؛ حتى يفجأكم الموت ويذهب بكم إلى المقبرة، لدفنكم فيها[1]، **وسمي الدفن** في المقبرة زيارة؛ لأنه لن يبقى فيها المدفون دائماً، بل يبقى فترة محددة بحسب ما يشاء الله، ثم يخرج من المقبرة إما إلى الجنة وإما إلى النار، وفترة المكوث في القبور تسمى دار البرزخ، **أي:** دار انتظار بين دارين: دار الدنيا، ودار الآخرة التي أنت منتقلٌ إليها، فهي محطة في الوسط، وعبر هنا بـ(حتى) التي تفيد الغاية، بمعنى: لن ينقطع تكاثُركم بالدنيا ولهوكم بها حتى تموتوا، وتُدفنوا في القبور، وهذا هو القول الراجح[2]، عند عامة المفسرين.

والمقصود بالتكاثر هنا: التكاثر المذموم، وهو التكاثر بالدنيا؛ لأن كلمة ألهى تدل عليه، إذْ هو من اللهو، فإن التكاثر على نوعين: تكاثر مذموم، وجاء النهي عنه في قوله ﷺ: **"انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو**

---

(١) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٧٩١-٧٩٢).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٧٣).

فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم"(١)، وتكاثُر ممدوح، والتكاثر الممدوح لا حرج فيه، بل قد رغب الله العباد فيه، كما قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾[المطففين:٢٦]، وذلك من أجل التنافس في أمور الآخرة، فانظر إلى من هو أكثر منك عبادة وطاعة، من أجل أن تتنافس معه، وقد ورد أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تنافس مع أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ففي يوم من الأيام حث النبي ﷺ الناس على الصدقة والبذل، فقال عمر: أما اليوم فإني سأسبِق أبا بكر، وذهب إلى المال الموجود لديه في البيت فقسمه نصفين، فترك نصفه لأهله وأتى بنصفه الآخر في صُرةٍ ووضعه بين يدي النبي ﷺ، فقال له: **"ماذا تركت لأهلك يا عمر؟"** قال: نصفَه، فقال: **"بارك الله لك فيه"**، وجاء أبو بكر بصرةٍ أخرى، فسلمها لرسول الله ﷺ، فقال له: **"ماذا تركت لأهلك يا أبا بكر؟"**، قال: تركت لهم الله، **أي**: أتى بالمال كله، فقال عمر: لن أُنافسه بعد اليوم(٢).!! فالتنافس في الخير مطلوب، كالتنافس في العلم ومن يحفظ أكثر، ومن يقوم الليل أكثر، من يتصدق أكثر، فهذا مشروع، وممدوح، فالدار الآخرة: جنات متنوعة ودرجات عالية، يتنافس من أجلها المتنافسون.!!

ثم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ كَلَّا﴾، ثم حرف عطف يفيد التراخي وكلا، بمعنى: الزجر والردع، **والمعنى**: انزجروا عن التكاثُر وعن اللهو به؛ لأنكم سوف تعلمون نتيجة وثمرة لهوكم، وتصلح أن تكون بمعنى: حقًا، **والمعنى**: حقًا

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢٧٥)، برقم: (٢٩٦٣).

(٢) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/ ٦١٤)، برقم (٣٦٧٥)، بنحوه، **وقال الألباني**: حسن.

سوف تعلمون ثمرة ونتيجة لهوكم، حينما تموتون؛ ينقطع الأجل وتزورون المقبرة.!!.

وقوله: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾، هل التكرار هنا للتوكيد أم للتأسيس؟، فالتكرار يأتي **لأحد معنيين: إما للتأسيس، وإما للتوكيد، فالتأسيس هو**: إعطاء معنىً جديدٍ غير الأول[1]، **والتوكيد**: يأتي لتأكيد المعنى الأول، **فقيل**: للتوكيد، **وقيل**: للتأسيس[2]، وهو الراجح؛ بناءً على قاعدة: إذا جاء معنى يُفهم من التأسيس أو التوكيد فالأولى أن يكون للتأسيس[3]؛ لأن زيادة معنى جديد أفضل من توكيد معنى سابق، فمعنى ذلك أن العلم سيكون مرتين **وفي مكانين مختلفين: الأول**: ستعلمون ذلك وأنتم في قبوركم، **والثاني**: ستعلمون ذلك وأنتم في المحشر.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا﴾، تكررت ثلاث مرات في سورة واحدة، وتعني الردع والزجر، وهذا يدلنا على أن الموضوع الذي تتحدث عنه السورة خطير، وأن الانغماس في الدنيا بلغ من القلوب مبلغه، فردعهم الله عنه، المرة الأولى والثانية والثالثة، لعلهم ينتبهون!!.

وقوله: ﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥﴾، **مراتب العلم ثلاث**: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، هذه كلها مراتب العلم، فذكر هنا اثنين، **والثالثة ذكرها في**

(١) ينظر: شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو (٢/ ٣٢٦).

(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب (٧/ ٢٠،٥١١/ ٤٧٨).

(٣) ينظر: الفروق للقرافي = أنوار البروق في أنواء الفروق (٤/ ١٧١).

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[الواقعة:٩٥]، والضمير يعود إلى عذاب جهنم، فما الفرق بين هذه الثلاث المراتب؟! **الجواب:** الترتيب من الأدنى إلى الأعلى: فعلم اليقين، ثم عين اليقين، ثم حق اليقين، **فعلم اليقين:** أن يصل إليك خبر عن طريق السمع، كأن تسمع أو يُحدثك شخص ثقة معروف عندك لا تشك في كلامه، يقول لك مثلًا: عندي عسل درجة أولى، فصار عندك الخبر علم اليقين، ثم إذا قلت له: أرني هذا العسل، فأحضره وأراك إياه، فصار عندك الخبر عين اليقين؛ لأنك رأيته بعينك، ثم إذا أعطاك شيئًا منه فذقته؛ فقد صار عندك الخبر حق اليقين[1]، فهذه هي مراتب العلم، وقد ذكرها الله في أمر النار، فأخبرهم عنها من خلال المُخبر، وهو النبي ﷺ الذي لا يكذب، فهذا علم اليقين، فإذا مات الناس وحُشروا وعُرضت عليهم جهنم، ورأوها بأعينهم، فهناك يكون العلم بها عين اليقين، فإذا دخلها الكافر وذاق حرارتها واحترق جسدُه فيها، فهناك يصيرُ علمُه بها حق اليقين!.

وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾، **اللام** لام القسم والنون للتوكيد **أي:** والله لترونّ الجحيم يوم القيامة، وقد جاءت الأحاديث أن بداية رؤية الجحيم تكون في القبر، فالمؤمن يُفتح له طاقة إلى النار **ويُقال له:** انظر إلى منزلك من النار لو عصيت الله، ولكن الله قد أبدلك بمنزلٍ آخر من الجنة، ويُفتح له طاقة إلى الجنة فيرى منزله، **فيقول:** رب أقم الساعة حتى أذهب إليه، وأما الكافر فيُفتح له طاقة إلى الجنة ويقال له: هذا منزلك لو أطعت الله، لكنك ضيّعت، وقد

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/ ١٥٤).

أبدلك الله منزلًا غيره في النار، ويفتح له طاقة إلى النار فيراها، **فيقول:** رب لا تُقم الساعة[(١)]!! فهذه رؤية الجحيم قد صارت عين اليقين.

ولذا قال: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾، توكيد لرؤيتهم لجهنم بأعينهم حقيقة، **وفي آية الواقعة:** ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾[الواقعة:٩٥]، **أي:** بعد أن يصير أهل النار في النار ويذوقون حرارتها وعذابها؛ يصير العلم بها في حقهم يقينًا.

ثم ختم الله هذه السورة بقوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾، سيسأل الله الجميع؛ المؤمنين والكافرين عن النعيم، وهو جمع نعمة، ونعم الله لا تعدُ ولا تحصى، **كما قال:** ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[النحل:١٨]، وكل هذه النعم مصدرها الله، **كما قال:** ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل:٥٣]، **وقد جاء في الحديث** أن النبي ﷺ، خرج جائعًا من بيته فلما مشى قليلًا، فإذا بأبي بكر يمشي فمشى معه قليلاً، فرأوا عمر يمشي، فسألهم رسول الله: **"ما الذي أخرجكما؟"** قالا: الجوع، يا رسول الله، فقال: **"وأنا كذلك"**.

نعم رسول الله يخرجُ جائعـًا!، ومعه وزيراه أبو بكر وعمر، فبينما هما يمشيان إذْ رآهم أبو الهيثم -رجلٌ من الأنصار-، وكان صاحب حائط وغنَم، فلما رآهم عرف في وجوههم الجوع، فقال: لا أحد أسعد مني اليوم ضيوفًا، ثم استدعاهم إلى حائطه وأجلسهم تحت الظل وأعطاهم من عذَق التمر رُطبًا فأكلوا منه، ونزع لهم من البئر ماءً فشربوا، ثم أخذ السكين، فقال له النبي ﷺ: **"إياك والحلوب"**، يعني: إذا كنت ستذبح لا تذبح الحَلوب من الشياه، **أي:** دع

(١) رواه أحمد ط الرسالة (٣٠/ ٥٠١-٥٠٢)، برقم (١٨٥٣٤)، **قال المحقق:** إسناده صحيح.

الحَلوب يُستفاد منها اللبن، وكأنه لا يريدُه أن يتكلّف، وهذا من خُلقه ﷺ، فذهب فذبح لهم شاة، ثم طبخها لهم، ثم أتى بها، فلما أكلوا وشربوا وشبعوا، **قال النبي ﷺ لصاحبيه: "والله لتُسألن يومئذٍ عن هذا النعيم"**[(١)]، سبحان الله!! على أكلةٍ واحدة! ينبههم أن الله سيسألهم عنها!! ونحن كم وجبات نأكل؟! وكم مرات تشبع بُطوننا؟!!، وهذا يعني أن النعيم المسؤول عنه يعم كل النعم ويعم الجميع مسلمين وكُفارًا، أما المُسلم فيُسأل عن هذا النعيم سؤالًا ليس فيه تبكيت، وإنما سؤال تذكير، أعطيتُك وأعطيتُك!!، فيقول: نعم يا رب الحمد لله، فيقال له: ذاك نعيم الدنيا القليل، وأنت استغليته في طاعة الله، فادخل الجنة التي فيها النعيم المُقيم، فيكون السؤال تهيئة لنعيم أعظم، وأما بالنسبة للكافر فهو سُؤال تقريع، فيقال له: نعمة كذا ونعمة كذا استغليتها في معصية الله، **ثم يقال له:** ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾[الأحقاف:٢٠]، فيتجرع عذاب الإهانة؛ لعدم شكره للنعمة، نسأل الله السلامة والعافية.

وعلى ضوء ذلك ينبغي للمُسلم أن ينتبه لهذا جيدًا، فإذا أعطاه الله نعمة، فلا مانع أن يستفيد منها، ولكن يؤدي حق الله فيها، فالصحة نعمة فاستغلها في طاعة الله، والمال نعمة فاستغله في طاعة الله، والقوة والشجاعة نعمة فاستغلها في طاعة الله، وهكذا...، فمن استعمل نعم الله في معاصي الله فهذا هو الكفر بالنعمة، **كما قال:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾[إبراهيم:٢٨-٢٩]، فالمسلم ينبغي أن ينتبه لهذا

---

(١) رواه مسلم (٣/ ١٦٠٩)، برقم (٢٠٣٨).

ويـتّعظ، ولا مـانع أن تُظهـرَ آثـار النعمـة عليـك؛ لأن الله يقـول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[الـضحى:١١]، ولكـن إيـاك أن تتغطـرس أو تتكـبر بهـذه النعمـة، بـل أظهرها على سبيل الشكر، ووسّع على نفسك، واجعل النعمة تظهـر عليك في شأنك كله، بدون كبر ولا خيلاء.!!

فوائد وهدايات من السورة:

١- هذه السورة مع قِصر آياتِها، إلا أنها موعظة بليغة كاملة للإنسان، سـواءً كان مؤمنًا أو كافرًا كيف يـشْغل وقته في هـذه الـدنيا؟، وكيف يبتعد عـن التكـاثر المذموم؟، وكيف يشتغل بالتكاثُر الممدوح؟، وكيف يحذر من أن يقع في النـار التي وصله العلمُ بها وترقّى من علـم اليقـين إلى عـين اليقـين إلى حـق اليقـين؟، وكيف يتعامل مع نعـم الله سبحانه وتعـالى في هـذه الـدنيا ويستغلها في طاعـة الله حتى لا يندم حينما يُفارقُها، فيشكرها وتظهر عليه بدون تكبُر؟

٢- أن الإنسان الكافر يتذكر النعم التي كان يتمتع بها في الدنيا، حـين يُقـذف في النـار، فيقـول: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾[الحاقـة:٢٨-٢٩]، فالـسلطان نعمـة، والجـاه نعمـة، والمـال نعمـة، والأولاد نعمـة، والـصحة نعمـة، فهلّا استغليتها أيها المسلم فيما ينقذك من النـار ويرفـع درجاتـك في الجنـة، وإلا فستندم وتتمنى وتقول: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾[الفجر:٢٤].

تفسير سورة العصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

شخصية السورة:

سورة العصر؛ سورةٌ مكية في قول جمهور العلماء(١)، عدد آياتها ثلاث آيات، فهي قصيرةٌ في المبنى، ولكنها طويلةٌ وعظيمةٌ في المعنى، **والمقصد الأسمى من هذه السورة هو**: بيان أسباب النجاة من الخسارة، والتنبيه على أهمية الوقت الَّذي يعيشه الإنسان(٢).

وقد جاء عن الشافعي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه قال: لو تدبّر الناس هذه السورة لكفتهم(٣).

وجاء أن عمرو بن العاص زار مسيلمة الكذاب، بعد بعثة النبي ﷺ، وادّعاء مسيلمة النبوة، فقال له: ماذا أُنزل على صاحبكم من القرآن؟! وكان عمرو آنذاك

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٨٧).

(٢) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٦٠١).

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٢٣٤)

ما زال كافراً، فقال: نزلت عليه سورةُ العصر، فقرأها عليه، فقال مسيلمة: أما أنا فقد نزل عليَّ سورة الوَبْر: يا وبرُ يا وبرُ، إنما أنت أُذنانٌ وصدرُ، ثم قال لعمرو ما رأيك بهذا؟ فقال له عمرو بن العاص: والله إنك تعلم أني أعلم أنك كاذب[(١)]!! سبحان الله، لم يقبل عمرو مع كفره من مسيلمة هذا الهُراء الذي لا معنى له، والوَبر حيوان يُشبه الهر، وهو كما وصفه أذناه واسعتان وصدرُه واسع وباقي مُؤخرته ضعيفة جدًا.

علاقة سورة العصر بالسورة التي قبلها:

سورة العصر جاءت في الترتيب بعد سورة التكاثر، والتي ذكر الله سبحانه وتعالى فيها حال الإنسان المضيِّع للآخرة المشغول بالتكاثُر والتنافُس حتى يزور المقابر، وفي هذه السورة ذكر الله الإنسان الفائز الذي لم يخسر، وبيّن صفاته، ففي سورة التكاثر ذكر صفات الخاسرين، وفي هذه السورة ذكر صفات الفائزين، فكأن السورتين تكمّل إحداهما الأخرى، والله أعلم.

وقد بدأت السورة بقوله: ﴿وَٱلْعَصۡرِ ١﴾، **الواو** حرفُ قسَم، والعصر مُقسمٌ به، وهو: الزمن، وهو مأخوذ من قولهم: عصَرَ الشيء يعصِرُه عصرًا، بمعنى ضغطه واستخرج ما فيه من سائل[(٢)]، **وسُمي الدهر** عصرًا؛ لأنه يعصِرُ أهله[(٣)] بالابتلاء والمحَن حتى يخرج منهم: الطيب بالإيمان والتقوى والعمل الصالح،

---

(١) ينظر: البداية والنهاية ط إحياء التراث (٦/ ٣٥٩).

(٢) ينظر: العين (١/ ٢٩٧).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة (٢/ ١١).

والسيء بالكفر والمعاصي، فكما يكون حال ثمرة الليمون التي تُعصر بين يديك، فيخرج منها العصير الطيب، ويبقى منه القشر الذي ترمي به لعدم قيمته، وسواءً كان القسم بالاسم أو بالمصدر، فالنتيجة واحدة، لكن يرى بعض أهل العلم: أن القرآن يُفسّر بالعادة المُطَّردة من الاستعمال(١)، **والاطراد في النص القرآني هو**: القسم بالأسماء لا بالمصادر، **ثم اختلفوا في تعيين هذا الزمن، فقال بعضُهم**: العصرُ: الزمن كله الذي خلق الله فيه الكون والحياة، وسيبقى إلى أن تقوم الساعة.

وقال آخرون: المقصود بالعصر وقتُ صلاة العصر(٢)، فإن الله أقسم بالضحى وهو مُقدمة النهار، وأقسم بالعصر وهو الشيء الأخير من النهار.

وقال آخرون: بل هو قسمٌ بعصر النبي ﷺ، **أي**: بالزمن من بعثته إلى أن تنتهي أمتُه(٣).

وقال آخرون: بل القسم هنا صلاة العصر(٤)، فحُذف المُضاف وأُتي بالمُضاف إليه مكانه، وأقسم بصلاة العصر؛ لمكانتها، وهي الصلاة الوسطى، المذكورة في قوله: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[البقرة:٢٣٨]، **فقد جاء في الحديث النبوي تفسيرها**: أن الصلاة الوسطى هي: صلاة العصر(٥)؛ لأنها تأتي

(١) ينظر: الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير (ص: ٢٧٢).
(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٢٣٦).
(٣) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٤٥٨).
(٤) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٨٧).
(٥) ينظر: صحيح البخاري (٤/ ٤٣)، برقم (٢٩٣١).

في الوسط بين أربع فرائض: الفجر والظهر، والمغرب مع العشاء، وهي في الوسط، **ورجح الإمام ابن جرير،** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أن العصر هو: الدهر(١) كله، وهو كما قال.

وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾، هذا جوابُ القسم، والمقصود بالإنسان هنا جنس الإنسان، فالألف واللام للاستغراق، وهل يدخل في هذا اللفظ الجن باعتبار أنهم مكلفون؟!!، الجواب: من حيث اللغة لا يدخل؛ لأن لفظ الإنس يُطلق على من يُؤنس به، وهم بنو آدم، حيث يمكنك الجلوس معهم وتراهم ويرونك، وتتصاحب معهم(٢)، أما الجن فلا يُؤنسون، بل الصفة العامة لهم هي صفة التخفي، فإن الجن ما سُموا جنًا إلا لاختفائهم، ولكن لا مانع أن يكون بين الجن أنفسِهم تآلُف وتآنس، فهم كذلك قبائل وشُعوب وأُمم مثل الإنس، كما ذكر الله ذلك عنهم في قوله: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾[الجن:١١]، فيكون عموم الإنس هم المقصودون، ويدخُل في عموم الحُكم الجن أيضًا، لأنهم مكلفون، ويشمل جنس الإنسان سواءً كان مُسلمًا أو كافرًا، ومثله في جنس الجن، فإن كان كافرًا فتنطبق عليه الخسارة الكلية، وإن كان مُسلمًا فسيكون عنده خسارة جزئية بحسب حاله، فالخسارة الكلية أو المُطلقة لمن كان على الكفر، ولم تتحقق لديه الصفة الأولى، وهي الإيمان، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١٥﴾[الزمر:١٥]، فالإنسان

---

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٥٨٩).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة (١٣/ ٦١).

الكافر يخسر نفسه ويخسر أهله يوم القيامة، وهذا هو الخسران المبين، وتكون الخسارة جزئية في حق المؤمن إذا قصّر في بعض هذه الأمور الأربعة، ولذلك تتفاوت درجات الناس في الآخرة بحسب أعمالهم، ونكّر كلمة ﴿خُسْرٍ﴾، ليُفيد التعميم، أي: أن خسارته عامة تشمل الدنيا والآخرة، وتشمل أحواله كلها، واحتوت الآية على عدد من المؤكدات وهي: إنَّ، والألف واللام في (الإنسان)، ولام (لفي) والتنكير في (خسر) ليُؤكد للقارئ أن الوضع خطير جدًا وعبّر كذلك بـ(في) التي تفيد الظرفية، وتعني داخل الشيء، والمعنى: أن هذا الإنسان داخل في عمق الخسارة وليس في ظاهرها، فالخسارة عميقة ووصل الشخص إلى عُمْقها، وهذا الوصف في الحقيقة مُخيف جداً، واستُخدِمت فيه كما يقول علماء البلاغة أسلوب الخطاب السلبي، وهو عكس أسلوب الخطاب الإيجابي، فالخطاب الإيجابي أن يقول الله: والعصر إن بعض الناس لفي ربحٍ، فهذا أُسلوب إيجابي، وهنا قال العكس، فحكم على الجميع بالخسارة.

ثم استثنى المفلحين من هؤلاء الخسرانين، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والاستثناء من أساليب تخصيص العموم، والتخصيص ليس نسخًا، فالأصل أن يبقى النص مُحكمًا، وأن بني الإنسان كلهم في خسارة ولكنه استثنى منهم هؤلاء، والقاعدة النحوية المعروفة: أن المُستثنى أقل من المُستثنى منه، فلا يصح مثلاً أن تقول: أعطيتُك ثمانية ريال إلا عشرة ريال، لأن الاستثناء لا بد أن يكون من الكثير، فتقول: أعطيتُك عشرة إلا خمسة، فلو أعملنا القاعدة النحوية في هذا الاستثناء؛ فسيكون الفائزون أقل من الخاسرين، وقد ورد ما يدل على ذلك من

السنة النبوية، **ففي الحديث** أن الله سبحانه وتعالى يقول لآدم: "ابعث بعث النار، قال: وما بعثُ النار؟ قال: ابعث من ذريتك من كل تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة"، فانظر كم نسبة الخسارة وكم نسبة الفوز، فلما سمع ذلك أصحاب رسول الله ﷺ؛ استغربوا!!، فقال لهم: "ما أنتم في أهل يأجوج ومأجوج إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو الأحمر"(١)، بمعني اطمأنوا، فواحد في الألف من الناجين سيكون منكم، وتسعمائة وتسعة وتسعون هالكون وسيكونون من قوم يأجوج ومأجوج الكفار، ولذلك خف عليهم الأمر، وذهب منهم اليأس والقنوط، والمُستثنى من الخسارة من اتصف بهذه الصفات الأربع، ولذلك سماها أهل العلم قوارب أو شروط النجاة، **فالناس كلهم في خسارة إلا من توفرت فيه أربعة شروط وهي:**

الأول: الإيمان بالله، وهذا الشرط يطول فيه الحديث، إذْ هو يتعلق بكل تفاصيل الإيمان، وأركانه الستة وما يتعلق بها، سواءً فيما يتعلق بالإيمان بالله وأسمائه وصفاته وأقسام التوحيد وأنواعه وما يناقض التوحيد من الشرك والنفاق أو ينقصه من الرياء ونحوه، أو غير ذلك مما يتعلق بالإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر، ونحوها، كل هذا يدخل في موضوع الإيمان، بمعنى أن جميع أعمال القلوب الخفية هي مُكون للإيمان من التوكل واليقين وحسن الظن وغير ذلك، ويدخل في الإيمان بالله الإيمان برسوله فإنهما قد أصبحا شيئًا واحدًا، لا يُقبل إيمان إنسان حتى يقول: أشهد أن لا إله إلا الله

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٩٧)، برقم (٤٧٤١) بنحوه.

وأشهد أن محمدًا رسول الله، وقد سبق أيضًا أن من ضمن مُفردات الإيمان، الإيمان بالرسل، ليس محمد ﷺ لوحده بل بجميع الرسل، فمن كفر برسولٍ؛ فقد كفر بسائر الرسل، ومن كفر بكتابٍ واحد؛ فقد كفر بسائر الكُتب، فهذا هو الشرط الأول وهو تحقيق الإيمان، والإيمان ليس ادعاء ولا مُجرد تلفظ باللسان، **قال الحسن البصري** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، وإنما الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل(١). ولذلك كان تعريف الإيمان الصحيح أنه: قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. قول القلب وعملُه، وقول اللسان وعمل الجوارح، فقول القلب: التصديق، وعمله: الإخلاص، وقول اللسان: النطق بالشهادتين، وعمل الجوارح: امتثال الأحكام، وتنفيذ التكاليف والطاعات.

الشرط الثاني: قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، وتجد في القرآن الكريم ارتباطًا وثيقًا جداً بين الإيمان والعمل الصالح، مما يدلك على التلازم، وقد ورد في القرآن أكثر من سبعين آية جمعت بين الإيمان والعمل الصالح، **والمعنى**: أنه لا ينفع إيمان بدون عمل صالح، ولا ينفع عمل صالح بدون إيمان، والمفهوم الشامل للعمل الصالح هو الذي يشمل البعد الديني، فيدخل أول شيء فيه العبادات من صلاة وزكاة وصيام وحج وبر الوالدين وغير ذلك، والبعد الدنيوي الذي فيه خير للبشرية، فيدخل في مفهوم العمل الصالح كل ما يُصلح حال الناس، من علم الطب الذي يعالج الناس به وعلم الهندسة الذي تُشيد به المباني

(١) ينظر: شعب الإيمان (١/ ١٥٩)، برقم (٦٥).

وعلم الزراعة واستصلاح الأراضي، وإماطة الأذى عن الطريق، كل ذلك ونحوه من العمل صالح، وضده العمل القبيح مثل الشرك والكفر والنفاق، وسرقة الأموال وقتل الأنفس، وانتهاك الأعراض، فهذا كله يُسمى عمل غير صالح، كما قال الله في ابن نوح: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾[هود:٤٦] فجعل الابن كله بسبب كفره عملاً غير صالح؛ أو على **قراءةٍ أُخرى**[(١)]: (إنّه عمِلَ غيرَ صالح)، لأنه كفر وذهب مع الكفار، ولا يصح أن يحصر العمل الصالح بإصلاح الدنيا فقط، فتسمع بعض الناس يقول: انظر اليابانيين ماذا فعلوا من جسور ومن قصور ومن سيارات ومن اختراعات، وأنتم مشغولون بالصلاة والصوم والذكر والحج، ونحوها، فهؤلاء هم من عمروا الأرض، وهم الناس الصالحون، وأنتم أيها المسلمون لا يوجد معكم إلا الكلام، وكلكم فاسدون في أعمالكم متخلفون في بلادكم لا إنجاز ولا إنتاج!!!.

ورداً على هذا الكلام نقول: إن الأصل في العمل الصالح أول ما يتبادر هو أن تصلح علاقتك مع الله، وما يُصلح آخرتَك، ثم تعمل ما يُصلح علاقتك بالخلق وما يُصلح دُنياك، فهذا هو المفهوم الشامل للعمل الصالح الذي يشمل صلاح الدنيا والآخرة، وتكون العناية بصلاح الآخرة في مقدمة اهتمام العبد، لأنها هي الحياة الحقيقية له، أما الدنيا فغايتها ستون أو سبعون سنة ويموت، فلا تُضيع عمرك في حياة مدتها سبعون سنة وبعدها تذهب إلى الجحيم وهناك تمكث فيها آلاف السنين ،كما قال: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾[النبأ:٢٣] في عذاب

---

(١) ينظر: الحجة للقراء السبعة (٤/ ٣٤١)، وهي قراءة الكسائي.

وحريق، والعياذ بالله.

الشرط الثالث المذكور في قوله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾، فمن آمن وعمل صالحًا، فقد أصلح نفسه، وبقي عليه أن يسعى في إصلاح غيره، فالإسلام لا يكتفي من الفرد بإصلاح نفسه فقط، بل لا بد أن يصلُح ويُصلِح غيره، **والتواصي**: صيغة تفاعل بين طرفين، يعني: تُوصني وأُوصيك، باعتبار أن عندي نقصًا، وعندك نقصًا، فكلٌ منا ينصح الآخر؛ ليكمل النقص الذي لديه؛ فـ**"المؤمن مرآة أخيه"**، كما في الحديث(١)، والحق إذا أُطلق يقصد الصواب والخير، فليس فيه شر، وليس فيه باطل، كما قال: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[يونس:٣٢]، فالحق يشمل: الحق في الدين، وأعظمه التوحيد، فالشرك ليس بحق، والنفاق ليس بحق بل باطل، ثم أداء العبادات كما شرع الله فهي حق، والبدعة فيها من الباطل، وهكذا... فالحق هو كل ما كان صوابًا من أمور الدين، وأمور الدنيا، وأمور الأخلاق، وأمور الأعراف والعادات الحسنة، ومطلوب من كل مسلم التواصي به حتى ينتشر العمل به وتقل مخالفته وينعم الجميع بآثار ظهوره وغلبته.

الشرط الرابع: المذكور في قوله: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾، فإذا آمنت وعملت صالحًا ووصيت نفسَك وغيرك بالحق، فلن تسلم من الأذى، ولن يقبل الحق منك كل الناس، فالرسل جاؤوا بالحق ورفضه أقوامهم، وآذوهم؛ فتحملوا وصبروا على تكذيبهم وأذيتهم، وهكذا يجب على أتباع الحق أن يبلغوه ويصبروا على التكذيب والأذية لهم، وقد قرن هنا بين التواصي بالحق

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد: (ص: ٩٣)، برقم (٢٣٨)، وقال الألباني: حسن.

والتواصي بالصبر؛ إشارة إلى ضرورة أن تصبر على الأذى الذي يحصل لك أثناء نشر الحق، والعمل به، ويشمل التواصي بالصبر أنواعه الثلاثة، وهي: الصبر عن معاصي الله، والصبر على طاعة الله، والصبر على الابتلاءات والمصائب، وفي سورة أخرى قرن الأمر بالتواصي بالصبر، بالتواصي بالمرحمة، كما في قوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾[البلد:١٧]، **فصار عندنا ثلاثة أنواع من التواصي**: التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والتواصي بالمرحمة، والعلاقة بين هذه الثلاثة واضحة، فما دام أنك ستوصي غيرك بالحق، والحق غالبًا مرٌّ لا تقبله النفوس، فسيوجد من يُؤذيك، فتحتاج إلى أن تتواصى مع أخيك بالصبر حتى يظهر هذا الحق، وأثناء التواصي بالحق والتواصي بالصبر ستضيق النفوس وتشتد، فتحتاج إلى الرحمة من أجل أن تزول الشحناء، فكما تُريد أن تُحرك تروس مكينة لتشغيلها بكل سهولة؛ فلا بد أن تضع لها قليلًا من الزيت، فالرحمة هنا بمثابة الزيت الذي يُلين النفوس ويسهل التعامل معها بدون مشقة!!، والتعبير بالتواصي مأخوذ من الوصية التي تتم قُبيل الموت، وفيه معنى الوداع، ففيه إشارة إلى قرب الرحيل والمفارقة لغيرك، فاترك له أثرًا طيبًا في نفسه، والحقيقة أن الجميع على سفر في هذه الدنيا، فعلينا بالتواصي قبل الرحيل، فربما لا نلتقي، وفيها كذلك معنى الرقة والهدوء، فلا تنصحُ غيرك بطريقة خشنة، فلا يقبل منك، فالوصية في الغالب تكون بأسلوب هادئ وسهل.

فوائد وهدايات من السورة:

١ – أن هذه السورة كافية للناس؛ لو تدبروا ما فيها.

٢ – أن الإيمان يشمل: جميع تفاصيل الإيمان، وأن العمل الصالح يشمل: جميع تفاصيل العمل الصالح، من عبادات وطاعات، وأي عمل فيه صلاح للبشرية وللأمة.

٣ – أن التواصي بالحق؛ مطلوب من أجل أن ينتشر هذا الحق ولا يضيع، ولا يكتفي الإنسان بصلاحه وحده، بل لا بد أن تكون له نية في إصلاح نفسه وغيره، وبهذا يصلُح المجتمع، وتصلُح الأسرة، ثم الأمة والبشرية كلها.

٤ – أنه لا بد من التواصي بالصبر لأن التواصي بالحق سيُؤدي إلى وجود أذية من المخالفين، فلا بد أن يُوصي بعضُنا بعضًا بالصبر على ذلك.

٥ – أنه أثناء التواصي بالحق وبالصبر على الأذى، قد تُوجد نوع من الحزازات في النفوس وتظهر الآلام والمشقة، فلا بد من التراحم، وإعمال الرحمة في هذا وذاك حتى تسير الأمور في انسيابية وسهولة؛ فتستقر الحياة ويتقبل الناس دين الله سبحانه وتعالى، ويفوزون بالربح والفلاح، وينجون من الخسارة والهلاك.

تفسير سورة الهُمَزة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ٩﴾.

شخصية السورة:

سورة الهمزة: سورةٌ مكية[(١)]، نزلت قبل الهجرة، وتتصف بالصفات التي يمتازُ بها القرآن المكي من قِصَر الآيات وقلة عدد آياتها، إضافة إلى حديثِها حول قضية لها علاقة بالإيمان والاستقامة وصلاح النفوس، **ومقصدها الأعظم هو:** التحذير من الاستهزاء بالمؤمنين سواءً كان ذلك باللسان أو بالجوارح.

وجاءت هذه السورة في الترتيب بعد سورة العصر، التي ذكر الله فيها صفات المؤمنين الناجين من الخسارة، وذكر هنا صفات الخاسرين، وهم أصحاب الأخلاق السيئة وأصحاب المال مع قِلة إنفاقه، وعدم الإيمان بالله سبحانه وتعالى[(٢)].

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٨١).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٢٤٣).

وقد افُتتحت سورتان في القرآن بلفظة "ويل": الأولى سورة المطففين، والثانية هذه السورة، ففي الأولى تهديدٌ ووعيدٌ للذين ينتقصون المكيال والميزان، وفي هذه تهديدٌ ووعيدٌ للذين ينتقصون الأعراض.!

وقوله: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١﴾، **المقصود به** الوبال الشديد، **الويل هو** الوبال الشديد، وهو في الحقيقة دعاءٌ بالهلاك على من تحققت فيه الصفات المذكورة بعده، فالويل هو الشدة، والعذاب، **وقد قيل**: وادٍ في جهنم لو سُيرت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره[(١)]، ولكن اللفظ في اللغة أعم من أن يُحصر باسم وادٍ في جهنم، فيشمل ما سبق كله، وجاء بصيغة الرفع على أنه مبتدأ وهو أقوى من أن يكون على النصب؛ لأن الاسم المرفوع أقوى في الدلالة والاستمرار من الاسم المنصوب، **ومثله في قوله تعالى**: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾[هود:٦٩]، **وقد قيل**: كيف يرد التحية بمثلها وهو نبيٌ، والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ﴾[النساء:٨٦]؟!!، **والجواب**: أن قوله: ﴿سَلَٰمٞ﴾ أبلغ من قولهم: ﴿سَلَٰمٗا﴾، لأن الرفع أقوى من النصب، فتحققت الزيادة، في قوله على ما قالوا له[(٢)]، كما لو قال لك شخص: السلام عليكم فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله، فتكون قد رديت التحية بأحسن منها امتثالًا للأمر، وهذا الويل مُوجه لكل هُمَزة، **وفي معناه عدة أقوال**[(٣)]، **منها**: اللمز بالجوارح، والهمز

---

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢/ ٢٧٢).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢٨/ ١٧٥).

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٨٨).

باللسان، **وقيل**: إن الهمز بالجوارح، واللمز باللسان، **ويشهد لذلك قوله تعالى**: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[التوبة:٧٩] ومعروف أن ذلك كان في المنافقين بالكلام، فقد كانوا إذا رأوا مُتصدقًا بصدقة كبيرة، قالوا: مُراءٍ، وإذا تصدق بقليل. **قالوا**: هذا بخيل، ما يفعل الله بصدقتك هذه، فيلمزونه **أي**: يسخرون منه ويطعنون فيه بألسنتهم ويتحدثون عنه فيما بينهم، **وقيل**: **الهمزُ**؛ الطعنُ في الشخصِ في غيابه، **واللمزُ**؛ الطعنُ فيه بحضوره، **وقيل**: العكس، **وقيل**: الهمز واللمزُ، العَيابُ والغَيابُ: تعيبُه تطعن فيه، وتغتابُه، وقد وصف الله سبحانه وتعالى بعض الكافرين مثل الوليد بن المغيرة وغيره كما في قوله: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾[القلم:١٠-١١]، فوصفه بأنه همَّاز، **أي**: أنه يعيب في رسول الله ﷺ ويطعن فيه، والراجح: أن معنى الهُمزة اللُمزة؛ هو ذكر الشخص بعيبٍ والاستهزاء به سواءً كان ذلك في حضوره أو في غيابه، في شكله أو في لُبسه أو حركته أو وضعه، أو ذكره بما ليس فيه(١).

وقوله: ﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢﴾، هذا وصف آخر له، فهو سيءُ الأخلاق، وسيءُ الظن بالناس، يطعن في هذا، ويتكلم في عرض هذا، ويحقدُ على هذا، ويحسدُ هذا، فأخلاقُه سيئة، وتربيتُه رذيلة، وسلوكه مشين، وتعاملاتُه مع الآخرين قبيحة، وهو أيضًا جَموعٌ للمال بخيلٌ في إنفاقه، ولكثرة ماله فقد انشغل بعدِّه، لأن المال القليل لا يُعد، فانشغل بعدّه في الليل، كما انشغل بجمعه في النهار، ونكّر المال هنا ليدل على أن هذا الشخص حريص على جمع المال من

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٨٤).

حِله وغير حِله، فهمه الأكبر أن يحصُل على المال بأي سبب.

ثم بيّن سبب الحرص على ذلك، فقال: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾، **أي:** يظن أن هذا المال الذي يجمعه؛ سيجعلُه خالدًا في الدنيا ولن يموت، وهذا ظنٌ باطلٌ مُخالفٌ للواقع، فإن كلاًّ من الغني والفقير يموت، بل ربما يموت الغني قبل الفقير بسبب همه في جمع المال والاهتمام به، والواقع أنه لا يخلّد أحد في هذه الدنيا، فهذا محمد ﷺ، إمام المتقين وأكرم الخلق على الله قد مات، **كما قال:** ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾[لرحمن:٢٦-٢٧]، فهو الحي الباقي الذي لا يموت سبحانه، أما الخلق فكلهم يموتون، وهذا الظن السيء من هذا الإنسان يدل على جهله بحقيقة الحياة، وجهله بحقيقة من يمنح العُمر ومن يأخذ الأرواح، وهو الله سبحانه، ولا علاقة للمال ولا السلطان ولا الجاه ولا الحسَبِ ولا النسبِ بذلك.!!

ثم قال الله: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾، **كلا**، حرف ردع وزجر، تبطل ما قبلها من كلام، فهذا الرجل الذي ظن أن المال سيُخلده، **فقيل له:** ظنُك هذا باطل، فالمال ليس سببًا للخلود، والنبذ، هو الطرح بشدة(١)، وفيه معنى الإهانة والإذلال والكُره، **والمعنى:** ليُنبذنّ هذا الشخص الذي جمع المال وعدده مع سوء أخلاقه مع الخلق، فيُطرح ويُرمى بشدة، **وفي قراءة:** (ليُنبذان)(٢)، **أي:** هو ومالُه في النار.

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٥/ ٣٨٠).

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء (٤/ ١٥٢).

وقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥﴾، هذا التعبير يفيد التهويل والتفخيم والتعظيم، ويلفت انتباه السامع إلى الشيء الذي يُريد أن يخبره عنه، ما عظمَتُه؟! وما شأنُه؟! وما حجمُه؟! وما خُطورتُه؟!.

ثم بيّن ما هي الحطمة، فقال: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾، **فالحطمة** اسمٌ من أسماء النار، **وقيل**: درَكةٌ من دركَات النار، **وقيل**: فُوهة النار، وسُميت بالحُطمة؛ لأنها تحطِمُ من يُلقى فيها(١)، **أي**: تكسر عظامه، وتُخلخل أضلاعَه، والتحطيم هو ضرب الشيء حتى يتقطع ويتمزق، **وقد جاء في الحديث**: **"شر الرُّعاة الحُطَمة"**(٢)، **والرُّعاة** جمعُ راعٍ، وهو الذي يرعى الأنعام ويتعامل معها بشدة، وهو مثلٌ ضربه الله لرعاة الأنعام، ويدخل فيه كل من يرعى حقًا من حقوق المسلمين فيشقّ عليهم، وأضاف النار إلى نفسه للتعظيم، فإن النار تكون شديدة الحرارة قوية كبيرة بقوة وشدةٍ وعظمةٍ من أوقدَها، فلما نقول: نار الكبريت، ستكون قيمة هذه النار إلى عود الكبريت، ولكن لما نقول: نار البراكين، نسبة هذه النار إلى البركان، فلما أُضيفت إلى الله؛ المقصد منه تعظيمها، فالذي أوقدها هو الله العظيم ذي القوة والجبروت سبحانه وتعالى، فإذن لا تسأل عن شدتها وعظمتها وحرارتها وأثرها في من يُلقى فيها، ووصفت بأنها مشتعلة لا تنطفيء.

وهنا مسألة تناقش فيها العلماء: هل تفنى النار؟! الصحيح أن نار الكافرين لا تفنى، وأنها تستمر بالاشتعال، وهم لابثين فيها أحقابًا أبد الآبدين، وإن كان

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٨٥).

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٤٦١)، برقم (١٨٣٠).

من فناءٍ للنار؛ فهو خاصٌّ بالنار المُخصصة للعصاة الذين يدخلون فترة مُحددة ويتطهرون فيها بسبب معاصيهم وعندهم أصل التوحيد والإيمان؛ فيخرجون منها، فتنطفئ نارُهم.

وقوله: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧﴾، أي أن هذه النار المشتعلة؛ إذا أُلقي فيها الأشخاص الذين يستحقون العذاب؛ فإنها تحرقُهم وتحطم أعضاءهم، ويصل حريقها ووقودُها وشدةُ حرها إلى سُويداء قلوبهم، وهي الأفئدة، وذكر الفؤاد لأنه حساس جدًا في الآلام وفي المشاعر، ووصول النار إلى الأفئدة، علامة على نضج الجلود واللحوم، ثم يبدلون غيرها، **كما قال الله تعالى**: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾[النساء:٥٦]، فلا يموتون، **كما قال**: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ١٣﴾[الأعلى:١٣]، **وقال بعضُ أهل العلم**: إن النار يمنحُها الله سبحانه وتعالى قدُرات فتطّلع وتنظر في فؤاد صاحبها ماذا عنده من جرائم كانت موجودة في قلبه في الدنيا، فيُعطيها الله من العذاب والعقاب على ضوء نسبة تلك الجرائم والمعاصي[(١)]، **فيكون معنى تطلع**: تنظر في مقدار ما يستحق صاحبُها من العذاب، ولذلك يتفاوت عذاب الكفار والعصاة في جهنم بحسب ذنوبهم، كما تتفاوت درجات ونعيم أهل الجنة بحسب حسناتهم، وهو قولٌ وجيه.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨﴾، أي أن النار تكون مغلقة على أهلها الذين اتصفوا بهذه الصفات، مؤصدة ومُوصدة، كلاهما بمعنى واحد، **أي**: مُطبقة عليهم من جميع الجهات، أو مُغلقة عليهم، من أوصد الباب إذا أغلقه،

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٤٦٢).

وفائدة قفل الأبواب على من أُدخل النار؛ إشعارهم باليأس والإحباط والقنوط، فلو بقيت الأبواب مفتوحة لحصل عنده أمل في الخروج.

ثم ختم هذه السورة، بقوله: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾، **العَمَد والعُمُد** جمع عمود، وهو الشيء الطويل يقوم عليه غيره، والمقصود بها هنا الأعمدة تُغلق بها الأبواب بإحكام، حيث يوضع خلف الباب عمود ممدود بحيث لا يُمكن أن يُدفع الباب بسهوله، كما يفعل الآن في المخازن المهمة والخطيرة فلا يكتفون بهذه الحلْقة أو القفل، يجعلون القفل عبارة عن عمود من ركن الباب إلى ركنه، فهنا جاءت العُمُد لتضيف مزيدًا من الإحكام في إغلاق أبواب النار بحيث يشعر من بداخلها أنه لا مجال لفتحها.

وفي هذه السورة قال: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾، **وفي سورة البلد قال:** ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾[البلد:٢٠]، فقط، ما السر في ذلك؟!! **الجواب:** في سورة البلد ذكر الله هناك الكُفر المُطلق، وهنا ذكر مع الكفر معاصٍ أخرى، فهذه المعاصي الأُخرى عقابها في الآخرة لها من جنس فعلها في الدنيا، كما قال: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النبأ:٢٦]، فهذا الرجل لما جمَّع المال وعدده وأوصده وكنزه وحبسه في الدنيا عن أن يُنفق في طاعة الله؛ حبسَه الله في جهنم وزاد مع الحبس العُمُد الممددة التي فيها إشعارٌ باليأس والقنوط من أنه لن يخرج من هذا المكان.

فوائد وهدايات من السورة:

١ – أن الهمز واللمز هو ذكر الشخص بالعيب والاستهزاء به سواءً كان ذلك العيب في حضوره أو في غيابه، في شكله أو لُبسه أو حركته أو وضعه، أو ذكره بما ليس فيه.

٢ – أن النار يمنحُها الله سبحانه وتعالى، قدُرات فتطّلع وتنظر في فؤاد صاحبها ماذا عنده من جرائم كانت موجودة في قلبه في الدنيا، فيُعطيها الله من العذاب والعقاب على ضوء نسبة تلك الجرائم والمعاصي.

٣– أن العُمُد الممددة جاءت هنا لتضيف مزيدًا من الإحكام في إغلاق أبواب النار بحيث يشعر من بداخلها أنه لا مجال لفتحها، فينقطع عنده الأمل من الخروج.

تفسير سورة الفيل

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢
وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ
مَّأۡكُولِۭ ۝٥﴾.

شخصية السورة:

سورة الفيل؛ مكية، وتحكي لنا قصةً حصلت قبل أن يُولد النبي ﷺ، وصارت العرب تُؤرخ بها، ومنها ولادة النبي ﷺ، فيقال: وُلد النبي ﷺ في السنة التي وقعت فيها حادثة الفيل، فما هي قصة أصحاب الفيل؟! ذكر المؤرخون أن أبرهة الأشرم، وكان نصرانيًا يحكُم صنعاء، وكان يستغرب أن العرب لديهم بيتٌ عظيمٌ في مكانٍ شبه صحراء، لا زرع فيه ولا كثير من وسائل الراحة، يحج إليه الناس ويعظمونه، بينما صنعاء مدينة من المدن، فالأولى أن يكون مثل هذا البيت فيها، فوقع في نفسه حسدٌ شديد للعرب، فأراد أن يصرف أهل الجزيرة كلهم عربهم وعجمهم إلى بيتٍ غير ذلك البيت، فبنى بيتًا كبيرًا ضخمًا في صنعاء **وسماه**: (القُلَّيس)، **قال بعضُ أهل اللغة**: إنما سُمِّيَ قُلَّيسًا لأن العرب كانوا يلبسون القُلَنسُوة، وهي غطاء للرأس ذو قبة، وكانوا إذا نظروا إلى

البيت من ارتفاعه تسقط عليهم، فسُمي بهذا الاسم؛ لأنه شديد الارتفاع[(١)]، ثم زيّنه وجمّله، ودعا الناس إلى زيارته والطواف حوله، كما يفعل العرب حول الكعبة، فجاء أحدُ الأعراب، **قيل**: إنه من قُريش، **وقيل**: من غيرهم، فدخل هذا البيت ثم تغوَّط ومسَحَ بجدرانه، ثم هرب، فبلّغ سدنة البيت أبرهة بما حصل، فأقسم أبرهة ليغزون مكة بجيشٍ عظيم، ويُحطم ويُدمر البيت الحرام، ويجعله عبرةً للمُعتبرين، فجمع جيشًا عظيمًا وجعل ضمن هذا الجيش عددًا لا بأس به من الفيلة، وكان على رأس هذه الفِيلة فيل عظيم يُطلق عليه محمود وهو ضخم جدًا، ونادى في الناس بالرحيل من اليمن باتجاه مكة حتى يهدم الكعبة، فقام بعضُ أهل اليمن من المناطق البعيدة من صنعاء بمحاربته ومنعه، ولكنه هزمهم، وفعل ذلك القبائل التي تليهم، حتى وصل إلى قبيلة ثقيف، فهادنته وأرسلت معه أبا رغال، ليدل أبرهة على الطريق إلى الكعبة، فلما وصل أبرهة إلى منطقة المُغمِّس، وهو وادي خلف عرفة من جهة الطائف، وكان هناك إبل وأغنام لقريش ترعى هناك، فأخذها واغتنمها وأرسل شخصًا إلى قُريش يُبلغُهم أنه قادم لهدم البيت فمن تركني وشأني فلن أقترب منه، فهدفنا هدم البيت وليس لنا هدف في أموالكم أو في قتل رجالكم، فوصل الخبر إلى عبد المطلب، وكان سيد قريش آنذاك، وكان قد بلغه أن هذا الجيش قد أخذ عليه مائتين من الإبل من ذلك الوادي، فقال له الرسول: إن أبرهة أرسلني أُبلغك أنه قادمٌ لهدم البيت،

---

(١) ينظر: الروض الأنف ت السلامي (١/ ١٣٦).

فقال له عبد المطلب: للبيت ربٌّ يحميه، فقال: تعال معي لتُخبره بنفسِك، فأخذه معه، وكان عبد المطلب رجلًا سمينًا ضخم الجثة، فلما جاء عبد المطلب كبُر في عينه، ونزل له من سريره وجلس بجواره، وقال له: ماذا تريد؟! قال: أُريد إبِلي التي أخذها جنودُك، فقال: ظننتُك أتيت لتردني عن البيت، قال: للبيت ربٌّ سيمنعه ويحميه، وأنا ربُّ إبلي، فقال: لن يمنعني منه أحد، فقال: أنت وشأنُك، فقال: أعطوه إبلَه، فأخذ إبله وذهب، فأبلغ أهل مكة، أن يرتفعوا إلى الجبال حتى لا يحطمهم هذا الجيش، ثم نزل هو ومجموعة من كبار قومِه، وتعلّقوا بحِلق البيت، ودعوا الله سبحانه وتعالى، مع أن قريشًا تعبد الأصنام، ولكن وقت الشدة يرجعون إلى الله، فقال أبياتًا جميلة، منها **قوله:**

يا رب إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك   لا يغلبن صليبهم ومحالهم محالك

ثم دعا وابتهل هو ومن معه، ثم غادروا وصعدوا إلى الجبل، فجاء الجيش حتى إذا وصل إلى نهاية مُزدلفة وبداية مِنى في وادي يُسمى وادي مُحَسِّر، برك الفيل، فخطموه وضربوه؛ فأبى أن يتحرك، وغضب أبرهة، وأتى بساسة الفيلة كلهم، فكانوا إذا وجّهوه جهة اليمن مشى، وإلى جهة مكة يرفض ويبرُك، حيث حبسه الله سبحانه وتعالى أن يقترب من البيت، وبينما هم هكذا مشغولين بالفيل إذ أرسل الله سبحانه وتعالى عليهم مجموعةً من الطيور من جهة البحر لم يرها الناس من قبل، جاءت على شكل جماعات متتابعة، وأتى كل طير ومعه ثلاثة أحجار كحب العدس صغير، حجر في منقاره، واثنتين في رجليه، فلما أظلتهم كالغمام فوق رؤوسهم؛ أسقطت عليهم تلك الأحجار وكل حجرٍ كان يُصيب

شخصًا، فإن أصابه في رأسه خرقه حتى يخرج من دبُرِه، فبعضُهم يهلك في الحال، وبعضُهم يمشي حتى تتقطع أعضاؤه، وكان أبرهة ممن أُصيب في غير رأسه، فمشى مسافة كبيرة وجسمُه يتقطع حتى هلك، وقريش تنظر إليهم من رؤوس الجبال، ورأت بأعينها هذه المُعجزة، وهلك أبرهة مع جيشه وفيله، وحمى الله بيته من الهدم، فهذه قصة أصحاب الفيل، وكانت قبل مولد النبي ﷺ(١)، ويذكرها علماء السيرة كإرهاصات لمجيء نبي جديد.

يبقى سؤالٌ: لماذا حمى الله البيت الحرام مع أن أهل مكة مشركون وداخل الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، وكان ممكن أن يهدمها أبرهة، ثم يُبعث النبي ﷺ وتبنى من جديد؟!!

والجواب: أن مكة والبيت الحرام هو مركز قبائل العرب، ومكان حجهم، ولا بد أن يبقى كذلك؛ لكي تكون الأجواء مُهيأة لبعثة رسولٍ من العرب في مكانٍ تلتفت إليه أنظار الناس، ولو هُدم البيت وتشردت قريش، فلن يأتي أحد للحج، لذلك حمى الله البيت، والأمر الآخر أن حادثة هلاك أبرهة والجيش كانت إرهاص لولادة وبعثة النبي ﷺ، فقد وُلد النبي ﷺ في هذا العام، ثم عاش بعده أربعين سنة، وعلى رأس الأربعين من حادثة الفيل بُعث رسولًا ونبيًا إلى الناس كافة، فأخبره الله سبحانه وتعالى بقصة أصحاب الفيل للعظة والعبرة.

ووجه التناسُب بين سورة الهمزة وسورة الفيل، أن اللهُ ذكر في الهمزة عاقبة من اغتر بماله، وفي الفيل ذكر الله عاقبة من اغتر بجنده وسلطانه، وفي سورة

(١) ينظر: سيرة ابن هشام ت السقا (١/ ٤٩-٥١).

الهمزة ذكر عقاب الطغيان في الآخرة وهو النار المؤصدة، وفي سورة الفيل ذكر عاقبة الطغيان في الدنيا وهو الهلاك الذي سلطه الله عليهم بالطير فجعلتهم كعصفٍ مأكول، فالسورتان بينهما تشابُه وترابط[١].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾، الخطاب لمحمد ﷺ، والهَمْزة للاستفهام، ولم للنفي، **ولماذا قال: (تَرَ)**، مع أنه لم يرَها، فقد كانت قبل ولادته؟! **والجواب:** أن الأخبار كانت متواترة فيها، فمنذ أربعين سنة والنبي ﷺ يسمع تلك الأخبار من قومه عنها، ثم إن معرفة الكيفية هي المطلوبة من التذكير بالحادثة، لا مجر معرفة حصولها، فكان التعبير بالرؤية أبلغ، للفت انتباهه إلى الكيفية التي تم بها هلاك أصحاب الفيل، وهي التي فيها مظاهر الإعجاز العظيم.

فقد أتى القوم بجيش كبير وفيل عظيم لهدم البيت، والله تعالى ردهم وهزمهم بطير صغير وبحصى مثل حبة العدس، فإذًا الكيفية عجيبة، وكان من الممكن أن يهلكهم الله بصاعقة أو غرق، ولكنه أهلكهم بهذه الكيفية ليريهم قوته.

وقوله: ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾، ولفظ الرب هنا له مغزى، فكلمة الرب فيها معنى الحماية والدفاع، **ولذا يُقال:** رب الأسرة، رب البيت، فهلاكهم بهذه الكيفية فيها حماية للبيت، وهذا من بلاغة النظم القرآني أن يأتي من أسماء الله أو صفاتِه بما يتناسب مع الحدث.

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٢٤٩).

وقوله: ﴿بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾، أضاف الجيش إلى الفيل، وأسقط اسم أبرهة لتحقيره، ونسب القوم إلى الفيل؛ لغفلةِ أصحابِه وعدم انتباههم لعظمة البيت، والأصل أن يُنسب الشيء إلى صاحبِه، فهم مُلاك الفيل، والفيل تبعًا لهم، ولكن لما لم يكن لهم سيطرة عليه نسبهم إليه.

وقوله: ﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ٢﴾، **الكيد** هو المكر الخفِي السيء لأذية الآخرين، **وقد يقول القائل**: كيف سماه الله كيدًا مع أن الرجل قد أعلن في صنعاء أنه سيهدم البيت ودعا الناس لذلك واستمر يمشي حوالي شهر حتى وصل؟!! **والجواب**: أن هناك دافعين: دافع ظاهر وهو ما أعلنه، ودافع خفي وهو الحسد وإرادة صرف الناس من مكة والبيت الحرام إلى البيت الذي بناه في صنعاء، وما ذكر من قضية تلطيخه بالأذى إلا البحث عن وسيلة لإقناع الرأي العام لمناصرته، مثل ما تعمل اليوم بعض الدول الماكرة، فلا تظنوا أن بعض الأحداث تكون حقيقية، بل بعض الأحداث تكون الدولة نفسها هي التي فعلتها؛ من أجل أن تُوجِد مُبرراً للحرب مع غيرها، مثل ما ذكر من سبب دخول أمريكا فيتنام، أو حادثة ضرب أبراج التجارة في أمريكا، أو قصة أسلحة الدمار الشامل في العراق، وغيرها، فكلمة الكيد جاءت على بابها وهو المكر الخفي لهذا الرجل، فأظهره الله سبحانه وتعالى.

واستخدام كلمة (جعل) هنا له مغزى أيضًا، وهي بمعنى صيّر، أي أنهم كانوا يريدون شيئًا لصالحهم؛ فرده الله عليهم، حيث أراد أن يصرِف الناس عن البيت الحرام إلى بيتِه الجديد، فحوّل الله هذا الكيد ضده؛ فدُمرت مملكتُه كلها،

وذهب هو وجندُه، وعبّر عن هلاكهم بكلمة (تضليل)، وأتى بها بصيغة المبالغة، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فكلما حاول أن ينجح في كيده، فشل، مرة بعد مرة، فدل على تعدد الفشل، أو تعدد الكيد وتنوع أساليبه، وتضليل تفعيل من الضلال، وهو الهلاك، وهو الفشل وعدم النجاح، وأنهى الله هذا الكيد بوسيلة سهلة، فقال: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾، **والرسول**: شخصٌ يبعثه الله لإنجاز مُهمة، **قال بعض أهل العلم**: أي خلق الله تلك الطير في الحال من أجل أن تقوم بالمهمة، وقد تكون هذه المهمة هي الوحيدة في حياتها، خاصة إذا كانت هذه الطير أُنشئت في الحال وليست طيرًا عادية، وبعضُهم قال: إنها طير من طيور البحر، أرسلها الله وعلّمها كيف ترميهم[1]، وهذا من تدبير الله سبحانه وتعالى في خلقه، واختيار الطير لتنفيذ المهمة؛ ليُبين للخلق أن نصره ليس بكثرة البشر، ولا بعتاد الجيش وقوتهم، وإنما بتوفيق الله وتأييده، ولماذا نكّر لفظ الطير؟!، **قيل**: إن التنكير للتحقير في مقابل عظمة الفيل؛ ليُظهر عظمة الله فيها، **وقيل**: إن التنكير للتعظيم، فالطير من الجند العظيمة[2]، بدليل أن الله جمع بينها في قصة سليمان مع الجن والإنس، **كما قال**: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾[النمل:١٧] فهي عظيمة، بل إنّ عمل الهدهد في قصة سليمان أبلغ من عمل المارد والجان والكبار من القوم، ولذلك فالتنكير للتعظيم، وهي من جند الله التي لا يعلمها إلا هو كما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر:٣١]، **والأبابيل**، جمع، **قال بعضُهم**: لا مُفرد له من نوعه، **وقال آخرون**: أبابيل جمع

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٤/ ٦٣٠).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٩١).

إيبيلة أو إبَّالة، مثل دينار ودنانير[١]، **والمعنى**: كثيرة متتابعة وتجيء على شكل جماعات متتابعة من جهات مختلفة، وفي هذا إعجاز في السبق العسكري، فاليوم يُدرس في كليات الطيران الحربي هذا النص كإعجاز عسكري، وهو الهجوم بأسراب الطيران، ليحمي بعضها بعضًا ويكون ذلك أكثر تأثيرًا في العدو.

وقوله: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ بيان لنوع السلاح المستخدم في إهلاكهم وطريقة استخدامه، وكان بالإمكان أن يُهلكهم الله بالخسف أو بالصيحة، ولكنه اختار هذا النوع من الهلاك بهذه الوسيلة، ليُريَ الخلق صورةً واضحة لقدرته وقوته، فكان هلاكهم بواسطة الرمي بحجارة من سجيل، وهو: الطين المطبوخ بالنار، **وقيل هو**: النار[٢]، والأول أرجح، كون الطير حمله بمنقاره ورجليه ولم تحرقه، والإعجاز فيها أقوى، وفيها إشارة إلى أهمية الرمي في القتال، **وفي الحديث**: **"ألا إن القوة هي الرمي"**[٣]، وفيها إشارة إلى صناعة الطيران الحربي، فالطيارة الحربية مصممة على شكل الطير وطريقة طيرانها مستفادة من طريقة طيرانه. فكانت نتيجة رميهم بتلك الحجارة الصغيرة أن صيّرهم مثل العصف المأكول، فتخيل الشاب القوي من هؤلاء الجنود، حين تصيبه هذه الحجرة الصغيرة في رأسه فتخرج من دبره، فيتحول إلى عصفٍ مأكول.

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة (١٥/ ٢٧٩).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٩٢).

(٣) رواه مسلم (٣/ ١٥٢٢)، برقم (١٩١٧).

قال بعض المفسرين: العصف المأكول؛ التبن الذي يتساقط أو يخرج في روث الحيوان، وقيل: العصف هو: القشرة التي على الحبة، كالغلاف على الحنطة، وقيل كطعام مطعوم[(١)]، وكلها معانٍ متقاربة، **والمعنى:** أنه هلك وتناثر جسده، ومن خلال النظر في مطلع السورة وفي خاتمتها، يظهر لنا الإعجاز البلاغي، ففي مطلع السورة وصف القوم بأصحاب الفيل، وهو وصف تعظيم للجيش عند إقباله بجبروته وطغيانه، وفي آخرها شبههم بالعصف المأكول عند هلاكه واندحاره، في صورة مُحتقرة جدًا كالتبن الذي أكله الحيوان وأخرجه من دبُره، وفي ذلك إشارة إلى بيان السبب في إهلاك أصحاب الفيل، فلم يكن السبب هو الكفر فقط، فأهل مكة كانوا كفاراً، وأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب، وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة آنذاك[(٢)]؛ وإنما السبب في إهلاك هؤلاء القوم هو الطغيان، ولو نظرنا في قصص الهلاك لوجدنا أن الإنسان الكافر بدون طغيان؛ قد يتركُه الله، ولكن حينما يجمع بين الكفُر الطغيان على الآخرين يهلكه الله، مثل النمرود وفرعون وقارون وغيرهم، وفي هذا تنبيه للبشرية كلها إلى خطورة الطغيان، والقرآن الكريم مليء بالأمثلة والنماذج عن الطغيان ونهايته الوخيمة، وهناك تشابه بين قصة فرعون وأبرهة، ففرعون قاد الجيش بنفسه، وتبع موسى للقضاء عليه مع بني إسرائيل الهاربين معه، وكان بإمكانه أن يرسل لهم قائداً من قواد جيشه بفرقة من فرق الجيش تتبعهم، ونفس الصورة

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٢٩٣).

(٢) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٧٤).

تكررت مع أبرهة؛ لأن الطغيان هو الذي يقود صاحبه إلى الهلاك، فقال: سأقود المعركة بنفسي، فقاد نفسه إلى الهلاك، وحفر قبره بظفره.!

فوائد وهدايات من السورة:

١- عظمة البيت الحرام ومكانته ودفاع الله عنه قبل ولادة النبي ﷺ.

٢- اختيار هذا النوع من الهلاك لأصحاب الفيل، وبهذه الوسيلة وتلك الكيفية، ليُريَ الخلقَ صورة واضحة لقدرته وقوته، وكان من الممكن أن يهلكهم الله بصاعقة أو غرق ونحوه.

٣- في ذكر الطير الأبابيل إعجاز في السبق العسكري، فاليوم يُدرّس في كليات الطيران الحربي هذا النص كإعجاز عسكري، وهو الهجوم بأسراب الطيران، ليحمي بعضها بعضًا ويكون ذلك أكثر تأثيرًا في العدو.

٤- من خلال النظر في مطلع السورة وفي خاتمتها؛ يظهر لنا الإعجاز البلاغي، ففي مطلع السورة وصف القوم بأصحاب الفيل، وهو وصف تعظيم للجيش عند إقباله بجبروته وطغيانه، وفي آخرها شبههم بالعصف المأكول عند هلاكه واندحاره، في صورة مُحتقرة جدًا.

٥- في قصة أصحاب الفيل إشارة إلى بيان السبب في إهلاكهم، فلم يكن السبب هو الكفر فقط، فأهل مكة كانوا كفارًا مشركين، وأصحاب الفيل كانوا نصارى، وإنما السبب في إهلاك هؤلاء القوم هو الطغيان الذي يقود صاحبه إلى الهلاك.

تفسير سورة قريش

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾.

شخصية السورة:

سورة قريش؛ سورةٌ مكية[(١)]، وترتيبُها في المصحف الشريف بعد سورة الفيل، وفي مُصحف أُبيّ ذُكرت بدون بسملة، حتى جعلها بعضُ المفسرين مع سورة الفيل سورة واحدة، **والصحيح** أنهما سورتان[(٢)]، وعلاقة سورة قريش بسورة الفيل واضحةٌ، فإهلاك أصحاب الفيل كان لأجلِ أن تستمر نعمة الأُلْفة والتآلُف في قُريش، أو لاستمرار نعمة تعوُّدِهم على الرحلة في أمنٍ وأمانٍ شتاءً وصيفًا، **أي:** أن ما جرى في سورة الفيل كان سببًا لاستمرار أمن وأمان قريش، **ومقصد السورة:** بيانُ نعمة الله سبحانه وتعالى على قريش، وأن هذه النعمة العظيمة تستلزم الشكر، وأن ما فعلته قريش خلاف شكر النعمة[(٣)].

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٩١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٦٢١).

(٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٢٦٠).

قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١﴾، **اللام** إما للتعليل أو للتعجُّب، **فإن قلنا:** للتعليل. فهي إما مُتعلقة بما قبلها أو بما بعدها، أما تعلُّقُها بما قبلها فستكون نتيجة وثمرة لهلاك أصحاب الفيل، وهي جواب لسؤال مقدر: لماذا أُهلك أصحابُ الفيل فصاروا كعصفٍ مأكول؟ **الجواب:** لأجلِ أن تستمر نعمة الأُلْفة والتآلُف في قُريش، وأما إذا قلنا: إن لامُ التعليل مُتعلقة بما بعدها، فإن التعلق سيكون في قوله: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾، **والمعنى:** أعطيناهم هذه النعمة؛ حتى يقوموا بعبادة الله حق العبادة؛ وإذا قلنا: إن اللام لام التعجب، فالمعنى: عجبًا لقريش وتعوُّدهم على استخدامهم نعمة الله سبحانه وتعالى مع كفرهم بها.!!

والإيلاف هو: التعوُّد، ألف الإنسان الشيء إلفًا وإيلافًا، إذا تعود عليه، وألِف الإنسانُ الشيء أُلْفةً وإيلافًا، إذا ائتلف[١]، **و يُمكن أن يجتمع المعنيان** ولا حرج في ذلك، فتقول: ألِفت قريش الرحلة بعد ائتلاف قلوبهم، وقد جاء في كتب السيَر والتاريخ أن قريشًا - وهم أولاد النضر بن كِنانة، **كما في الحديث:** **"إن الله اصطفى كِنانة واصطفى قريشًا من كِنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"**[٢]- كان عندهم أنَفة، وكانوا يعيشون متفرقين، فإذا أُصيب أحدهم بالمسغبة والجوع؛ خرج فنصب على نفسه وأهله خِباءً حتى يموت، ولا يتعرض للحاجة، حتى جاء هاشم بن عبد مناف، **فقال لهم:** لماذا

(١) ينظر: العين (٨/ ٣٣٦).

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٧٨٢)، برقم (٢٢٧٦).

تعيشون متفرقين؟ **قالوا**: وليّناك علينا ونحن تبعًا لك، **فقال**: اجتمعوا أغنياؤكم وفقراؤكم، وارحلوا شتاءً إلى اليمن وصيفًا إلى الشام، فما جمعه الأغنياء؛ يُوزع بين الفقراء، فأخذوا برأيه، فائتلفت قلوبُهم، وتعودوا على الرحلة، في كل سنة رحلتان: رحلة إلى اليمن شتاءً باعتبارها دافئة، ورحلة إلى الشام صيفًا، فتمولوا وذهب ما كان بهم من فقر، وعاد الأغنياء بمالهم على الفقراء، وصارت العرب تهابُهم باعتبار أُلفتهم واجتماعهم، وباعتبارهم أهل حرم الله وبيته[1]، ولا تعارض بين المعنيين: الأُلْفة والتعود، بل هما متداخلان.

وقوله: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢﴾، **إيلافهم هذه** بدل من إيلاف الأولى، أو توكيد لها، فقد ألفوا الرحلة، **وهي**: الارتحال وهو الركوب على الرحْل، **والرحل هو**: الذي يُوضَع فوق البعير، ولكن لكثرة الاستخدام صارت الرحلة هي الخروج من بلد إلى بلد لطلب الرزق أو للسياحة ونحوها، وتعودت قريش على ذلك لأن مكة صحراء لا زرع فيها، كما ذكر الله في دعاء إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾[إبراهيم:٣٧]، فكان مصدر عيشهم هو الصيد والتجارة عن طريق الرحلة، والتجارة في مكة مُربحة؛ لأن مكة يأتي إليها الناس للحج والعمرة، وإذا كثُر الطلب وقل العرض ارتفعت الأسعار فحصل الربح، وكانت تتم الرحلات التجارية عن طريق الاشتراك، حيث يُنتدب شخص منهم وتُجمع إليه الأموال؛ فيذهب بقافلة مكونة من مجموعة من الجمال ويأتي بالبضاعة من الشام أو من اليمن، وقد شارك نبينا

(١) ينظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٢/ ٢١١).

محمد ﷺ في تلك القوافل قبل البعثة وكان مندوبًا لتجارة خديجة بنت خويلد رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا(١)، وعبّر هنا عن الرحلة بالمفرد، والمقصود به الجنس، وإلا فهما رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام، وكان يقوم بها كبار التجار، ثم يتم تسليمها للتجار الصغار، مثل ما هو معروف اليوم بتجار الجملة وتجار التجزئة، وكل واحد يترزق الله من الآخر، والشتاء معروف، وهو أحد فصول السنة، فالسنة فيها أربعة فصول ذُكر هنا اثنان، الصيف والشتاء، وبقي اثنان هما الربيع والخريف، فالشتاء والصيف ليسا متتابعين، بل بينهما فصلٌ آخر، وكل فصل مدتُه ثلاثة أشهر، وفيها يتغير مناخ الأرض، درجة الحرارة والبرودة، وذلك كله من أجل أن يعيش الناس وفقًا لهذا المناخ؛ لأن الزراعة تحتاج درجة حرارة معينة، أحيانًا شدة البرد، وأحيانًا شدة الحر، وأحيانًا الاعتدال، كل شيءٍ خلقه الله وأوجده في هذا الكون فلحكمة، **لا تقل**: لماذا البرد لماذا لم يجعله حرًا؟ لماذا لم يجعله اعتدالًا؟ الله خالقٌ خلَقَ هذه الحياة لحكمة، وخلق هذه الفصول لحكمة مُعينة، فهناك حشرات وميكروبات وفيروسات يقتلها البرد، وهناك فيروسات وحشرات وهوام مؤذية للإنسان يقتلها الحر، فالله سبحانه وتعالى يقلّب الفصول لحكمة ولغاية يعلمُها وفيها مصلحة للخلق.

ثم قال سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾، **الفاء** هنا واقعة في جواب الشرط، **والمعنى**: أنعم الله عليكم بالإلف والأُلفة، فالواجب عليكم أن تعبدوه،

(١) ينظر: الفصول في السيرة (ص: ٩٤).

واللام لام التعليل، **والمعنى:** إنما فعلنا بهم تلك النعمة؛ من أجل أن يُخلصوا عبادتهم لله[1]، أو لام الأمر، **والمعنى:** ليعبدوا ربهم؛ لأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، وهل فعلت قريش ذلك؟! **الجواب:** لا، بل عبدوا غير الله، وكان الواجب عليهم أن يشكروه على ذلك، **وقد أشار إلى ذلك في قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾[إبراهيم:٢٨]، فقد نزلت في قريش، **ومثلها في قوله تعالى:** ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾[النحل:١١٢].

والمقصود بالقرية هنا مكة، والعبادة أعم من أن تعترف بأن الله موجود فقط، فقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، وإنما أيضاً أن تقوم بما هو واجب عليك نحو ربك الذي خلقك، **فلا يكفي أن تقول:** خلقني الله، ثم تعصيه وتكفر به، ولا تلتزم بأوامره ولا تجتنب نواهيه، فهذا يعتبر من الاستخفاف به، بل كلما عرفت الله ازددت التزامًا وعبوديةً له، فالعبادة: اعتراف، وتصديق، وإيمان، وعمل، وطاعة، وامتثال، وابتعاد عن ما حرم الله، أما قريش فقد كانت تعترف أن الله خلقها، ولكن ذهبت كل قبيلة منها وصنعت لها صنماً تعبده من دون الله!، تحت مبرر أن هذه الأصنام تُقربهم إلى الله، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى واسطة، واستخدم كلمة رب، فكأنه يُشير إلى لوازم هذه الكلمة للمخلوق وهي: أن

(١) ينظر: شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو (١/ ٥١٤).

يكون عبدًا له، لا عبدًا لغيره، فقد خلقه ورباه وأوجده فما باله يعبد ويطيع غيره.!!، وهذا: اسم إشارة إلى الكعبة، والألف واللام في البيت لتعريف العهد، فقريش والعرب ما يعرفون بيتًا إلا الكعبة، والإضافة هنا للتشريف، وفائدة ذكر البيت هنا، لأجل أن يُذكرهم بقصة حمايته، وكيف أن الله أهلك أصحاب الفيل بالطير الأبابيل، وحمى بيته، فهذا البيت هو سبب عزكم ومجدكم، وهو سبب لاحترام العرب كلهم لكم، فمن أعطاكم هذه المكانة؟ إنه الله، فاعبدوه.!!

ثم بيّن لهم بعض نعمه عليهم، فقال: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾، **الذي**: اسم موصول يعود على لفظة رب، **والمعنى**: اعبدوا الله الذي أطعمكم، وهذه نعمة عظيمة، تُسمى اليوم بالأمن الغذائي، فهؤلاء الخلق كلهم من يُطعمهم؟، هذه المخلوقات والكائنات الحية التي تأكل من يُطعمُها؟! إنه الله، فقد خلق الأرض وقدّر فيها أقواتَها، وأوجد وأودع فيها ما يكفيها من الأرزاق لكل من فيها من إنسان وجنٍ وحيوان، إذن فمن أين جاء الفقر إلى الخلق؟، **الجواب**: أتى الفقر إلى الخلق من أنفسهم، إما بمنعهم حقوق الآخرين، أو بعدم أخذهم بالأسباب التي تُوصلُهم إلى الرزق، **ففقرك ناتج عن أحد سببين: إما** أنك كسلان لا تأخذ بأسباب الرزق، وتعودت على الكسل والخمول، وأن تكون عالة على الآخرين، فلم تأخذ بالأسباب ولم تتوكل على الله، وقد ضرب النبي ﷺ لك مثلًا، فقال: **"لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خِماصًا وتعود بِطانًا"**(١)، فالطير في الصباح يخرج من عُشه متوكلًا على الله ويأخذ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ١٣٩٤)، برقم (٤١٦٤)، حكم الألباني: صحيح.

بالأسباب، ثم فما هي إلا ساعات ويعود إلى عشه وقد امتلأت بطنُه فيُطعم صغاره، وأنت إن فعلت مثل الطير، فستجد رزقك بإذن الله.

السبب الثاني: أن يوجد شخصٌ آخر منعك رزقك، فالغني لما يمنع الزكاة؛ فقد حرم الفقير حقه، والظلمة الذين يأخذون حقوق الناس، سواءً بالسرقة أو بالربا أو بالبطش أو بالحرمان أو بالمنع، فهم سبب في وجود الفقر، وإلا فالله سبحانه وتعالى قد خلق في الأرض ما يكفي أهلها، وهناك دراسات حول الأرض الزراعية على مستوى العالم، تبيّن أن ربع الأرض تصلح للزراعة، ولكن المزروع منها لا يُساوي نصف الربع، ثم الذين زرعوا وجاءتهم الأقوات، يتحكمون فيها ويمنعونها عن غيرهم، ولو علمت كم هي عدد الأطنان من القمح التي ترميها أمريكا في البحر كل سنة لاستغربت، لماذا؟ حتى لا يصير سعره رخيصًا، فهم يتحكمون في الإنتاج والتصدير، يريدون فقط أن يعيشوا هم ويموت الناس جوعًا وفقرًا، ثم يتكلمون عن الإنسانية وحقوق الإنسان!! وهكذا يفعلون في باقي المواد الأساسية، فضلًا عن منعهم بعض الدول من الزراعة، انظر إلى الأراضي حول نهر النيل ونهر دجلة والفرات والأنهار الموجودة في السودان والأنهار الموجودة في العالم الإسلامي، فلو استُغلت هذه الأراضي الزراعية ما رأيت فقيرًا مسلمًا، ولا غير مسلم، لكن تصرف البشر الظالم هو الذي جعل الفقر يحل بالبشرية.

والشاهد من هذا أن الله سبحانه وتعالى يمتن على قريش بمنة: (الأمن الغذائي) حيث وفره لهم وهم في ديارهم، وأرضهم ليست صالحة للزراعة،

وهذا الأمن الغذائي هو استجابة لدعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، لما وضع زوجته وابنه فيها ثم دعا لهم ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[إبراهيم:٣٧]، فصارت ثمار الأرض كلها اليوم تأتي إلى مكة.!!

ثم قال: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾، وهذه نعمة ثانية، لأنه لا يُمكن للإنسان أن يعيش في طمأنينة واستقرار وسعادة وهدوء **وعنده مشكلتان:**

الأولى: مشكلة الجوع تُؤرقه، **قال النبي ﷺ:** **"وأعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع"**[١]، فلا يدعك تنام، بل تبقى بطنك تقرقر، وقد يدفعك الجوع للسرقة والغش والخداع والقتل والنهب، **وكما في الأثر:** "كاد الفقر أن يكون كفرًا[٢].

والثانية: مشكلة الخوف، هو ضد الأمن، فالناس محتاجون إلى: أمْن للنفوس وأمن للبطون، ويُمكن أن يضاف إليه ما يُسمى اليوم بالأمن الفكري، وهو مذكور في قوله: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣﴾ بل هو شرط لتحقق أنواع الأمن الأخرى، فعند تحقق الأمن الفكري؛ سيمنحُك الله أمنين آخرين: أمنٌ في الطعام والشراب، وأمْنٌ في الأرواح والمنازل والأجساد، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾[الأنعام:٨٢] فالأمن الشامل في الدنيا والآخرة يستحقه من لا يُشرك بالله، من كان مؤمنًا بالله هو من عبد رب هذا البيت.

(١) رواه النسائي (٨/ ٢٦٣)، برقم (٥٤٦٨)، وقال الألباني: حسن.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ١٣)، برقم (٦١٨٨)، وقال الألباني: ضعيف.

فوائد وهدايات من السورة:

١ – الأُلفة والاجتماع نعمة، وما تُعانيه البشرية اليوم من فُرقة واختلاف نقمة.

٢ – التعود والاستمرار فيما يُؤدي إلى نجاح مشاريعك من رحلة تجارية أو زراعية نعمة؛ لأنه إذا تعودت النفوس وتمرنت صارت منتجة.

٣ – الأمن الفكري الذي يعني عبادة الله والاستقامة على طاعته وينتج عنه أمنٌ في الأوطان وأمنٌ في الأنفس وأمنٌ في الغذاء، والصحة، فهذا كله ناتج عن التوحيد والاستقامة، فالاستقامة تُورث النعمة، وتُورث الخير، وما تُعاني منه البشرية اليوم من الفقر، والخلاف، والحروب، وكل المصائب، سببه الإعراض عن الله وشرعه.

٤ – حاجة البشرية اليوم إلى أن تتدبر سيرة قريش وما ذكره الله عنهم حتى لا تتنكب الصراط، وحتى تعيش في أمنٍ واستقرارٍ في غذائها، وأوطانها، وأنفسها.

نسأل الله تعالى أن يُبصرنا جميعًا بعيوبنا وأن يرزقنا الاستقامة على دينه.

تفسير سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا
يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ
﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة الماعون؛ سورة مكية[(١)]، **وقيل:** نصفها مكي ونصفها مدني[(٢)]، وترتيبها في المصحف مائة وسبعة، وعدد آياتِها سبع آيات، **ومن مقاصدها** بيان أخلاق المكذبين بالدين والآخرة، تحذيرًا للمؤمنين، وتشنيعًا على الكافرين[(٣)]، وهي على قلتها في الآيات إلا أن معانيها كثيرة، والموضوعات التي تحدثت عنها مهمة، وعلاقتها بسورة قريش أنها تتحدث عن نعم الله سبحانه وتعالى على قريش، وأن هذه النعم لم تُشكر من بعضهم فلم يُؤمنوا، فكان منهم من كذب بالدين، فجاءت هذه السورة لتُبين جزاء المُكذب بالدين وأوصافه.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٩٣).

(٢) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (ص: ٢٦٥٠).

(٣) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٦٠٢).

قول الله سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾، **الهمزة** للاستفهام، والخطاب مُوجه للنبي ﷺ، ويصح أن يكون الخطاب لكل من قرأ السورة بعده، **والرؤية قد تكون بصرية بمعنى:** أرأيت بعينك من هذه صفتُه من الناس؛ لاشتهار أمره، ولوضوح تصرفاته في الواقع، أو تكون الرؤية قلبية، بمعنى: أعَلِمْت عن حال الشخص الذي هذه صفاته، وهذا الأُسلوب يسمى براعة الاستهلال، وهو أن تبتدئ بلفظ يُلفت انتباه السامعين، والذي اسم موصول مُفرد، يُفيد جنس من هذا وصفُه، فكل من هذا وصفُه داخلٌ في المعنى، أتى بالفعل المضارع، يكذّب، الذي يُفيد الاستمرار، فحال هذا الشخص دائمًا هو التكذيب، وهي صفة مستمرة فيه لا تنقطع، والدين، المقصود به ما يتدين به الإنسان من العقائد والشرائع والأحكام التي جاء بها محمد ﷺ، وهو الإسلام، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩]، أو يكون المقصود به: الجزاء والحساب، كما في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[الفاتحة:٤]، **أي:** يوم الجزاء ويوم الحساب، ومن كذب بالجزاء والحساب، فقد كذّب بالدين كله، لأن الدين كل لا يتجزأ، ومن لم يُؤمن بالبعث والنشور والحساب والجزاء لا ينفعهُ ما عمله من أعمال الدين في الظاهر ولو أكثر منها، ولأن هذا هو الذي كانت تُواجهه الرسل مع أقوامهم، وهو إنكار البعث والنشور، وكان عندهم بعض الأخلاق الطيبة مثل العفة والشجاعة والكرم، وهذه كلها من الدين، فإذن هم لا يُكذبون بالدين كله، بل هم يُمارسون بعض مُفردات الدين، وإنما مُصيبتُهم الكبرى هي عدمُ إيمانهم أن هذا الدين من عند الله من جهة، وأنهم لا

يُؤمنون بـالآخرة، فهـذه هـي أحـد أوصـاف ذلـك المكـذب؛ إنـه لا يُـؤمن بالحساب والجزاء ويُنكر البعث والنشور، وهـي أقبح صـفة لـه، فـأثّرت عليـه؛ فـصار يمـارس السلوكيات السيئة في الدنيا بسبب عدم إيمانه بـاليوم الآخـر، ولا ينتبـه إلـى عقوبتهـا، ولا يتذكر أنه سيقف بين يدي الله فيحاسـبه عليهـا، ولـذلك جـاءت نـصوص القـرآن والسنة بالربط بين الإيمان باليوم الآخر وبين كثير من الأعمـال، **كمـا في قولـه:** ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾[الممتحنة:٦]، **وكما في الحديث:** **"من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمُت"**(١)، فالإيمانُ بالبعث والنشور والوقوف بين يـدي الله سيدفعُ العبد إلى الإيمان والإخلاص في العمل، وترك الكفر والـشرك، ويدفعـه إلـى العدل وترك الظلم، ويدفعه إلى فعل الطاعات وترك المنكرات.

ثم ذكر الصفة الثانية من صفاته، فقال: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾، وعبّر بلفظ ذلك، وهو من أسماء الإشـارة التي تـدل علـى البعـد، إشـارة إلـى أنـه بعيدٌ عن الله، وبعيد عن أخلاق المؤمنين، وعبّـر بالفعـل المـضارع (يـدُعُّ)، وهـو بمعنى: يدفع، وقد يكون الدفع حسيًا باليد أو بغيرها، وقـد يكـون معنويًـا بطـرده ونهـره وقهـره، **كمـا في قولـه:** ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾[الـضحى:٩]، **والقهـر هـو** نتيجة للـدفع بـشدة سـواءً دفعتـه بكلمـات سـيئة وألفـاظ قاسـية، أو دفعتـه بيـدك وأخرجته من المكان الذي وجدته فيه، والألف والـلام في اليتـيم للجـنس ولـيس للتعريف، ليشمل كل الأيتام، **واليتيم هو:** من مات أبوه، هذا اليتيم في البشر، فإن ماتـت أمـه أيـضـًا فـيصيرُ يتـيم الأبـوين، وهـو أشـدهم يُتمًـا، بخـلاف اليتـيم في

(١) صحيح البخاري (٨/ ١١)، برقم (٦٠١٨).

الحيوان؛ فهو من ماتت أمه، لأن الأب في الحيوان ليس له علاقة بالرعاية، فاليتيم فيها من ماتت أمه، وهو يتيم حقيقي فعلًا؛ لأنها من تطعمه وتسقيه، بخلاف البشر؛ لأن القوامة للرجل في البشر وعليه النفقة، والأم أيضًا عامل مساعد في ذلك، وهذا على الأغلب، وإلا فبعض الأمهات خيرٌ من بعض الآباء، حين تقومُ الأُم بالتربية الحسنة لولدها، وإذا قرأت تراجم العلماء الناجحين المُبدعين؛ ستجد أنهم كانوا أيتامًا، كالشافعي، وسُفيان، وغيرهم من علماء الإسلام الكبار فقد مات آباؤهم، وقامت أمهاتُهم بالتربية الحسنة لهم.

ثم ذكر الصفة الثالثة من صفاته، فقال: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾، فهذا المُكذب بيوم الجزاء والحساب، الذي من آثار تكذيبه أنه سيء التعامل مع ضعفاء الناس، من الأيتام والمساكين، وهذا يدل على منتهى الخسة والحقارة وضعف القيم عند من يفعل ذلك، **ولذلك عبّر بقوله:** ﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ ليُعطينا صورة قاتمة وسيئة عن هذا الشخص، فلا هو أعطى المسكين من ماله، ولا هو دعا غيره وشجعهم على إعطائه، فجمع بين سَوأتين، والحض بمعنى الحثّ، **أي:** يحث غيره، لأنه أحيانًا قد يكون ليس لديك شيءٌ تُعطي المسكين، ولكن تستطيع أن تحث غيرك على إعطائه، والمسكين أحيانًا تُريحه الكلمة أكثر من المال، فتقول له: اصبر واحتسب، وهذه أقدار الله، ونحوها، فأنت تُعطيه أملًا في الحياة بهذه الكلمات.

وقوله: ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾، وعبّر هنا بأهم شيء يحتاجُه المسكين، وهو الطعام، مع أنه قد يحتاج ثيابًا أو علاجًا، أو يحتاج مكانًا يسكن فيه، ولكنه

ذكر أهم شيء وهو الطعام، وأضاف الطعام إلى المسكين، وهي إضافة الاستحقاق أو المِلك، **كما في قوله**: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾﴾[المعارج:٢٤-٢٥] وحق السائل هو مقدار الزكاة الموجود في مال الغني، وهي في الحقيقة مِلك وحق للفقير، والمسكين جاء هنا مُفردًا دون أن يُذكر معه الفقير، فيدخل في معناه، فهما من المصطلحات التي إذا افترقت اجتمعت، وإذا اجتمعت افترقت، مثل الإيمان والإسلام، والمسكين أحسنُ حالًا من الفقير، وهو الذي عنده دخلٌ ثابت لكنه قليل لا يكفيه، والفقير الذي ليس عنده دخل ثابت، **كما قال الله**: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [لكهف:٧٩]، فسماهم مساكين وعندهم سفينة؛ لأن المقصود بها قارب، ومُشترِك فيها أكثر من مسكين، ودخلها لا يكفيهم جميعًا.

فهذه الأوصاف: التكذيب بالدين، ودفع اليتيم، وعدم الإحسان إليه، وترك الحض والحث على إطعام المساكين والإحسان إليهم، هذه الثلاث الصفات كلها في الكافر.

ثم جاءت بعد ذلك بعض الصفات الأخرى وهي في المنافق، وهي في قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾، **والويل**: لفظٌ يُقصد منه الدعاء، **أي**: فهلاكًا أو فبُعداً، **وقيل**: أن ويل وادٍ في جهنم، وهذا من ضمن التفسير بالمثال، **والأصل أن كلمة ويل** دُعاء بالهلاك والبُعد عن الخير.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾، **أي**: أن الويل هنا خاص بنوعٍ معين من المصلين، وهم الذين يُصلون من المنافقين، لأن المنافق يدعي

الإسلام ويُصلي مع المؤمنين، ولكن صلاته ليست عن إيمان في قلبه، وإنما صلاة مخادَعة، **كما قال**: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة:٩]، فالمصلي الذي ينسى وقت صلاته ويتشاغل عنها بالدنيا عمدًا، ولا يُريد أن يقوم إليها في وقتها، فهذا حال المنافقين، **كما قال الله**: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء:١٤٢]، **والمعنى**: أنهم يتشاغلون عن صلاتهم، ولا يهتمون بأدائها في أوقاتها كما أمرهم الله؛ لأنه لا يؤمن بالله بل يُصلي في الأوقات التي له فيها مصلحة؛ ولذلك ترى بعض المنافقين يهتم بصلاة العيد، ويحضر إليها مبكراً، لأنه يوم عيد ويريد أن يراه الناس كلهم، وهي سنة، وقد كان المنافقون في السابق لا يحضرون صلاة الفجر والعشاء، لأنها في الظلام ولا يراهم أحد، **فقال النبي** ﷺ: **"لو يعلم المنافق ما في صلاة العتمة والفجر لأتوهما ولو حبواً"**(١)، فالمنافق يصلي لأجل يراه الناس، وما دام لا يراه الناس، فما الفائدة من مجيئه، وعبّر بعن هنا، ولم يقل: في، فلو قال: في صلاتِهم، لدخلنا كلنا، وصرنا مُعرَّضين للويل؛ لأنه لا يسلم الواحد منا من السهو في صلاته، فمن طبيعة البشر السهو، ولذلك أمرنا أن نسجد للسهو إرغامًا للشيطان، **وقد سهى النبي** ﷺ في صلاته، فصلى ذات يوم الظهر ركعتين فسلم، فقال له ذو اليدين، وسُمي بذي اليدين لطول يديه: يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت؟! قال: **"لم تقصر ولم أنس"**، ثم سأل الناس، فقالوا: صدق ذو اليدين، فقام فأكمل ركعتين، ثم سجد للسهو(٢).

(١) رواه البخاري (١/ ١٢٦)، برقم (٦١٥)، بنحوُه.

(٢) رواه البخاري (١/ ١٠٣)، برقم (٤٨٢)، بنحوُه.

ثم أضاف لهم صفة ثانية قبيحة فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦﴾، حتى ولو صلّوا فهم يأتون إلى الصلاة رياءً وليس لله، **وأطلق كلمة:** ﴿يُرَآءُونَ﴾، لتشمل كل أعماله الصالحة: كالصلاة والصدقة وفعل الخيرات، ويُراءون في قراءة القرآن، ويُراءون في الذكر، ويُراءون في كل شيء، فكل أعمالهم رياءٌ وسُمعة، وعبّر بالمضارع ليدل على الاستمرار.

ثم أضاف لهم الصفة الثالثة، فقال: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾، **والماعون** فُسّر **بتفاسير متعددة، منها**[1]: أنه ما يحتاج من أدوات البيت كالإناء والكأس، ونحوها، **والمعنى**: أنهم لا يُعينون أحدًا بأي شيء، فالإعانة للآخرين، ولو بشيءٍ بسيط ممنوعة عندهم، فدل ذلك على قُبح علاقتهم بالخلق، وقُبح علاقتهم بالخالق.

فوائد وهدايات من السورة:

١ - هذان الصنفان اللذان تحدثت عنهما السورة: الكفار والمنافقون، وما أكثرهم في المجتمع اليوم، لا كثّرهم الله، فليحذر المسلم منهم ومن صفاتِهم، ولينتبه لهذه الصفات القبيحة فلا يقع فيها.

٢ - أنه قد يُوجد بعض هذه الصفات في بعض المؤمنين، مثل: أذية اليتيم، وأذية المسكين، والرياء والتشاغل عن الصلاة في بعض الأوقات لشهوة وليس لكفر، فأنت مؤمن، والحمد لله، تؤمن بالله واليوم الآخر، فاحرص على

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٩٦).

التخلص منها بالتوبة والاستغفار.

٣- كما تكون حريصًا في موضوع الدنيا، فتأخذ حقك منها كاملًا فكن كذلك في باب الآخرة، واحرص على تمام العمل، ولا تفرّط في السنن والمستحبات، فالسنن تُكمِّل الفروض وتحميها، وبها تحصل على الأجر العظيم والثواب الجزيل، وتجعلك في الدرجات العليا من الجنة، فمن سجد لله سجدة، رفعه الله بها درجة.!!

وفقنا الله جميعا لما يحب ويرضى.

تفسير سورة الكوثر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾.

شخصية السورة:

سورة الكوثر؛ سورةٌ صغيرةٌ في حجمِها، كبيرةٌ في معانيها وموضوعها، تحتوي على ثلاث آيات فقط، وهي أقصر سور القرآن من حيث الكلمات وعدد الحروف مُطلقًا، فكلماتُها عشر، وعدد حروفها اثنان وأربعون حرفًا[(١)]، وسورة العصر أيضًا ثلاث آيات، لكن حروفها وكلماتُها كثيرة، وسورة الكوثر مُختَلفٌ في مكِّيتِها ومدنيتها، **فجمهور المفسرين يرون** أنها مكية، وأنها نزلت رداً على العاص بن وائل، وبعض صناديد قُريش مثل أبي جهل وأبي لهب، الذين غمزوا محمدًا ﷺ بسبب موت أولاده الذكور من خديجة في حياتِه، **وقالوا**: هذا أبتر لا عقِب له، فأنزل الله تعالى هذه السورة تسلية لنفس النبي ﷺ، وردًا على قول هؤلاء الكفار، وأن مُبغض النبي ﷺ هو الأبتر[(٢)].

---

(١) ينظر: تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن (١٠/ ٣٠٧).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٢٠،٣٠٧).

وقال آخرون من المفسرين: بل السورة مدنية، وأنها نزلت بعد الحُديبية، واستدلوا بما في صحيح مسلم، أن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: "بينما رسول الله ﷺ ذات يومٍ بين أظهُرنا إذْ أغفى إغفاءة" **أي:** نعس قليلًا، ثم أفاق ورفع رأسه مُبتسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟! قال: أُنزلت عليَّ آنفًا سورة، فقرأ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، فقلنا: يا رسول الله: ما الكوثر؟! قال: نهرٌ وعدني ربي سبحانه وتعالى، عليه خيرٌ كثير، وهو حوضٌ ترِد عليه أمتي يوم القيامة، آنيتُه عدد نجوم السماء، فيختلجُ العبد منهم، فأقول: أمتي، أمتي يا رب، فيقولون: ما تدري ما أحدثوا بعدك".

وفي رواية: "فأقول: سُحقًا سحقًا"(١)، فهذا الحديث يُشير إلى أن نزول السورة كان في المدينة؛ لأن أنس بن مالك أنصاري وكان من أهل المدينة، **وقال بعض المُفسرين:** نزلت مرتين: مرة وهو بمكة، ومرة وهو بالمدينة، وهذا وارد أن تنزل السورة مرتين، كما قيل في الفاتحة(٢)، ولكن الراجح أنها مدنية(٣)، لحديث أنس السابق فهو صحيح صريح في سبب النزول.

ما علاقة سورة الكوثر وما مناسبتُها لسورة الماعون التي قبلها؟! سورة الماعون تحدثت عن صفات السيئين سواءً كانوا كفارًا أو منافقين، واختتمت بصفةٍ قبيحة لهم وهي: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾[الماعون:٧]، **أي:** يمنعون

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٩٧).

(٢) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٤٧٨).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٤٩٨).

الشيء القليل مما يحتاجه غيرُهم، فدل ذلك على طبيعة النفوس السيئة، فعوّض الله رسوله والمؤمنين عن ذلك بالعطاء المطلق والخير العميم بهذه السورة، فإذا كانوا يمنعون عنك الإيمان ويمنعون عنك الخير، فقد منحك الله الخير الكثير(١)، وسورة الضحى وسورة الانشراح وسورة الكوثر عِقدٌ مُترابط في بيان مكانة الرسول عند ربه سبحانه وتعالى.!!

قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾، **(إنّا)** الدالة على العظمة، وفيها إشارة إلى عظمة العطاء بعظمة المُعطي وهو الله سبحانه، فنسب العطاء إلى نفسه، والله موصوف بالعظمة، والكاف في الخطاب لمحمد ﷺ، والعطاء هِبة إلهية من الله سبحانه وتعالى، والمُعطَى هو الشيء الذي أُعطِي، والمُستقبِل للعطاء هو محمد ﷺ، فعظم الله نفسه، وعظم الشيء الذي أعطاه، وهو الكوثر، وعظم رسوله المستقبل له، وافتتح الكلام بالتوكيد تنويهًا بشأن النبي ﷺ، وأخبر بالفعل الماضي؛ ليقول له إن عطاءنا قد تم، وأنه مستمر، ولم يعبر عنه بالاستقبال حتى لا ينتظره، وكاف المُخاطَب لشخصه، ﷺ، بمعنى أن فضلك عندنا كشخص عظيم، ولو قال: أعطينا الرسول أو النبي، لارتبط العطاء بصفة الرسالة أو النبوة، ولكنه خاطبه بشخصِه، فدل ذلك على مكانة وعظمة محمد ﷺ عند ربه سبحانه وتعالى، ولو نظرنا في سيرة النبي ﷺ، منذُ ولادته، فسنجد العطاء حاضراً في كل مرحلة من مراحل حياته، فالله سبحانه وتعالى، يُربيه ويمنحه ويُهيئه ويُعطيه عطايا كثيرة كان آخرها الرسالة، ثم العروج به إلى سدرة المنتهى، ثم في الآخرة سيكون له

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٠٩).

المكانة في المحشر والمقام المحمود وهو أول من يطرق أبواب الجنة وأول من يدخلها، فهذا عطاء لم يحصل عليه أحد!!، وفضائله لا تعد، **والكوثر**: اختلف العلماء في معناه على أقوال[١]، **فقيل**: إنه نهرٌ في الجنة، **وقيل**: النبوة والكتاب، **وقيل**: هو القرآن، وقيل: الإسلام، **وقيل**: رفع الذكر، وقيل غير ذلك، والصحيح أن الكوثر اسمٌ للخير الكثير العميم المتنوع الذي لا ينقطع، ومنه النهر الذي يصب من الجنة في حوضٍ وتشربُ منه أمته، ومنه النبوة والكتاب ونحوها من خصائص نبينا محمد ﷺ[٢]، فهذا هو الموضوع الأول الذي تحدثت عنه الآية الأولى، وهو ما أكرم الله به نبينا محمدًا ﷺ، من العطاء، وهو في الحقيقة رد على كل من حاول أن يطعن في رسوله ﷺ، قديمًا وحديثًا بأي مسبةٍ أو صفةٍ ذميمة، فلا صحة لهذا الطعن، فالله تعالى قد منحه الخير الكثير الذي لا ينقطع، وغيرُه من الأنبياء والرسل لكل رسول منهم حوض لأمته في الآخرة، ولكنها لا تساوي ولا تقترب من وصفِ وعِظَمِ مكانة حوض رسولنا محمد ﷺ، فدلت هذه الآية القصيرة على مكانة رسول الله ﷺ عند الله، ودافعت عنه ﷺ بأسلوب غير مباشر، ومن أنتم أيها الطاعنون فيه وهذا حالُه مع ربه؟!!.

ثم جاءت الآية الثانية، وهي مُختلفة تمامًا في موضوعها عن الآية الأولى، وهي قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾، والخطاب فيها أيضًا لرسول الله ﷺ، أيها الرسول الكريم الذي منحك الله هذا الخير، وهذا الفضل، وهذه المكانة،

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٩٧).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٤٧٤).

وأعطاك هذا العطاء العظيم، فلا بد أن تقابله بمزيد من العبادة، كما في قوله: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ١٩﴾[العلق:١٩]، **وقوله**: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨﴾ [الشرح:٧-٨]، وقد كان كذلك ﷺ، حتى قيل له: كيف تقوم الليل، وقد غفر الله لك؟، فقال: **"أفلا أكون عبدًا شكورًا"**[1]، وهنا تأتي ثمرة التوفيق، فالله إذا أعطاك الخير الكثير، وهيأه لك؛ فقابل العطاء بسلوك عملي بين يديه، عبادة وطاعة وعملًا واستقامةً وأخلاقًا، وتفرَّغْ لذلك ولا يشغلُك الخير الكثير عن الاقتراب والسجود بين يدي الله، وهذا أمر يغفل عنه بعضُ الناس، الذين حرموا التوفيق من الله؛ فيستغلون نعمه في معصيته، كقارون الذي أُعطي المال، **فقال**: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾[القصص:٧٨]، فكفر، فخسف الله به الأرض، وبلعام بن باعوراء، رجل من بني إسرائيل، علمه الله آياته[2]؛ فانسلخ منها فصار كالكلب الذي يلهث، والعياذ بالله، فهنا تأتي ثمرة العطاء، **فكأنه يقول**: إن العبادة ثمرة للعطاء، فالله قرّبك وأعطاك؛ فكن أكثر شكرًا له بأداء العبادة، **وذكر هنا عبادتين فقط هما**: الصلاة والنحر، وهما تُمثلان باقي العبادات، فالعبادات إما بدنية أو مالية، أو بدنية مالية، فالصلاة عبادة بدنية، والنحر عبادة مالية، **وقد قيل**: إن المقصود بالصلاة صلاة العيد، والنحر نحر الهدي[3]، **والأَوْلى أن نقول**: أن لفظ الصلاة عام ولا نحصرها في صلاة العيد[4]، **والمعنى**: حافظ على الصلوات

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٧١)، برقم (٢٨١٩).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٣/ ٢٥٧).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٦٥٣).

(٤) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٤٨٠).

المفروضة كلها وزِد إليها النوافل، وإنما أمره بالصلاة؛ لأنها صِلة بين العبد وربه، وكلما أراد العبد أن يقترب من الله؛ فعليه بكثرة السجود بين يديه، **وفي الحديث**: **"أَقرب ما يكون العبد من الرب وهو ساجد فاجتهدوا بالدعاء"**(١)، ومن أراد الرفعة؛ فعليه بالصلاة، **كما في الحديث**: **"إنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة"**(٢)، والصلاة راحة للقلب والنفس، كما في الحديث: **"أرحنا بالصلاة يا بلال"**(٣)، **"وكان إذا حزبَه، أي: آلمه شيء، هرع إلى الصلاة"**(٤)، وبها يستعين العبد على قضاء أموره، **كما في قوله**: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾[البقرة:٤٥].

وقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ **أي**: اذبح لله، وإنما عبّر بالنحر وهو لا يكون إلا للإبل، أما الغنم والبقر فيُذبح ذبحًا، ليشمل النحر والذبح فذكْر الأعلى يتناول ما دونه، وهذه الآية قرينة أن السورة مدنية، فصلاة العيد، ونحر الهدي، لم يُشرع ذلك إلا في المدينة، وبعض المفسرين فسر النحر، بوضع اليدين على النحر أثناء القيام للصلاة(٥)، وهذا وإن كان له وجه في اللغة لكنه ضعيف، لأن قوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ أول ما يتبادر إلى النحر الحقيقي الذي هو الذبح، **كما في قوله**: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾[الأنعام:١٦٢]، فهناك ترابط بين الصلاة والنُسُك في آية الأنعام، وهنا

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٠)، برقم (٤٨٢).

(٢) رواه مسلم (١/ ٣٥٣)، برقم (٤٨٨).

(٣) رواه أبو داود (٤/ ٢٩٦)، برقم (٤٩٨٥)، **وقال الألباني**: صحيح.

(٤) رواه أبو داود (٢/ ٣٥)، برقم (١٣١٩)، **وقال الألباني**: حسن.

(٥) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣١٨).

كذلك، وذكَرَ اللام في الصلاة، ولم يذكرها في النحر؛ لدلالة الأولى عليها، **والمعنى**: فصلِّ لربك وانحر له، واللام تفيد الاختصاص، أي خُص ربك بالصلاة وأخلص النية له، فلا تصلي لغير الله، ولا تذبح لغير الله، فإن هذا من الشرك، فقد كان الناس يُصلون لأصنامهم، ويسجدون لقاداتِهم وأمرائهم وكُبرائهم، كما كان مشهوراً ذلك عند الفرس والروم، أما أنت فلتكن صلاتُك وسجودُك لله وحده لا شريك له، ولذلك حُرّم السجود لغير الله سبحانه وتعالى، **كما في الحديث**: **"لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لما له عليها من حق"**(١)، وكذلك الذبح لا يكون إلا لله، فلا تذبح لغير الله، وقد كان أهل الجاهلية والمشركون يذبحون لأصنامهم كما في قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾[المائدة:٣]، **والنصب**: ما يُنصب من الأصنام، ويُذبح لها تقربـًا، فهذا هو الموضوع الثاني، الذي حدثتنا عنه الآية الثانية وهو موضوع العبادة والتقرب إلى الله، وقد كان النبي ﷺ أكمل الناس عبادة، وأكثر الناس صلاةً، وأكثر الناس صومًا، وأكثرهم تقربًا لله بالنحر، فقد أُتِيَ في حجة الوداع بالهدي فذبح منها ثلاثٍ وستين بدنة، ذبح بعدد سني عمره!!، وأمر الناس بذبح الباقي(٢).

ثم خُتمت السورة بقاعدة وحكم مطلق وهي قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾، **والأبتر في الحيوان** من قُطع ذيلُه سواءً كان ثُعبانـًا أو حماراً أو بقرةً أو كلبًا، **ويُسمى أبترَ**؛ لأن الذيل له منفَعة، ويُعطي توازُنًا عند السرعة عند بعض

---

(١) رواه ماجه (١/ ٥٩٥)، برقم (١٨٥٢)، **وقال الألباني**: صحيح.

(٢) رواه ابن ماجه (٢/ ١٠٢٦)، برقم (٣٠٧٤)، **وقال الألباني**: صحيح.

الحيوانات عندما تجري، وهو وسيلة لدفع ما يؤذيه من الحشرات كالذُباب والناموس ونحوه، ويُعطي منظرًا مُناسبًا للحيوان، في سِتر عورته، وقد ذُكر أن من ليس له من البشر ولد يُسمى أبترَ، ولكن المعنى الأشمل لكلمة الأبتر أنه مقطوع الخير، فمن لا يوجد من ورائه خير فهو الأبتر، بدليل أن أبا جهل كان يكره النبي ﷺ، ومعه أولاد، بل من أولاده من أسلم مثل عكرمة بن أبي جهل وصار من قُواد المسلمين ومن خيرة من أسلم في فتح مكة، وكذلك أبو لهب، وكذلك غيرُه من كفار قريش، فتفسير الأبتر بالذي لا ولد له غير دقيق، **فالراجح**: أن الأبتر هو محروم الخير في الدنيا والآخرة[١]، فيدخل فيه كل من يكره النبي ﷺ، فهو أبتر، لا خير فيه ولن يكون من ورائه خير، وإن حصل له شيء من الرفعة في الدنيا ولكن نهايته إلى الهلاك السيء، كما سمعنا قبل فترة بكيفية هلاك المجرم الدنماركي الذي رسم النبي ﷺ رسومًا سيئة، فقد هلك بنهاية سيئة لا يتمناها أحد، وهذا حال كل من كره النبي ﷺ في كل زمان، ولو تتبعنا حال الذين يكرهون رسول الله ﷺ تحت أي مُبرر فسنجد نهايتهم سيئة وحياتهم تعيسة، فهذه الآية مُعجزة باقية إلى آخر الزمان؛ وهي خبر لا يتخلف ولا ينسخ، فمُبغضك يا محمد هو الأبتر، وانظر إلى البلاغة العظيمة فيها فكأنها ردٌ على قولهم: هذا محمد الأبتر، فكان الجواب عامًا، كل من يبغض رسول الله ويكرهه هو الأبتر، ولم يقل: فلانًا وفلانًا، بل ترك الباب مفتوحًا إلى قيام الساعة لكل من انتقص رسول الله ﷺ أو أبغضه، **ولو قال**: إن أبا جهل هو

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٦٥٨).

الأبتر، أو إن فلانًا هو الأبتر؛ لانتهى الحكم بنهايته، وهذا من بلاغة القرآن، وأنه صالح لكل زمان ومكان!!، وعند ربط أول السورة بآخرها؛ يظهر الفرق بين مكانة محمد ﷺ وبين من أبغضه، في صورة مكررة لن تنتهي.!!

فوائد وهدايات من السورة:

١ - أن الله خاطب محمداً ﷺ بشخصِه، فدل ذلك على مكانته وعظمته عند ربه سبحانه وتعالى.

٢ - أن الكوثر اسمٌ للخير الكثير العميم المتنوع الذي لا ينقطع، ومنه النهر الذي يصب من الجنة في حوضٍ وتشربُ منه أمته، ومنه النبوة والكتاب ونحوها من خصائص نبينا محمد ﷺ.

٣ - أن الله إذا أعطاك خيراً وهيأه لك؛ فحوّل هذا الخير إلى سلوك عملي بين يديه، عبادة وطاعة وعملًا واستقامة وأخلاقًا، وتفرغ لذلك، ولا يشغلك الخير الكثير عن الاقتراب والسجود بين يدي الله.

٤ - أن الأبتر هو محروم الخير في الدنيا والآخرة، ولذلك فكل من يكره النبي ﷺ فهو أبتر، **أي:** لا خير فيه ولن يكون من ورائه خير، وإن حصل له شيء من الرفعة في الدنيا ولكن نهايته إلى الهلاك السيء.

تفسير سورة الكافرون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾.

شخصية السورة:

سورة الكافرون: هذه السورة العظيمة التي نزلت في مكة[1] في بداية البعثة النبوية، **وتُسمى بسورة** الإخلاص أيضًا، وتجتمع مع سورة الإخلاص، حتى **قال بعض أهل العلم**: سورة الكافرون سورة التوحيد العلمي، وسورة الإخلاص سورة التوحيد العملي، وهذه تعدل ربع القرآن وتلك تعدل ثلث القرآن، وكلاهما تتحدث عن الإخلاص والتوحيد والمُفاصَلَة، وترسمان المنهج الذي يجب أن يسير عليه المسلم في دينه[2].

وموضوعُها عظيم، الملابسات التي نزلت فيها تدل على ذلك، فإن قُريشًا كانت تدّعي أنها وارثة لدين إبراهيم الخليل، وصاحبة الكعبة المشرفة، وكانت

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٥٠٦).

(٢) ينظر: تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٩/ ٥٧٢).

تدعي معرفتها بالله فهي لا تُنكر الخالق الرازق سبحانه، ولكنها أضافت إليها آلهة أخرى من الأصنام والأوثان، كما ذكر الله عنها ذلك بقوله: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[الزمر:٣]، فلما بُعث محمدٌ ﷺ مجدداً لملةِ إبراهيم -وهي الحنيفية السمحة- حاولوا معه عدة محاولات لكي يترك دينه الذي أتى به، والإبقاء على ما هم عليه من الدين المحرف، وجرى بينهم التفاوض وقدموا له أكثر من عرض!!، **منها** أن يُزوجوه، أو يُعطوه مالًا، أو يُعالجوه إن كان به جنون، أو أن يجعلوه مِلكًا عليهم(١)، وكل ذلك لم ينفع معه؛ لأن النبي ﷺ جاء لمهمة مُعينة، **ومنها**: مجيئهم إلى عمه أبي طالب، كما ذُكر ذلك في السيرة(٢)، وطلبوا منه أن يمنعَه عن تسفيه الآلهة وعن الخروج عن عادات الآباء والأجداد، ولكنه ﷺ كان ثابتًا صابرًا على دينِه وما يدعو إليه من التوحيد وإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، ولم يلتفت إلى هذه العروض واستمر في الهدف الذي أُرسلَ من أجله، فجاءتهم هذه الفكرة الشيطانية، وهي أن تعبُد آلهتنا سنةً، ونعبُد إلهك سنةً، فنحن بقايا دين إبراهيم وأنت تدَّعي أنك على ملته، فالنقاط المشتركة بيننا كثيرة، فلا تُلغِ ديننا كله، ولا نرفض دينَك كله، وظنوا أنهم بهذا العرض قد تنازلوا له وأنه سيقبل!!، والخلاصة: نحن نعترف بدينك وأنت تعترف بديننا، فتعبُد آلهتنا سنةً ونحن نعبد إلهك سنةً، وبهذا نكون جمعْنا شملنا ووحدنا صفنا ووحدنا الجبهة الداخلية لقريش وصرنا أمة واحدة

---

(١) ينظر: أعلام النبوة للماوردي (ص: ٩٩).

(٢) ينظر: التعليق على الرحيق المختوم (ص: ٦٤).

دون حروب، وكان هذا العرض قدّمته قريش للنبي ﷺ في بداية البعثة، وهو وأصحابه المؤمنون مُستضعفون في قومهم في مكة، ومع الوضع النفسي الذي كانت تعيشُه العُصبة المؤمنة الأولى، وما تعانيه من تعذيب وطرد وإيذاء، فلو كان الأمر موضوع مصلحة؛ فالمصلحة تقتضي الموافقة على هذا الطلب، لكن الموضوع دين وعقيدة، فليس فيه تنازُل ولا مُداهنة ولا أنصاف حُلول، ولا خلط بين الحق والباطل، هذا الجو العام لنزول السورة.!![1].

وقد ورد في فضل هذه السورة أنها تعدل ربع القرآن، كما جاء في بعض الأحاديث التي صححها وحسنها بعض أهل العلم[2]، ومن فضل هذه السورة أن النبي ﷺ كان يقرأها في أكثر من صلاة، فقد كان يقرأها في سُنة الفجر وفي سُنة بعد المغرب[3]، وكان يقرأها في سُنة الطواف[4]، حتى قال بعض أهل العلم: إنما حافظ النبي ﷺ على قراءة قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد في سُنة الطواف ليُؤكد ويُحقق أن طوافَه حول الكعبة لا يُنقِص من إخلاصِه لله سبحانه وتعالى، فطوافه حول بيت مخلوق قد يفهم بعض الناس أنه نوع من التعبد لغير الله، **فكانت قراءة:** (قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد) في سنة الطواف لتذكير الطائف بعقيدة التوحيد، وليس على ضوء ما يعبُده الكافرون من

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٢٤).

(٢) ينظر: سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ١٦٦)، برقم (٢٨٩٤)، **قال الألباني**: صحيح.

(٣) رواه الترمذي ت شاكر (٢/ ٢٩٦)، برقم (٤٣١)، **وقال الألباني**: حسن صحيح.

(٤) رواه الترمذي ت شاكر (٣/ ٢١٢)، برقم (٨٦٩)، **وقال الألباني**: صحيح.

طوافهم حول الكعبة لأصنامهم أو لأحجارها وأشجارها[١].

وافتتحت السورة بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾، قل لهم يا محمد، **أي:** أبلغهم بالجواب على مقترحهم، فأنت مبلّغ عن الله لا مشرّع، وناداهم بوصفهم وهو الكفر، **وهي:** الصِّبغة التي هي أساس المشكلة والخلاف بينه وبينهم، **والكفر في اللغة هو:** الجُحود والتغطية، ويُقال للزارع كافر؛ لأنه يُغطي البِذرة بالتراب[٢]، كما قال: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾[الحديد:٢٠]، فقريش جحدت ربها، وأشركت به -سبحانه وتعالى- غيرَه، مع أنها تعترف أن الله هو الخالق الرازق سبحانه وتعالى، والكفر نوعان: كفر أكبر مُخرج من الملة وهو الكفر الاعتقادي، وهو أنواع، وكفر أصغر لا يُخرج من الملة، هو الكُفر العملي، مثل كفر النعمة.

ثم قال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢﴾، **والتركيز في هذه السورة على أمرين رئيسيين،** هما: الكفر، والعبادة، **فالكفر** قد عرفناه، وأنه أصل الخلاف، ولا بد أن يتركوه حتى ينتهي الخلاف، والعبادة؛ فقد كان الكفار لديهم عبادة، وكان النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين لديهم عبادة، لكن شتان بين عبادة وعبادة، **فعبادة النبي ﷺ** عبادة شرعية سواءً في نوعِ المعبود أو في نوع العبادة ووصفِها، وعبادة الكافرين عبادة غير شرعية، سواءً في نوع المعبود أو في نوعِ العبادة ووصفها، **والعبادة معناها في اللغة:** الخُضوع والتذلل لمن يستحق[٣]، فتخضع

(١) ينظر: شرح بلوغ المرام (١٧٣/ ٦، بترقيم الشاملة آليا).

(٢) ينظر: جمهرة اللغة (٢/ ٧٨٦).

(٣) ينظر: المخصص (٤/ ٦٢).

وتتذلل وتُطيع من ينفرد في الأمر والنهي، ولديه القوة والقدرة والعلم والإحاطة والحياة وسائر صفات الكمال، وهذه كلها لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى، أما غيرُ الله فما يُصرَف له من عبادة إنما هي مجازية وليست حقيقية، فالتذلل الذي يكون لغير الله، لن يكون بمستوى التذلل لله سبحانه وتعالى، بدليل أن هذا التذلل والخضوع مُؤقّت، وكما جاء في تاريخ العرب أن أحدهم كان يصنع صنماً من تمر فيسجد ويركع له، ويدعوه ويتذلل بين يديه، ولكنه عندما يجوع يأكله!![1]، **ومثله الصنم** الذي يطوفُ حوله ويُقبله ويُعطيه النذور والقرابين فإن صاحبه يخاف عليه أن يُسرق أو يُكسر؛ فيقوم على حراسته، فهذا كله يتناقض مع مفهوم العبادة!!، **فالعبادة:** كمال الذل مع كمال الخضوع والاستسلام لله القادر على كل شيء، الذي خلقك وأوجدك ولو شاء لذهب بك من الوجود بلحظة، فعبادة المشركين بهذا الوصف، باطلة لغةً واصطلاحاً، والعبادة في الاصطلاح: اسمٌ جامعٌ لكل ما يُحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة[2]، فيشمل هذا التعبد كل الجوارح وكل الأعمال، بشرط أن يكون هذا العمل مما يُحبه الله ويرضاه، و(ما) اسمٌ موصول بمعنى الذي، وكان المشركون يعبدون آلهة متعددة، فآلهتُكم التي تعبدونها، أنا لا أعبُدُها لا بذاتِها ولا بوصفها ولا بالهيئة التي تمارسونها، فعبادة المشركين تختلف عن عبادة المؤمنين، **كما قال:** ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾[الأنفال:٣٥].

---

(١) ينظر: تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/ ٤٦١).

(٢) ينظر: الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ١٥٤).

وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾، ولا أنتم أيها الكفار عابدون الذي أعبده بطريقة صحيحة سليمة من الشرك، لأني أعبد الله وحده لا شريك له، وأنتم تشركون به غيره من الأصنام والأوثان!!، **وجاءت (ما)** مع الذات الإلهية، مع أن النحويين يقولون إنها لغير العاقل[١]، **فمعنى ذلك** أن الموضوع يحتاج إلى مراجعة فيما يخص الذات الإلهية، والتعبير بأن (ما) تصلُح للعالم وغير العالم أضبط، لنخرج من الإشكال.

وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾، هل يوجد تكرار في الآيات أم لا؟! **الجواب: للمفسرين في ذلك قولان: القول الأول:** من يرون أن هناك تكرار، وفائدة ذلك التحذير والتوكيد والتقرير لخُطورة هذا الفعل[٢]، **كما جاء في الحديث:** **"ألا وشهادة الزور، ألا وشهادة الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يُكرر حتى قلنا: ليته سكت"**[٣]، وهذا وارد في لغة العرب وأساليبِهم، وإن وُجد تكرار في القرآن، فله معانيه ومغازيه وحكمُه البلاغية؛ لأنه كلام الله سبحانه الذي بلغ المُنتهى في البلاغة.

والقول الآخر: من يرون أنه لا تكرار، وأنه إذا اختلف الزمان فلكل آية معناها، **وقالوا:** النبي ﷺ نفى أن يعبد ما يعبدُه المشركون ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا[٤]، فدل ذلك على براءته من الشرك وعبادة غير الله مُطلقًا قبل البعثة

---

(١) ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (ص: ١٦١).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٣١).

(٣) رواه البخاري (٨/ ٤)، برقم (٥٩٧٦).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ط العلمية (٨/ ٤٨٠).

وبعد البعثة إلى أن يتوفاه الله، وأما بالنسبة للمشركين فأخبر عنهم بعبادتهم في الحال وعبادتهم في الماضي، وترك الخبر عنهم في المستقبَل؛ لأن بعض المخاطَبين أسلم، فعبدوا ما يعبدُه رسول الله على الوجه الصحيح.!!

وجاء الجواب الفصل بهذا الأسلوب لما اقترحته قريش على رسول الله ﷺ، فلا يوجد مُواراة، ولا مجاملة، بل أُعلنت المُفاصَلَة بين الإسلام والكفر، وبين المؤمنين والكفار، فلا التقاء، ولا أنصاف حلول.

وختمت السورة بقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾، لكم أيها الكفار ما تدينون به وليَ ما أُدين به، فديني يختلف عن دينكم، ومعبودي يختلف عن معبودكم، وعبادتي تختلف عن عبادتكم، فهذه مُفاصَلَة بين منهجين مُختلفَين، وسمى هنا ما يفعله الكفار دينًا؛ بناءً على ما يعتقدون، **كما قال:** ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾[يوسف:٧٦]، **والحقيقة** أنه لا يوجد دين صحيح إلا دين الإسلام، **كما قال:** ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[آل عمران:١٩] وهو الدين الحق، **كما قال:** ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[الروم:٣٠]، **وهنا سؤال:** هل قولُه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، إقرارٌ لهم على دينِهم أم ليس بإقرار؟ **فمن قال:** إنه إقرار، فقال: هذه الآية منسوخة بآية السيف، والصحيح أنه ليس إقرارًا، وأن هذه الآية مُحكمة ولا نسخ فيها، ولكنها جاءت على صورة المُفاصَلة والبراءة منه[1]، **والمعنى:** دينُكم باطل وتتحملون مسؤوليته وعليكم حسابه، ومع ذلك لم يترك دعوتهم وإقناعهم بتركه، ولا وجه لمن يستدل بهذه

---

(١) ينظر: التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم (ص: ٥٩٧).

الآية على صحة كل الأديان وإقرارها!! ولكن النبي ﷺ خاطَبَهم بهذا الأسلوب جوابًا على ما عرضوه عليه من دين، فلم يلتفت إليهم، وكأنه يقول لهم: دينُكم مردود عليكم، ولي عملي ولكم عملُكم، وهذه ألفاظٌ تُقال عند المحاجة والجدال، ولا يعني الإقرار لها، فقد استمر النبي ﷺ في التحذير من دينهم وتسفيه ما يقولون، وجرى بينه وبينهم من المعارك الشيء الكثير.!!

فوائد وهدايات من السورة:

١- هذه السورة مع قِصر آياتِها إلا أنها تُوضح لنا منهجًا فريدًا صافيًا نقيًا لا التواء فيه ولا غُموض، وهو ضرورة المفاصَلَة بين الحق والباطل، وترك المداهنة والمُجاملة في دين الله فلا التقاء بين الحق والباطل، ولا أنصاف حلول بينهما.

٢- أن أدنى انحراف في التصور والاعتقاد ولو كان صغيرًا في بدايته؛ فإنه لن يستمر صغيرًا، بل يتوسع كل يوم ويكبُر، كما في القاعدة الهندسية: "الخط الخارج عن المستقيم بشيء يسير سيكون في نهايته مبتعداً عنه بمسافة كبيرة"، وهنا تكمن خطورة الانحراف في العقائد.

٣- ما أشبه الليلة بالبارحة؛ ما أشبه ملابسات نزول هذه السورة على محمد ﷺ بعد قول المتحاورين معه من قريش: أُعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فاليوم يُعرض نفس المشروع بأسماء متنوعة، كما تسمعون اليوم عن الدعوة إلى الإبراهيمية، نأتي باليهودية والنصرانية والإسلام وغيرها من الأديان التي لها

أصل سماوي ونجمعها في مكانٍ واحد ويتعايش هذا مع هذا، فالمسجد بجوار الكنيسة بجوار المعبد اليهودي!!، فهؤلاء الذين يقبلون مثل هذه الدعوة يجب أن يُذكّروا بهذه السورة.

٤- أن مسائل العقيدة لا التقاء فيها مع الكفار، أما مسائل المُعاملات ففيها سعة، فيجوز لنا أن نتعامل مع اليهود والنصارى، والكفار والمشركين بيعًا وشراءً وبِرًّا وإحسانًا، وهناك أشياء تفصيلية جاءت بها الشريعة يجوز فيها التعامل معهم، وعلى ضوء ذلك يصير عندنا اتساق في هذا الدين فهو دين الاجتماع، دين الإنسانية، دين السلام، دين المحبة، ودين جمع الشمل، لكن على منهج صافٍ لا خلط فيه بين الحق والباطل.

تفسير سورة النصر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾.

شخصية السورة:

هذه السورة، تُسمى سورة النصر، وهي من أقصر سور القرآن، فعددُ آياتِها ثلاثُ آيات، لكن حروفها أكثر من حروف سورة الكوثر، وهي مدنية نزلت بعد الهجرة، **وقد سماها بعض المفسرين سورة** (إذا جاء نصر الله)[١]، وهذا على سبيل الوصف لها بذكر أول آية فيها، **وسماها الإمام الترمذي في سُننه** بـ(سورة الفتح)[٢]، **وسميت** بـ(سورة التوديع)[٣]، وهو اسمٌ لطيفٌ جاء معبراً عمّا تحمله السورة من معنى، حيث أشارت إلى أنك يا محمد مُودع للحياة؛ فودّع أمتك، وقد سُمي موسم الحج الذي حج فيه النبي ﷺ بحجة الوداع لنفس المعنى، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى رسوله ﷺ بهذه السورة ليُشعره باقتراب أجله، ويدعوه إلى تجديد التوحيد والاستغفار، وحمد الله سبحانه

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ١٢٦).
(٢) ينظر: سنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٤٤٩).
(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٣٩).

وتعالى على ما أعطاه، وهذه السورة مع قِصَر آياتِها ووجازة ألفاظِها، فهي تحملُ لنا البشارات والإشارات، والأوامر والتوجيهات، أما البِشارات، فهي تُبشر محمدًا ﷺ وأمته من بعدِه بالنصر المُبين، سواءً كان ذلك النصر مخصوصًا بحدث مُعين وفتح مُعين، أو كان النصر المطلق بالفُتوحات للمُدن والمدائن والبُلدان، وأن الإسلام سيدخلها، وسيُهزَم الشرك، ويتراجع الكفر، وبشّرت أيضًا بدخول الناس في دين الله أفواجًا، والناس اسمٌ مُطلق يشمل العرب والعجم دون تحديد، فدينُ الله شامل وعام للناس كافة، وأما الإشارات؛ فهي اقتراب أجل رسول الله ﷺ وانتهاء نزول الوحي، وانقطاع خبر السماء، وأما الأوامر والتوجيهات؛ فهي الأمر بكثرة التسبيح والحمد والثناء لله سبحانه، وكثرة الاستغفار، ولا يخلو لفظ من ألفاظ السورة من الإشارة إلى الأدب مثل: آداب النصر، وآداب الاستغفار، وآداب التوبة، وآداب التسبيح والتحميد وغيرها.

وقد ورد في فضلها مجموعة من الأحاديث، منها: أن هذه آخر سورة تامة نزلت على قلب رسول الله ﷺ، **كما روى** مسلم عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: قالي لي ابن عباس: أتدري آخر سورة نزلت من القرآن جميعًا؟ قلت: نعم، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قال: صدقت[1].

ومنها: أنها تعدل ربع القرآن، كما ورد في الحديث عند الترمذي وحسّنه جمعٌ من المحدثين[2].

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٣١٨)، برقم (٣٠٢٤).

(٢) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/ ١٦٦)، برقم (٢٨٩٥)، وحسنه الترمذي.

ومنها: كما في حديث عائشة أن النبي ﷺ كان: "**يتأولُها في ركوعه وسجوده**"، فكان يقول: "**سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي**"[(١)].

وجه المناسبة بينها وبين السورة التي قبلها: لما ختَم الله سورة (الكافرون)، بقوله: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾[الكافرون:٦]، على سبيل المُفاصلة والمتاركة؛ جاءت البِشارة له في هذه السورة بالنصر ودخول الناس في دين الله، **والمعنى**: أن تركك قومك وأخذوا دينًا غير دينِك؛ فإن الإسلام سيعُم البشرية، ويدخل الناس فيه أفواجًا، فلا تحزن على مُفاصَلَتِهم، مع أن سورة الكافرون مكية، وهذه مدنية، إلا أن ترتيب السور في المصحف توقيفي، وكان يتم بأمر من النبي ﷺ، فيقول لهم: ضعوا هذه السورة بعد تلك، من أجل أن يظهر التناسق في نهاية هذه السورة وبداية تلك السورة[(٢)].

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾، إذا، ظرف زمان، ويأتي في لغة العرب على وجهين: يأتي ويُقصَد به المستقبل، أو يُقصد به الماضي[(٣)]، وفي هذه السورة على أي وجهٍ أتى؟!، **الجواب**: قال جمهور من العلماء: إنه للمستقبل[(٤)]، **وقيل**: للماضي، **وقيل**: يحتمل الوجهين، فالله سبحانه وتعالى لما قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، فهل كان نصر الله قد جاء أو لا؟! فإن كان قد جاء فهي للماضي، وإن كان لم يأتِ فهي للمستقبل، وعندنا أمران هما: النصر،

(١) رواه البخاري (١/ ١٥٨)، برقم (٧٩٤).
(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٣١٣).
(٣) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ص: ١٢٩،١٢٧).
(٤) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٣٧).

والفتح، وعندنا أثر للنصر وللفتح، وهو دخول الناس وإقبالهم على الإسلام، فهل تم هذا قبل نزول السورة أم لا؟! **فمن قال**: إن السورة نزلت بعد صلح الحديبية فهي للماضي، لأن الصلح كان فتحاً مُبيناً، حيث دخل الناس في دين الله، وجاءت الوفود من كل مكان، **وإذا قلنا**: إن المقصود بالفتح فتح مكة؛ لأن دخول الناس في دين الله أفواجاً ما تم على الوجه المطلوب إلا بعد فتح مكة، فهي للمُستقبل(١).

أما إذا قلنا: إن السورة نزلت متأخرة بعد فتح مكة بزمن قريب من وفاة النبي ﷺ وقد كانت نعياً له وإشعاراً له بأن مهمته قد قاربت على الانتهاء، فهي للماضي، **وبنظرة فاحصة في جميع السور التي افتُتحت بـ(إذا) وهي**:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾. ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾. ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾. ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾. ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾. ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾. ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، سنجد أنها كلها تدل على المستقبل، إلا في سورة: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، ولكن عند التدقيق في معنى النفاق، وأنه ظاهرة مستمرة تتجدد في كل زمان ومكان؛ فقد صارت (إذا) فيها للمستقبل.

وقوله: ﴿جَآءَ﴾، أيهما أبلغ في اللفظ جاء أو أتى؟! **قد ورد التعبير بهما معاً، في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾**[يوسف:١١٠]، **وفي قوله: ﴿أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾**[الأنعام:٣٤]، وفيه إشارة إلى أن النصر جاء بعد تعب وألم وابتلاء، فالمجيء أقوى في الدلالة من الإتيان.

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٤٩٢).

وقوله: ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ أُضيف إلى الله لأنه موجده وواهبه لعباده، والنصر في لغة العرب[(١)]، **يأتي بمعنى:** العون، والعطاء، ومجيء الخير، والظهور، وأما الفتح، **فقيل:** إنه غير النصر، لأنه عطفه عليه هنا[(٢)]، **وفي قوله:** ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ [الصف:١٣]، فالفتح شيء، ونصر الله شيء آخر، وهل النصر سببٌ للفتح؟! **قيل:** نعم، لأنه قدّم النصر على الفتح ليكون سببًا له[(٣)]، **وقيل:** ليس سببًا له؛ فقد يوجد نصر ولا يُوجد فتح، فالنصر معناه خضوع العدو وانهزامه، ولكن ليس كل من انهزم تُفتح نفسُه للإيمان، وأرضُه لتحكيم الشريعة، أو يبقى على ما هو عليه من الباطل والكفر مع هزيمته؟!، فالنصر أبلغ من الفتح، والفتح إذا جاء قد يُقصد به النصر وزيادة، أو يُقصد به الهزيمة للعدو وقَبول العدو لمبادئك وأفكارك، بينما النصر قد يكون أحيانًا بدون فتح كما في قصة الغُلام، فإنه انتصر على الملِك الكافر عند قتله وقول جمهور الناس: آمنّا بالله رب الغلام، فالغلام انتصر في ميدان المبادئ والعقائد، وإن قُتل أصحابُه، فالنصر أعم من الظهور، فقد يكون النصر بالحُجة، ونصر المبدأ، ونصر العقيدة، حتى ولو كُنت مسجونًا أو مظلومًا أو ممنوعًا، فأنت منتصر على عدوك بثباتِك واستمرارك على عقيدك، وهنا جمع بين النصر والفتح؛ ليشمل كل أنواع النصر: نصر المبادئ والقيم والظهور، وأيضًا استسلام العدو، وفتح البُلدان والقلوب، ونشر الشريعة وتحكيمَها في تلك البُلدان، **وقد جاء الفتح في القرآن على ثلاث صيغ:**

---

(١) ينظر: المخصص (٣/ ٣٨١).

(٢) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٨١٠).

(٣) ينظر: اللباب في علوم الكتاب (٢٠/ ٥٣٨).

الأولى: وصفه بالمُبين كما في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[الفتح:١]، والمقصود به صلح الحديبية، لأن صلح الحديبية كان سببًا لفتح مكة، لأن قريش أخلّت بشروط فتح الحديبية؛ فكان سببًا لفتح مكة.

والثانية: وصفه بالقريب، كما في قوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[الصف:١٣]، وهذا الفتح القريب هو فتح خيبر؛ حيث رجع الصحابة من صلح الحديبية وفيهم شيءٌ من الحزن، فجبر الله خواطرَهم، وهيأ لهم فتح خيبر، ولم يشرك غيرهم فيها.

والثالثة: جاء الفتح مُطلقًا، كما في هذه السورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، **اختلف أهلُ العلم ما المقصود بالفتح هنا**، هل هو الفتح المُطلق ويشمل كل فتح، وإلا المقصود به فتح بعينه؟!! فمنهم من قال: إنه الفتح المُطلق، فيشمل فتح مكة إن كانت السورة نزلت قبله، ويشمل كل البُلدان التي سيفتحُها المسلمون كمِصر والشام وبلاد الفرس والمدائن وغيرِها من البُلدان الأخرى، **ومنهم**: من خصصه بفتحٍ من الفتوح إما مكة، وإما فتح خيبر[1]، **وقال بعضُهم** -وهذا من التفسير الإشاري عند بعض الصوفية-: إنه فتح في العلوم، أو فتح العارفين، وهذا القول ضعيف[2]، لأن الله سبحانه وتعالى قد فتح على رسوله بالوحي والعلم من أول ما أُرسل إليه، **والراجح**: أنه الفتح المُطلق[3]،

---

(١) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٨١٠).
(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٣٩).
(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٣٩).

فيشمل كل البُلدان، فكل بلدٍ فُتح في الإسلام فهو داخلٌ في معنى الفتح، وقد سبق أن رجحنا أن (إذا) للمستقبل، فتكون كل الفتوحات بعدها داخلة في المعنى، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾، الخطاب للنبي ﷺ، والألف واللام في الناس، **قيل:** أهل اليمن[(١)]، ولابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام لطيف حول هذا المعنى، فقد أفرد هذه السورة بتفسير خاص، وفيه لفتات تربوية جيدة، **ومما قاله:** وتفسير الناس بأنهم أهل اليمن؛ لا يدل على اختصاصهم، وإنما يدل على مكانتِهم[(٢)]، وأنهم من أوائل من يدخلون في دين الله، ودخولُهم لم يكن فيه مشقة على النبي ﷺ ولا على أصحابِه، إذْ أسلموا دون قتال، **وقيل:** وفود العرب، **وقيل:** العرب عمومًا من عبدة الأوثان، وقيل: كل الناس ممن أسلم في عهده سواءً ممن جاء من اليمن، أو من وفود القبائل الأخرى أو الأعراب المجاورين، أو من أهل البُلدان الأخرى[(٣)]، وهو الراجح، ودينُ الله هو الإسلام، وهو ما جاء به محمد ﷺ، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران:١٩]، **والفوج:** في لغة العرب له عدة معانٍ، **منها:** التجمُّع، والتتابُع، والكثرة، والسرعة[(٤)]، ولا مانع أن يكون المقصود معنى اللفظ هنا شاملاً لها كلها، فقد جاء الناس مجتمعين متتابعين متكاثرين مسرعين

(١) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٦٦٧).

(٢) ينظر: تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٦٤٣).

(٣) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٣٢).

(٤) ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (١/ ٣٣٦).

إلى الدخول في الإسلام، وهذا من بلاغة القرآن، ووصفه لواقع الحال الذي كان عليه الناس في نهاية حياة النبي ﷺ وعند مجيء الوفود، فقد كانت تأتي مجموعات متكاثرة متتابعة مسرعة إلى الإسلام دون تباطُؤ، والتجمع بائن ليس في مجيئهم فقط بل في تجمعهم حول رسول الله ﷺ، من الناحية الجسدية والمعنوية.!!

ثم ختم الله تعالى السورة بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾، **الفاء** واقعةٌ في جواب الشرط، وأداة الشرط (إذا)، **وفعلُ الشرط:** ﴿جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فإن حصل ذلك؛ فنزّه الله وأثنِ عليه، وأكثر من حمده، وقد جمعَ بين التسبيح والحمد في آيات كثيرة من القرآن الكريم، ليدلنا على أن التسبيح تنزيهٌ له وتقديسٌ عما لا يليق، والحمد ثناء ووصفٌ له بأكمل الصفات، ثم عطف الاستغفار على التسبيح والحمد، وهذا أدبٌ من آداب الدعاء، فالاستغفار أصله دعاء، فلا تدعو ربك إلا بعد أن تُنزهه وتُثني عليه، فسبّح الله واحمده بالثناء العظيم عليه، ثم اطلب منه المغفرة، يستجب لك!!، ثم وصف الله نفسه بأنه التواب، الذي يقبل من عاد ورجع إليه، وهنا لفتةٌ تربوية مُهمة وهي: أن الله لما أشعر رسوله ﷺ بالنصر والتمكين والفتوحات، وأعْلمَه بقُربِ أجله، دعاه إلى أن يستغفر ربه، وأن يتوب إليه، وأن يُكثر من الثناء عليه سبحانه، والحكمة من أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار في هذه السورة أحد أمرين: أن بعض النفوس قد يعتريها نوع من ضعف الصبر أو ضعف التوكل على الله، أثناء تأخُّر النصر ووقوع الأذى والهزائم؛ فدُعيت تلك النفس إلى

الاستغفار عن ما أصابَها في تلك المرحلة، أو أن بعض النفوس قد يعتريها نوع من الزهْو والأَشَر والبَطَر عند حصول النصر والتمكين، وهذا في حد ذاتِه فعلٌ فيه معنى المعصية والنقص، يحتاج إلى استغفار، فوجّه الله سبحانه وتعالى رسُوله إلى ذلك.

وقد امتثل رسول الله ﷺ ذلك، وأظهر تواضعه ﷺ في دخول مكة بعد فتحها، فقد دخل ولحيتُه تكاد تلمس رحْلَه من تواضُعِه وشكرِه وثنائه لله سبحانه وتعالى، ولما ظفر بقُريش واجتمعوا حوله، **قال لهم**: "**ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟**"، قالوا: أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم، قال: "اذهبوا فأنتم الطُّلقاء"[1]، فلا مجال لمُجازاة الناس بأعمالِهم، إنما بالعفو والسماح، وهكذا يكون حال المنتصرين المؤمنين، فالنصر الحقيقي يتمثل بالعفو عن الناس ممن ظلم وأساء، حتى تُشعِر الآخرين أنك إنما فعلت ذلك معهم من أجل إصلاحِهم وهدايتهم إلى الحق، وهذا واضح، ومثلُ هذا ما ذكره الله سبحانه وتعالى في قصة يوسف عليه السلام، فقد ابتلي بعدة ابتلاءات، من مُؤامرة إخوانه ودخوله الجُب، ثم بيعِه عبدًا، ثم اتهامه في القصر، ثم سجنِه، وهذه كلها ابتلاءات بالضراء، ولكنه عندما وصل إلى المُلك والحُكم، ترك فرحة النصر، وفرحة تحقيق الرؤيا واللقاء بالأبوين، والتفت إلى الله بقلبه ونطق بلسانه، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِي

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى: (٩/ ٢٠٠)، برقم (١٨٢٧٦)، وضعفه الألباني في دفاع عن الحديث النبوي (ص: ٣٢).

ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾[يوسف:١٠١]، فالأنبياء والصالحون المُخبِتون يخافون على أنفسهم من البطر وقت النصر، لأن القلوب أثناء التعذيب والابتلاء ترجو الله وتتعلق به، ولكنها عند التمكين والنصر ربما تزهو وتتكبّر وتتغطرس، فتفعل أفعالًا لا تليق، فتنحرف عن مُراد الله سبحانه وتعالى.

ولذا ختم الله هذه السورة بقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، وقد كان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يجمع أشياخًا من بدر يستشيرُهم، وكان يحضر معهم ابن عباس، فكأنه بلغه منهم عدم رضاهم عن هذا التصرف، فسألهم سؤالًا حتى يُظهر لهم مكانة ابن عبَاس في التأويل خاصة، فقد دعا له النبي ﷺ: **"اللهم فقّهُّ في الدين وعلّمه التأويل"**(١)، فقال لهم: ما تقولون في تفسير ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ قالوا: أخبر الله رسوله أنه نصره وفتح عليه، قال: ما تقول يا ابن عبّاس – وكان أصغر القوم سنًا- فقال: هذا نعيٌ من الله لرسوله ﷺ، وأن مُهمته في الحياة قد اكتملت، وهي إبلاغ الرسالة، وقد بلغت، وجاء النصر والفتح فدخل الناس في دينِ الله أفواجًا، فهي إيذانٌ بقُربِ أجلِه، فوافقه على هذا التأويل عمر، وأقرَ شيوخ بدر الذين كانوا يحضرون مجلس عمر بفقه ابن عباس وذكائه وحسن عقله(٢)، **وقد سبق أن بعض المُفسرين سماها سورة التوديع** من هذا التأويل الذي قاله ابنُ عبّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.

---

(١) رواه أحمد، ط الرسالة(٥/ ١٥٩-١٦٠)، برقم (٣٠٣٢)، وإسناده قوي على شرط مسلم.

(٢) رواه البخاري (٤/ ٢٠٤)، برقم (٣٦٢٧) بنحوه.

فوائد وهدايات من السورة:

١ – أن هذه السورة مع قِصَر آياتِها ووجازة ألفاظِها، فهي تحملُ لنا البشارات والإشارات، والأوامر والتوجيهات.

٢ – جمع هنا بين النصر والفتح؛ ليشمل كل أنواع النصر: نصر المبادئ والقيم والظهور، وأيضًا استسلام العدو، وفتح البُلدان والقلوب، ونشر الشريعة وتحكيمها في تلك البُلدان.

٣ – أن الأنبياء والصالحين يخافون على أنفسهم من البطر عند النصر، لأن القلوب أثناء التعذيب والابتلاء ترجو الله ومتعلقة به، ولكنها عند التمكين والنصر ربما تزهو النفس وتتكبّر، فتفعل أفعالًا لا تليق؛ فأمروا بالتسبيح والتحميد والاستغفار، دفعا لانحراف النفس في تلك الحالة.

٤ – جمعَ بين التسبيح والحمد في آيات كثيرة من القرآن الكريم، ليدلنا على أن التسبيح تنزيهٌ له وتقديسٌ عما لا يليق، والحمد ثناءٌ ووصفٌ له بأكمل الصفات، ثم عطف الاستغفار على التسبيح والحمد، وهذا أدبٌ من آداب الدعاء.

٥ – أن هذه السورة نعيٌ من الله لرسوله ﷺ، وإيذانٌ بقُربِ أجلِه، وأن مُهمته في الحياة قد اكتملت، بعد إبلاغه الرسالة، ودخول الناس في دينِ الله أفواجًا.

تفسير سورة المسد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾.

شخصية السورة:

سورة المسد؛ سورة مكية[(١)]، نزلت في السنة الرابعة من البعثة[(٢)] على قلب النبي ﷺ، وكان سبب نزولها أن النبي ﷺ لما أمره الله بأن يجهر بالدعوة بعد أن كان يدعو سرًا، أمره الله تعالى أن يبدأ بإنذار عشيرته الأقربين، **فقام النبي ﷺ على الصفا، ثم نادى:** يا بني عبد مناف، يا بني هاشم، حتى اجتمعوا إليه، فلما اجتمعوا إليه، **قال لهم النبي ﷺ: "أرأيتم لو قلت لكم: إن جيشًا وراء هذا الوادي يُريد أن يُغير عليكم، أكنتم مُصدقي؟!"** قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا قط، فقال: **"فإني رسولُ الله إليكم بين يدي عذابٍ شديد"**، فقام إليه أبو لهب -وهو عمه-، **واسمه:** عبد العزى بن عبد المطّلب، أخو أبي طالب، فقال له: ألهذا جمعتنا، تبًا لك[(٣)]، فانفض الجمع، وتألم النبي ﷺ من هذا الموقف السيء من أبي لهب الذي أفسد عليه الهدف من الاجتماع، فأنزل الله سبحانه

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٥١٤).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٩٩).

(٣) رواه البخاري (٦/ ١١١)، برقم (٤٧٧٠) بنحوه.

وتعالى على قلب النبي ﷺ هذه السورة فأعلنها في الحال.

وقد كان النبي ﷺ حريصًا كل الحرص على أن يُسلم قومُه، وأن يهتدوا بهديه، وأن يُنقذهم من النار، وكان يظن أنه سيصيرُ في هذا الاجتماع شيءٌ من المحاورة والنقاش والإقناع لعل أحداً من القوم يُسلم؛ فيُؤازره ويقف معه، ولكن كان أبو لهب عاملاً من عوامل إفشال الاجتماع، ولم يُفشل الاجتماع فقط، بل دعا على النبي ﷺ فقال له: تبًا لك، **أي**: هلاكًا وخسرانًا لك يا محمد، فحكم الله عليه هو بالهلاك والخسارة الأبدية في النار، فهذه مُلابسات نزول السورة.

وهذه السورة قصيرة المباني كثيرةُ المعاني، فهي خمسُ آيات فقط، لكنها لخصت سيرة رجل وزوجته، وحكمت على عيشتهما بالهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، وهذا الرجل ليس غريبًا، بل هو عم النبي ﷺ، وزوجتُه هي أم جميل بنت حرب، أختُ أبي سفيان، وقد كان أبو لهب من أشد الناس عداوةً لرسول الله ﷺ، وهو عمه! وكانت زوجتُه من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، وكانت تُلقي في طريقه الأذى والشوك، وكانت تسبه وتتكلم عليه، فغار الله سبحانه وتعالى لنبيه؛ فحكَمَ عليهما بالخسران المطلق، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، فقد عاش أبو لهب مع زوجته فترةً من الزمن بعد نزول هذه السورة، وكان بإمكانهما أن يُسلما، ولو ظاهرًا، كحال كثير من المنافقين في المدينة، كان بإمكانهما أن يُعلنا الإسلام ويدخلا فيه من باب المُغالطة والمكر والخداع، فيُقال بعد ذلك: إن القرآن ليس صادقًا فيما أخبر، ولكن سبحان الله!، ختم الله على قلوبهما فلم يُسلما، وهلكا على الكفر، والعياذ بالله.

وقد كانت هذه الواقعة أليمة على قلب النبي ﷺ، فظلم القريب غير ظلم

البعيد، وأثره في النفس شديد، **كما قال الشاعر:**

وظلمُ ذوي القربى أشد مضاضةً … على المرء من وقع السهام المهند[(١)]

فقد كان ينتظر منه أن يُؤازره، كما كان أبو طالب يُؤازره ويُدافع عنه ويمنع الأذى عنه، مع كفره، ولكن أبا لهب كان أول المشاركين في الأذية وإفشال الاجتماع، فكانت النتيجة المُحزنة شديدة على قلب نبينا محمد ﷺ؛ وكانت العقوبة على أبي لهب وزوجته شديدة وعاجلة، جزاء لفعلهما القبيح، ولم يمهلهما كغيرهما من الكفار، وانتصر الله لرسوله ﷺ، بهذه السورة وأذهب عنه حُزنه.!!

والعلاقة بين سورة المسد وسورة النصر؛ أن الله بشر النبي ﷺ بدخول الناس في دين الله أفواجاً وفتح القلوب لدينه، إلا أن هناك من لا يُفتح قلبُه للإسلام وهو من أقرب الناس إليه، وهو عمُه أبو لهب، فلا تحزن عليه، فقد عوّضك الله بأفواج من الناس الذي سيدخلون في دين الله، وفيه تسلية للنبي ﷺ، وبيان أن من لم يُكتب له الهداية والخير، ولو كان من أقرب الناس، فإن الله سبحانه وتعالى لا يهديه[(٢)].!!

وابتدأت السورة بقوله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١﴾، **التباب هو:** الخسران، **والتِّباب** أبلغ من الخسران، **فمعناه:** استمرار الخسارة دنيا وآخرة.

قال أهل اللغة: تبّتْ مثل بتّتْ، **تبّ بمعنى:** خسر[(٣)]، **بتَّ بمعنى:** انقطع[(٤)]،

---

(١) البيت لعدي بن زيد ينظر: عيون الأخبار (ص: ٣١٠).

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢/ ٣٢٧-٣٢٨).

(٣) ينظر: العين (٨/ ١١٠).

(٤) ينظر: جمهرة اللغة (١/ ٦٢).

وقد جاء اللفظان في آيتين، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [هود:٦٣]، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود:١٠١]، **فالتخسير هو** بمعنى التتبيب، ولكن التتبيب أبلغ بمعنى خسارة مستمرة غير مُنقطعة، وهذا واضح في أن الله حكم على أبي لهب بالخسارة المُطلقة دنيا وآخرة، وعبّر باليدين هنا لأن أغلب أفعال العبد تكون بيديه عطاءً ومنْعًا ورفعًا وخفضًا، أو لأنهما أداة للكسب(١)، والمقصود بهما ذاتُه كلها خسرانة، بدليل قوله: ﴿وَتَبَّ﴾ **أي:** وخسر هو كله، فعبّر باليدين وأراد كل الجسم، **وقيل:** أنه قال له: ألهذا جمعتنا تبًا لك، وكان بيده شيئًا فنفضه في وجه النبي ﷺ، فجاءت العبارة بالدعاء على يديه، لأنه مارس بهما أذىً مُباشرًا للنبي ﷺ(٢)، وعبّر عنه هنا بالكُنية ولم يذكر اسمه؛ لأنه كان مشهورًا بكُنيته، فالتعبير بالكُنية أوضح، وقالوا: إنه أراد تحقيره، وقالوا: لأن اسمه عبد العُزى، والقرآن يبتعد عن التعبيد لغير الله، فلم يُرد أن يقول: تبّت يدا عبد العُزى، حتى لا يستدل الناس بذلك وأن القرآن قد أقر التعبيد لغير الله، **وقال آخرون:** إنما عبّر بكُنيته لأن كُنيته تتوافق مع جزائه، وهو: أنه سيدخل ناراً ذات لهب، وكُني بأبي لهب لجمال وجهه، فتوافقت الكُنية مع النهاية، فكأن اللهب مُلازم له دنيا وآخرة(٣)!! .

لماذا لم تفتتح هذه السورة، بقوله: قل، كما قال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الكافرون:١]؟! **الجواب: قال بعض أهل العلم:** السر في ذلك أن سورة: (الكافرون)،

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٣٤).

(٢) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٤٩).

(٣) ينظر: المصدر السابق: (٣٢/ ٣٥٠).

كان الدفاع فيها عن توحيد الله، فأمر الله نبيه أن يُبلغ هذا الدفاع، أما في سورة: (المسد)، ففيها دفاعٌ عن الرسول ﷺ، فقال الله: أنا أُبلغه عنك، مُباشرةً[(١)]!

وهل هذا الأسلوب، أُسلوب إخبار، بمعنى أنه قد حصل له التب؟!، أم أنه أُسلوب إنشائي يخبر عن حاله في المستقبل؟! **منهم من قال: الجملة الأولى** إخبارية، **والثانية** إنشائية، **ومنهم من قال العكس:** الأولى إنشائية، والثانية إخبارية، لقوله: وتب، **أي:** قد حصل تبابه، **ومنهم من قال:** الجملتان إنشائيتان، **ومنهم من قال:** الجملتان إخباريتان، والصحيح أنه هو إخبار، **بمعنى:** أن الله قد حكم على أبي لهب بالخسران المطلق، ولن ينسخ هذا الخبر، بل يستمر حكمه إلى يوم القيامة[(٢)]، فهذا الفرق بين أسلوب الإنشاء وأسلوب الإخبار، فأسلوب الإنشاء يدخله النسخ، وأسلوب الإخبار لا يدخله النسخ.

ثم قال الله عنه: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾، **(ما) هنا قيل:** استفهامية، **وقيل:** نافية، **وقيل:** مصدرية[(٣)]، ولكل لفظةٍ معناها، والراجح أنها نافية؛ لأنها بيان لعدم حصول أبي لهب على فائدة من ماله وكسبه، وعبّر بالماضي لوُقوع ذلك، كما في قوله ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨﴾[الحاقة:٢٨]، **وقوله:** ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾[الليل:١١]، وعبّر هنا بالمضارع لاستمرار ذلك، فاكتسابه للمال بدون إيمان، ما أغنى عن صاحبه في الماضي، ولن يُغني عنه في المستقبل، والمال لفظ يشمل كل ما تموّله الإنسان من عقار ومزارع وأنعام

---

(١) ينظر: المصدر السابق: (٣٢/ ٣٥١).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٦٧٥).

(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٥١).

وكنوز ونقد ونحوها، سواءً حصل عليها بكسبه أو بالوراثة أو بالهدية أو بغيرها من الوسائل، والكسب هنا أعم من أن يكون مالًا، فالكسبُ قد يكون سلطانًا أو وجاهة أو مكانة، ويدخل في الكسب الأولاد الذين يتقوّى بهم، **كما جاء في الحديث**: "**وإن أحسن ما كسبت أيديكم أولادكم**"[(١)]، **والمعنى**: أن أبا لهب خسر كل شيء بسبب تكذيبه لرسول الله ﷺ، فلا الولد ولا المال ولا الجاه ولا السلطان ولا المكانة ولا الجمال الذي كان فيه ولا القرابة من النبي ﷺ، نفعه، ولن يُغني عنه ذلك شيئًا في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم أخبر الله عن مصيره المحتوم، وهو النتيجة الثانية للخسران، **فقال**: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾، السين هنا للاستقبال، **وقيل**: تُفيد التوكيد مثل سوف، بمعنى أنه سيصلى بنفسه، أو ستُصليه الملائكة النار، وتدخله إلى وسطها، كما في قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾[المدثر:٢٦]، فيكون مقر حياته في الآخرة داخل النار، الموصوفة بذات اللهب، **أي**: الذي لا يُفارقها ولا ينقطع عنها، **والمعنى**: أن أبا لهب سيصلى نارًا لا ينقطع اشتعالها، فإن كلمة ذات تدل على استمرار الوصف، **أي**: ذات لهبٍ مُستمر في الاشتعال، وهذا يعني أنه مُخلّد فيها.

ثم ذكر حال زوجته، فقال: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾، وإنما عدَل في ذكر لفظ زوجته إلى امرأته، لوجود خلل ونقص في الحياة الزوجية، إما حسي، أو معنوي.

وقد تتبع بعضُ الباحثين[(٢)] الفرق بين الأسلوبين في القرآن، فأحيانًا تُذكر

---

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ٧٦٩)، برقم (٢٢٩٢)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) ينظر: الإعجاز القرآني وأثره على مقاصد التنزيل المحكم، للدكتورة: رجاء بنت محمد عودة.

الزوجة بلفظ امرأة، وذلك لوجود خلل حسي؛ كأن تكون غير صالحة للحمل، **كما في قوله عن إبراهيم:** ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾[هود:٧١] **وقوله عن زكريا:** ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ﴾[آل عمران:٤٠]، فلما أصلحها الله له، وحملت قال: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾[الأنبياء:٩٠]، فسماها زوجة، أو لوجود خلل معنوي؛ كأن تكون المرأة مُختلفة في الدين مع زوجها، كما في قصة نوح وزوجته، ولوط وزوجته، فلفظ الزوجة يطلق على التي تتناسق نفسياً وحسياً مع زوجها في الدين الحق والتعامل الحسن، واكتمال صفاتها من حيث إنها ودودة ولودة.

قال هنا: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾، لأنهما اجتمعا على دين باطل وعملٍ خبيث، فهذه لا يصلح إطلاق لفظ الزوجة عليها، فالزوجة هي التي تُوافقُك على الخير وتُعينُك على الطاعة، وتشترك معها في عملٍ يُؤدي إلى السكينة والراحة النفسية والاطمئنان القلبي، فتنشأ بكما أسرة صالحة، فهذا معنى الزواج، وهو آية من آيات الله، كما قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾[الروم:٢١]، فعدَل عن لفظ زوجة، لأن الأصل في الزواج الاجتماع على الخير، وأن يكون كل منهما لباساً للآخر، أما هذان الزوجان فقد اجتمعا على الشر والأذية لرسول الله ﷺ، فأبو لهب؛ مشروعه التنفير حتى لا يجتمع الناس حول رسول الله ﷺ، ولذلك استمر في مشروعه ولم يتوقف بعد نزول هذه السورة، فلم يترك النبي ﷺ وشأنه، بل إذا علم بذهابه إلى سوقٍ من الأسواق التي كانت العرب تجتمع فيها، مثل سوق عُكاظ والمجنة وغيرها فإنه يذهب وراءه، فإذا قام النبي ﷺ يدعو الناس ويقول لهم: قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا، قام أبو لهب، ليقول: لا تصدقوه فإنه كذاب،

فيقولون: من هذا؟! فيقال لهم: هذا عمُه، فيقولون: صاحب البيت أدرى بما فيه، فلا يستجيبون له[١]، **أما زوجته؛** فقد تحولت إلى مُؤذية لشخص النبي ﷺ، وكانت تُسميه مُذممًا، ولا تُسميه محمدًا، وتسب مذممًا، **فقال** ﷺ: **"إن الله حمى اسمي من سبها"**[٢]، وكانت تبحث عن الأشواك في أماكن الاحتطاب، فتحملها وتأتي بها فتضعها في الطريق الذي بين بيته والكعبة، من أجل تؤذيه تلك الأشواك عند خروجه ليلًا أو نهارًا، وكانت أيضًا تُؤذيه بلسانها بالشتم والسب، ولذلك ذكر الله عقوبتها مع زوجها، كما اجتمعا معًا في الأذية لرسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾، **حمالة،** قُرئت بالضم والفتح، فالضم على أنها صفة للمرأة، وبالفتح على الذم لها، بفعل محذوف تقديره أذُم، وهو أبلغ[٣]، فليس معها وصف أقبح من أنها تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ، والحطب هنا المقصود به الشوك.

وقد اختلف المفسرون في معنى هذه اللفظة[٤]، **فقيل:** يُقصد سيئة اللسان والكلام وتمشي بالغيبة والنميمة والسب والشتم، وقيل: حمالة الشوك وواضعته في طريق النبي ﷺ، ولا مانع من الجمع بين المعنيين، فهي صاحبة لسانٍ سيء وقلبٍ حاقد، وتمشي بالغيبة والنميمة، وتؤذي محمداً ﷺ وتذمه، كما سبق ذكرها في تفسير قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[الضحى:٣]، فهي

---

(١) رواه أحمد، ط الرسالة (٢٥/ ٤٠٥)، برقم (١٦٠٢٣)، بنحوه، وإسناده صحيح لغيره.

(٢) رواه البخاري (٤/ ١٨٥)، برقم (٣٥٣٣).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٦٧٨).

(٤) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٥٠٣).

صاحبة مقولة: إن شيطانك قد تركك، كما أنها كانت تُؤذيه بفعلها، وهو حمل الشوك ووضعه في طريقه.! فهذا وصفُها القبيح في الدنيا.

ثم ذكر وصف حالها في الآخرة، فقال: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾،الجيد هو العنق، والحبل معروف، **والمسد** الذي يُمسَد، **أي:** يُفتل[١]، فالحبل لا يصير حبلًا حتى يُفتل ويُحبك من خيوط صغيرة جدًا محبوكة إلى أن يصير حبلاً قويًا، والمعنى: أنها ستدخل النار مع زوجها، وسيُوضع في عُنقها حبلٌ مفتول من النار الحارقة المؤذية؛ لأن النساء غالبًا تتجمَّل بوضع العِقد على رقبتها وفي عنقها، فوضع العذاب لها في موضع التجمل، والعلاقة بين فعلها بالدنيا وعذابها بالآخرة؛ أن الحطب لما يُحمل يحتاج إلى حبل يربط به، وقد كانت تستخدم حبلًا لتربط به الشوك، وكانت تعلقه في رقبتها قبل تجميع الحطب وبعد نثره في طريق رسول الله ﷺ، **وقيل:** لأنه كان معها قِلادة، وكانت تتزين بها، وقالت: سأُنفقُها في مُحاربة محمد، فذكر الله هذه القِلادة وجعلها أحد أسباب تعذيبها في الآخرة[٢]، وإذا وضع الحبل في الرقبة؛ فمعناه اقتيادُها به، بعد أن تُغل وتُربط وتُقيد به، **كما جاء في قوله:** ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾[الحاقة:٣٢]، فانظر إلى بلاغة القرآن كيف يُنهي حياة امرأة بهذا الوصف في الدنيا وفي الآخرة، وفي آيتين فقط.!!

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة (١٢/ ٢٦٤).

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٣٥).

فوائد وهدايات من السورة:

١- هذه السورة جاءت تسلية للنبي ﷺ، مع أن طبيعة المنهج القرآني في المرحلة المكية هو مُلاطفة الكفار والصفح والعفو عنهم، إلا في هذا الموقف؛ فكان شديدًا وحاسمًا على هذا الشخص وزوجته في إعلان الهلاك والخُسران لهما والحُكم عليهما بالنار، ولا مجال للتراجع في هذا الخبر؛ وذلك لقبح صنيعهما، وتحذيراً لغيرهما من هذا السلوك القبيح!

٢- في هذه السورة بيان أن العلاقة بين الناس هي العقيدة، ولا فرق بين عربي وأعجمي، ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى، وأن القرابة لو كانت تنفعُ أحدًا لنفعت أبا لهب، وهو عم النبي ﷺ، فبلال الحبشي أفضل عند الله من أبي لهب الهاشمي، لأن هذا مؤمن وذاك كافر.

٣- في بداية مرحلة الدعوة كان احتياج النبي ﷺ إلى أقاربه وأعمامه ومن حوله كبيراً؛ ولكن لا مجال ولا مكان لمن سلك طريقاً غير التوحيد والاتباع ولو كان أقرب قريب، فقد حذّر النبي ﷺ من ذلك أقاربه حيث قال: **"يا صفية يا عمة رسول الله اعملي فلن أُغني عنك من الله شيئًا، يا فاطمة يا بنت محمد اعملي فلن أُغني عنك من الله شيئًا، يا بني هاشم، لا يأتي الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، اعملوا فلن أُغني عنكم من الله شيئًا"**(١).

(١) رواه مسلم (١/ ١٩٢)، برقم (٢٠٤).

تفسير سورة الإخلاص

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

شخصية السورة:

سورة الإخلاص؛ سورة مكية[١]، وسُميت بسورة الإخلاص؛ لأنها دعت إلى إخلاص العبادة له سبحانه، أو أنها كانت خالصةً للحديث عن الله سبحانه وتعالى.

وقد جاء في فضلها أنها تعدل ثُلُث القرآن، كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ[٢]، **والعلة** في كونها تعدِلُ ثلث القرآن: أن القرآن احتوى على ثلاثة مقاصد رئيسية، **هي**: بيان العقائد، وبيان الأحكام التشريعية، وذكر القَصص والأخبار، وهذه السورة مُختصة بالمقصد الأول، وهو الحديث عن الله أو ما يُسمى بعلم العقائد، وقد أخذ حيزًا واسعًا من ألفاظ وآيات القرآن الكريم، وهو من أوسع

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ت سلامة (٨/ ٥١٨).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٨/ ١٣١)، برقم (٦٦٤٣).

الأقسام، وأفضلها[١].

ومن فضلها أن النبي ﷺ، كان يُصلي بها مع سورة (الكافرون) عددًا من الصلوات، مثل: ركعتي الطواف، وركعتي سُنة الفجر، فكان يقرأ في الركعة الأولى سورة (الكافرون) وفي الثانية سورة (الإخلاص)[٢]، وكان يختم بها ركعة الوتر[٣]، **وجاء في فضلها أيضًا**: أن رجلًا كان يُصلي ويقرأ ما تيسّر من القرآن، ثم يختمُ القراءة في كل ركعة بسورة الإخلاص، فسأله النبي ﷺ عن فعله هذا، فقال: لأنها صفةُ الرب، وإني أُحبها، فقال له النبي ﷺ: **"إن حبّها أدخلك الجنة"**[٤]، وفضائلها كثيرة.

وقد جاء في سبب نزولها؛ أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ، أن ينسِبَ لهم ربه، فقالوا: يا محمد انسبْ لنا ربَك، فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[٥]، **وقيل**: إن اليهود هم الذين سألوه[٦]، فتكون السورة مدنية، **وقيل**: إن النصارى هم الذين سألوه وخاصةً نصارى نجران، لما أتوا إلى المدينة في عام الوفود[٧]،

(١) ينظر: تفسير الألوسي = روح المعاني (١٥/ ٥٠٥).
(٢) سبق تخريجه في تفسير سورة (الكافرون)
(٣) رواه الترمذي ت شاكر (٢/ ٣٢٥- ٣٢٦)، برقم (٤٦٢)، حكم الألباني: صحيح.
(٤) رواه البخاري (١/ ٢٦٨)، برقم: (٧٤١) ومن طريقة رواه الترمذي (٥/ ١٦٩)، برقم: (٢٩٠١) بنحوه.
(٥) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٦٨٧).
(٦) ينظر: المصدر السابق: (٢٤/ ٦٨٨).
(٧) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٥٧).

والراجح الأول، وأنها نزلت بمكة، وذكْرُها في المدينة جاء على سبيل الاستدلال بها حين سألته اليهود أو النصارى في المدينة فأُجيبوا بنفس الإجابة، وقد اعتادت البشرية أن تعبد آلهة وتنسبُها، فاليهود قالوا: عزيرٌ ابنُ الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بناتُ الله، فرد الله عليهم هذا الإفك والافتراء، بأن الله لم يلد ولم يُولد، **وهذه السورة** تبيّن الوصف الأمثل والأكمل لله سبحانه وتعالى، وقد أمر الله رسوله ﷺ بإبلاغها للناس، فقال الله له: ﴿قُلْ﴾ قلْ يا محمد، **أي:** أبلغ هذا القول للناس، وهذا يدل على أن القرآن الكريم كلام الله، وأنه ليس كلام محمد، بل هو وحي أوحاه الله إليه، وهو مبلغ له، ويبقى لفظ ﴿قُلْ﴾ كما هو عليه؛ حتى لو مات المأمور بالقول؛ لأن بعض الناس بسبب جهله، يقول: "ما دام قد تُوفي الرسول فلا داعي أن نقول: قل، في قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ①﴾[الفلق:١]، وغيرها من الآيات، لأن الخطاب كان له، وقد مات، أما الآن فنقول: الله أحد".!!، وهذا جهل وهراء باطل، فإن القرآن كلامُ الله لا يُزاد فيه ولا يُنقص منه، لا في عهد النبي ﷺ، ولا بعد وفاته ﷺ.

وقوله: ﴿هُوَ﴾، ضمير الشأن عند أهل اللغة، وهو يُفيد الاختصاص والتعظيم، والمقصود به الله سبحانه وتعالى(١)، ولذا صرّح باسمه بعده، وقد تكرر هذا الأسلوب كثيراً، كما في أواخر سورة الحشر، وغيرها.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، لفظُ الجلالة، **يُقال:** لفظُ الجلالة؛ لما فيه من الجلال

---

(١) ينظر: شرح شذور الذهب للجوجري (١/ ٢٨٥).

والكمال والبهاء والمهابة، فقد منع الله التسمية به منذُ أن خلق السموات والأرض، فلا تجد أحدًا تجرّأ وسمى ولده باسم: الله، أو سمى نفسه الله، حتى فرعون مع طغيانه إلا أنه ما تجرأ على أن يطلق هذا اللفظ على نفسه، واستخدم لفظ (الرب)، **فقال:** ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[النازعات:٢٤]، واستخدم لفظ الإله، كما في قوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ﴾[القصص:٣٨]، ولذلك قال الله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[مريم:٦٥]، فلا يوجد أحد تسمى بهذا الاسم غيره سبحانه وتعالى، فهو ذو الجلال والبهاء والجمال والكمال سبحانه، ولفظ (الله) هل هو جامدٌ أم مُشتق؟! **من أهل اللغة من قال:** مشتق، ومنهم من قال: جامد، فإن كان مُشتقًا فمُشتقٌ من ماذا؟ **الجواب:** من أَلِهَ، وهو ما تألهه وتُحبه وتعبده القلوب(١)، واسم (الله) قد تكرّر في القرآن ألفين وستمائة وتسعة وتسعين مرة، بحسب الإحصاء الإلكتروني، وعدّها الشيخ فؤاد عبد الباقي في كتابه المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ألفين وستمائة وسبعة وتسعين، فأنقص اثنتين، وهذا التكرر للفظ (الله) بدون أن يضاف إليه اللهم، أو الرب أو الرحمن أو غيرها من الأسماء والصفات الأخرى، مما يدلنا على عظمة هذا الاسم، وأنه اسم علم على الذات الإلهية، ولما قيل لسيبويه: عرّف الله، قال: الله أعرف المعارف(٢)، فلا تقل ما الله، فهو اسم من أعرف المعارف، وإنما يُحاول من يكفر به أن يتهرب منه إلى غيره، ولذلك لما سأل فرعون موسى، قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ

(١) ينظر: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد (ص: ٩).

(٢) ينظر: معنى لا إله إلا الله – الزركشي (ص: ١٠٦).

﴿٢٣﴾[الشعراء:٢٣]، وهو تهرُّب واضح من السؤال عن معنى لفظ (الله) لوضوح معناه في نفوس الخلق.

وقوله: ﴿أَحَدٌ﴾، ذكر هنا صفة الوحدانية المطلقة لله سبحانه وتعالى، وتعني: المتفرّد في كل شيء، المتفرد في الذات، وفي الفعل، وفي الاسم، وفي الصفة، المتفرد في الكمال والجمال والبهاء والجلال، المتفرد في كل ما يختص به سبحانه وتعالى، ففي باب الربوبية انفردت أفعاله، فلا يشابهه ولا يشاركه فيها أحد، فهو المتفرد بجميع أفعاله من الخلق والرزق والنفع والضُر وغيرها، وفي باب الأسماء والصفات، انفردت أسماؤه وصفاته بالكمال المطلق، فلا يُشبهه أحد، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١]، وفي باب الألوهية انفرد باستحقاق العبودية من الخلق، فلا يستحق أحدٌ العبادة غيره، وإن عُبد غيره فبدون حق، وعبادتُه باطلة، فهذه هي القضية الأولى التي ركزت عليها السورة، وهي الوحدانية، وتفاصيلها في كتب العقائد.

ثم جاءت الآية الثانية تتحدث عن قضية أخرى، وهي الصمدية، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ **ومعناه** الذي تصمُد إليه، وتلتجئُ وتحتاجه الخلائق، ولا يستغني عنه أحدٌ طرفة عين، فالكل قلبُه مُعلق بالله، ومُحتاجٌ إلى الله، حتى هذه المخلوقات من الجمادات لا تستغني عنه، فهو الذي يُمسك السموات والأرض أن تزولا، وهو الذي يُمسك الطير في جو السماء، و﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[يونس:٢٢]، فالخلائق كلها تحتاج إليه، وتعيش بفطرتها مُحتاجة إلى العُبودية له والتعلق به والالتجاء إليه، ولو تدنست فطرة البعض ولجأوا إلى غير

الله في وقت الرخاء، لكنهم في وقت الشدة يعودون بفطرتهم إليه من جديد، كما قال الله عنهم: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾[لقمان:٣٢]، وهذا ما نطق به حُصين والد الصحابي عمران بن حُصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، لما سأله النبي ﷺ كم تعبد؟ قال: ستة! خمسة في الأرض، وواحدٌ في السماء، فقال: لمن تلجأ وقت الشدة؟ قال: للذي في السماء[1]، أي: الله سبحانه وتعالى، فالصمدية إذن: حاجة الخلق من جمادات وحيوانات وبشر وجن وملائكة وسائر المخلوقات إلى الله وفقرها إليه، فالذات المخلوقة فقيرة إلى ذات الخالق، ومُحتاجة إليه سبحانه، والله غني عنهم، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[فاطر:١٥]، وقال قتادة وغيره: الصمد؛ الذي لا يأكل ولا يشرب[2]، وهذا كقوله، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[الأنعام:١٤]، وقيل: الصمد: السيد الذي يسود الخلق[3]، ويخضعون له، وهذا كله من التفسير بالمثال، والتفسير بمُطلق الحاجة من الخلق إلى الله ومُطلق الغنى من الله عن خلقه أَلْيق بلفظ الصمد، ولعل التسمية بسورة الإخلاص، جاء من معنى الصمدية التي تدل على الحاجة والالتجاء والفزع إلى الله والإقبال عليه سبحانه في كل شيء.

وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾، **الولادة، تعني:** لم يحصُل أن ولَدَ

---

(١) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/ ٥١٩)، برقم (٣٤٨٣)، وقال الألباني: ضعيف.

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٦٢).

(٣) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٦٩٢).

غيره، ولا وُلد من غيرِه، واختِير هذان اللفظان: لأن الوالد والمولود فيهما إشارة إلى الحاجة إلى الغير، وفيهما الترقي من صِفات الضعف إلى القوة، فالولادة عملية شاقة، فيها ألمٌ واحتياج إلى المساعدة، وفيها مظنة الهلاك، وكم من ذات حَملٍ تموتُ في ولادتها، وفيها معنى النقص، والمولود أيضاً يُولد ضعيفًا ويحتاج إلى من يرعاه ويُرضعُه ويُربيه، حتى يقوى وينمو ويكبر، ثم يشيب ثم يضعف ثم يموت، فهي تتحدث عن العدم ومراحل وجوده ثم النهاية ومراحلها، **فمعنى الآية:** أن الله أزليٌ أبديٌّ، فكل مولود ما دام جاء من العدم؛ فسيذهب إلى العدم، فقبل مائتي سنة كنتَ لا شيء يُذكر، **كما قال:** ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾[الإنسان:١]، أما الله فهو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، وهو الغني عن خلقه، وفي هذا ردٌ على المشركين الذين ادعوا أن عيسى ابنُ الله، وعزيراً ابن الله، والملائكة بناتُ الله، وكل هذا كذبٌ وافتراء، فالله لم يلد ولم يُولد، **كما قال:** ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞ﴾ [لأنعام:١٠١]، فالصاحبة هنا الزوجة، فمن أين يأتي الولد بدون زوجة؟!، وهذا يدل على تناقض الكفار في دعواهم.!!

وقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾، **أي:** لم يكن له مثيل ولا نظير ولا مُشابه ولا مُكافئ، وهذا يدل على إثبات الأحدية مرة أخرى، أحدية الأسماء وأحدية الصفات، فلا يُشابِهُه أحد، وليس له مثيل ولا نظير في ذاته ولا أسمائه ولا صفاته ولا أفعاله، ولذلك جاء الشرع بتحريم بعض الأعمال التي فيها تشبيه بأفعال الله، مثل عمل التماثيل، فالذين يصنعون هذه التماثيل يبعثُهم

الله يوم القيامة ويقول لهم: أحيوا ما خلقتم[(١)]، وأنى لهم ذلك؟!!، فهم بفعلهم هذا يُضاهون خلق الله، ويُشابهون فعل الله، فيطَالَبون يوم القيامة بأن ينفُخوا فيها الروح.

والذين أشركوا بالله وقعوا في الشرك لأحد سببين: الأول: إما شبّهوا المخلوقين بالخالق، أو شبَّهوا الخالق بالمخلوقين، فتشبيه الخالق بالمخلوقين ينتج عنه شرك الأسماء والصفات، **مثل أن تقول:** لله يدٌ كيدي، أو وجهٌ كوجهي، فهذا تشبيه للخالق بالمخلوقين، والله ليس كمثله شيء، وليس له نظير ولا شبيه.

والثاني: تشبيه المخلوقين بالخالق، وينتج عنه الشرك في الألوهية مثل أن ترفع المخلوق إلى درجة الخالق، فتدعو المخلوق وتذبح للمخلوق، كما تذبح لله، كمن يرفع الأولياء والصالحين ويجعل منهم آلهة يعبدها ويتقرب إليها كما يتقرب إلى الله، فالشرك الذي وقع في البشرية نوعان: إما شركٌ في القصد والطلب، ومن آثاره تشبيه المخلوقين بالخالق، حيث صرفوا للمخلوق ما يُصرف للخالق من أنواع العبادات كالنذر والسجود والطواف وسائر العبادات التي لا تكون إلا لله، أو شرك في المعرفة والإثبات وهو أثر لتشبيه الخالق بالمخلوقين في أسمائه وصفاته وأفعاله، والله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١]، **فالواجب** أن نثبت له الأسماء والصفات كما يليق به سبحانه، فنقول: الله سميعٌ سمعًا يليق بجلاله، ورحيمٌ رحمةً تليقُ به، وهكذا في سائر الصفات نثبتها كلها على ما يليق به سبحانه.

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣/ ٦٣)، برقم (٢١٠٥).

وهذه السورة على قِصَر آياتِها إلا أنها تُحدثنا عن أعظم علمٍ، وهو العلمُ بالله، وهي تعدلُ ثلث القرآن، **أي**: في الجزاء والثواب، لا في الإجزاء!!، ما الفرق بين المسألتين؟! **الجواب**: لو أن شخصًا كسلاناً قال: بدلاً من أن أشغل نفسي بقراءة ثلاثين جزءًا؛ سأقرأ سورة الإخلاص ثلاث مرات، وتُغنيني عن قراءة القرآن كله، فهذا إن أخلص مأجور، لكنها لن تُجزئه عن قراءة المصحف كله، فلا يغتر الإنسان بأحاديث الجزاء ويُعممها في باب الإجزاء، أو أن يقول أحدهم مثلًا: أنا إن شاء الله سأذهب أُصلي في الحرم المكي صلاةً واحدة بمائة ألف صلاة، فهل تُجزئ عن مائة ألف فريضة؟! الجواب: لا، فهذا الفهم يحتاج أن يستوعبه الناس، لأنهم من كسلهم هذه الأيام صاروا يبحثون عن الإجزاء فحسب، حتى إنك تسمع في أسئلتهم: هل يُجزئُني أن أفعل كذا، فالإجزاء غير الجزاء، فالجزاء يحتاج إلى إخلاص، وإحسان ظن بالله، وإتقان للعمل، ومُتابعة للسنة حتى يُكتب لك الأجر ويضاعفه، لكن الإجزاء يسقط به الواجب فقط.!!

فوائد وهدايات من السورة:

١- سورة الإخلاص نزلت في مكة، فكانت عنوانًا للدعوة إلى التوحيد، وقد كانت الآلهة مُتعددة، تجاوزت ثلاثمائة وستين صنمًا، ولكل قبيلة إله، فجاءت لتجمع الناس تحت راية التوحيد والوحدانية، والعقيدة الصحيحة، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠].

٢- من خلالها يتعلم الإنسان كيف يتعامل مع الله، فأعظم أنواع العلم النافع هو العلم بالله، فتتعرف على الله من خلال: أسمائه، صفاته، أفعاله، نعمِه، التفكر

في آياتِهِ الكونية أو الآيات الشرعية، فإذا تعرفت على الله ستجد أن الله سبحانه وتعالى ذو الجلال والبهاء والجمال، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، وهو الغفور الرحيم، وهو الإله البَر الرحيم اللطيف، فتُحبه، فإذا أحببته؛ تعبّدت له، وازددت قُربًا منه.

٣- أن الآيات التي تتحدث عن الله تمنحك أصول العبادة الثلاثة: وهي الحب والرجاء والخوف، فإذا أحببته وخِفته ورجوته فأنت تسير إلى الله بهذه الأصول الثلاثة جميعًا، وقد مثّلها أحد أهل العلم برأس الطائر وجناحيه، فالحُب الرأس، والجناح الأيمن الرجاء، والأيسر الخوف، فهو يطير بها جميعًا، ولو قُطع رأسه لمات، ولو كُسر أحد جناحيه سقط وفقد توازنه، فهذه هي العبادة الحقة.

٤- أن عبادة الله بالخوف فقط؛ هي عبادة الخوارج، الذين غلّبوا جانب الخوف فقط، وهناك قوم يعبدون الله بالرجاء فقط، وهم المرجئة الذين غلّبوا جانب الرجاء فقط، وهناك قوم من الزنادقة يقولون: نحنُ نعبد الله بالحب فقط، ولسنا خائفين لا من نار ولا نريد جنة، بل يقولون: نحن نعشق الله، والعشق لا يجوز مع الله، فأعلى درجات العلاقة بين العبد وربه هي العُبودية، ولو وُصف أحدٌ بأحسن وصف غير العُبودية لوُصف به محمد ﷺ، كما قال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾[الإسراء:١]، في أحسن موقف وأشرف موقف وصفه بالعبودية.

وهؤلاء الثلاثة الأصناف على ضلال في مفهوم العبادة، **ولذلك فالصحيح في مفهوم العبادة**: أن تعبد الله حبًا وخوفًا ورجاءً، وتجمعُها الثلاثة مع بعضٍ وأنت مُتوجه إلى الله، تتوجه إليه حبًا له ورجاءً فيه وخوفًا منه.!!

تفسير سورة الفلق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ
٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾.

شخصية السورة:

سورة الفلق؛ سورة عظيمة، وهي سورةٌ مُختلَفٌ في سبب نزولها ومكان نزولها، هل نزلت في مكة، أم نزلت في المدينة؟!، **والراجح** أنها نزلت بالمدينة[1]، فقد ورد أن النبي ﷺ سُحر، وكان يرى أنه يأتي النساء وما يأتيهنّ، ويخيّل إليه أن يفعل الشيء وما يفعله، فبينا هو ذات يوم نائم أتاه مَلَكان، فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال أحدهما للآخر: ما بال الرجل؟ قال: طُبَّ. قال: وما طُبَّ؟ قال: سُحِر، قال: ومن سَحَره؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال: وبم طَبَّه؟ قال: بمُشْط ومُشَاطة. قال: وأين هو؟ قال: في جُفِّ طلعةٍ تحت راعوفة في بئر ذروان، والجف: قشر الطلع. والراعوفة: صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقِّي عليها، فانتبه رسول الله ﷺ فقال: **"يا عائشة أما شعرتِ أن الله أخبرني بدائي"**، ثم بعث علياً،

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٥٠٧).

والزبير، وعمار بن ياسر، فنزحوا ماء تلك البئر، ثم رفعوا الصخرة، وأخذوا الجُفَّ، وإذا فيه مُشَاطة رأسه، وأسنان مشطه، وإذا وتر معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبرة، فأنزل الله عزّ وجلّ المعوذتين، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة، ووجد رسول الله ﷺ خِفَّة حين انحلت العُقْدَةُ الأخيرة، وجعل جبريل يقول: بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، ومن حاسد وعين، والله يشفيك، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نأخذ الخبيث فنقلته؟ فقال: **"أما أنا فقد شفاني الله، وأكره أن أثير على الناس شرّا"**(١).

تنبيه: بعض الناس ينكرون أن النبي ﷺ سُحر، لماذا؟ قالوا: لو سُحر لأثّر ذلك على إبلاغ الرسالة، والجواب: أنه سُحر، ولكنه سحرٌ خاص يتعلق بعلاقته بأهله فقط، كما قالت عائشة: **"كان يُخيَّل له أنه يأتي الشيء ولم يأته"**(٢)، فهذا هو الذي حصل له، وهو نوع من سحر التخيّل، فكان يُخيَّل إليه مثلًا أنه نام مع زوجته وهو لم ينم، وهذا التخيّل ليس له أثر على الرسالة والبلاغ، وليس له أثرٌ على عقل النبي ﷺ، وإنما هو نوع من الابتلاء حصل له ﷺ، ليُعلّمنا كيف نتعالج منه.!!

وهي سورة قصيرة المباني كبيرة المعاني، ورد في فضائلها عدة أحاديث، وتُقرأ في الصباح وفي المساء وبعد الصلوات وعند النوم وعند الرقية، وفضائلها كثيرة.

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٥٠٧). ورواه البخاري (٨/ ٨٣)، برقم: (٦٣٩١)، بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٤/ ١٢٢)، برقم (٣٢٦٨) بنحوه.

والمقصد الأعظم للسورة هو: بيان ضرورة الالتجاء إلى الله والاستعاذة به سبحانه وتعالى من أربعة شرور يتعرض لها الإنسان في نفسه وبدنه.

والمناسبة بين سورة الفلق وسورة الإخلاص، أن الله لما ذكر في سورة الإخلاص أوصافه، ومنها: أنه الأحد الصمد الذي تصمُد إليه الخلائق، أمرهم في سورة الفلق بالاستعاذة به لحمايتهم من شرور الجن والإنس والنفوس الخبيثة والسحرة والساحرات الذين يؤذون الناس؛ فهو وحده الذي يلتجئُ إليه العبد ويستجير به من هذه الشرور.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١﴾، **أي:** قل يا محمد: أستجير وألتجئ وأستعيذ، أستعيذ بالرب سبحانه وتعالى، عبّر هنا بالرب ليستحضر الإنسان ضعفه وحاجته إلى الله، فالرب هو المُربي وهو الخالق، والإنسان هو الضعيف الذي يحتاج إلى من يُربيه ويقف بجواره ويعتني به ويرعاه، واختار من الخلق الفلق، وأضاف الرب إليه، **وفي معناه قولان للعلماء:**

الأول: أنه الصبح، كما في قوله: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾[الأنعام:٩٦].

والثاني: أن الفلق المقصود بهم الخلق كلهم[١]، لكن القول بأن الفلق هو الصبح أرجح[٢]، لعلاقة التناسُب بين هذا اللفظ ومعناه، فالفلق هو الصبح الذي يُزال به الظلام، والشرور التي تُصيبُ النفس ظلامٌ وألمٌ وتعبٌ، فكان التناسق بين لفظ الفلق والاستعاذة برب الفلق، مما يتقابل ويتناقض مع الفلَق، وهو من

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٥٠٨).

(٢) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٧٠١).

براعة الاستهلال، ويشعر بالتفاؤل، فتفاءل أيها العبد المكلوم باستعاذتك برب الفلق، فكما فلَق الله الصبح فطار الظلام وجاء النور؛ فسيطير منك البلاء، ويذهب عنك العناء، ويأتيك الفرح والسرور، وينشرحُ صدرك ويستضيء، كما ينشرح اليوم ويستضيء بضوء الصباح!!.

فيستعيذ الإنسان بالله رب الفلق من شرور أربعة:

الأول: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، وستلحظون أن لفظة الشر مُكررة في أربع مرات في السورة، **والشر**: نقيض الخير، فما ليس فيه خير، أو فيه خيرٌ قليلٌ وشره كثير فهو شر، والشر مأخوذٌ من الشرر[1]، والشرر نوعٌ من النار المتطاير التي لو أصابت الثوب أحرقته، ولو أصابت الجسد آذته، وهو متنوع، وهو من ضمن خلق الله سبحانه وتعالى، والصحيح أن الله لا يُنسب إليه الشر تنزُّهًا وتأدبًا معه، وهو خالق الخير وخالق الشر، فلا يوجد في هذا الكون شيءٌ بدون إذنِه، خلافًا لما تقوله المعتزلة من أن الشر يُوجد بدون إذن الله، ولا يعلمه الله إلا بعد وقوعه من البشر، وهذا الذي جعل أهل العلم يُسمون المعتزلة بالثنوية، **لأن الثنوية فرقة من المجوس تعبد إلهين**: إله النور وإله الظلمة، وهؤلاء بقولهم هذا القول يلزمُهم أن هناك خالقين للكون: خالقًا للخير وخالقًا للشر، وهذا باطل، فالله خالقُ كل شيء، وتفسّر النصوص التي تنسب الشر إلى غير الله، كما في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء:٨٠]، **وقوله:** ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[النساء:٧٩]، **وكما جاء في الحديث:**

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة (١١/ ١٨٦).

"والشر ليس إليك"[١]، كل ذلك تأدبًا مع الله، أو باعتبار أن الشر صادرٌ منك، وأنت سببُه، أما الله فخلْقُه كله خيرٌ محظ، لكنه سيكون شراً بحسب من يقع عليه، فانظر مثلًا: المطر خيرٌ، ولكنه على بعض المخلوقات شرٌ، مثل: النمل والذر والحشرات وغيرها، حيث يهدم بيوتها، ولا تُريد هذا المطر وتعتبره شرًا محضًا، وهكذا بعض البشر بحسب حاله، إن كان يحتاج إليه يعتبره خيرًا، وإن كان لا يحتاج إليه يعتبره شراً، وهكذا في سائر الأمور، فالله سبحانه وتعالى قد يُصيبُك بالمرض، فأنت تعتبر المرض شراً، ولكن الله سبحانه وتعالى لحكمته البالغة قد يكون ما قدّره عليك من المرض خيراً لك إن صبرت واحتسبت، فهو تكفير للذنوب والسيئات، ورفع للدرجات، فقد جاء في الحديث: "حتى الشوكة يُشاكها، يُكفّر عنه من خطاياه"[٢]، **وقد اختلق المفسرون في معنى قوله:** ﴿مَا خَلَقَ﴾، فقال بعضُهم: المقصود به إبليس وذريته، فإنهم شر الخليقة.

وقال آخرون: بل المقصود به العموم[٣]، **أي:** من شر كل مخلوقٍ فيه شرٌ، حتى من نفسِك، **وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ كان يفتتح الخطبة، فيقول:** **"ونعوذ بالله من شرور أنفسنا"**[٤] **وكان يقول:** **"اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشِرْكه أو وشَرَكِه"**[٥]، فتستعيذ بالله من شر نفسِك، ومن

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٣٥)، برقم (٧٧١).

(٢) رواه البخاري (٧/ ١١٤)، برقم (٥٦٤٠) بنحوه.

(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٥٠٨).

(٤) رواه الترمذي، ت شاكر (٣/ ٤٠٥)، برقم (١١٠٥)، **وقال الألباني:** صحيح.

(٥) رواه أبو داود (٤/ ٣١٦)، برقم (٥٠٦٧)، **وقال الألباني:** صحيح.

شر عملك، ومن شر خواطرك ووساوسك، خاصةً إذا كانت النفس أمّارة بالسوء فشرورُها كثيرة، فتكون الاستعاذة من الشر عامة فيشمل شرور كل الخلق الصادرة منهم، بمن فيهم إبليس والنفس الأمارة بالسوء وغيرهم، فيكون العموم في اللفظ هو الراجح[(١)].

النوع الثاني من الشر مذكور في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾، كرر لفظة الشر وجاء بلفظ إذا التي تفيد الظرف، والمُستعاذ منه هنا: هو الغاسق، وهو الليل، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ [لإسراء:٧٨]، وسُمي الليل غاسقًا، لأنه يدخل بظلامِه فيُغطي نور النهار ويصير الليل غاسقا **أي**: مُظلمًا، **وقال بعضُهم**: الغاسق؛ القمر[(٢)]، **وقد صح ذلك في حديث النبي ﷺ** عن عائشة لما أراها القمر، وقد اختبأ، قال: **"هذا الغاسق إذا وقب"**[(٣)]، **ولكن أهل العلم يُرجحون**: أن المقصود بالغاسق هنا؛ الليل وأن القمر أحد أدواته[(٤)]، وأحد آيات الليل، كما قال الله: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً﴾[الإسراء:١٢]، فالقمر أحد آيات الليل، فالغاسق هو الليل، ومطلوب من العبد أن يستعيذ برب الفلق من شر الليل إذا دخل وأقبل بظلامه، **والعلة في ذلك**: أن الليل إذا دخل بظلامه وانتشر ظلامُه وسكن الناس؛ تحركت الوحوش، وتحركت الشياطين، وتحركت الحيوانات المؤذية والمفترسة،

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٥٠٨).

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٧٠٣).

(٣) رواه أحمد، ط الرسالة (٤٠/ ٣٧٩)، برقم (٢٤٣٢٣)، **وقال المحقق**: حديث حسن.

(٤) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٧٠٤).

فوقت نشاطها هو الليل[١]، وهذا مشاهد، حتى شياطين الإنس ينشط أكثرهم في الليل، فالناس ينامون وهم يسهرون وأثناء سهرهم يجري من الأذى منه لأنفسهم وللآخرين ما الله به عليم، وهم بهذا يشابهون سائر المستعاذ منهم من أهل الليل الذين ينشطون في الليل، فالحيوانات تخرج لتبحث عن صيدها في الليل، حيث خلق الله لها ما يُيسر لها عيشتها في الليل من النظر والرؤية في ظلام الليل، والبحث عن فريستها، ولأن النهار معاش للناس وحركتهم، والليل سكن لهم، وأما من يسكن في النهار من المخلوقات، فتنشط في الليل، وليس كل الليل شرًا وإنما هناك أوقات أو أحوال يصدُر بها الشر أو يقع فيها الشر في الليل، وهناك أوقات يحصل فيها خير، وخاصة في الثلث الأخير منه حيث تنزل الرحمات، وتقبل الدعوات من المُستغفرين بالأسحار، فهذا كله خير، ولذا قيّده بـ(إذا) الظرفية فاستعذ من شر الليل إذا حل ظلامه!!، ومن شر الليل أن يتسلط عليك إبليس؛ فيجعلك تنام ولا تقوم إلى صلاة ولا تستغفر، فهذا كله من الأمور التي تجعل الليل محلاً للشر.

النوع الثالث من الشر، في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ٤﴾، لم يُقيّد هذا الشر بـ(إذا) الظرفية، بل جعله مُطلقًا، لأن النفاثات عملهن كله شر.

والنفاثات هُن: السواحر، جمعُ نفاثة، وهي التي تنفث، والنفث هو: ما يخرج من الفم من ريق مع الهواء[٢]، فإن ذهب الريق وبقي الهواء فقط فهو

---

(١) ينظر: تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٨٢١).

(٢) يُنظر: الغريبين في القرآن والحديث (٦/ ١٨٦٦).

النفخ، **ومنه حديث: "نهى عن النفخ في الإناء"**[١]، وفي الرقية يُفضّل أن يُكثِر الهواء ويقلّل من الريق، ليكون نفثًا، **وقد** "كان النبي ﷺ، عند النوم، يفتحُ كفيه فيقرأ فيهما المعوذتين وقل هو الله أحد، ثم ينفُث فيهما، ثم يمسح بهما وجهه وما ظهر من جسده"[٢].

وما المقصود بالنفاثات قيل: هن النساء الساحرات وخُصصنْ بالذكر لأن سحرهن أخطر وأخبث[٣]، ورجّح هذا القول ابن تيمية[٤]، وردّه تلميذه ابنُ القيم، **وقال:** أن المقصود بالنفاثات هنا: الأرواح والنفوس، وكلاهما مؤنث، والنفوس الخبيثة والأرواح الخبيثة موجودة عند الرجال وعند النساء، ولا فرق بينهما[٥]، وهذا لا شك تعليل قوي ووجيه؛ فالأرواح والأنفس الخبيثة التي يحملها الساحر، سواءً كان رجلا أو امرأة، هي التي تنفُث الهواء مع الريق، وتقول كلامًا باطلًا، تعلّمه السحرة من الشياطين، كما قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾[البقرة:١٠٢]، ولا يمنحوه القدرة على السحر إلا بعد أن يكفر، كما قال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡ﴾[البقرة:١٠٢].

وقوله: ﴿فِي ٱلۡعُقَدِ﴾، **العُقد:** جمع عقدة، وتكون في الخيوط والحبال

---

(١) رواه الترمذي، ت شاكر (٤/ ٣٠٤)، برقم (١٨٨٨)، **وقال الألباني:** صحيح.
(٢) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/ ٤٧٣)، برقم (٣٤٠٢)، **وقال الألباني:** صحيح.
(٣) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٧٤).
(٤) ينظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٧).
(٥) ينظر: التفسير القيم لابن القيم (٢/ ٢٧٩-٢٨٠).

والأشياء اللينة، لاستحالة ذلك في غيرها، **كما في الحديث**: **"من أرى عينيه في المنام ما لم ترَ كُلّف يوم القيامة أن يعقد بين شعِيرَتين"**(١)، أي حبتين من شعير، وليس بفاعل، وهنا جاء الأمر بالاستعاذة منهن مطلقـًا؛ لأن شرهن مُستمر، فعلى المسلم أن يستعيذ بالله ويستجير به من شر النفاثات في العقد في كل الأوقات.!

النوع الرابع من الشر، في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾، هذا الشر أيضـًا قيّده بالظرف إذا، والحاسد هو الشخص الذي يحملُ في قلبه الحسد، وهو: تمني زوال النعمة عن الغير وتحولها إليه، أما إن كان عند غيرك نعمة فأحببت أن يكون لك مثلها مع بقاء النعمة التي عند غيرك معه؛ فهذا لا يُسمى حسدًا، بل يُسمى غِبطة، وقد يُطلق عليه في بعض نصوص الشرع حسداً، ولكن يقال له: الحسد الممدوح، **كما في قوله** ﷺ: **"لا حسد إلا في اثنتين"**، **والمعنى**: لا حسد مشروع أو ممدوح إلا في اثنتين: **"رجل آتاه الله مالًا فسلّطه على هَلكَتِهِ في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها"**(٢)، فإذا تمنيت أن يكون لك مالًا مثله؛ من أجل أن تفعل مثل فعله، أو أن تصير عالمـًا تُعلّم الناس الخير مثله، فهذه هي الغِبطة وتعني: حب التنافس في فعل الخير مع غيرك، فيكون الخير موجوداً عندك وعنده، بخلاف الحسد وهو: أن تتمنى زوال النعمة عن غيرك، سواءً كانت هذه النعمة في ذاته أو في ماله أو في وصفه، وتتحول إليك،

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير: (١١/ ٢٤٨)، برقم (١١٦٣٧)، **وقال الألباني**: صحيح.
(٢) رواه البخاري (٢/ ١٠٨)، برقم (١٤٠٩).

وهذا يدل على فساد النفس، وأنها نفسٌ شريرة، وهذا الشر قد يُؤذي الآخرين، ولذلك أمرنا أن نستعيذ بالله من الحاسد لأن نفسه شريرة وتكون الاستعاذة منه حال تنفيذ الحسد، حتى لا يصيبك بالعين، وفي هذا إشارة إلى أن الحاسد قد تقع منه العين، فيصيب بها غيره، **والإصابة بالعين حق، وهي نوعان: عينٌ حاسدة؛** وهي ناتجة من شرور في النفس، **وعين مُعجبة به؛** كما حصل في عهد النبي ﷺ، أن رجلًا خلع ثيابه وذهب يغتسل، فرآه رجل فأُعجب بجمال جلده؛ فقال: كأنه جلد امرأة في خدرها أو كلمة نحوها؛ فأصابه حتى سقط، **فقال النبي** ﷺ: **"علام يقتل أحدكم أخاه، فإذا رأى ما يعجبه، فليقل: ما شاء الله"**[1]، **وفي حديث آخر:** **"وإذا استُغسلتم فاغتسلوا"**[2]، فإذا رأيت ما يُعجبُك فقل كما قال الله: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[الكهف:٣٩]، فهذا يُذهب أثر الإعجاب المُؤذي، أما إذا كانت النفس حاقدة أو حاسدة وتحمل الخُبث وخرجت منها العين، فهذا أخطر؛ لأن الشيطان يُرافقُها، وتتحول إلى مسّ، ويُصاب الإنسان بتلبُّس الجن فيه، بخلاف العين المُعجبة؛ فقد يتأثر الإنسان بها ويُصاب بالأذى، ولكن لا يتلبس به الشيطان ولا يمسّه، وهنا قال: ﴿حَاسِدٍ﴾ ولم يقل: حاسدة، لأن المقصود الشخص الذي يحسد، فقد يكون رجلًا، وقد يكون امرأة، والحسد مُصيبة من المصائب، وهو مطيةٌ لكل المصائب، ولذلك قيل: أول ذنبٍ عُصي الله به هو الحسد، ففي السماء حسد

---

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ١١٦٠)، برقم (٣٥٠٩)، **وقال الألباني:** صحيح.

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٧١٩)، برقم (٢١٨٨).

إبليس لآدم فترك السجود له، وعصى أمر الله سبحانه وتعالى، فأدى به ذلك إلى أن يكفر بالله، وفي الأرض حسد قابيل لهابيل، فأدى به ذلك إلى القتل، فقتل أخاه[1]، فالحسد دليل على فساد النفس، فترى أنها هي الأكمل والأحسن، فلا تُريد خيرًا لأحد أو أن يُشاركها فيه أحد، فالحاسد يحمل الأنانية والحقد، وخُبث النفس وسوء الطوية، ولو أظهر لغيره الابتسامة الصفراء، فإن وراءها المصائب، فاحذر منه، ولذلك أُمرنا أن نستعيذ بالله من شر الحاسدين الحاقدين.

فوائد وهدايات من السورة:

١ – أهمية الالتجاء إلى الله والاستعاذة به سبحانه وتعالى من كل الشرور التي يتعرض لها الإنسان في نفسه وبدنه وماله وأحواله كلها.

٢ – أهمية التفاؤل، فتفاءل أيها العبد المكلوم باستعاذتك برب الفلق، فكما فلَق الله الصبح فطار الظلام، وجاء النور؛ فسيطير منك البلاء، ويذهب منك العناء، ويأتيك الفرح والسرور.!

٣ – أن الحاسد قد تقع منه العين، فيصيب بها غيره، وعلاجها بالاستعاذة من شره.

---

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣/ ٦٤٥-٦٤٦).

تفسير سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة الناس؛ هي آخر سورة في ترتيب المُصحف، وهي إحدى المعوذتين، وهي سورة مكية، **وهناك قول لبعض المفسرين** أنها نزلت في المدينة عندما سُحر رسول الله ﷺ[(١)]، وقد ذكرنا ذلك في تفسيرنا لسورة الفلق، فقد تكون نزلت بمكة، ولما حصل للنبي ﷺ ما حصل جاءه جبريل وقال له: **"ارق نفسك بهاتين السورتين"**[(٢)]، فيكون من باب تكرار النزول، أو تعليمه أن يقرأ هاتين السورتين لعلاج ما أصابه، وقد أشرنا إلى بعض فضائلهما هناك، وأنهما مما يرقي به الإنسان نفسه، ويقرأهما عند النوم ودُبر الصلوات، وذلك لما فيهما من الالتجاء والاستعاذة بالله سبحانه وتعالى، وقد تكرر لفظ الناس فيها خمس

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٤٠).

(٢) رواه أحمد، ط الرسالة (٣٥/ ١١٦)، برقم (٢١١٨٦)، **وقال المحقق**: صحيح.

مرات في ست آيات، وتكرر فيها أيضا حرفُ السين عشر مرات، **والسر في هذا التكرار**: أن الهمس من صفات حرف السين، وهو كذلك من صفات الشيطان، حيث يهمس في صدر الإنسان بالوسوسة، فكأن تكرار حرف السين في هذه السورة؛ إشارة إلى تكرار الوسوسة من الشيطان، والله أعلم.

ومقصد السورة؛ الاعتصام والتحصن بالله من شر الشيطان ووسوسته، ومن الشرور الخفية[1]، حماية دين الإنسان، لأن الوسوسة تصُب في إفساد دينه، وتُلقي عليه الشُبه، وتجعلُه يعبد غير الله، ويخاف من غير الله.!!

وهذه السورة ابتدأها الله تعالى بقوله: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾، وقد سبق معنا، أن (قل)، تفيد الأمر من الله لرسوله أن يُبلغ ما أُوحيَ إليه، وهذا مما يُستدل به على أن القرآن كلام الله، وأن محمداً ﷺ مُبلّغ له فقط، وأنه لا يزيد فيه ولا يُنقص منه شيئًا، كما قال الله: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥﴾ [الحاقة:٤٤-٤٥]، **ومن جهة ثانية**: فإنها تُشير إلى مُهمة من ورث هذا العلم من أمته، وأن عليهم أن يُبلّغوه كما سمعوه، وأن يقولوا الحق للناس، ويدلوهم على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

وقوله: ﴿أَعُوذُ﴾، فعلٌ مضارع يدل على الاستمرار، وما أحوج الإنسان أن يكون على صلة مستمرة بربه، وأن تكون استعاذتُه والتجاؤه إلى الله تعالى على سبيل الاستمرار، فإن الإنسان إذا تخلّف عن ذلك؛ وُكل إلى نفسه، ومن وُكل

---

(١) ينظر: المختصر في تفسير القرآن الكريم (١/ ٦٠٤).

إلى نفسه هلك، **وقد كان من أدعية النبي ﷺ: "ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين"**[١].

وفي السورة ثلاث استعاذات، وهي قوله: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾، وجاءت بثلاثة أوصاف للمُستعاذ به، وهو الله سبحانه، **وهي**: **رب** الناس، **إله** الناس، **ملك** الناس، من مُستعاذٍ به واحد؛ وهو شر الشيطان وأعماله، **فقال**: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ﴾، يعني من شر واحدٍ هو الوسواس ثم ذكر صفاته، **وفي سورة الفلق كانت الاستعاذة بوصفٍ واحد للرب وهي**: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۝١﴾، وتعدّد المُستعاذ منه، فما هو السر في ذلك؟!، **الجواب**: أن في سورة الفلق، كانت الاستعاذة برب الفلق من شر ما خلق؛ لأن شره يُصيبُ البدن، ويؤثر على دنياك، بينما في سورة الناس كانت الاستعاذة من أجل ألا يُصيبك الشيطان في دينك، فإن الوسوسة في القلب تجعل الإنسان يضِلُ في دينه، فدل ذلك على أن الدين أهم من الدنيا، **ولذا كان من دعائه ﷺ: "ولا تجعل مُصيبتنا في ديننا"**[٢]؛ لأن المصيبة إن كانت في دنياك فقد يُعوضُك الله عنها خيراً، بخلاف أن تكون المُصيبة في دينك، فتخسر دنياك وآخرتك!!.

وقول الله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾، الاستعاذة هنا برب الناس، والربوبية هي: إفراد الله بأفعاله، فهو الرب، المُربي، المُنعم، المالك، الخالق، الرازق، ونحوها.

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٣٢٤)، برقم (٥٠٩٠)، **وقال الألباني**: حسن الإسناد.

(٢) رواه الترمذي، ت شاكر (٥/ ٥٢٨)، برقم (٣٥٠٢)، **وقال الألباني**: حسن.

ثم قال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾، وهذا يُسميه العلماء عطف بيان، لأن كل عبارة تُبيّن ما قبلها، والمِلك هنا أبلغ من الربوبية، وقد تكون ربَ البيت لكنك لا تملكه فقد يكون بالإيجار، فالمِلك أعظم من الرب، وملِك الناس يعني المالك المُسيطر عليهم المُتمكن منهم.

ثم قال: ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ وهذا عطف بيان أيضًا، والألوهية هي: إفراد الله بأفعال المكلفين، من صلاة وصيام وذبح ودعاء ونحوها، فمن كان ربًا ومالكًا للخلق؛ فهو من يستحق بأن يكون إلهًا لهم، وإضافة الرب والملك والإله إلى الناس تفيد التشريف، وتشعرهم بأنهم مكرمين عنده، **كما في قوله:** ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[الإسراء:٧٠]، والربوبية والمُلك والألوهية هي مِحور التوحيد، **فإن التوحيد على قسمين:**

الأول: توحيد المعرفة والإثبات، وتكون في خلقه وفعله ومُلكه سبحانه وتعالى، ويندرج تحته توحيد الأسماء والصفات، فنُثبت له ما أثبته لنفسه، وننفي عنه ما نفاه عن نفسه.

والقسم الثاني: توحيد القصد والطلب، وهو توحيد الألوهية، وهو إفراد الله بأفعال المكلفين، فأتى بأنواع التوحيد كلها في هذه الاستعاذة.

قوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾، هذا هو المُستعاذ منه، وهو شر الوسواس، هل هناك وسواس خيرٍ؟!، **الجواب:** بالنسبة للشيطان؛ فكل وسواسه شر، وبالنسبة للنفس؛ فإن كانت نفسًا صالحة، فخواطرها قد تحتوي على كثير من الخير، و﴿مِن﴾ هنا للبيان، **أي:** أن الشر كامن في إبليس،

والوسواس هنا المقصود به الوسوسة، وهي الصادرة إما من إبليس وإما من النفس الأمارة بالسوء، **والوسواس هو**: خاطرٌ خفي في النفس يذهب ويعود، ويكثر الوسواس في الأنفس التي تكون غافلة عن الله، وكلما غفلت عن ذكر الله وطاعته؛ كلما زادت الوساوس الجاثمة على صدرك من النفس الأمارة بالسوء ومن الشيطان وحزبه، أما المؤمن التقي الذي يكثر من ذكر الله، فقد تأتيه خواطر من الشيطان أو من النفس، ولكنها سرعان ما تذهب إذا ذكر الله، **كما قال**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾[الأعراف:٢٠١-٢٠٢]، **والمقصود بإخوانهم** هم المنهمكون في الغفلة والانحراف، وقد أعطى الله الشيطان القدرة للوصول إلى النفس، **كما جاء في الحديث**: "**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**"(١)، وعلى المسلم أن يقاوم هذه الوساوس، ويلتجئ إلى الله في دفعها، **كما قال**: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾﴾[آل عمران:١٠١]، وذكر الله **للشيطان هنا صفتين**: **الصفة الهُجومية** عند الغفلة؛ يهجم عليك بالوسوسة، **كما قال**: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾﴾[الزخرف:٣٦]، **والصفة الدفاعية** إن ذكرت الله؛ يهرب منك، والخناس صيغة مبالغة من الخنْس، وهو الهروب والاختفاء، فيهرب ويبتعد عنك.

وقوله: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾﴾، هذا وصفٌ للشيطان، فإنه يهجم على القلوب التي في الصدور بالوسوسة، وهذه الوسوسة تختلف

---

(١) رواه البخاري (٩/ ٧٠)، برقم (٧١٧١).

بحسب حال الناس، فالغافل تكثُر عنده الوسوسة ويطبق عليه الشيطان من جميع الجهات، والمؤمن التقي الذاكر لله سبحانه وتعالى، تأتيه أحيانًا ويبتعد الشيطان عنه أحيانًا إذا ذكر الله ويعود إليه إذا غفل، **كما جاء في الحديث**: **"إذا سمع الشيطانُ النداء** -أي الأذان-، **هرب وله ضُراط"**(١)، ومن هنا يقول العوام إذا أرادوا أن يصفوا شيئًا بالكثرة، يقولون: (عدد ضرط إبليس)، وذلك من كثرة ما يسمع الشيطان الأذان، فقد خلق الله الأرض كروية، وجعل مواقيت الصلاة فيها تدور كل دقيقة أو دقيقتين، فما يكاد ينتهي الأذان هنا إلا وأذنّ في المنطقة التي تليها وهكذا، فيستمر الأذان يلف العالم، وإبليس يهرب منه كلما سمعه، فإذا انتهى الأذان وقام الرجل يُصلي فما أن يُكبر حتى يأتي إليه؛ فيُوسوس له، ويقول له: اذكر كذا، واذكر كذا، فلا يدري العبد كم صلى، فهذا من الوسواس، وهو سبب لعدم الخشوع في الصلاة، ولذلك أرشد النبي ﷺ من يأتيه الوسواس في الصلاة، أن يستعيذ بالله من شره، ولينفُث عن يساره، وقد جاء في الحديث أن أحد الصحابة قال: كنت رديف النبي ﷺ، فحصل للناقة شيء فقلت: تعس الشيطان، قال: **"لا تقل تعس الشيطان، فإنك إن قلتها تعاظم، ولكن قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنه يتصاغر"**(٢)، فالاستعاذة منه مهمة، بخلاف سب الشيطان أو لعنه، فقد لا يستفيد منها الإنسان في دفعه، بل يزداد تعاظمُه، فكيده على المؤمنين ضعيف، **كما قال**: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٢٥)، برقم (٦٠٨).

(٢) رواه أبو داود (٤/ ٢٩٦)، برقم (٤٩٨٢)، **وقال الألباني**: صحيح.

﴿يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل:٩٩-١٠٠]، وكلما كثر الوسواس عند شخص دل ذلك على غفلته، فعليه بذكر الله ليطمئن قلبه، **كما قال:** ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[الرعد:٢٨]، فالقلب الميت مأوى الشيطان، فالشياطين تسكن الأماكنُ الخَرِبة، والأماكن النجسة والوسخة مثل الحمامات، فلا تجعل قلبَك مأوى للشيطان، بل طهّر قلبَك من كل الأوساخ كالحسد والغِل والحقد وسوء الظن، فهذه القاذورات هي التي تدعو الشيطان إلى قلبك فيصبح بيتًا له!!

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾، بيان للمُستهدفين، وهم الجن والإنس المكلفون، فالشيطان يريد أن يحرفهم عن طاعة الله وعن عبادته، وليس له علاقة بالملائكة لأنهم مفطورون على العبادة، وذكر بعضُ أهل العلم أن المقصود بالناس هنا الناسي، ويدخل فيه الجن(١)، وهل يُوسوس الشيطان للجن كما يُوسوس للناس؟! **الجواب:** نعم، لأن الجن والإنس هم الثقلان وهما المكلفون بالعبادة، والشيطان يُريد أن يعمل على إبعادهم عن عبادة الله، وقد وصف الله الجن بقوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن:١١]، فهناك جنٌّ صالحون يذكرون الله ويعبدونه والشيطان يهرب منهم، وهناك جنٌّ عُصاة والشيطان يُعشش في قلوبهم ويُوسوس لهم ويجعلهم يفعلون المعصية، كما يفعل مع الإنس، مع أن الشيطان من أفراد الجن، إلا أنه شطن وبعد عن الخير، ومن كثرة شره صار صنفًا ثالثًا، **وقيل أن المعنى:** أستعيذ بالله

(١) ينظر: تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٣٢/ ٣٧٨).

من شر وسواس الجن الذي هو الشيطان، وشر وسواس الإنس الذين هم شياطين الإنس[1]، **كما قال:** ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾[الأنعام:١١٢]، وشيطان الجن أضعف من شيطان الإنس، فشياطين الإنس اليوم أكثرُ ضررًا من شياطين الجن، لأنك إذا قلت: أعوذ بالله من الشيطان؛ هرب، أما شياطين الإنس فيُلصص بجوارك، فلا يذهب، ومنهم جار السوء، وصديق السوء، وزميل السوء، ورفيق السوء، فهؤلاء كلهم من شياطين الإنس، وخطورتُهم تكمن في أنهم رُفقة معك، ومن جنسك، ويتكلمون معك، وتراهم وتجلس معهم، بخلاف إبليس وجنده فإنك لا تراهم، **كما قال:** ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾[الأعراف:٢٧]، والسر في إخفاء إبليس حتى نحتقره ونستصغر شأنه، ولا نتنبه له، ووصف كيده بالضعف، **كما قال:** ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾[النساء:٧٦]، فعدم رؤيتك له دليل على احتقارك له، لكن يقع في حباله ويتخيله؛ ويخاف منه، **كما قال الله:** ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ﴾[آل عمران:١٧٥]، **أي:** يُخوفكم بأوليائه، والمقصد أن نستعيذ بالله تعالى، برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس سواءً كان من شيطان الإنس، أو كان من شيطان الجن؛ ولذا خُتم القرآن الكريم بهاتين السورتين العظيمتين ليكون المعنى: هذا كتابُ الله، لن تستطيعوا أن تفهموه وتتدبروه إلا باستعاذتكم بالله، فاستعيذوا بالله لحماية دينكم وحماية دنياكم.

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥٤٠).

فوائد وهدايات من السورة:

١ - أن الاستعاذة والالتجاء إلى الله تعالى يجب أن يكون على سبيل الاستمرار، فإن الإنسان إن تخلّف عن ذلك؛ وُكل إلى نفسه، ومن وُكل إلى نفسه هلك.

٢ - أن الوسواس: خاطرٌ خفيّ في النفس يذهب ويعود، ويكثر الوسواس في الأنفس التي تكون غافلة عن الله.

٣- أن القلب الميت مأوى الشيطان، فالشياطين تسكن الأماكن الخَرِبة، والوسخة، مثل الحمامات، والأماكن النجسة، فلا تجعل قلبَك نجسًا، فيكون مأوى للشيطان، بل طهّر قلبَك من كل النجاسات.

٤ - أن شيطان الجن أضعف من شيطان الإنس، فشياطين الإنس اليوم أكثرُ ضررًا من شياطين الجن، لتنوع أساليب إفسادهم للخلق، فالحذر منهم واجب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المحتويات

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي تبارك وعمّ

تأليف

أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة
أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

